

دراسة حاضرة الخلافة

في الأندلس

أحمد محمد عيسى

تأليف

الدكتور السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامي والعصر الإسلامي

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى: ١٩٩٧

١٩٩٧

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

د. س. الدكتور مصطفى مشرفة

١٩٩٧ - ١٤١٩ هـ - الإسكندرية



0196472

Elhif/ees.alexandria

قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس

(دراسة تاريخية، عمرانية أثرية في العصر الإسلامي)

تأليف

الدكتور / السيد عبد العزيز سالم
استاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

المجلد الأول

١٩٩٧

الناشر مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة
ت : ٤٨٣٩٤٧٢ اسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يستثير اسم قرطبة في نفس كل عربي مشاعر عديدة من الاعتزاز المقرون بالاسى ، ويجيش صدره بهذه المشاعر المضطربة حين تشهد عيناه صوراً من آثار المجد الدارس بأرض هذه المدينة العريقة التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ الحضارة الإسلامية ، فإن مدينة قرطبة من المدن القلائل التي ارتفعت الى مصاف الحواضر العظمى في العالم في العصور الوسطى ، فقد كسبت في القرن العاشر الميلادي شهرة لا تقل كثيراً عن شهرة بغداد حاضرة خلفاء بني العباس أو القسطنطينية العظمى مقر أباطرة بيزنطة ، ولا تتجاوز الصواب اذا ذكرنا أنها كانت من بين المدن الإسلامية الكبرى التي أثرت تأثيراً عميقاً في التاريخ السياسي والحضاري للإسلام في المشرق والمغرب ، اذ كانت حاضرة الاندلس زهاء ثلاثة قرون وربع قرن من الزمان ، لعبت خلالها بأوتار السيادة في اسبانيا الإسلامية والمسيحية على السواء ، كما تحكمت الى حد ما في المصائر السياسية للامارات والدول التي كانت قائمة في المغرب وعلى الاخص الدولة الفاطمية وامارة الادارسة .

وفي المجال الحضاري تألقت قرطبة في عصر الخلافة الاموية بالاندلس تألقاً لم تشهده حاضرة اسلامية في العصور الوسطى باستثناء القاهرة وبغداد ، وأصبحت بحق مهد الحياة الرفيعة ، وكعبة الفلاسفة والشعراء ومركز الفنون ، ووطن الادباء ، ومنار العلوم ، وشمس الحضارة ، وبلغت من العمران والتصوير في هذا العصر الغاية ، واتسعت رقعتها بما انضم اليها من الارياض والظواهر حتى أصبحت عند انتهائها في التوسع والعمارة تتألف من واحد وعشرين ربضاً تتوزع حول قصبتها ، ويدور بها وبأرباضها في أيام

الفئة سور شامل (١) حفر وراءه خندق لم تشهد له قرطبة نظيرا في عصورها السابقة (٢) . وعلى هذا النحو يمكننا القول بأنه اذا كانت بغداد قد لعبت دور القلب من العالم الاسلامي في الشرق حتى سنة ٦٥٦ هـ ، فان قرطبة كانت الرأس المهيمن على العالم الاسلامي في الغرب ، على الاقل حتى سنة ٤٠٣ هـ .

ومدينة قرطبة لم تعد مدينة اسلامية منذ أن دخلت في فلك مسلكة قشتالة في سنة ٦٣٣ هـ ، ولكنها على الرغم من ذلك لم تفقد طابعها الخلافي الذي اتسمت به في عصرها الاسلامي ، وما زالت قرطبة تحتفظ بتراث هائل من ماضيها الاسلامي المجيد الذي عجزت معاول العvisية الدينية وحوادث الازمان أن تنتزع جذوره العميقة من أرضها الطيبة . ومن المعروف أن آثار الاسلام في قرطبة واضحة كل الوضوح في سائر مناحي حياتها ، وهو أمر يتوق القارئ العربي المعاصر الى معرفته وتحصيله ، لأن ما كتب حتى اليوم عن قرطبة لا يفي قط بما تستحقه هذه المدينة العريقة من دراسات طويلة تزيل عنها ما طمرها من تراب النسيان الذي تراكم على مر العصور على روائع آثارها فأغفلها العرب في عصور محنتهم . وعلى الرغم من البحوث العديدة التي أفردتها علماء الآثار الفرنسيون والاسبان لآثارها وعلى الاخص جامعها الاعظم ، فما زالت هناك مشكلات شائكة تتعلق أكثرها بتأريخ بناء هذا الجامع لم يتوصل العلماء بعد الى حلها ، وما زالت تحتاج الى المزيد من الجهود للوصول الى حلول نهائية لها ، كما أن المكتبة العربية تحتاج حقا الى دراسة شاملة مستوفاة عن قرطبة بتاريخها الاسلامي المجيد والمعالم البارزة لحضارتها في عصرها الذهبي . وقد دفعني هذا النقص فيما دونه الباحثون العرب عن قرطبة الاسلامية الى اختيارها

(١) المقري ، نفح الطيب ، تحقيق الاساذ محيى الدين عبد الحميد ،

ج ٢ ص ١٤ .

(٢) ابن غالب ، قطعة من فرحة الانفس ، تحقيق الدكتور احمد لطفي

عبد البديع ، ص ٢٧ .

موضوعا لهذه الدراسة التاريخية الحضارية لمجموعة مختارة من مدن
الاسلام قمت بدراستها منذ عشر سنوات وأهمها : المرية ومرسية وطليلة
وفاس في المغرب والاندلس ، وطرابلس الشام وصيدا والاسكندرية في
المشرق الاسلامي .

أرجو أن أكون قد وفقت في اجلاء صورة قرطبة الاسلامية للقارئ
العربي حتى يتهيا له من خلالها الاطلاع على صفحة مجيدة من تاريخ أمتنا
العربية يعتز بها ويستمد منها مثله ، والله ولي التوفيق .

السيد عبد العزيز سالم

القسم الاول

التاريخ الاسلامي لمدينة قرطبة

- الفصل الاول : قرطبة من الفتح الاسلامي حتى قيام دولة بني امية
- الفصل الثاني : قرطبة في عصرها الذهبي : عصر دولة بني أمية
- الفصل الثالث : سقوط الخلافة الاموية واثره في اضمحلال قرطبة
- الفصل الرابع : عصر التخلف : من قيام دولة بني جهور حتى سقوط قرطبة في ايدي القشتاليين

الفصل الأول

قرطبة من الفتح الاسلامي حتى قيام دولة بني امية

(١) الفتح الاسلامي

- أ - قرطبة قبل الفتح
- ب - سقوط قرطبة في أيدي المسلمين
- ج - تحصن القوط في كنيسة شنت أجلع خارج الاسوار

(٢) تاريخ قرطبة في عصر الولاة

- أ - قرطبة حاضرة الاندلس
- ب - منشآت الولاة في قرطبة
- ج - موجة الشاميين
- د - قرطبة مركز الصراع بين اليمانية والمضرية

الفصل الاول

قرطبة من الفتح الاسلامي حتى قيام دولة بني امية

(١)

الفتح الاسلامي

١ - قرطبة قبل الفتح :

تقع مدينة قرطبة على سهل مرتفع في سفح جبل قرطبة^(١) المعروف عند مؤرخي العرب بجبل العروس^(٢) ، ويؤلف هذا الجبل احدى سلاسل جبال سيرا مورينا ، وكان يمتد شمالي قرطبة ، ويفرس بالكروم والزيتون وسائر الاشجار وأنواع الازهار^(٣) ، ويتراوح ارتفاع قرطبة ما بين ١٠٠ متر و ١٢٣ مترا فوق مستوى سطح البحر^(٤) . أما من جهة الجنوب فقرطبة موفية على الضفة اليمنى من نهر الوادي الكبير الذي ينحني مجراه

(١) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٠٠ ، ١٠١ - ابن غالب ، قطعة من فرجة الانس ، ص ٣٨ .

Rafael Castejon, Guia de Cordoba, Madrid, 1930, P. 12 — Castejon, Cordoba Califal, en : Boletin de la Real Academia de Ciencias, Bellas Letras y Nobles artes de Cordoba, ano VIII, No. 25, 1929, P. 257.

(٢) الادريسي ، وصف المغرب والاندلس من كتاب نزهة المشتاق ، نشره دوزي ودي غوية ، لندن ، ١٨٦٦ ، ص ٢٠٨ - ابن غالب ، ص ٢٦ - الحميري ، صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، نشره ليفي برونفيسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ٥٣ - المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٦٥ .

(٣) ابن غالب ، ص ٢٧ - المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٦٥ .

(٤) R. Castejon, Cordoba Califal, P. 257 — R. Castejon, Guia de Cordoba, P. 12.

انحناءة طفيفة نحو الغرب مؤلفا أهم طريق طبيعي في اسبانيا الجنوبية^(١) ، ومن الغريب أن هذا النهر هو الوحيد في الاندلس الذي سمي باسم عربي^(٢) في عصر الولاة ، وكان يسمى قبل الفتح بنهر بيطي ، وينبع هذا النهر من جبل شقورة ، ثم يتفرع فرعين : أحدهما يسمى النهر الايض يتجه الى مرسية شرقا ، والفرع الآخر يمر بإستجة وقرطبة وإشبيلية غربا ، ويصب في المحيط الاطلسي^(٣) ، ومن روافده نهر شنيل الذي ينبع من جبال إلبيرة وعليه تقع مدينة إستجة ، ونهر بيلينش^(٤) الذي يصب في شنيل ، والرافد الثاني نهر وادي شوش Guadaljoz الذي ينبع من جبل باغة ، والثالث الوادي الاحمر Guadalimar ، والرابع وادي بلون Guadalbullon وروافد أخرى .

وتحتل مدينة قرطبة فحفا خصبا ينتج الغلال ، وتمتد بجواره مناطق جبلية غنية بالمراعي والكروم وأشجار الزيتون . وتعتبر قرطبة من أكثر المناطق الزراعية إنتاجا في اسبانيا وخاصة في سهل الكنبانية^(٥) ، وهي أراض سهلة تمتد الى جنوب المدينة ، اختصت بزراعة الزيتون الذي تغطي مزارعه مساحة تصل الى ٢٣٦ ألف هكتار ، وعليه تقوم صناعة استخراج الزيوت وصناعة الصابون^(٦) .

وقرطبة مدينة قديمة البناء « أزلية من بنيان الاوائل »^(٧) ، لا نعرف على وجه التحقيق المدى التاريخي لجذورها القديمة ، وأغلب الظن أنها

(١) Lévi-Provençal, L'Espagne musulmane au Xe siècle, Paris, 1932, P. 199.

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٦ . هناك انهار أخرى صغيرة عرفت فيما بعد بأسماء عربية مثل وادي الايبار .

(٣) الادريسي ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ - المقرئ ، ج ٢ ص ٢٥ .

(٤) Lévi-Provençal, La description de l'Espagne de Razi, al-Andalus, Vol. XVIII, P. 101.

(٥) Castejon, Cordoba Califal, P. 257

(٦) Castejon, Guia de Cordoba, P. 12

(٧) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٨ .

أيبيرية الاصل استنادا على عدد من التماثيل البرنزية الصغيرة ذات الطابع
الايبيري التي أسفر عنها البحث الاثري في بقعتها^(١) ، زد على ذلك أن
الباحثين أثبتوا أن الاسم القديم لمدينة قرطبة هو Corduba ، وهو اسم
أيبيري الاصل يتشابه مع غيره من أسماء مدن أخرى أيبيرية مثل Salduba وهو
الاسم القديم الذي كانت تعرف به مدينة سرقسطة الرومانية Caesar Augusta
قبل أن يعيد أغسطس قيصر بناءها في سنة ٢٣ ق.م^(٢) .

وقد ورد اسم قرطبة لأول مرة في التاريخ الاسباني في الحرب البونوية
الثانية إبان الصراع بين رومة وقرطاجنة ، اذ ساهم القرطيون في حملة
هانيبال على رومة^(٣) ، ثم دخلت قرطبة في سنة ٢٠٦ ق.م في فلك
الامبراطورية الرومانية ، وأصبحت بعد ذلك بثلاثين عاما ، أي في عام ١٦٩
ق.م عاصمة لاقليم اسبانيا السفلى Hispania Ulterior^(٤) . وازدهرت
قرطبة في عصر الحاكم الروماني ماركوس كلوديوس مارسيلوس الذي وسع
رقعتها ، وجعلها بالابنية الرائعة ، وزودها بأسوار منيعة على نحو ما كان
متبعاً في نظم العمارة الحربية الرومانية^(٥) . وكان لتلك الاعمال العمرانية
أثر كبير في اجتذاب عدد من الاسرات الرومانية النبيلة الى قرطبة لاستيطانها ،
ولهذا السبب ارتفعت الى مصاف المستعمرات الرومانية Colonia Patricia
وفي عام ٨٩ ق.م انحاز ماركوس تيرنسيوس فارون حاكم باطقة الى
صفوف بومبي ضد يوليوس قيصر ، غير أن مارسيلوس قائد يوليوس
قيصر استطاع أن يستولي على قرطبة عاصمة باطقة بعد موقعة موندرا التي
حدثت بالقرب من قرطبة فيما بين شهري مارس وابريل سنة ٤٥ ق.م
ويقضي قضاء مبرما على ثورتها ، ثم دخلها يوليوس قيصر وأقام فيها .

Castejon, Guia de Cordoba, P. 13 (١)

Abbad Rios, Zaragoza, Barcelona, 1952, P. 5 (٢)

Castejon, Guia, P. 13 (٣)

Ibid. (٤)

Ibid. (٥)

وفي عصر أغسطس قيصر انقسمت اسبانيا الجنوبية الى اقليمين :
باطقة في الشرق ولشداية في الغرب ، واتخذت قرطبة قاعدة لاقليم باطقة^(١) ،
وما لبثت أن أصبحت بعد أمد وجيز أحد مراكز قضائية أربعة في اسبانيا
الجنوبية هي : قادس وإشبيلية واستجة وقرطبة^(٢) . ويشير المقرئ نقلا عن
ابن حيان والرازي والحجاري الى أن « اكتبان (اكنافوس) ثاني قياصرة
الروم الذي ملك أكثر الدنيا ... أمر ببناء المدن العظيمة بالاندلس ، فبنيت
في مدته قرطبة وإشبيلية وماردة وسرقسطة »^(٣) . ويشير المقرئ في هذا
النص الى أغسطس قيصر الذي مصر قرطبة وجعلها جديرة بأن تكون
حاضرة لاقليم باطقة .

وتألفت قرطبة في العصر الروماني ، واتسعت قاعدتها ، وازدهر
عمرانها ، ويذكر سافدرا أنها كانت تتألف من جانبين يفصل بينهما سور
حاجز أقامه الرومان لفصل الاهالي الذين يسكنون الجانب الشرقي عن
الجانب الغربي الذي يشتمل على المؤسسات الحكومية مثل قصر الوالي
وثكنات الجند ، وهذا القسم الغربي هو ما عرف في العصر الاسلامي
بالمدينة^(٤) .

وفي عصر انتشار المسيحية في اسبانيا في القرن الثالث الميلادي
استشهد من أبناء قرطبة صاحبها اللذان تبرك بهما المدينة وهما القديس
أنيكلو والقديسة فكتوريا^(٥) . ثم كانت الغزوات الجرمانية المدمرة التي

Albert Calvert & Walter Gallichan, Cordova : a city of (١)
the moors, London, 1907, P. 13.

J. Guichot, Historia General de Andalucia, t. I, Madrid, (٢)
1869, P. 166 — Lévi-Provençal, L'Espagne musulmane au Xe
siècle, P. 201.

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٢٦ .

E. Saavedra, Estudio sobre la invasion de los Arabes en (٤)
Espana, Madrid, 1892, P. 83.

Castejon, Guia de Cordoba, P. 13 (٥)

تدفقت على إبارية منذ عام ٤٠٩ م ، فقد اجتاحتها جحافل اللان بقيادة ملكهم هرماريك ، والوندال بقيادة ملكهم جندريك ، وكانت هذه العناصر الأخيرة أكثر العناصر الجرمانية وحشية وأشدّها ميلا الى التخريب والتدمير^(١) . وانقسمت العناصر الجرمانية الغازية اسبانيا فيما بينها في سنة ٤١١ م ، فاستقر السواف وقسم من الوندال في الاطراف الشمالية الغربية أي في جليقية وأشتوريث ، أما اللان فقد أقاموا في لشداية ، وأقام القسم الاعظم من الوندال في اقليم باطقة وجانب من شرق الاندلس . ثم دخل القوط الغربيون بقيادة أطاوولف (٤١١ - ٤١٥ م) اسبانيا واقتزعوا برشلونة من الوندال في سنة ٤١٤ م ، واتخذوها قاعدة لهم . وبينما كان القوط الغربيون في عهد واليا وخليفته تيودوريد ينساحون في قلب اسبانيا ، كان الوندال يرتدون الى الجنوب ، ويأتون أثناء ارتدادهم على معالم الحضارة الرومانية ، وينثرون بذور الدمار في كل عمران باطقة ، وأصبح الساحل الجنوبي الغربي من شبه جزيرة أيبيريا (إبارية) خاضعا لهم ، ونجحوا بفضل أسطولهم البحري في فرض سيادتهم على الجانب الغربي من البحر المتوسط ، وما لبثوا أن استولوا على جزر البليار ، وأخذت سفنهم تغير منذ سنة ٤٢٥ بصفة دائمة على سواحل مورطانية الطنجية تمهيدا للاستيلاء على المغرب^(٢) . واضطر الوندال أخيرا في عهد ملكهم جنصرىك (٤٢٨ - ٤٧٧ م) إزاء ضغط القوط الغربيين عليهم من الشمال الى العبور الى أرض المغرب في ٤٢٩ بعد أن تركوا اقليم باطقة أثرا بعد عين ، وخرّبوا فيسه مدائنه الكبار أمثال هسباليس (إشبيلية) ، وكركثا جونوفا (قرطاجنة الاندلس) وجادس (قادس) وكردوبا (قرطبة)^(٣) ،

(١) إبراهيم على طرخان ، دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٨٦ - السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ، الاسكندرية ١٩٦٦ ، ص ٣ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٦ .

(٣) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٤ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ٥٤ .

وتبع ذلك اختفاء اسم بأطقة ، وحلول اسم فندالوسيا محله نسبة الى قبائل الوندال المخربة^(١) . ثم استعان أتاناخيلدو أحد زعماء القوط الغربيين في عهد الملك القوطي أخيلا (٥٤٩ - ٥٥٥) بالامبراطور البيزنطي جستنيان لضم القسم الجنوبي الشرقي من الاندلس ، وبفضل حلفائه البيزنطيين تمكن أتاناخيلدو من الارتقاء على العرش ، ولكنه دفع ثمن ذلك غاليا ، اذ ترك للبيزنطيين اقليم بأطقة بمدنه الكبار أمثال مالقة وإشبيلية وقرطبة والبيرة وقرطاجنة ، وعندئذ فكر أتاناخيلدو في نقل عاصمة القوط الغربيين من إشبيلية الى طليطلة قاعدة اقليم كارتانيا لأهميتها الجغرافية والاستراتيجية . أما قرطبة فظلت خاضعة للبيزنطيين الى أن نجح ليو فيخلدو في الاستيلاء عليها في سنة ٥٦٨ ، وجعلها مركزا أسقفيا^(٢) . ثم أخذت قرطبة تفقد من أهميتها شيئا فشيئا أمام طليطلة التي أصبحت مستقر ملوك القوط « المدينة الملكية » (La Ciudad Regia)^(٣) ، ومقر المجلس الكنسي القوطي .

ب - سقوط قرطبة في أيدي المسلمين :

ما ان انتصر طارق بن زياد وجيشه على جيوش القوط بقيادة لذريق في وادي لكّة في ٦ شوال سنة ٩٢ هـ (٢٥ يوليو ٧١١ م) حتى زحف على مدينة شذونة فافتتحها عنوة ، ثم مضى الى مدور ، وعطف بعد ذلك على قرمونة فمر بعينه المنسوبة اليه ، ثم انحرف الى إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية وكان هدفه التالي مدينة استجة الواقعة بالقرب من قرطبة على وادي شنيل أحد روافد الوادي الكبير ، وكانت استجة تؤلف مركز المقاومة

(١) أخبار مجموعة في تاريخ الاندلس ، نشره دون لا فونتي القنطرة ، مدريد ١٨٦٧ ص ٩ - المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢) R. Ramirez de Arellano, Historia de Cordoba, t. I, Ciudad Real, 1915, P. 184.

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، ما لا يعرفه المسلمون عن حواضر الاندلس : طليطلة ، مجلة الفكر الاسلامي ، السنة الأولى عدد ٥ ، ١٩٧٠ ص ٤١ .

الاول للقوط ، ففيها احتشدت فلول القوط بعد هزيمتهم في وادي لكّة (١) ، وهناك اشتبك القوط مع قوات المسلمين في قتال عنيف ، أصيب فيه المسلمون بخسائر فادحة في الارواح (٢) ، ومع ذلك فقد انجلت الواقعة عن هزيمة. فكراء مني بها القوط ، فتراجعوا الى مدينتهم ، وتحصنوا بداخلها ، ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حربا مثلها (٣) ، ثم أطبق طارق على المدينة من كل جانب ، وظل يحاصرها حتى ظفر بملكها وقد خرج وحده الى النهر لقضاء بعض حاجته ، فصالحه طارق على ما أحب ، ودخل المسلمون استجابة صلحا .

وكان من الطبيعي أن يتقدم طارق بعد ذلك لافتتاح مدينة قرطبة قاعدة جنوب الاندلس ، ولكن الظروف أملت عليه المبادرة بالزحف نحو طليطلة عاصمة القوط ، حتى يتهاى له الاستيلاء عليها قبل أن يتدارك القوط الامر ويحكموا الدفاع عنها ، فيصعب على طارق التغلب عليها بعد ذلك (٤) . ومع ذلك فقد حرص طارق بن زياد على أن يتم فتح قرطبة قبل أن يفتتح طليطلة ، فولي مغيثا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك على فرقة من

(١) اخبار مجموعة ، ص ٩ - المقرئ (نقلا عن الرازي) ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢) يذكر صاحب اخبار مجموعة ان القوط قاتلوا طارق قتالا شديدا ، « حتى كثر القتل والجراح في المسلمين » (اخبار مجموعة ، ص ٦ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٣) .

(٣) اخبار مجموعة ، ص ٩ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٤ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٨٢ .

ويذكر الرازي ان فلول القوط تطايروا عن السهول الى المعقل ، وان ذوي القوة منهم صعدوا الى دار مملكتهم طليطلة (المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٤) . وفي موضع آخر يذكر ان بليان صاحب مدينة سبتة نصبح طارق بالسير نحو طليطلة مع معظم جيشه ، فيشغل القوم هناك عن النظر في امرهم والاجتماع الى اولي رايهم (نفس المصدر) .

الفرسان^(١) قوامها سبعمائة فارس^(٢) ، وهو عدد قليل لا يمكن أن يقصد طارق من ورائه أن يدخل مغيث في معركة مكشوفة مع أهل المدينة ، ولذلك فالتنا نرجح أن خطة مغيث الرومي كانت ترمي الى اصطناع الدهاء المقرون بعامل المفاجأة في اقتحام المدينة ، وهو أمر جرى عليه المسلمون في فتوحاتهم لعدد من المدن المغربية مثل طرابلس وصبرة وسوسة وغيرها . وتدل الاحداث التالية على صحة ما ذهبنا اليه ، فقد سار مغيث على رأس فرقته حتى اقترب من قرطبة ، فكمن بقرية شقندة في غيضة أرز شامخة تقع بين قرية شقندة وقرية طرسيل^(٣) ، وحرص على كتمان وجوده عن أهل قرطبة حتى يتهيأ له ولفرقته مباغته المدينة في وقت لا تتوقع فيه حاميتها هجوما من جانب المسلمين خاصة وقد بلغهم سير طارق بمعظم قواته نحو الشمال . ولذلك نرى مغيثا يبعث نفرا من أدلائه للاستطلاع أو لمجرد البحث عن ثغرة ما في سور المدينة تتيج للمسلمين النفاذ الى داخل المدينة ومفاجأة حاميتها بالقتال . ويبدو أن هؤلاء الادلاء لم يوفقوا في مهمتهم ، فليس من السهل الكشف عن ثغرة في سور المدينة الذي يحيط بها من كل جانب دون أن يقترب هؤلاء الادلاء من السور ويدرسوه عن كثب ، وهذا كفيلا في حد ذاته بلفت أنظار المدافعين عنها ، مما يترتب عليه إقتضاح أمر مغيث وفرسانه الكامنين في الغيضة ، وقد ينتهي الامر بقتلهم جميعا .

ولكن هؤلاء الادلاء الذين سيرهم مغيث لهذه المهمة نجحوا في أسر

(١) وقيل أن طارق هو الذي زحف بنفسه الى قرطبة (المقري ، ج ١ ص ٢٤٤) ولكن هذا القول لا يستند على أي اساس من الصحة لأن فتح قرطبة نسب الى مغيث الرومي ، بل أن بلاط قرطبة وقصرها الروماني القديم عرف بعد الفتح باسم بلاط مغيث نسبة اليه وهو دليل يؤكد قيام مغيث بمهمة فتحها .

(٢) كان المسلمون قد غنموا خيل القوط فركبوها ولم يبق فيهم راجل واحد (أخبار مجموعة ص ١٠ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٤ - المقري ج ١ ص ٢٤٤) .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٠ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٤ . وأشار سافدرا الى أن طرسيل هي Tercios (Saavedra, op. cit. P. 81)

راعي غنم من أهل قرطبة فأمسكوا به واقتادوه هو وغنمه^(١) الى الغيضة التي يكمن فيها مغيث ، فسأله عن قرطبة وأحوال أهلها والقائمين بالدفاع عنها ، فأجابه بأنه قد رحل عنها عظماء أهلها الى طليطلة وأبقوا فيها بطريقا في أربع مائة من حماتهم مع ضعفاء أهلها ، ثم سأله عن حصانة سورها ، فأجابه بأنه سور حصين ، الا أن فيه ثغرة تطلو باب الصورة وهو الباب المعروف بباب القنطرة ، ووصف له الثغرة^(٢) . وأقام مغيث في مكمنه بالغيضة بقية النهار ، فلما غابت الشمس وأرخى الليل سدوله ، اتخذ من ظلام الليل ستارا له ولجنوده ليفاجيء حامية المدينة ، وتحرك من الغيضة الى قبالة باب القنطرة وهياً الله لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء برداذا أخفى دققة حوافر الخيل ، كما أن حراس هذا الباب أغفلوا حراسته تلك الليلة لشدة البرد مع تساقط الرذاذ^(٣) . وكانت القنطرة التي تصل مدينة قرطبة بشقنذة مهدمة^(٤) ، واقتضى الامر عبور الوادي سباحة ، فترجل فرسان المسلمين وعبروا النهر ، فلما توافوا على الضفة اليمنى من النهر تجمعوا في الفضاء الواقع بين النهر والسور وكان اتساع هذا الفضاء لا يزيد على ثلاثين ذراعا ، وحاولوا تسلق السور ، فلم يجدوا متعلقا ، فتعذر عليهم تسلقه ، فأخذوا يدورون حوله بحثا عن الثغرة التي وصفها لهم راعي

(١) كان من الممكن ان يسألوا راعي الغنم عن مواضع الضعف في البور فيجيبهم الى ذلك وتنتهي مشكلة البحث عن الثغرة التي يمكنهم ان ينفذوا الى داخل المدينة منها ، ولكنهم خافوا ان يتركوا الراعي وشأنه ، فيمضي الى قومه ويخبرهم بخبر المسلمين وعندئذ يفتضح أمرهم ، فحرصوا على حمله معهم هو وغنمه أيضا وهذا يؤكد رأينا السابق في ان خطة مغيث كانت تهدف الى دخول المدينة اثناء الليل عن طريق المباغطة ، فالراعي لا يرعى غنمه الا اثناء النهار ، واختفاء مغيث في الغيضة يعني حرصه الشديد على الاختفاء عن انظار العابرين من الرعاة أو ذوي المصالح من أهل هذه النواحي انتظارا لحلول الظلام واقتنامه الليل للتسلل الى داخل المدينة .

(٢) أخبار مجموعة ، ص ١٠ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٤ — المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١١ — المقرئ ، نفع الطيب ص ٢٤٥ .

(٤) نفسه ، ص ١١ .

الغنم ، وأتوا به ليدلهم على مكانه ، فدلهم عليها ، فاذا بها مجرد حفرة غير عميقة^(١) ، غير سهلة التشنم^(٢) ، ولكن وقوعها بجوار بعض فروع لشجرة من أشجار التين مكن أحد أشداء المسلمين من التعلق بها والصعود الى أعلى السور . وكان مغيث قد نزع عمامته وناولها طرفها ، وبفضلها أعان هذا الرجل قرا من المسلمين على ارتقاء السور ، وأعان بعض الناس بعضا حتى كثروا على السور ، كل ذلك والحامية في غفلة مما يجري ، وقد ألهمتهم الرغبة في طلب الدفء عن مراقبة السور . وركب مغيث فرسه ووقف ازاء باب القنطرة وتأهب لدخول المدينة بعد أن أمر رجاله بالهجوم على حراس الباب المذكور ، ففعلوا وقتلوا قرا منهم ، وكسروا أغلاق الباب وفتحوه ، فدخل مغيث ومن معه واستولوا على المدينة عنوة^(٣) .

وعلى هذا النحو نجحت خطة مغيث في مفاجأة حراس الباب نجاحا تجاوز كل تقدير في الحساب ، ودخل مغيث بمن معه من أصحابه وعيونه وأدلائه ، وصعد الى البلاط وهو قصر حاكم قرطبة الذي ما كاد يبلغه نبأ دخول المسلمين قرطبة حتى خرج في كفاة أصحابه وهم نحو الاربعمائة^(٤) في قول والخمسمائة في قول آخر^(٥) « من باب المدينة الغربي يقال له باب إشبيلية ، فتحصن بكنيسة في غربي المدينة حصينة ذات بنيان وتقانة هي شنت أجلع فدخلها »^(٦) .

غير أن الاستاذ مانويل أوكانيا خيمنث يشك في صحة ما جاء في الروايات العربية الخاصة بفتح قرطبة ، ويذكر أن قرطبة عندما فتحها

(١) يذكر صاحب « أخبار مجموعة » أنها « ثغرة ليست مستأصلة » (أخبار مجموعة ص ١١) .

(٢) المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ١١ - ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ١٤ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ١٥ .

(٥) أخبار مجموعة ، ص ١٢ .

(٦) نفس المصدر - فتح الاندلس لمؤلف مجهول ، نشره دون خواكين جنثالث ، الجزائر ، ١٨٨٩ ص ٩ ، ١٠ .

المسلمون كانت في أشد حالات السوء ، فقنطرتها كانت مهدمة ، وسورها الغربي قد تثلّم في بعض أجزائه^(١) ، ويعتمد الاستاذ خيمث فيما ذهب اليه على نص أورده صاحب أخبار مجموعة ، جاء فيه أن السّمع بن مالك الخولاني الذي ولي الاندلس في سنة ١٠٠ هـ كتب الى الخليفة عمر بن عبد العزيز في العام التالي « يستشيريه ويعلمه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة ، فان أمرني أمير المؤمنين ببناء سور المدينة فعلت ، فان قبلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند وثقات الجهاد ، وان أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم »^(٢) . كذلك يستند السيد خيمث على نص آخر أورده ابن عذارى في البيان جاء فيه : « وكان المسلمون اذ فتحوا قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها على حنايا وثاق الاركان من تأسيس الامم الدائرة ، قد هدمها مدود النهر على مر الازمان ، فتقدم الى فضيلة النظر فيها عمر بن عبد العزيز عندما اتصل به خبرها ، فأمر السّمع بابتنائها ، فصنعت على أتم وأعظم ما بني عليه جسر من حجارة سور المدينة »^(٣) . وعلى أساس هذين النصين يعتقد الاستاذ خيمث أن مغيث الرومي وأصحابه اقتحموا المدينة من سورها الغربي الذي

(١) Ocana Jimenez, La basilica de San Vicente y la gran mezquita de Cordoba, al-Andalus, 1942, PP. 347-366.

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٢٤ .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤ . ونضيف الى النص السابق نصا لابن عذارى أكد فيه أن قنطرة قرطبة كانت مهدومة في الوقت الذي صعد فيه رجال مغيث سور قرطبة (ابن عذارى ، ص ١١) ، كما نضيف نصا أورده المقرئ نقلا عن ابن حيان ذكر فيه أن هذه القنطرة اثرت فيها الازمان بمكابدة المدود حتى سقطت حناياها ومحيط أعاليها وبقيت أرجلها وأسافلها ، وعليها بني السّمع في سنة احدى ومائة (المقرئ ، ج ٢ ص ٢٦) وبالإضافة الى هذين النصين هناك نص ثالث ورد في الرسالة الشريفة في الاقطار الاندلسية جاء فيه أن السّمع خاطب الخليفة عمر بن عبد العزيز يستأذنه في بناء القنطرة من صخر السور ، فوافق الخليفة على ذلك وأمره بأن تبنى القنطرة من صخر السور ويجبر ما تثلّم منه باللبن (ابن القوطية ، ص ٢٠٧) .

كان مهتما في ذلك الحين ، أي من جهة الربض الذي عرف فيما بعد بربض بلاط مغيث الواقع غربي المدينة^(١) ، وفقا لما ذكره ابن بشكوال^(٢) ، وليس فوق باب الجزيرة كما يقول صاحب أخبار مجموعة « وهو باب القنطرة مقابل الثلبة التي دخل منها أصحابه حين افتتح قرطبة »^(٣) ، وفي ذلك يقول الأستاذ خيمينث : « اذا سلمنا بأن الجانب الغربي من أسوار قرطبة كان مهتما كذلك ، في ذلك الوقت ، وأن مغيثا دخل المدينة من هذا الموضع الضعيف ، فإن ربض بلاط مغيث كان لا بد قائما غربي المدينة وليس فوق باب الجزيرة أو باب القنطرة على حد قول صاحب أخبار مجموعة » . ولا يختلف مع الأستاذ خيمينث في أن سور المدينة الغربي كانت تتخلله ثلمات ، ولكنني لا أعتقد أن ربض بلاط مغيث كان يقع بالضرورة في الجانب الغربي من قرطبة ، ذلك لأن هذا الربض لم يعرف بهذا الاسم الا لأن الدار التي اعتاضها له موسى بن نصير بعد ققوله من شمال الاندلس في أعقاب الفتح بدلا من البلاط الذي نزله مغيث منذ أن افتتح قرطبة ، كانت تقع في الجانب الغربي ، وليس لأن مغيثا اقتحم المدينة من هذا الجانب الغربي . وعلى هذا الاساس فاتي أشك في دخول المسلمين مدينة قرطبة من جهة السور الغربي ، ولا أستبعد دخولهم من الباب الجنوبي المواجه لربض شقندة على الرغم من أن قصة استعانة المسلمين براعي الغنم تبدو الى حد كبير خيالية : فليس من المنطقي أن يدخل المسلمون من الجانب الغربي للسور ، فيخرج القوط المدافعون عن المدينة من هذا الجانب أيضا ليتحصنوا في كنيسة تقع خارج باب العطارين^(٤) . ثم ان البلاط أو القصر الذي صعد اليه مغيث بعد دخوله المدينة من باب القنطرة كان يقع غربي المدينة ، وكان متصلا « بسورها

(١) Ocana Jimenez, op. cit., P. 363

(٢) ذكر ابن بشكوال أن « ربض بلاط مغيث كان يقع غربي المدينة » (المقري ج ٢ ص ١٣ - ابن الخطيب ، كتاب أعمال الاعلام ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦ ص ١٠٣) .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٢١ .

(٤) فتح الاندلس ، ص ٩ .

القبلي والغربي»^(١) بحيث أمكن لحاكم المدينة ورجاله المدافعين عنها الخروج من أحد أبوابه الغربية فرارا من المسلمين . وأعتقد أن هذا القصر هو نفس القصر الذي نزله أيوب بن حبيب اللخمي بعد مصرع عبد العزيز ابن موسى بن نصير ونقل حاضرة المسلمين في الاندلس من إشبيلية الى قرطبة^(٢) ، وأعتقد أيضا أنه نفس القصر الذي نزله أمراء بني أمية واتخذوه مقرا لهم في الحاضرة .

ج - تحصن القوط في كنيسة شنت أجلع خارج الاسوار (St. Ascicle hors les Murs)

استطاع مغيث الرومي أن يستولي على قرطبة دون مقاومة في الوقت الذي فر الحاكم القوطي بمن معه من الحماة والمدافعين الى كنيسة شنت أجلع الواقعة خارج باب اشبيلية المعروف بباب العطارين^(٣) ، فحاصرها المسلمون ، وكتب مغيث السى طارق يشره بالفتح^(٤) . وكانت الكنيسة التي اتمتع فيها القوط حصينة ذات بنية وتقانة^(٥) يأتينا الماء تحت الارض من عين في سفح جبل^(٦) ، لانه اذا لم تكن هذه الكنيسة بهذه الحصانة لما بادر حاكم قرطبة ورجاله بالتحصن فيها ، ولما أمكن لهؤلاء القوط احتمال حصار طويل الامد امتد الى ثلاثة أشهر . ويبدو أن المسلمين اهتموا الى مصدر المياه التي كانت تمتد الكنيسة فقطعوها وسدوا منافذها ، فأيقن المحصورون بالهلاك . ويذكر ابن عذارى أن حاكم المدينة تسلل من الكنيسة ذات يوم وحده وهو ينوي التحصن في جبل قرطبة ليلحق به

(١) الحميري ، ص ١٥٦ .

(٢) اخبار مجموعة ، ص ٢١ .

(٣) نفس المصدر ص ١٢ - فتح الاندلس ص ٩ .

(٤) نفس المصدر ص ١٢ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٥ .

(٥) نفس المصدر .

(٦) المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٥ .

أصحابه (١) أو خوفا على نفسه عندما أيقن بالهلاك (٢) ، أو بهدف استقدام فرقة من جيوش القوط لتخليص رجاله • وأيا ما كان سبب فراره ، فقد أبصره مغيث ، فانطلق وراءه وقبض عليه بعد قرية قطلبرة Cutelobera فأسره مغيث وحبسه عنده ليقدّم به على الخليفة الوليد ، ولم يؤسر من أمراء القوط غيره •

عاد مغيث بأسيره إلى الكنيسة ، فدعا المحصورين إلى الإسلام أو الجزية ، فأبوا عليه ، فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم ، فسميت الكنيسة لذلك بكنيسة المحرقى « والنصارى تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء » (٣) ، وقيل أنه استزلهم أسرا ، وضرب أعناقهم ، فسميت لذلك بكنيسة الأسرى (٤) •

ويستبعد الدكتور حسين مؤنس حادث إحراق الكنيسة بمن فيها ، ويستدل على ذلك بأن هذه الكنيسة ظلت بعد ذلك في أيام المسلمين زمنا طويلا ، وليس فيها للنار أثر (٥) • ولا أدري على أي مصدر اعتمد الدكتور مؤنس في دحضه للنص السابق ، فكل ما نعرفه عن هذه الكنيسة أنها هدمت زمن الفتح ، وظلت كذلك إلى أن أذن الأمير عبد الرحمن الداخل لنصارى قرطبة بإعادة بنائها نظير تخليصهم عن نصيبهم في كنيسة شنت بنجنت التي أقام عليها المسجد الجامع بقرطبة (٦) ، ويغلب على الظن أنه خلط بين كنيسة شنت أجلع خارج الاسوار وكنيسة شنت بنجنت التي أقيم الجامع الاعظم في بقعتها • ولا شك أن أطلال كنيسة شنت أجلع ظلت قائمة من الفتح الإسلامي لقرطبة حتى سنة ١٦٩ هـ عندما أعيد بناؤها ، فاليها يشير القاضي

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٥ •

(٢) المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٦ •

(٣) نفس المرجع •

(٤) أخبار مجموعة ص ١٤ — ابن عذارى ، ص ١٥ •

(٥) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٨٢ •

(٦) E. Salem, Chronologia de la mezquita Mayor de Cordoba, al-Andalus, Vol. XIX, P. 399.

عياض عند تعرضه لذكر محاسن قرطبة ومشاهدها اذ يقول : « وبها الجامع الكبير الاسلامي وبها الكنيسة المعظمة بين التصارى » (١) .

(٢)

تاريخ قرطبة في عصر الولاة

١ - قرطبة حاضرة الاندلس :

قبل أن يقفل موسى بن نصير عائدا الى المشرق استخلف ابنه عبد العزيز في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ ، واختار له مدينة اشبيلية قاعدة لولايته (٢) ويعبر هذا الاختيار عن بعد نظر موسى بن نصير ، فقد استبعد مدينة طليطلة العاصمة القديمة للقوط لانها بموقعها في وسط الاندلس تكون أكثر تفرضا للشورات ، وقد يصل الامر بالمتزين فيها الى قطع الاتصال بينها وبين المغرب لتطرفها عن الساحل الجنوبي ، فيسبب ذلك كارثة كبرى للمسلمين . كذلك استبعد مدينة قرطبة لانها مدينة داخلية لا تصلها الامدادات بسهولة . كأي مدينة ساحلية تربطها بالمغرب ووابط بحرية ، ثم ان مدينة قرطبة كانت قد فقدت أهميتها منذ أن تفوقت عليها طليطلة في القرن السابع الميلادي فأهملها ملوك القوط ، ولم تعد من المدن الكبرى في جنوب الاندلس . أما اشبيلية فمدينة عظيمة تقع على الضفة اليمنى من نهر الوادي الكبير قرب مصبه ، في خليج عسيق يهيؤها لان تكون ميناء بحريا من الدرجة الاولى في جنوبي الاندلس ، وبالإضافة الى هذا الموقع الممتاز فقد اختارها موسى بن نصير لحصانة أسوارها ومناعتها ، ولانها تتوسط سهلا فسيحا يعرف بالفحص ، ولانها ترتبط في يسر بسائر مدن الاندلس الاخرى وبلاد المغرب قاعدة

(١) القرى ، ج ٢ ص ٦١ .

(٢) ابن القوطية ، ص ١٠ - اخبار مجموعة ، ص ١٩ - ابن عدارى ،

ج ٢ ص ٣٠ .

الجيش الاسلامي في حالة قيام الاندلس بالثورات (١) . وفي تبرير اختيار موسى بن نصير لاشبيلية مقرا له وقاعدة للحكم يذكر صاحب أخبار مجموعة أنها « مدينة على نهر عظيم لا يخاض ، فأراد أن تكون فيه سفن المسلمين وتكون باب الاندلس » (٢) . ويشير المقرئ الى هذا الموقع الممتاز بقوله : « وأقره بمدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر نظرا لقربه من مكاره المجاز » (٣) . ولكن اشبيلية لم تتمتع بهذا المركز الاول الا أربع سنوات ، فقد حول ايوب بن حبيب اللخمي (٤) العاصمة الى قرطبة في أول عام ٩٩ هـ على أثر مقتل عبد العزيز بن موسى بمسجد ربيعة المشرف على مرج اشبيلية في عقب سنة ٩٨ هـ (٥) .

نزل أيوب بن حبيب بقصر قرطبة أو البلاط الذي كان قد اختطه مغيث الرومي لنفسه بعد افتتاحه مدينة قرطبة (٦) ، ثم أخرجه موسى بن نصير عنه عند مروره بقرطبة أثناء قفوله الى دمشق ، بحجة أن هذا القصر لا يصلح لمغيث وإنما يصلح للعامل الذي يتولى قرطبة ، واعتاضه دارا شريفة ذات سقي وزيتون وثمار يقال لها اليسانة كانت من أملاك الحاكم القوطي ، ففتح مغيث عن القصر المذكور ونزل الدار التي عينها له موسى غربي مدينة قرطبة والتي عرفت فيما بعد باسم بلاط مغيث (٧) ، وكانت هذه إدار النواة الرئيسية لقيام ربض بالجانب الغربي من قرطبة عرف فيما بعد بربض بلاط مغيث (٨) .

(١) ارجع الى مقالي عن اشبيلية بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦١ ص ٧٢ .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٩ .

(٣) المقرئ ، ج ١ ص ٢٥٨ .

(٤) ابن القوطية ، ص ١١ .

(٥) ابن القوطية ص ١١ — أخبار مجموعة ص ٢٠ ، ٢١ . ويذكر ابن عذارى أنه قتل في صدر رجب سنة ٩٧ هـ .

(٦) أخبار مجموعة ص ٢١ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٣ .

(٧) نفس المصدر .

(٨) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٠٣ — المقرئ ، ج ٢ ص ١٣ .

والواقع أن مدينة قرطبة كانت جديرة بالاختيار كعاصمة للاندلس بعد أن تم للمسلمين في ولاية عبد العزيز فتح اقليمي غرب وشرق الاندلس، فقد بادر عبد العزيز منذ توليه الامارة باستكمال فتح غرب الاندلس (١)، ثم تطلع بعد ذلك الى فتح مالقة والبيرة، ومن هناك اتجه نحو شرق الاندلس، فدخل كورة تدمير واستولى على قاعدتها أوريولة. وعلى هذا الاساس لم تعد الاسباب التي من أجلها اختيرت اشبيلية بعد قائمة، بل ان اختيار مدينة متوسطة بين الساحل والداخل بات ضرورة لازمة بعد أن ثبتت أقدام المسلمين في الاندلس، وأصبحت اشبيلية بحكم موقعها الجغرافي المتطرف لا تصلح لهذا الغرض. ومع ذلك فقد تناوبت قرطبة واشبيلية المركز الاول في الاندلس طوال الحكم الاسلامي.

وعندما أقيم الحر بن عبد الرحمن الثقفي واليا على الاندلس من قبل محمد بن يزيد عامل افريقية أقر هذا الاختيار، وانتقلت العاصمة الاندلسية رسميا من اشبيلية الى قرطبة على يديه (٢). ومنذ ذلك الحين ظلت قرطبة تحتل المكانة الاولى بين مدن الاندلس حتى سقوط الخلافة الاموية في قرطبة.

ب - منشآت الولاية في قرطبة :

حظيت قرطبة بنصيب كبير من عناية ولاة الاندلس منذ الفتح الاسلامي، على الرغم من اشتغال هؤلاء الولاة بالتوسع فيما وراء البربات، وبالقتن الداخلية الناشئة من النزاع القائم بين العرب والبربر وتحوله الى نزاع بين البلديين والشاميين ثم الى صراع بين العصبيتين القيسية واليمانية على نحو ما سنفصله فيما بعد.

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، ص ١٠٩ - ١١٢.

(٢) ابن عذارى، ج ٢ ص ٣٣.

حرص المسلمون في قرطبة بادىء ذي بدء على المبادرة بتحويلها الى مدينة اسلامية ، وذلك بإنشاء مسجد جامع في قلب المدينة ، ومن المعروف أن المساجد الجامعة كانت أساس التنظيم العمراني في المدن الاسلامية ، لأن المسجد هو المركز الديني الذي يسيطر على حياة المدينة اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ، ومن حوله تلتف بقية مراكزها العمرانية ، فكانت تقام حول ساحته الاسواق والحوانيت ، كما كانت تعقد فيه الاجتماعات ، وتوزع ألوية الجيش وبنوده ، كما كانت له أهمية من الوجهة التعليمية بحكم قيامه بنفس وظيفة المدرسة (١) ، والمسجد أيضا هو الذي يطبع المدينة المفتوحة بطابعها الاسلامي .

ولما كان بناء مسجد جامع في قرطبة ضرورة ملحة أملت ظروف الفتح الإسلامي في وقت كان المسلمون حديثي عهد بالاندلس فقد كان من الطبيعي — والامر يقتضي أن يتم بناء الجامع في أمد قصير للغاية — ألا يفكر المسلمون الفاتحون في بنائه بالحجر والرخام وغيرها من مواد البناء المعروفة، لأن ذلك يستغرق حتما وقتا طويلا، ومن هنا اضطروا الى اتخاذ بناء مفروغ من بنيانه يكفيهم أو يغنيهم عن إقامة مسجد جديد ، ولم يكن هناك وفي تلك الآونة بالذات أصلح لهذا الغرض من كنيسة قرطبة ، يمكنهم اقتسامها دون حرج مع نصارى قرطبة أسوة بما حدث بالنسبة للمسجد الجامع بدمشق وجوامع أخرى . ومن المعروف أن الفاتحين في العصور القديمة والوسطى كانوا يؤثرون اختيار هياكلهم ودور عبادتهم في نفس المراكز الدينية السابقة على فتوحهم تمكيناً لدينهم الغالب ، وعلى هذا النحو شارك المسلمون نصارى قرطبة في كنيستهم الكبرى المعروفة بشنت بنجنت ، وأقاموا في هذا الشطر مسجدا ركز حش الصنعاني التابعي قبلته ، فلما

(١) السيد عبد العزيز سالم ، التخطيط ومظاهر العمران في العصور الإسلامية الوسطى ، مقال بمجلة المجلة ، العدد ٩ ، سبتمبر ١٩٥٧ — حسين أمين ، المسجد العهد الاول للتعليم عند المسلمين ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، الاسكندرية ١٩٦٨ ص ١٧ .

كثّر المسلمون بقرطبة وضاق عنهم مسجدها علقوا فيه سقائف متتالية يقل ارتفاعها تدريجيا تبعا لارتفاع مستوى سطح الارض كلما اتجهنا شمالا بعيدا عن نهر الوادي الكبير .

ويلي ذلك العمل الهام الذي كان شاغل المسلمين الاول بعد افتتاحهم قرطبة عمل ثاني هام تم الفراغ منه في زمن الولاة ، وهو ترميم قنطرة قرطبة في ولاية السمع بن مالك الخولاني . وكان المسلمون عندما افتتحوا قرطبة ألفوا القنطرة — وهي المجاز الذي تتخذه السكة العظمى أو المحجة العظمى المعروفة قديما باسم *Via Augusta* ودعامة التوسع العمراني بقرطبة نفسها — قد تهدمت بفعل مدود النهر على مر الأزمان ^(١) حتى سقطت حناياها ، ومحيت أعاليها وبقيت أرجلها وأسافلها ^(٢) ، وفي نفس الوقت كان السور الغربي من قرطبة قد تهدم في أجزاء منه ^(٣) ، وأصبحت المدينة مفتوحة من هذه الناحية . فكتب السمع الى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستشيريه في هذا الامر ، ويخبره بأن النهر لا يمكن خوضه في فصل الشتاء ، وأن هناك أحد أمرين : اما ترميم القنطرة من أحجار السور الغربي المتهدم ، وبناء القطاع المهدم من السور باللبن بعد ذلك ، أو ببناء السور المتثلثم من جهة الغرب ، فتنحصر حاضرة الاندلس ويصبح في الامكان حماية قرطبة من أي غزو ^(٤) . فكتب اليه عمر بن عبد العزيز يأمره ببناء القنطرة من حجارة السور وبناء السور باللبن ، وتم الامر على هذا الاساس في سنة ١٠١ هـ ^(٥) .

-
- (١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤ .
(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٢٦ .
(٣) اخبار مجموعة ، ص ٢٤ .
(٤) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ١٣٧ .
(٥) وفي ذلك يقول صاحب اخبار مجموعة : « فكتب الى عمر يستشيريه ويعلمه أن مدينته قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة ، فان أمرني أمير المؤمنين ببناء سور المدينة فعلت ، فان قبلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ، ونفقات الجهاد ، وان احب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرها ، فيقال والله اعلم أن عمر رحمه الله أمر ببناء القنطرة بصخر السور =

ولا أشك في أن ترميم القنطرة كان من المشاكل الاولى الملحة على ولاية قرطبة خاصة بعد أن أصبحت هذه المدينة حاضرة المسلمين في الاندلس، فقد كان من الضروري أن ترتبط مدينة قرطبة بربضها القبلي « شقندة » عن طريق القنطرة بعد أن ازداد حجم قرطبة وازداد عدد سكانها بوفود مزيد من الطلائع العربية واستقرار العرب فيها ، وأصبح من الصعب على سكان الربض القبلي العبور على المعادي لقضاء أعمالهم في المدينة او نواحيها الشرقية والغربية ♦

غير أن ما روته المصادر العربية خاصا ببناء القنطرة من صخر السور المتهدم أمر يثير الشك في صحة هذه الروايات ، لان توفير الاحجار اللازمة لبناء القنطرة أو ترميمها لم يكن مشكلة عويصة يواجهها العرب ، فاذا كانوا قد التمسوا الاحجار من السور المتثلّم بحجة انهم كانوا حديثي عهد بمقاطع الحجر في جبل قرطبة — وهو ما لا نصدقه — فهناك من المباني القديمة المخربة في قرطبة ونواحيها ما يمكن معه الافادة من أحجارها في ترميم القنطرة والسور معا ، وهو تقليد كان وما زال شائعا في المدن الاسلامية ، ومع ذلك فليس في امكاننا التشكك في النصوص العربية ، ولا بد في الظروف الحاضرة من الاخذ بها ، وفي هذه الحالة علينا أن نلتمس للسّمع ابن مالك العذري في ترميمه القنطرة بأحجار السور المتخرب بالرغبة في الفراغ السريع من أعمال الترميم لان موقع السور المتخرب كان قريبا من موقع القنطرة بحيث يسهل على القائمين بالترميم نقل الاحجار الضرورية لذلك بسهولة ، وفي ذلك توفير للجهد والنفقات في وقت كان المسلمون يشتغلون بالجهاد في بلاد غالة ♦

= وأن يبنى السور باللبن اذ لا يجد له صخرا » (اخبار مجموعة ص ٢٤) وفي ترميم القنطرة يقول ابن عذارى : « فامر (عمر) السّمع بابتنائها ، فصنعت على اتم وأعظم ما بني عليه جسر من حجارة سور المدينة ... وفي سنة ١٠١٠ ورد كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز على السّمع بن مالك بالاندلس يأمره ببناء القنطرة بصخر السور وبناء السور باللبن » (ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤ ، ٣٥) .

ج - موجة الشاميين :

تخرج موقف العرب في بلاد المغرب عند قيام خوارج البربر بقيادة ميسرة المدغري بالثورة على العرب ، وتغلبهم عليهم بالقرب من طنجة في الواقعة المعروفة بغزوة الاشراف^(١) ، فاضطر الخليفة هشام بن عبد الملك الى ارسال جيش ضخم لمحاربة البربر عدته ٢٧ الفا من الشاميين^(٢) ، انضم اليهم ثلاثة آلاف من مصر فأصبح مجموع القوة التي أرسلها ثلاثين ألفا ، قدم عليهم كلثوم بن عياض القشيري * وانضم اليه هؤلاء الشاميين حشود العرب البلديين في المغرب بقيادة حبيب بن أبي عبدة ، فأصبح عدد أجناد العرب نحو من سبعين ألف مقاتل ما بين فارس وراجل^(٣) * ولكن هذا الجيش على كثرته لم يتمكن من الصمود أمام حشود البربر عند أول لقاء ، وانتهى الامر بهزيمة نكراء منى بها العرب في موقعة حدثت على وادي سبو عند بليدة بقدورة في سنة ١٢٤ هـ^(٤) قتل فيها العدد الاعظم منهم وعلى رأسهم أمير الجيش كلثوم بن عياض والقائد حبيب بن أبي عبدة ، ولم ينج من كبار قواد المسلمين سوى بلج بن بشر القشيري ومعه عشرة آلاف من الشاميين ، لاذوا بمدينة سبتة وتحصنوا بداخل أسوارها ، فحاصرهم البربر حصارا طويلا ، وقطعوا عنهم الميرة والاقوات حتى أشرفوا على الهلاك^(٥) . واضطر بلج بن بشر الى الاستنجاد بعبد الملك بن قطن الفهري والى الاندلس في قرطبة (١٢١ - ١٢٥ هـ) واستأذنه في العبور الى الاندلس هو وأصحابه ، وذكر له ما صاروا اليه من الجهد ، فتقاعس ابن قطن عن نجاتهم ومد يد العون اليهم ، لخوفه منهم على سلطانه ، ثم انه كان فهريا

-
- (١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٢ - تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ١٥٣ - ١٥٥ - المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٠٥ .
(٢) اخبار مجموعة ، ص ٣١ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٣١ .
(٤) نفس المصدر ص ٣٤ - ابن القوطية ، ص ١٥ - ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٨ - المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣١٢ .
(٥) نفس المصدر ، ص ٣٧ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٢ .

من عرب الحجاز ، شهد في شبابه وقعة الحرة ورسخت ذكراها الاليمة في نفسه ولم تمح مذابح المدنيين من ذاكرته . غير أن حادثا وقع في هذه الاثناء غير الموقف تغيرا تاما لصالح الشاميين ، فقد ثار بربر الاندلس بقيادة زعيم لهم اسمه ابن هدين^(١) ويقال له زقطرتق^(٢) ، تضامنا منهم مع بربر المغرب ، فطردوا عرب جليقية واسترقة من شمال الاندلس وقتلوه في آفاق البلاد ، وقدمت فلول العرب الى قرطبة ، وبدا وضع العرب حرجا للغاية ، وخاف ابن قطن أن يتحول مصير عرب الاندلس وينتهي الى مثل ما انتهى اليه مصير عرب المغرب ، وأرغمته هذه الظروف الجديدة على مد يده الى جند الشاميين المحصورين في سبتة ، والاستعانة بهم للقضاء يدا واحدة على خطر الثورة البربرية في الاندلس . فأرسل اليهم السفن والاقوات للعبور الى الاندلس واشترط عليهم أن يعودوا الى سبتة بعد انقضاء مهنتهم ، ووجد الشاميون - وهم في موقفهم الحرج - في هذا العرض فرصتهم للنجاة ، فلم يترددوا في قبول ما اشترطه عليهم ، وامعانا في احترازه منهم أخذ منهم ابن قطن بعض الرهائن ضمانا لتنفيذ شروطه ، وأنزل هؤلاء الرهائن بجزيرة أم حكيم .

أما البربر فقد أقبلوا في حشود هائلة من جليقية واسترقة وماردة وقورية وطلبيرة متجهين نحو قرطبة ، واشتبكوا مع العرب الشاميين والاندرلسيين مجتمعين في حوز طليطلة على وادي سليط ، فدارت عليهم الدائرة ، ومزق العرب صفوفهم ، وأذرعوا فيهم القتل ، وأطفأوا بذلك جمرة ثقتهم عليهم^(٣) . وبذلك الانتصار الذي أحرزه العرب على البربر انتهت مهمة بلج بن بشر ورفاقه الشاميين في الاندلس وفقا للاتفاق الذي عقده ابن قطن معهم ، وقدم جند الشاميين الى قرطبة حيث طالبهم ابن قطن

(١) أخبار مجموعة ، ص ٣٩ .

(٢) فتح الاندلس ، ص ٣١ .

(٣) راجع التفاصيل في كتابي : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس . ص ١٥٧ - ١٥٩ والمغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣١٥ - ٣١٨ .

بتنفيذ الشطر الآخر من الاتفاق والوفاء بالتزامهم معه ، ولكن بلج ورجاله لم يرضوا بترك الاندلس وخيراتها والعودة الى افريقية أو المغرب حيث تنتظرهم سيوف البربر . فأخذ الشاميون يبحثون عن ذريعة للبقاء في الاندلس ، فلما ألح عليهم ابن قطن في الرحيل الى المغرب من الجزيرة الخضراء ، طلبوا منه أن يتم الابحار من ناحية تدمير حتى يتمكنوا من النزول بأرض قريبة من القيروان ، وأصر ابن قطن على موقفه . وفي هذه الاثناء كان الشاميون يخططون في قرطبة انقلابا عسكريا ضده ، ولم تكن تموزهم القوة على تنفيذ هذا الانقلاب . وتسم الانقلاب بسرعة مذهلة ، وبصورة مفاجئة ، اذ وثبوا بابن قطن في أول ذي القعدة سنة ١٢٥ هـ . وخلصوه من الامارة ، وأخرجوه من القصر ، وأقاموا على أنفسهم بلج بن بشر ، وبايعوا له في قصر قرطبة . أما ابن قطن فنزل داره « وهي التي يقال لها دار أبي أيوب »^(١) . وتنتج عن ذلك الانقلاب أن ساد الاضطراب قرطبة واختلط أمر الناس في الاندلس ، وفي غمرة هذه الفوضى أمسك والي الجزيرة الخضراء عن امداد الرهائن الشاميين بالطعام والشراب ، فمات منهم رجل غساني من أشرف الشام ، فاتهم عرب الشام ابن قطن بأنه المتسبب في موته ، وثار عرب اليمن لموت الغساني ، وطلبوا بلجا بأن يسلم لهم ابن قطن ليقتلوه ويشبعوا انتقامهم منه مقابل الغساني القليل ، فحاول بلج أن يردهم عن ذلك عبثا ، فقد اتهموه بأنه يحمي مضرا ، فخاف أن تتفرق كلمتهم ، وأمر باخراج ابن قطن من داره ، فأخرجوه وهو شيخ هرم تجاوز التسعين « كأنه فرخ نعامة من الكبر ، وهم ينادونه : يا فال !! فللت من سيوفنا يوم الحرة ، ثم عرضتنا أكل الكلاب والنبلود طلبا بثأر الحرة ، ثم بعث جند أمير المؤمنين »^(٢) ، ثم قتلوه عند رأس القنطرة وصلبوه ، وصلبوا خنزيرا عن يمينه ، وكلبا عن شماله^(٣) .

(١) أخبار مجموعة ، ص ٤١ .

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٤٢ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٢ - ابن عذارى ، ص ٤٥ .

د - قرطبة مركز الصراع بين اليمينية والمضرية :

أثار مصرع ابن قطن الاحقاد الدفينة في نفوس المضريين والقيسين من اليمينين ، ونش ما كان كامنا في النفوس من خلافات ونزاعات عصبية ، فتحالف العرب البلديون بقيادة قطن وأمية ابني عبد الملك بن قطن المقتول مع البربر المغلويين الذين كانوا يتلهفون لاشباع شهوة الانتقام من الشاميين وتضامنوا على مناهضة بلج وجنده ، وانضم الى هذا الحلف عبد الرحمن ابن علقمة اللخمي عامل عبد الملك في أربونة ومعه جيوشه المرابطة في سبتمانيا (١) . وتم الاشتباك الحربي بين الفريقين في موضع يقال له «أقوة برطودة يقع على بعد بردين من قرطبة ، واحتدمت نار الحرب ، وانتهى الأمر بهزيمة البلديين والبربر ، وأصيب بلج في هذه المعركة ولم يلبث أن توفي متأثرا باصابته ، فخلفه ثعلبة بن سلامة العاملي على الامارة في قرطبة (٢) . ولما بلغ الخليفة هشام بن عبد الملك ما أصاب البلديين على أيدي الشاميين أقام على الاندلس أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبي ، ليضع حدا للفتنة التي اضطرت ناراها في قرطبة ، وكان ثعلبة قد أسر عددا كبيرا من العرب البلديين ، ونزل في المصارة من قرطبة في رجب سنة ١٢٥ هـ . لبيعهم ، وبينما شبك في الجبائل الولد بالوالد (٣) تمهيدا لبيعهم بأبخس الاثمان اذ أقبل أبو الخطار ، فأمر بإطلاق الاسرى والسبي ، فسمى عسكره لذلك بعسكر العافية (٤) ، وشرع عهده بزالة أسباب الفتنة من قرطبة ، فأمر باخراج ثعلبة وأصحابه من الاندلس ، فاستقامت الامور في الحاضرة ، واطمأن الناس الى معاشهم (٥) ، ثم رأى أن يوزع الاجناد الشاميين على

(١) اخبار مجموعة ، ص ٤٣ .

(٢) راجع التفاصيل في كتابي تاريخ المسلمين ، ص ١٦٠ والمغرب الكبير ،

ج ٢ ص ٣١٨ .

(٣) اخبار مجموعة ، ص ٤٦ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٨ .

(٤) نفس المصدر - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٩ .

(٥) ابن القوطية ، ص ٢٠ - اخبار مجموعة ، ص ٤٦ - ابن عذارى ،

ج ٢ ص ٤٨ ، ٤٩ .

كور الاندلس حتى يأمن الناس شرهم ، ويقضي بذلك على مصدر الفتنة والنزاع .

وكان أبو الخطار رغم هذه البداية الطيبة يمينا متعصبا ليمنيته ، فلم يلبث أن جرفه تيار العصبية فأنحرف عن طريق الانصاف والعدل ، فقد حدث أن اختلف مضري في قرطبة مع يمني ، فشكاه اليمني الى أبي الخطار، فجار هذا الاخير في حكمه على المضري مدفوعا بعصبيته ، فالتجأ المضري الى الصميل بن حاتم بن ذي الجوشن رئيس المضرية في الاندلس ، وأقبل الصميل الى قصر الامارة ليناقدش أبا الخطار في الامر ويعاتبه على جورهِ تمهيدا لتسوية القضية ، ولكن أبا الخطار بدلا من أن يحسن استقباله ويبيدي استعدادا للتفاهم بادر باهانة الصميل ، وكان ذلك التصرف الطائش من جانب أبي الخطار الشرارة الاولى التي أشعلت نيران الحرب الاهلية بين اليمنية بزعامة ابي الخطار ، والمضرية بزعامة الصميل ، وانتهت الحرب بهزيمة ابي الخطار ووقوعه في أسر الصميل . ثم أقيم ثوابة بن سلامة العاملي واليا على الاندلس بتدير من الصميل في رجب سنة ١٢٨ هـ (٧٤٥ م) ، ودخل ثوابة قصر قرطبة ومعه أبو الخطار يرسف في قيوده^(١) . ثم توفي ثوابة بعد عام من ولايته ، فعمل الصميل على تولية يوسف بن عيد الرحمن الفهري ، وكان طاعنا في السن ، ضعيف الارادة مما سهل على الصميل أن يصبح الموجه الحقيقي للسياسة الاندلسية . ولكن يحيى بن حريث الجذامي من جند الاردن دعا الى نفسه ، وعندئذ تم الاتفاق على أن يستأثر يوسف الفهري بولاية الاندلس في حين يترك كورة رية ليحيى ابن حريث . وفي هذه اللحظات المضطربة نجح أحد القضاة من اليمنية في اقتحام قصر قرطبة بالقوة ، وأخرج أبا الخطار من سجن القصر ، ثم هرب

(١) اخبار مجموعة ، ص ٥٧ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٥٠ .

به الى قبائل كلب فاكشفوه ومنعوه^(١) . وعلى الرغم من خلاص أبي
الخطار من أسرهم ، فقد أصفقت اليمنية والمضرية على يوسف الفهري ،
فاستقام الامر ليوسف ، ولكنه لم يلبث أن نكث باتفاقه مع يحيى بن حريث
وعزله عن كورة رية . فغضب ابن حريث وكان ذلك نذيرا بقيام الحرب
من جديد بين العصيتين اليمنية والمضرية ، فقد تضامنت اليمنية مع يحيى
ابن حريث ، وكان ابن حريث أبا الخطار لكي ينضم الى صفوفه ، فطالبه
أبو الخطار بالرئاسة لنفسه . ورأت قضاة أخيرا أن تخضع لاجماع اليمنية
على الدعوة لابن حريث حتى لا تختلف كلمة اليمنية ، فاجابوا ابن حريث
وقدموه^(٢) ، وأصفقت يمن الاندلس : حميرها وكندتها ومنحجها وقضاعتها
على تقديمه ، بينما انضوت مضروبيعة تحت لواء يوسف والصميل . ثم
زحفت جموع اليمنية بقيادة ابن حريث وأبي الخطار نحو قرطبة ، ونزلت
على نهر قرطبة بقرية شقندة ، وعبرت المضرية الوادي^(٣) ، واشتبك الفريقان
في قتال عنيف ، دام معظم اليوم . ويصف ابن عذاري هذا القتال بقوله :
« فما تسمع الا صهيلا وصليلا ، ولا ترى الا قتيلا ، حتى تكسرت الخطيات ،
وتقللت المشرفيات ، والتفت الساق على الساق ، وانضمت الاعناق الى
الاعناق ، فلم يعهد حرب مثلها في المسلمين بعد حرب الجمل وصفين »^(٤) ،
وأنهك القتال قوى الفريقين ، ولم يستطع أحدهما التغلب على الآخر ،
فاستقدم الصميل أهل السوق بقرطبة لنجدته ، فقدم اليه منهم ما يقرب من
أربعمائة ومعهم العصي والسيوف والمزاريق ، وخرج الجزارون بسكاكينهم ،
ولم يكن باستطاعة اليمنية الصمود أمام هذه القوة الجديدة ، فانهزموا ،

(١) نفس المصدر ، ص ٥٨ . اجتمعت قضاة على رجل يقال له
عبد الرحمن بن نعيم الكلبي ، فجمع مائتي راجل وأربعين فارسا ، وهاجم
بهم القصر بقرطبة ، فهزم الاحراس ، وحمل أبا الخطار الاسير (اخبار
مجموعة ، ص ٥٨) .

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٥٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٨ .

(٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٥٣ .

وقتل منهم عدد كبير ، وقبض على ابن حريث وأبي الخطار فقتلا ، واقتاد الصميل أسرى اليمنية الى كنيسة قرطبة التي أقيم الجامع على بقعتها ، ف ضرب أوساط سبعين منهم بالسيف^(١) . وأصبح الصميل بعد هذه الواقعة صاحب السلطان الفعلي في قرطبة ، فكانت له الرئاسة والتدبير أو الرسم بينما لم يكن ليوسف الفهري سوى الاسم .

ثم اجتاحت الاندلس من سنة ١٣١ هـ مجاعة كبيرة ، لم يفلت من شرها سوى مدينة سرقسطة قاعدة الثغر ، فقد كان أهل هذا الاقليم بمزارعه وخيراته الوفيرة أفضل حالا من غيرهم ، وكان معظم هؤلاء الاهالي من اليمنيين ، الذين اعتزلوا الفتنة ولم يخوضوا غمارها^(٢) . فعمل يوسف الفهري على اذلالهم بوال قيسى متعصب لقيسيته هو الصميل بن حاتم بنفسه ، فاقامه على ولاية سرقسطة في سنة ١٣٢ هـ ، مدفوعا في ذلك بعاملين : الاول أنه بذلك يستطيع أن يشبع شهوة انتقامه من اليمنية ، والثاني يتخلص من الصميل منافسه على السلطان في قرطبة . وفطن الصميل الى خطة الفهري ، فلم يعمل من جانبه على اذلال أهل سرقسطة ، ولم يتعصب ضدهم ، بل انه عمل على الضد من ذلك على اكتساب ثقتهم فيه ومحبتهم له^(٣) .

أما يوسف الفهري فقد انفرد بالسلطان في قرطبة بعد أن أقصى الصميل عنه ، ونزل الفهري يبلاط الشر بن عبد الرحمن الثقفي^(٤) ، ولكنه رزيء بمنافس قوي آخر هو عامر بن هاشم القرشي كان يطمع في ولاية الاندلس ، فكاتب أبا جعفر المنصور وسأله أن يبعث اليه بسجل الولاية ،

(١) اخبار مجموعة ، ص ٦١ .

(٢) راجع التفاصيل في كتابي تاريخ المسلمين ، ص ١٦٥ .

(٣) اخبار مجموعة ، ص ٦٣ .

(٤) ذكروا انه تجنى على ابن الحر فقتله ، واستولى على القصر ، وقيل

انه اشتراه (المصدر السابق ص ٩٤) .

وأخذ يعد العدة للوثوب على يوسف الفهري^(١) ، فأدرك يوسف خطته ،
ودبر مكيده لقتله بالاتفاق مع الصميل . ففر عامر القرشي الى قومه
اليمنيين بسرقسطة، ودعاهم الى سجل أبي جعفر المنصور، فأزره اليمنيون،
وحاصروا الصميل بسرقسطة حصارا امتد الى سبعة أشهر حتى أشرف على
الاستنزال لولا أن بعث يستنجد قومه من القيسيين والمضريين ، فلبوا
نداءه ، وخرجت قوة مضرية لنجدة الصميل وفك الحصار عنه ، واشترك
معهم جماعة من موالي بني أمية في الاندلس على رأسهم أبو عثمان عبيدالله
ابن عثمان ، وعبدالله بن خالد ، ولم يكن هؤلاء يفكرون في انقاذ الصميل
بقدر ما كانوا يفكرون في تقديم سابقة يعتمدون عليها لادخال أميرهم
عبد الرحمن بن معاوية الاندلس .

(١) المصدر السابق ، ص ٦٣ .

الفصل الثاني

قرطبة في عصرها الذهبي : عصر دولة بني أمية

(١) قرطبة في ظل أمراء بني أمية

- أ - مظاهر الملك في دولة عبد الرحمن الداخل ✓
- ب - الطابع السوري في منشآت عبد الرحمن بقرطبة
- ج - تدفق التأثيرات المشرقية على قرطبة منذ عصر عبد الرحمن الأوسط

(٢) قرطبة في عصر خلفاء بني أمية العظام

- أ - تقدم الحركة العمرانية والعلمية في قرطبة الخلافية ✓
- ب - وصف كتاب العرب لقرطبة في عصر الخلافة
- ج - السفارات السياسية الاجنبية الى قرطبة
- ١ - السفارات البيزنطية
- ٢ - وفود ملوك النصرانية في اسبانيا الى قرطبة
- ٣ - وصف تفصيلي لاستقبال الخليفة الحكم المستنصر للملك
أردون الرابع
- ٤ - وفود أمراء المغرب المواليين للخلافة الاموية الى قرطبة

الفصل الثاني

قرطبة في عصرها الذهبي : عصر دولة بني أمية

(١)

قرطبة في ظل امراء بني امية

١ - مظاهر الملك في دولة عبد الرحمن الداخل :

عندما اتصل موالى بني أمية بالصميل بقصد حمله على مساندة عبد الرحمن بن معاوية وتأييده له لم يجدوا منه الا اعراضا وتهديدا ، فانقطع رجاؤهم من المضرة بأسرها ، وتحولوا الى اليمنية الموتورين ، وكان هؤلاء يتلهفون للثأر من المضرة ، وينتظرون فرصة مواتية يثبون فيها عليهم ، فوجد موالى بني أمية منهم ترحيبا بالغا لاستقبال الامير المغامر ونصرته ، وتم الاتفاق بين موالى بني أمية وبين اليمنية على استقدام عبد الرحمن الى الاندلس . وبفضل هذا التحالف تمكن عبد الرحمن بن معاوية من ايقاع الهزيمة بجيش الصميل ويوسف الفهري في ٩ من ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ . في موقعة جرت بظاهر قرطبة في المصاراة^(١) ، ودخل عبد الرحمن قصر الامارة ظافرا ، وأصبح أمير الاندلس بغير منازع^(٢) .

وشهدت الاندلس صراعا متواصلا بين الامير الاموي وبين خصومه السياسيين والثائرين عليه من القيسية الموتورين ، واليمنية الذين انقلبوا عليه ، ومن أنصار العباسيين الذين كانوا يسعون للقضاء عليه . ولكن عبد الرحمن الداخل انتصر على أعدائه ومناوئيه بفضل دهائه وقوة شكيته

(١) حدثت هذه الواقعة في المخاضة الواقعة بادنئ الناعورة (ابن القوطية ، ص ٢٨) .
(٢) راجع التفاصيل في كتابي تاريخ المسلمين ، ص ١٧٦ - ١٩٠ .

ومضاء عزمه ، ومن العجيب أن يلقيه ألد خصومه أبو جعفر المنصور بصقر قريش^(١) ، وكان يقول : « لا تمجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالثأن في أمر فتى قريش الاحوذى الفذ في جميع شؤونه ، وعدمه لاهله ونشبهه ، وتسليه عن جميع ذلك يبعد مرقى همته ومضاء عزيمته ، حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم بعضا بقوة حيلته ، واستمال قلوب زعيتها بقضية سياسته ، حتى اتقاد له عصيهم ، وذل له أيهم ، فاستولى فيها على أريكته ملكا على قطيعته ، قاهرا لاعدائه ، حاميا لذماره ، مانعا لحوزته ، خالطا الرغبة اليه بالرهبة منه ، ان ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه »^(٢) .

ويرجع الفضل الاول في تمصير قرطبة وتجميلها ، وتنظيم شؤون الادارة والحكم فيها الى الامير عبد الرحمن الداخل ، فقد كانت نظم الادارة والحكم قبل قيام الدولة الاموية مضطربة مزعزعة بسبب اختلاف الولاة عليها من قبل أمراء افريقية^(٣) ، وبسبب النزاع القائم بين اليمينية والمضرية ، فلما استقرت أركان دولة عبد الرحمن الداخل في قرطبة وتمهدت قواعد حكمه عمل على تمكين النظم الادارية التي كانت سائدة في المشرق الاسلامي في زمن الدولة الاموية البائدة ، وتطبيقها تطبيقا عمليا ، وقد تم ذلك على نحو يثير الإعجاب ، وسرعان ما ارتقت الاندلس من مجرد ولاية تابعة للخلافة الاموية الى مضاف الدول الكبرى المستقلة^(٤) . ويشير ابن حيان الى هذا التطور الكبير الذي طرأ على شؤون الادارة ونظم الحكم في ظل عبد الرحمن الداخل بقوله : « لما ألقى الداخل الاندلس ثغرا قاصيا غفلا من حلية الملك ، عاطلا ، أرهف أهلها بالطاعة السلطانية ، وحكمهم بالسيرة

(١) اخبار مجموعة ، ص ١١٩ - ابن عذاري ، ج ٢ ص ٨٨ ، ٨٩ -
ابن الخطيب ، كتاب اعمال الاعلام ، ص ٩ - المقرئ ، ج ١ ص ٣٠٩ .
(٢) المقرئ ، ج ١ ص ٣١٠ .
(٣) نفس المرجع ، ص ١١٨ .
(٤) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٢٦ .

الملوكية ، وأخذهم بالآداب ، فأكسبهم عما قليل المروءة ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدون الدواوين ، ورفع الاواوين ، وفرض الاعطية ، وعقد الاولوية ، وجند الاجناد ، ورفع العماد ، وآوئق الاوتاد ، فأقام للملك آله ، وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك ، وحذروا جانبهم ، وتحاموا حوزته ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الاندلس ، واستقل له الامر فيها « (١) » .

ويرجع الفضل في نجاح سياسته وتوطيد ملكه الى وزرائه وحجابه الذين أحسن اختيارهم ، وانتقامهم من بين من أدخلوه الاندلس وأيدوه ونصروه وأخلصوا له ، أمثال عبيد الله بن عثمان ، وعبد الله بن خالد ، ويوسف بن بخت ، وتام بن علقمة ، وحسان بن مالك (٢) . وقد عمل عبيد الرحمن الداخل على احاطة نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء فزود حاضرتة قرطبة بروائع المنشآت والعمائر ، وقامت فيها حركة معمارية وعمرانية لم تشهد لها نظيرا من قبل ، واتخذت قرطبة منذ ذلك الحين مظهر المدن الكبيرة ، وأصبحت جديرة بأن تكون عاصمة للإمارة الاموية . ويذكر المقرئ نقلا عن بعض المؤرخين (٣) : أنه لما « تمهد ملكه شرع في تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور (٤) ، وأبنتى قصر الامارة (٥) والمسجد الجامع (٦) ووسع فناءه وأصلح مساجد

(١) المقرئ ، ج ١ ص ٣١٠ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٧١ ، ٧٢ .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٤ .

(٤) فتح الاندلس ، تحقيق خواكين جنثالث ، ص ١٩ — ابو الفداء ، كتاب المختصر في اخبار البشر ، بيروت ١٩٥٩ ، ج ٣ ص ٩ — ابن خلدون ، طبعة بولاق ، ١٢٨٤ هـ ، ج ٤ ص ١٢١ — المقرئ ، ج ١ ص ٣١٣ .

(٥) هو قصر روماني قديم ، أقام فيه مغيث الرومي عند افتتاح قرطبة ، الى ان اعتاضه موسى بن نصير عنه فصر بالربض الغربي من قرطبة ، عرف منذ ذلك الحين ببلاد مغيث . وفي قصر قرطبة نزل عبد الرحمن الداخل بعد انتصاره على يوسف الفهري والصميل . ولا شك انه أضاف الى هذا القصر بعض المجالس والقاعات وسع بها القصر وجعله لائقا بأن يكون قصرا للإمارة . (٦) أقامه الأمير عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هـ (ابن عذارى ، ج ٢

ص ٨٦ — المقرئ ، ج ٢ ص ٩٧) .

الكور^(١) ، ثم ابتنى مدينة الرصافة متنزها له ، واتخذ بها قصرا حسنا وجنانا واسعة ، نقل إليها غرائب الفراس ، وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الاقطار . وفي موضع آخر يقول : « ان عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره ، وعظم ، بنى القصر بقرطبة ، وبنى المسجد الجامع ، وأتفق عليه ثمانين ألف دينار ، وبنى بقرطبة الرصافة تشبها برصافة جده هشام »^(٢)

ب - الطابع السوري في منشآت عبد الرحمن بقرطبة :

يستطيع الباحث في عصر عبد الرحمن الداخل أن يشاهد بوضوح اللون السوري في كل منشآته التي اقامها بقرطبة ، وليس ذلك بغريب على حفيد الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك ، وقد ذكرنا أنه حاول أن يجدد ما طمس لبني أمية في المشرق من معالم الخلافة وما انقرض من آثارها^(٣) ، ويطعم الحضارة الاندلسية بالتقاليد السورية حتى تكون استمرارا للحضارة الاموية في بلاد الشام .

ما كاد الامير عبد الرحمن الداخل يتغلب على خصمه يوسف الفهري في وقعة المصارة حتى امتثل ما كان يفعله أجداده من بناء القصور خارج عاصمتهم اما للتمتع بهدوء الصحراء ، أو فرارا من الامراض المتفشية في البلاد ، أو التمتع بالحياة بعيدا عن انظار الرعية ، أو لقضاء فصل الشتاء في البوادي . ومعظم هذه القصور الاموية أقيم في أودية الاردن مثل قصر عمرة ، وحمام الصرخ الذي أسس في عصر الوليد بن عبد الملك ، وقصرا المشتي والطوبة في عصر يزيد الثاني أو الوليد الثاني^(٤) ، والقصر الذي

(١) ذكر المقرئ أن عدد مساجد قرطبة بلغ في أيام عبد الرحمن الداخل ٤٩٠ مسجدا (ج ٢ ص ٧٨) .
(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٣ .
(٣) المقرئ ، ج ١ ص ٣٠٨ .
(٤) زكي محمد حسن ، القصور الاموية في شرق الاردن ، مجلة الكتاب ، ديسمبر ١٩٤٥ ، ص ١٥٨ .

اكتشف منذ ما يقرب من عشر سنوات في عين الجار (عنجر) ببلنار ، ويرجع أنه من بناء الوليد الثاني ، والقصور التي أقامها هشام بن عبد الملك : مثل خربة المفجر الذي تقع آثاره اليوم على بعد ٣ أميال شمالي أريحا ، وكان قصرا شتويا تزدان جدرانه برسوم آدمية وحيوانية^(١) ، وقصر الحير الغربي الواقع على بعد أربعين ميلا الى الجنوب الغربي من تدمر^(٢) ، وقصر الحير الشرقي الواقع على بعد ستين ميلا الى الشمال الشرقي من تدمر وأربعين ميلا من الرصافة^(٣) . وقد أشار الطبري الى نزول هشام في الرصافة ، ولإبتائه قصرين بها^(٤) لعلهما قصرا الحير الشرقي والغربي ، وأغلب الظن أن هذا الخليفة أتم بناء الحير الغربي في سنة ٧٣٠ م والشرقي في سنة ٧٢٨ م .

وعلى هذا النحو كان عبد الرحمن الداخل يحن الى قصور أجداده حينما متواصلا ، وخاصة رصافة جده هشام ، فأقام المنية المعروفة بالرصافة الى الشمال الغربي من قرطبة لنزهه وسكنائه أكثر أوقاته ، وذلك في أول سني إمارته ، وسماها بهذا الاسم نسبة الى رصافة جده هشام الاثيرة لديه^(٥) ، « فاتخذ بها قصرا حسنا ، ودحا جنازا واسعة ، وقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسولا له الى الشام من النوى المختارة ، والحبوب الغريبة حتى نمت

Richard Ettinghausen, Arab painting, Collection Skira, (١)
P. 36, 38.

(٢) دانيال شلومبرجة ، قصر الحير الغربي ، ترجمة الياس أبو شبكة ، بيروت ، ١٩٤٥ .

Creswell, a short account of early muslim architecture, (٣)
1958, P. 111.

(٤) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، مطبعة مصر ، ١٩٣٩ ، ج ٥ ص ٥١٩
(٥) المقرئ ، ج ٢ ص ١٤ . كذلك أقام عبدالله بن عبد الرحمن الداخل المعروف بالبلنسي ربضا ببلنسية سماه بالرصافة
(Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, t. I, Ieiden, 1950, P. 136, Note 2).

ولعل هذه الرصافة هي الولجة التي ذكرها ابن الأبار في الحلة السراء .
(راجع الحلة السراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٢ ص ١٢٧) .

ييمن الجدد وحسن الترتيب في المدة القريبة أشجاراً معتمة أثمرت بفرائب من الفواكه ، انتشرت عما قليل بأرض الاندلس ، فاعترف بفضلها على أنواعها» (١) . وكانت الرصافة في الأصل جنة تعرف باسم رينالش ، وهو اسم ما يزال يطلق على أبنية تقع على بعد خمس كيلومترات شمال شرقي قرطبة (٢) . ويذكر ابن سعيد من فواكه منية الرصافة بقرطبة الرمان السفري ، ونقل عن ابن حيان أنه الرمان « الموصوف بالفضيلة المتقدم على أجناس الرمان بعذوبة الطعم ورقة العجم ، وغزارة الماء ، وحسن الصورة » ، كما يذكر من بين الطرائف التي استحضرها معه رسول عبد الرحمن الداخل إلى أخته أم الاصبع بالشام لتوصيلها إلى الاندلس ، جلبه من رمان الرصافة المنسوبة إلى هشام بن عبد الملك ، فعرضه الأمير عبد الرحمن على خواص رجاله مزهوا به ، وكان ممن حضره منهم سفر بن يزيد الكلاعي من جند الأردن ، فأعطاه جزءاً من ذلك الرمان ، « فراق حسنه وخبره ، فسار به إلى قرية بكورة رية ، فعالج عجمه ، واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجراً أثمر وأينع ، فنزع إلى عرقه ، وأغرب في حسنه » (٣) ، ثم حمل بعض ثمراته إلى الأمير ، فوجد أنه لا يختلف عن الرمان الرصافي الشامي ، فسأله عن مصدره ، فأخبره سفر بحيلته في استتباطه ، فأعجب الأمير ببراعته وهمته ، واغترب منه بمنية الرصافة وبغيرها من جناته ، وانتشر هذا الرمان ، وتوسع الناس في غراسه ، وأصبح يعرف بالرمان السفري إلى أيام ابن سعيد (٤) .

ومن بين الأشجار التي كانت ترسلها أم الاصبع أخت الأمير عبد الرحمن من الشام واهتم عبد الرحمن بغرسها في منية الرصافة (٥) ، لتذكره

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ١٤ .

(٢) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ١ ص ٣٨ .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ١٥ .

(٤) نفس المرجع .

(٥) نفس المرجع ، ص ٨٤ .

برصافة جده بالشام أشجار النخيل • ويذكر الرازي أن عبد الرحمن عندما نزل أول مرة بمنية الرصافة شاهد نخلة أهاجت أشجانه ، فتذكر وطنه وقال مرتجلا :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تئات بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول التناهي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقاك غواذي المزن من صوبها الذي يسح ويستمري السماكين بالوبل^(١)
وفي هذه النخلة يقول أيضا :

يا نخل أنت غريبة مثلي في الغرب نائية عن الاصل^(٢)
وكان الامير عبد الرحمن الداخل يؤثر الجلوس في علية بالرصافة
ليمتع نظره بمشاهدة الجنان المحيطة بالقصر^(٣) • وكان لقصر الرصافة
سور يحيط به ينفتح فيه أبواب ، وصل اليها من أسمائها اسم باب يعرف
باب الجبل في أيام الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط^(٤) • وظلت
الرصافة من القصور الاثيرة لدى أمراء بني أمية ، فكان ينزلها الامير

-
- (١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٩٠ - ابن الابار ، الحلة السراء ، ص ٣٧ -
ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٠ .
(٢) ابن الابار ، ج ١ ص ٣٧ .
(٣) أخبار مجموعة ، ص ١١٥ . ونستنتج ما ذكره صاحب أخبار
مجموعة انه كان يلجأ الى قصر الرصافة عندما كان يقدم على اصدار احكامه
بالقتل ، ففي هذا القصر أمر بقتل وهب بن ميمون ، وفيه أمر بقتل عيسون
ابن سليمان الاعرابي ، وفيه أيضا أمر بقتل ابن اخته مغيرة بن الوليد ، وهذيل
ابن الصميل ، وكان مغيرة قد ثار على عبد الرحمن وساعده هذيل بن الصميل .
وفي هذا القصر أيضا أمر بحبس يحيى بن يزيد بن هشام اليزيدي وعبيد الله
ابن انان بن معاوية بن هشام الثائرين عليه ، ثم أمر بالقبض على أعوانهما وهم
ابن ديوان الحيشاني وابن يزيد بن يحيى التجيبي وابن أبي غريب . فلما تم له
ذلك أمر بقتلهم جميعا في الرصافة ثم سحبت جثثهم من الرصافة الى الحصا
وهو موضع يقع على رصيف نهر قرطبة أمام القصر حيث صلبت جثثهم
(أخبار مجموعة ، ص ١١٠ ، ١١٥) .
(٤) ابن القوطية ، ص ٨٤ .

عبدالله ، ويتناوب الاقامة في منيتي الرصافة ونصر . وفي قصر الرصافة أقام أردون الرابع ملك قشتالة المخلوع ، بعد أن وعده الخليفة الحكيم المستنصر بنصرته ومساعدته على استرجاع عرشه^(١) .

وقد آثر أمراء الاندلس بعد عبد الرحمن الداخل هذه المنية وزادوا في عمارتها ، وتنافس الشعراء في وصفها حتى أيام ابن سعيد^(٢) . وظلت الرصافة بعد انتشار عقد الخلافة منتدى الادباء وملقى الشعراء ، يتبادلون فيها الاشعار ، من ذلك قول قاسم بن عبود الرياحي :

استقيها ازاء قصر الرصافة واعتبر في مآل الخلافة
وانظر الافق كيف بدل أرضا كي يطيل الليب فيه اعترافه^(٣)

وأصبحت منية الرصافة بعد سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين مقرا للآباء الفرنسيين ، وقد تبقى منها اليوم بعض آثار جدران وقاعات ، وفي جوف هذه الاطلال باب يؤدي الى طريق في باطن الارض يقال أنه كان يصل بين قرطبة والرصافة ، وأن هذا الطريق كان يرتاده الامير عبد الرحمن متى شاء لنفسه الراحة واللهو بعيدا عن أنظار رعيته بالحضرة ، وما زال اسم الرصافة يطلق اليوم على موضع المنية التي أقامها عبد الرحمن ، وهناك نخلة هرمة قدم عليها العهد حتى تأكلت أجزاء منها وتداخلت فيها قطع الحجارة وبقايا أبنية قديمة ، وتذكر الروايات الاسبانية المعاصرة أنها نخلة عبد الرحمن^(٤) .

ولم يكن قصر الرصافة الذي أقامه عبد الرحمن القصر الوحيد في قرطبة الذي يشير الى انتقال التأثيرات السوروية الى الاندلس ، فهناك قصر آخر أورد ذكره مؤرخو العرب يعرف بقصر دمشق ، ويغلب على الظن

(١) المقرئ ، ج ١ ص ٣٦٩ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٥ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٦ .

(٤) ارجع الى مقالي عن العمارة المدنية بالاندلس ، من كتاب الشعب

رقم ٦٤ ، القاهرة ١٩٥٩ ص ١٢٧ .

أنه من بناء عبد الرحمن الداخل بقرطبة ، واتخذته بنو أمية بعد ذلك « ميدان
مراحمهم ومضمار أفراحهم » ، وقلدوا به قصرهم بالمشرق ، وقد شيد هذا
القصر بالصفاح والعمد ، وأبدع بناؤه ، ونمقت ساحاته ، فقد كسيت سقفه
بالزخارف المذهبة والمفضضة ، وأحيطت رياضه وجداوله في ساحاته وأفنيته
بأرضيات مرخمة^(١) . وظلت اطلال هذا القصر قائمة في عصر ملوك الطوائف
وزاره الوزير الشاعر أبو بكر بن عمار ، ومضى في هذه الاطلال ليلة مع
لمة من أتباعه ، وأنشد فيه :

كل قصر بعد الدمشق يذم	فيه طاب الخني ولذ المشم
منظر رائق وماء نمير	وثيري عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندي	عنبر أشهب ومسك أحمر ^(٢)

كذلك يعكس المسجد الجامع بقرطبة الذي أقامه الامير عبد الرحمن
الداخل في سنة ١٦٩ هـ هذه التأثيرات السوزية سواء في زخرفة المعمارية
ونظام عقوده المزدوجة ونظام سقفه ، أو في وضع مثدنة بالنسبة للجامع
أو في تصميم مجنباته حول الصحن ، كما تذكرنا عقود جامع قرطبة المتعامدة
على جدار القبلة بنظائرها في المسجد الأقصى^(٣) . ولا شك أن الامير
عبد الرحمن الداخل استعان بعرفاء ومهندسين سوريين في بناء هذا المسجد
الجامع كما فعل الامير عبد الرحمن الاوسط عندما استعان بعبدة الله بن سنان
أحد الموالى الشاميين في بناء سور اثيبيلية بعد غزوة النورمان لها في
سنة ٢٣٠ هـ^(٤) .

وهكذا كان لعبد الرحمن الداخل الفضل في تطعيم حضارة الاندلس

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٧ ، ١٩٠ .

(٣) El. Lambert, Les-mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al-Andalus, Vol. XIV, 1949 — Creswell, a short account of early muslim architecture, PP. 226-227.

(٤) ابن القوطية القرطبي ، ص ٦٥ .

بالتقاليد السورية ، التي كان يحن إليها في غربته ، فطبقتها على أبنيتها ومنشأته . وتعد الايات الآتية وهي من نظمه عن مدى هذا الحنين :

أيهما الراكب الميمم أرضي	أقر من بعض السلام لبعضي
أن جسي كما تراه بأرض	وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا	وطوى البين عن جفوني غمض
قد قضى الله بالعماد علينا	فعمسى باقتربنا سوف يقضي (١)

ج - تدفق التأثيرات المشرقية على قرطبة منذ عصر عبد الرحمن الأوسط :

تفتحت قرطبة منذ عصر الأمير عبد الرحمن الداخل لتيارات حضارية مختلفة ، بعضها من الشام والحجاز ، والبعض الآخر من العراق في ظل الخلافة العباسية (٢) ، ففي مجال الفقه يسجل دخول المذهب المالكي في الاندلس وانتشاره في قرطبة أهم أحداث عصر الأمير هشام الرضا . وأول من أدخل مذهب مالك في الاندلس أبو عبدالله زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشبظون (ت ١٩٣ هـ) ، وكان قد رحل الى المشرق بعد عام واحد من إمارة هشام ، وكان أهل الاندلس قبله يتفقهون على مذهب الامام الازواعي الشامي (٣) ، ويفسر الاستاذ عبد الحميد العبادي انتشار

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) Charles Diehl & G. Marçais, Histoire du moyen âge, t. III, 1936, P. 404.

(٣) هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمى الازواعي إمام أهل الشام ، والازواع بطن من حمير من ذي كلاع ، وقيل قرية خارج باب الفرائس من دمشق . ولد الامام الازواعي ببعلبك في سنة ٨٨ هـ (٧٠٧ م) وقيل سنة ٩٣ هـ ، ونشأ بالبقيع ثم رحل الى الكرك فدمشق وطاف باليمن والحجاز والبصرة ، واستقر به المقام ببيروت وتوفي بها في صفر سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) وقيل في شهر ربيع الاول ، ودفن في قرية قريبة من بيروت يقال لها حنتوس في قبلة مسجدتها . وكان الازواعي كثير المناقب عرف بزهده وورعه وطول صمته وكان يقول بالجمع بين العمل والعلم والعبادة، ومن مآثور قوله =

هذا المذهب المالكي في الاندلس بعوامل سياسية ، فقد كان النفور بين الدولتين العباسية والاموية في الاندلس من أسباب انتشار مذهب مالك في الاندلس ، لان العباسيين كانوا يتبعون المذهب الحنفي ، ولان مالك نفسه لم يكن يستريح الى سياسة العباسيين^(١) ، في حين عبر عن رضائه عن مذهب هشام وحسن سيرته عندما نقلها اليه شبطون ، فقال : « ليت الله زين موسمنا بمثل هذا »^(٢) . ومن المعروف أن المذهب المالكي يعتمد في استنباط أحكامه على القرآن والسنة ولم يلجأ الى الرأي الا في حالات الضرورة القصوى . كذلك رحل في عصر هشام عدد آخر من رواة الحديث أمثال فرغوس بن العباس ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبي هند ، ويحيى ابن يحيى الليثي ، فلما رجعوا الى الاندلس وصفوا ما رأوه من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته بالاندلس ، فانتشر يومئذ رأيه وعلمه في الاقطار الاندلسية^(٣) .

وفي مجال نظم الحكم امتثل أمراء الاندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل أبا جعفر المنصور ، واحتذوا حذوه في توطيد اركان الدولة ووثاقة السلطة : فالحكم الربضي أول من جند الاجناد المرتزة بالاندلس على نحو ما فعل المأمون والمعتصم بالنسبة للأتراك ، وجمع الاسلحة والعدد ،

== في ذلك : « لا يستقيم الايمان الا بالقول ولا يستقيم القول الا بالعمل ولا يستقيم الايمان والقول والعمل الا بنية توافق السنة » . وقد بلغ الاوزاعي القمة في الاجتهاد وعرف عنه فصاحته وفقهه واتباعه السنة ومجانbته للبدعة . وكان قد اخذ عن عدد من التابعين أمثال عطاء بن أبي رباح ومكحول ومحمد بن ابراهيم التيمي المحدث ويحيى بن أبي كثير وابن شهاب الزهري وقتادة (راجع في ترجمته : محاسن الساعى في مناقب الامام أبي عمرو الاوزاعي ، نصوص جمعها زين الدين بن تقي الدين بن الخطيب ونشرها الامير شكيب ارسلان ، بيروت ١٩٦٧ - شفيق طيارة ، الامام الاوزاعي ، بيروت ١٩٦٥) .

(١) عبد الحميد العبادي ، المجلد في تاريخ الاندلس ، العدد الاول من المكتبة التاريخية ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٨٩ .

(٢) ابن القوطية ، ص ٤٣ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٢١٨ .

(٣) القرى ، ج ٢ ص ٢٥١ وما يليها .

واستكثر من الحشم والحواشي ، وارتبط الخيول على الباب الجنوبي من قصره المطل على النهر ، واتخذ الممالك ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وبلغت عدتهم خمسة آلاف (١) ، وكان له عيون يطالعونه بأحوال الناس (٢) ، فإذا أئتمى إليه البريد عن ثائر عاجله قبل استحكام أمره ، فلا يشعر هذا الثائر حتى يحاط به (٣) . وعبد الرحمن الأوسط هو أول من فخم السلطنة بالاندلس فنظم الشرطة وميز ولاية المدينة عن ولاية الاسواق ، وأحدث بقرطبة دار السكة ، وضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ دخل المسلمون الاندلس ، وأول من اتخذ للوزراء بيتا للوزارة في قصره (٤) ، واتخذ القصور والمنتزهات ، وكوسا الامارة . أبهة الجلالة (٥) ، وأحدث الطرز (٦) .

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط شهدت قرطبة سيلا من التأثيرات العراقية في الفنون والآداب ، فقد كان الامير عبد الرحمن رجلا على مستوى رفيع من الثقافة والعلم ، وكان عالما متبحرا في علوم الشريعة والفلسفة (٧) ، كما كان شاعرا مطبوعا ذا همة عالية (٨) احتضن العلماء والادباء ، ورفع قدر رجال العلم والادب والفن من ضاق المشرق الاسلامي بمواهبهم ، فأحسن استقبالهم ، وأكرم وفادتهم . وقد تأثر المجتمع القرطبي في عصره بالتقاليد العراقية التي أخذت تغزو الاندلس ، وتمتزج بالتقاليد الشامية ، وتؤلف فيما بعد طابعا أندلسيا اصيلا تميزت به الاندلس منذ خلافة عبد الرحمن الناصر لدين الله حتى سقوط مملكة غرناطة ، ويكفي دليلا على

-
- (١) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٣٩ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٧ .
(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٧ .
(٣) أخبار مجموعة ، ص ١٣٠ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣١٨ - ابن الخطيب ، ص ١٤ - المقرئ ، ج ١ ص ٣٢٠ .
(٤) ابن القوطية ، ص ٦٢ - ابن سعيد ، ج ١ ص ٤٦ .
(٥) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٦ .
(٦) نفس المصدر ، ص ١٣٦ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٠ .
(٧) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣٠ - المقرئ ، ج ١ ص ٣٢٥ .
(٨) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٥ .

ذلك فيما يختص بالتحف والذخائر أنه استجلب الى الاندلس روائع الحلى ونقيس الجواهر مما كانت تحتويه قصور بغداد ، وذلك بعد مقتل الامين ، مثل عقد الشفاء ، وأعلاق زبيدة. بنت جعفر^(١) . وفي عهده قدم المغني الشهير الحسن بن علي بن نافع المعروف بزرياب الى قرطبة في سنة ٢٠٦هـ . (٨٢١ م) ، وكان مولى للمهدي العباسي ، وتلميذا لكثير الموسيقيين في بلاط الرشيد . وقد ركب الامير عبد الرحمن نفسه لاستقباله وتلقيه ، وبالغ في اكرامه ، فانزله في دار من أعظم دور قرطبة حمل اليها جميع ما يحتاج اليه ، ورتب له الاقطاعات والرواتب . ويعتبر زرياب المؤسس الحقيقي لمدرسة الغناء والموسيقى الاندلسية ، وقد طعم الحياة الاجتماعية العامة في الاندلس وآداب المحادثة والمجالسة بكثير من التقاليد العراقية الفارسية^(٢) . وهكذا كان اقبال زرياب على بلاط الامير عبد الرحمن الاوسط نقطة تحول حاسمة في تاريخ وحضارة قرطبة . والفضل في هذا التحول يرجع بدون أدنى شك الى الامير عبد الرحمن الذي يعتبر أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة^(٣) ، ولم يتم تفخيم البلاط الاموي في الاندلس وتحويله الى ترف قصور الخلفاء العباسيين ببغداد الا بفضل احتضان هذا الامير لرجال العلم والفن الوافدين من المشرق وتشجيعه لنشر بذور الحضارة الاسلامية الشرقية في الاندلس . فزرياب على حد قول آنخل جنثالث بالنشيا مثلاً «لم يستهو أفئدة أهل قرطبة بصوته وجمال أغانيه فحسب ، بل بأدابه الاجتماعية وملابسه وطريقته في ارسال شعره وولائمه البديعة التي كان يتفنن في ترتيبها ، فأخذ الناس عنه ذلك كله ، وأصبح ذوقه مقياس الذوق لاهل قرطبة ، وأصبحت ملابسه

(١) ابن سعيد ، ج ١ ص ٤٦ - ابن عداري ، ج ٢ ص ١٣٦ - ابن الخطيب ، ص ٢٠ .
(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ٢٣٤ ، ومقاله عن فن الغناء والموسيقى بالاندلس ، دائرة معارف الشعب عدد ٦١ ص ١٠٥-١٠٦ .
(٣) ابن عداري ، ج ٢ ص ١٣٦ .

النموذج الذي يحتذيه القرطبيون في اعداد ملابسهم ، ومن ذلك الحين اجهد حكام الاندلس في أن يكون لقصورهم مجد أدبي يحاكي ما كان لقصور خلفاء المشرق : فاهتموا برعاية الآداب والعلوم والفنون ، حتى تصل قرطبة الى مستوى يضاهي ما وصلت اليه دمشق وبغداد (١) . كذلك اجتذب عبد الرحمن الاوسط بتشجيعه لوفود المشاركة المغني عبد الواحد الاسكندراني ، وكان حدثا متظرفا أدناه الامير اليه ثم استندمه (٢) .

وعمل الامير عبد الرحمن الاوسط على اقتناء الكتب النادرة ، فبعث عباس بن ناصح الجزيري الى المشرق للبحث عن الكتب القديمة النادرة ، فأتى له بالسند هند وغيره ، ويعتبر عباس بن ناصح المذكور أول من أدخلها الاندلس ، وعرف أهلها بها ، ونظر هو فيها (٣) .

وتتجلى التأثيرات المشرقية العاسية في بلاط بني حجاج إشبيلية ، فقد كان بلاطهم في إشبيلية لا يقل عظمة عن بلاط بني أمية بقرطبة ، وكان ابراهيم بن حجاج يقلد أمراء بني أمية في احاطة نفسه بهالة من العظمة والترف ، واستقدم الشعراء والعلماء ، فقصده العذوي من الحجاز فأكرمه ورفع منزلته (٤) ، وقصده النحوي أبو محمد العذري من بغداد (٥) ، وذكروا انه سمع يجارية بغدادية اسمها قمر ، فوجه بأموال عظيمة الى المشرق لابتياح هذه الجارية ، الى أن استقرت بدار مملكته إشبيلية ، وكانت كالبدر المنير ذات بيان وفصاحة ومعرفة بالالحن والغناء (٦) .

(١) أنجل جنثالث بالنشيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٤٠ .

(٢) ابن القوطية ، ص ٧٤ .

(٣) ابن سعيد ، ج ١ ص ٤٥ .

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٩٣ .

(٥) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi-Provençal, Leiden, 1932, t. II, P. 89 — Georges Marçais, Histoire du moyen âge, t. III, P. 410.

(٦) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٩٤ .

وبالغ الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر في تطعيم حضارة الاندلس
بالتقاليد المشرقية ، فسعى الى استقدام المغنين والمغنيات من المشرق ، فاجلب
عددا من الجوارى والمغنيات من الاسكندرية في سنة ٣٤٤ هـ (١) ، واعتمد
على فتيانه الصقالية في القيادات العسكرية وفي المناصب الادارية . وبعد
الرحمن الناصر هو الذي استقدم أبا علي اسماعيل بن القاسم القالي اللغوي
من المشرق في سنة ٣٣٠ هـ ، وأمر ابنه وولي عهده الحكم باستقباله عند
نزوله بالاندلس ، وباصطحابه الى قرطبة تكريما له ، فسار معه الحكم في
موكب جليل حتى وصل قرطبة . واختص أبو علي القالي بالحكم المستنصر ،
وباسمه طرز كتاب الامالي ، وكان الحكم يعينه على التأليف بواسع العطاء ،
ويشرح صدره بالافراط في الاكرام (٢) .

والحكم أيضا هو الذي بعث في طلب كتاب الاغانى لابي الفرج
الاصفهانى ، وذفع فيه ألف دينار ، فأرسل اليه أبو الفرج نسخة مكتوبة من
هذا الكتاب قبل أن يصدر في بغداد نفسها ، كما ألف له كتابا في أنساب
قومه بني أمية (٣) . وفي عصر المنصور بن أبي عامر استقدم سعيد البغدادي
الشاعر من بغداد ، وعهد اليه باملاء كتاب على كتابه في جامع الزاهرة . ومن
الناحية العمرانية حرص الخليفتان الناصر والحكم المستنصر على تجميل
قرطبة بالمباني العظيمة حتى أصبحت تنافس بغداد كبر مساحة وبهاء عمارة .

-
- (١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ص ١٨٥ - أبو الفداء ، المختصر
في اخبار البشر ، ج ٣ ص ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٢) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ص ١٤٦ - المقري ، ج ١ ص ٢٦٢ .
(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٣١٤ .

قرطبة في عصر خلفاء بني أمية العظام

١ - تقدم الحركة العمرانية والعامة في قرطبة الخلفية :

كان الامويون يخطبون لانفسهم بالامارة ، فلما تولى عبد الرحمن ابن محمد (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) واستقامت له الاندلس ، وأطل البلاد عهد من الاستقرار السياسي ، تلقب بألقاب الخلافة ، وتسمى بالناصر لدين الله ، وذلك في ٢٨ ذي القعدة سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) ليوطد مركزه في داخل الاندلس وخارجه ، ويفرض هيئته في النفوس . وقد حرص الناصر على جعل حاضرتة قرطبة جديرة بأن تكون حاضرة الخلافة ، فأخذ يحيط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء ، وقامت في قرطبة حركة معمارية لم تشهد لها نظيرا من قبل ، ونشطت هذه الحركة على وجه خاص منذ سنة ٣٢٥ هـ ، واستمرت في عهد ولده الحكم المستنصر بالله ، فأُنشئت مدينة الزهراء ومنية الناعورة ، وأضيف الى قصر الخلافة بقرطبة مجالس وقاعات ، ثم أنشئت مدينة الزاهرة في خلافة هشام المؤيد ، واتصلت العمارة في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة ، بحيث كان يمشي فيها لضوء السرج الممتدة عشرة أميال^(١) . كان الناصر شغوفاً بالبنيان ، فخصص له ثلث أموال جبايته ، وبهذه الاموال « أسس الاسوس ، وغرس الغروس ، واتخذ المصانع والقصور »^(٢) ، ولم يبق له في القصر « الذي هو من مصانع أجداده ومعالم أوليته بنية الا وله فيها أثر محدث اما بتجديد أو بتزييد »^(٣) .

وشهدت قرطبة في عهده عصرا من الرخاء والازدهار لم تشهده حاضرة

(١) ابن حوقل ، ص ١٠٧ - المقري (نقلا عن الشقندي) ج ٢ ص ٦٦٥ ، ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٣٥ .

من قبل ، ويرجع الفضل في كل ما أصابته قرطبة من ازدهار ورخاء بالاضافة الى تهمم الخليفة بحاضرتة الى جهود وزرائه وعلى الاخص وزيره عبد الملك ابن جهور، وذو الوزارتين أحمد بن عبد الملك بن شهيد الذي يقول عنه ابن خاقان في المطمح : « مفخر الامامة وزهر تلك الكمامة ، وصاحب الناصر عبد الرحمن ، وحامل الوزارتين على سموهما في ذلك الزمان ، استقل بالوزارة على ثقلها ، وتصرف فيها كيف شاء على حد نظرها ، والتفات مقلها ، فظهر على أولئك الوزراء ، واشتهر مع كثرة النظراء ، وكانت اماره عبد الرحمن أسعد اماره ، بعد عنها كل نفس بالسوء أماره ، فلم يطرقها صرف ، ولم يرمقها محذور بطرف ، ففرع الناس فيها هضاب الاماني ورباها ، ورتعت طبائوها في ظلال ظباها ، وهو أسد على برائته رابض ، وبطل أبدا على قائم سيفه قابض ، يروع الروم طيفه ، ويجوس خلال تلك الديار خوفه ، ويروي بل يحسم كل آونة سيفه ، وابن شهيد ينتج الاراء ويلقحها ، ويفقد تلك الانحاء وينقحها ، والدولة مشتملة بغنائها ، متجملة بسنائها ، وكرمه منتشر على الآمال ، ويكسو الاولياء بذلك الاجمال ، وكان له أدب تزخر لججه ، وتبهر حججه » (١) .

وكان عهد الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) عهد سلم واستقرار ، بلغت الحضارة الاسلامية في الاندلس فيه ذروتها ، ووصلت قرطبة حاضرة الخلافة الى قمة البهاء والعظمة ، وأصبحت تنافس مدن العالم الكبرى بغداد وروما والقسطنطينية في الاتساع والتخطيط وفي الحضارة ، وكان المستنصر محبا للعلوم ، جماعا للكتب على أنواعها ، جمع منها ما لم يجمعه أحد من ملوك الاندلس قبله ، وكان يشبه بالخليفة المأمون في معرفته بالطب والفلسفة والفلك بالاضافة الى العلوم الدينية واللغوية والادبية ، وكان يستجلب الى مكتبته المصنفات من شتى الاقاليم ، ويبدل في شرائها الاموال الكثيرة حتى ضاقت عنها خزائنه ، كما كان جماعا للتحف القديمة ، ويتجلى ذلك في بقايا

(١) المقرئ ، ج ١ ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

ناوسين كبيرين من الطراز اليوناني الروماني عثر عليهما في خزان صغير بقصره في مدينة الزهراء^(١) ، وفي عهد هشام المؤيد عرفت قرطبة للمرة الاخيرة ازدهارا يشبه الوهج المتألق الذي يغمر الافق عند الغروب ، ولكنه ما يلبث أن يختفي سريعا ، فقد أقام الحاجب محمد بن أبي عامر لنفسه مدينة عرفت بالزاهرة ، وأسس بالقرب منها منية عرفت بالمنية العامرية نسبة اليه ، ووصلت قرطبة في أيامه الى أقصى اتساع عمراني لها، وأصبحت تضاهي بغداد في الاتساع وضخامة الاعمال^(٢) .

ب - وصف كتاب العرب لقرطبة في عصر الخلافة :

وقد وصفها مؤرخو العرب وجغرافيوهم أبعد وصف ، فيقول الرازي^(٣) (ت ٣٢٤) : « قرطبة أم المدائن وسرة الاندلس ، وقرارة الملك في القديم والحديث والجاهلية والاسلام ، ونهرها أعظم أنهار الاندلس ، وبها القنطرة التي هي احدى غرائب الارض في الصنعة والاحكام ، والجامع الذي ليس في بلاد الاندلس أكبر منه »^(٤) ، ووصفها أحد العلماء فقال : « أما قرطبة فهي قاعدة الاندلس وقطبها وقطرها الاعظم ، وأم مدائنها ومساكنها ومستقر الخلفاء ، ودار المملكة في النصرانية والاسلام ، ومدينة العلم ، ومستقر السنة والجماعة ، نزلها جملة من التابعين وتابعي التابعين ، ويقال نزلها بعض الصحابة ، وفيه كلام . وهي مدينة عظيمة أزلية من بنيان الاوائل ، طيبة الماء والهواء ، أحدقت بها البساتين والزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب ، وبها المحرث العظيم الذي ليس له في بلاد الاندلس نظير ولا أعظم منه بركة »^(٥) . وقال عنها المقدسي

(١) جومث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع والدكتور السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٦٨ ص ٢١٣ .

(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٣ .

(٣) هو أحمد بن محمد بن موسى الرازي .

(٤) المقرئ ، ج ٢ ص ٨ .

(٥) نفس المرجع ، ج ٢ ص ٨ .

(ت ٣٨٨) : « قرطبة هي مصر الاندلس ، سمعت بعض العثمانية يقول : هي أجمل من بغداد في صحراء يطل عليها جبل ٠٠٠ ومن ثم ميرة قرطبة وثمارها كثيرة ، وصف ما شئت من طيبها ورحبها فانها جنة الاندلس على ما حكى له (١) » . ووصفها ابن حوقل فيما يقرب من سنة ٣٥٠ بقوله : « وأعظم مدينة بالاندلس قرطبة ، وليس بجميع المغرب لها شبيه ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل وسعة رقعة ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق ، ويزعم قوم من سافرتها الواصلين الى مدينة السلام ، أنها كأحد جانبي بغداد ، وذلك أن عبد الرحمن بن محمد صاحبها ، ابتنى في غربها مدينة وسماها بالزهراء في سفح جبل حجر أملس يعرف بجبل بطلش ، وخط فيها الاسواق ، وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمتنزهات ، واجتلب اليها العامة بالرغبة ، وأمر مناديه بالنداء في جميع أقطار الاندلس ألا من أراد أن يبتني دارا أو يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله من المعونة أربع مائة درهم ، فتسارع الناس الى العمارة ، وتكاثفت الابنية وتزايدت فيها الرغبة ، وكادت الابنية أن تتصل بين قرطبة والزهراء ، ونقل اليها بيت ماله وديوانه ومحبسه وخزائنه وذخائره ، ٠٠٠ وقرطبة وان تلك كأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقه به ، وهي مدينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة ورحاب فسيحة » (٢) . وقال الحجاري (ت ٤٨٩) يصفها : « وكانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الاسلام ، ومجتمع علماء الانام الاعلام ، وبها استقر سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية ، واليهما كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء ، اذ كانت مركز الكرماء ، ومعدن العلماء ، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب ، ويبساري فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب ، ولم تبرح ساحاتها بحر عوالي ، ومجرى

(١) المقدسي البشاري ، احسن التقاسيم ، ص ٢٣٣ .
(٢) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١١١ - ١١٣ ، ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، بيروت ١٩٥٧ ص ٣٢٤ .

سوابق ، ومبسط معالي وحكى حقائق ، وهي من بلاد الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد والزور من الاسد ، ولها الداخل الفسيح والخارج الذي يتمتع البصر بامتداده ، فلا يزال مستريحا وهو من تردد النظر طليح^(١) » . وقال الحنجاري أيضا : « حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة هي كانت منتهى الغاية ومركز الراية ، وأم القرى وقرارة أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الاقليم وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الاسلام وحضرة الانام ، ودار صوب العقول وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الارض وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائعة ، وصنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب في تبرز القوم حديثا وقديما على من سواهم أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط الا على البحث والطلب لانواع العلم والادب »^(٢) . ووصفها الشريف الادريسي في حدود سنة ٥٤٨ هـ فقال : « هي قاعدة بلاد الاندلس وأم مدنها ودار الخلافة الاسلامية ، وفضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أظهر من أن تستر ، واليهم الانتهاء في السناء والبهاء ، يلهم أعلام البلاد وأعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب وطيب المكسب وحسن الزي في الملابس والمراكب وعلو الهمة في المجالس والمراتب ، وجميل التخصص في المطاعم والمشارب مع جميل الخلائق وحميد الطرائق ، ولم تخل قرطبة قط من أعلام العلماء وسادات الفضلاء ، وتجارها مياسير لهم أموال كثيرة وأحوال واسعة وهم عليّة »^(٣) . ووصفها أبو يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن الموحدى (ت ٥٨٠ هـ) لمحمد بن عبد الملك بن سعيد بقوله : « ان ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرة ملكهم لعلى بصيرة ،

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٩ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ص ٩ .

(٣) الادريسي ، وصف المغرب والاندلس من كتاب نزهة المشتاق ، نشره دوزي ودي غويه ، لندن ١٨٦٦ ص ٢٠٨ ، الحميرى ، صفة جزيرة العرب ، منتخبة من كتاب الروض المعطار ، نشره ليفي برونفسال ، القاهرة ١٩٣٧ ص ١٥٣ .

الديار الكثيرة المنفسحة ، والشوارع المتسعة ، والمباني الضخمة ، والنهر الجاري ، والهواء المعتدل ، والخارج النضر ، والمحراث العظيم والشعراء الكافية ، والتوسط بين شرقي الاندلس وغربها (١) . كذلك وصفها أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد (ت ٦٤٠) بقوله : « وهي من أحسن بلاد الاندلس مباني وأوسعها مسالك وأبرعها ظاهرا وباطنا ، وتفضل اشبيلية بسلامتها في فصل الشتاء من كثرة الطين ، ولاهلها رياسة ووقار ، ولا تزال سمة العلم متوارثة فيهم الا أن عامتها أكثر الناس فضولا وأشدهم تشنيعا وتشغيبا ، ويضرب بهم المثل ما بين أهل الاندلس في القيام على الملوك والتشنع على الولاة ، وقلة الرضا بأمورهم ... » (٢) .

ج - السفارات السياسية الأجنبية الى قرطبة في عصر الدولة الاموية :

١ - السفارات البيزنطية :

يعتبر عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء بني أمية في الاندلس ، فقد اشتهرت أيامه ، وبعد صيته ، وانتشرت بالعدوة طاعته ، وعلت على منابر الاندلس كلمته ، وتوحدت البلاد بعد انقسامها وقضى على الثوار والمتمردين ، واستنزلهم بعد أن كان خطرهم قد استفحل في عهد المنذر بن محمد ، وبلغت الاندلس في عهده ذروة الازدهار السياسي والاقتصادي ، وهكذا تمهد ملك الناصر وعظم أمره ، وهابته ملوك المسيحية ، ومدت اليه الامم النصرانية من وراء الدروب يد الازعان (٣) ، وسعت الى مهادنته وكسب مرضاته ، وازدلفت اليه سعيا لموادعته ومتاحفته بعظيم الذخائر والهدايا . وتتمثل العظمة التي بلغت قرطبة في الاحتفالات التي كان يقوم بها الخلفاء لاستقبال السفراء الاجانب بقصور الخلافة . وأولى السفارات السياسية التي قدمت الى قرطبة سفارة بيزنطية من قبل

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ١٠ .

(٢) نفسه ، ج ٢ ص ١٠ .

(٣) ويذكر المقرئ من بين تلك السفارات الأوروبية سفارة ملك الصقالبة سنة ٣٤٣ ، وسفارة ملك الالمان وسفارة ملك الفرنجة (المقرئ ج ١ ص ٣٤٢) .

الامبراطور تيوفيل Théophile (توفلس في المصادر العربية ٨٢٩ - ٨٤٢ م) برئاسة قراطيوس الرومي Karatius وذلك في سنة ٢٢٥ هـ (٨٣٩ - ٨٤٠) في عصر الامير عبد الرحمن الاوسط ، وقد وردت تفصيلات هذه السفارة كاملة في كتاب المقتبس لابن حيان ، وفي هذه السفارة حمل رسول تيوفل الى عبد الرحمن الاوسط هدية ورسالة يطلب منه فيها مواصلته ، ويرغب في استرجاع الشام انتقاما من المأمون والمعتصم اللذين هاجما بلاده^(١) ، وعبر عنهما بابني مراحل وماردة . وفي هذه الرسالة يطلب الامبراطور أيضا لنفسه جزيرة اكريطش التي كان قد نزلها الربضيون واحتلوها في عهد ميشيل الثاني العموري بعد خروجهم من الاسكندرية في سنة ٢١٢ هـ ، وأنشأ فيها أبو حفص عمر البلوطي دولة ظلت تحكم اكريطش حتى استولى عليها البيزنطيون بقيادة تقفور فوقاس في عهد الامبراطور رومانوس الثاني في سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ)^(٢) .

وقد رد الامير عبد الرحمن الاوسط على هذه السفارة بسفارة مماثلة مثله فيها يحيي الغزال من كبار رجال الدولة ، وكان مشهورا بشعره

(١) كانت هزيمة تيوفيل في ٢ أغسطس سنة ٨٣٨ هـ على يدي المعتصم في موقعة عمورية كارثة كبرى بالنسبة للدولة البيزنطية ، وكانت السبب في توجيهه بطلب العون الى الامير عبد الرحمن الاوسط (راجع : Diehl, Histoire du moyen-âge, P. 312, 323) . ولم تكن سفارته الى الاندلس السفارة الوحيدة الى غرب البحر المتوسط ، فقد ارسل سفارة اخرى الى مدينة انجلهايم حيث كان بلاط لويس الثاني في ١٧ يونيو ٨٣٩ ، وسفارة ثالثة الى البندقية في سنة ٨٤٠ م ، كانت الغاية منهما انشاء حلف مع الفرنجة ومع البنادقة ضد مسلمي المغرب ونعني بهم الاغلبة الذين هددوا الممتلكات البيزنطية في ايطاليا بنزولهم على سواحل قلورية (كالابريا) وابوليا ، وباستيلائهم على طارنت (ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٩٩ - أسد رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ، ج ١ بيروت ١٩٥٥ ص ٣٢٦ - السيد عبد العزيز سالم ومختار العبادي ، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٣٤ ، ١٣٥) .

(٢) تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ، ص ٨٩ - ٩٤ .

وكياسته ، ويحيي صاحب المنيقلة ، وبعث معهما رسالة ناقش فيها ما جاء في رسالة الامبراطور فقرة فقرة (١) .

ثم كانت السفارة البيزنطية الثانية في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، اذ وفد عليه رسل الامبراطور البيزنطي قنسطنطين السابع في صفر سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩) يحملون اليه هدية رائعة بقصد الرغبة في ايقاع المؤالفة واتصال المكاتبه ، وتأهب الناصر لاستقبالهم والاحتفال بقدمهم احتفالا فخما مهيبا يعبر عن عظمته ويليق بجلالة شأنه ، فأرسل لاستقبالهم بيجانة ممثلين له على رأسهم الفقيه يحيي بن محمد بن الليث راققوهم من الميناء الى العاصمة ، فلما اقترب الموكب من قرطبة خرج الى لقاءهم القواد في العدد والعدة والتعبئة ، فتلقوهم قائدا بعد قائد على نحو ما تفعل الدول المعاصرة عند استقبال شخصية دولية هامة ، ثم أرسل الناصر في تلقيهم الفتيين الكبيرين ياسرا وتاما أعظم قواد الناصر وأصحاب الخطوة معه وحرمة مبالغة في الاحتفال بهم والاكرام لهم ، فرافقاهم الى أحد قصور قرطبة التي خصصت لاقامتهم وهو منية ولي العهد الحكم المنسوبة الى نصير بعدوة قرطبة في ربض شقندة (٢) . وقد أحيط هذا القصر بالحراسة المشددة ، ومنع الناس خاصتهم وعامتهم من الاقتراب منه ، ثم أفرد لخدمتهم والقيام بشؤونهم وحجابتهم رجال تخيروا من الموالي ووجوه الحشم ، وجعل على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلا يمثل كل أربعة منهم سفيرا من سفراء الروم الاربعة . وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر مقيما يومئذ في قصره بمدينة الزهراء ، فلما مضى ما يقرب من الشهر على وفود هؤلاء الرسل ، تحرك الناصر من قصر الزهراء الى قصر قرطبة ليلتقى وفود الروم عليه ، وفي يوم السبت ١١ من ربيع الاول تأهب الناصر لاستقبالهم ، وفي ذلك اليوم ركبت العسكر بالسلاح في أكمل شكة، وزين القصر الخلافي

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، تعريب السيد عبد العزيز سالم ، ص ١٠١ - تاريخ المسلمين في الاندلس ، ص ٣١٦ .
(٢) المقرئ ، ج ١ ص ٣٤٣ .

بأنواع الزينة وصنوف الستور ، وحمل السرير الخلافي بمقاعد الانباء والاخوة والاعمام والقراة ، ورتب الوزراء والخدمة في مواقعهم^(١) . وأعد بهو المجلس الزاهر لهذا الغرض ، فجلس الخليفة في صدر المجلس وجلس الى يمينه أبنائه وهم بالترتيب : ولي العهد الحكم ثم عبيد الله ثم عبد العزيز ثم الاصبح ثم مروان وجلس عن يساره المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان ، وتخلف عبد الملك لرضه ، وتوزع الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً ، والتف حولهم الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم ، وقد بسط صحن القصر أجمع بعناق البسط وكرائم الدرائك ، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفع الستور^(٢) . ثم تقدم السفراء وقد أبدوا هيبته من فخامة السلطان وروعة المكان ، وسلموا كتاب الامبراطور قسطنطين الى الخليفة مسطوراً في رق أزرق اللون مكتوب عليه باليونانية بحروف الذهب ، وقد سجل في أعلاه في سطر منه « قسطنطين ورومانين (ابنه) المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم » وفي سطر آخر « الى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالاندلس أطال الله بقاءه » . وفي طيه مدرجة زرقاء اللون مكتوبة بالفضة تتضمن وصف هديته الى الخليفة ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل رسم على وجهه صورة المسيح ، وعلى الوجه الاخر صورة قسطنطين وصورة ابنه ، وكان الكتاب موضوعاً بداخل درج من الفضة وغطاؤه من الذهب ، نقش على صورة تمثل الملك مزججة بألوان بديعة ويغطي الدرج جعبة ملبسة بالديباج^(٣) . ثم أمر الحكم الفقيه محمد بن عبد البر أحد أعلام الاندلس بأن يخطب خطبة تناسب هذا الاحتفال ، فلما حاول التكلم بهره هيبة الموقف فوجم ، وغشى عليه ثم سقط على الارض ، فتكلم أبو علي التالي ، ولكنه لم يكذب يبدأ

(١) المقرئ ، ج ١ ص ٣٤١ .

(٢) نفسه ، ص ٣٤٤ .

(٣) نفسه .

حتى توقف ، وارتج عليه ، فقام الفقيه المنذر بن سعيد البلوطي وألقى خطابا رائعا سحبه سحبا كأنما كان يحفظه من قبل بمدة (١) . ولما انتهى الحفل ، عاد السفراء الى القصر ، وتأهبوا للعودة الى بلادهم ، فسير معهم الناصر سفيرا الى بيزنطة يحمل الى الامبراطور هدية حافلة توكيدا للعلاقات الودية بينهما ، هو هشام بن هذيل ، الذي نجح في مهمته وعاد الى قرطبة بعد سنتين ومعه سفراء جدد من قبل الامبراطور . وقد تجددت العلاقات بين بيزنطة وقرطبة مرة ثانية في حجابة عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر عندما تلقى سفارة من الامبراطور بسيل الثاني (٢) .

٢ - سفارات ملوك اسبانيا المسيحية الى قرطبة .

استطاع عبد الرحمن الناصر أن يحقق وحدة الاندلس فاجتمع شمل المسلمين تحت لوائه ، وأصبحوا يؤلفون قوة كبرى ، كان لها أعظم الاثر في بث الرعب والهلع في نفوس سكان اسبانيا المسيحية ، وسجلت له الوقائع بينه وبين جيوش ليون ونبرة انتصارات هائلة اكتسح بعدها هاتين المملكتين حتى أذعن له أعداؤه بالطاعة ، وهاذنوه ، وبثوا اليه السفارات والهدايا طالبين الصلح . فعندما توفي ردميره الثاني Ramiro II (٩٣١ - ٩٥١) خلفه ابنه أردون الثالث Ordono III (٩٥١ - ٩٥٦) على عرش مملكة ليون ، ولكن أخاه شانجة السمين Sancho el Grueso نازعه ملكه ، وكان فردلنس Fernan Gonzalez قومس قشتالة يؤيد شانجة ، كما كانت تؤيده جدته الملك طوطة Dona Toda ملكة نبرة ، ولهذا السبب عقد أردون الثالث الصلح مع عبد الرحمن الناصر ، وألزم نفسه بأداء الجزية اليه ، فأرسل اليه رسولا من قبله في سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) يطلب منه

(١) المقري ، ج ١ ص ٣٤٥ - ٣٤٨ .
(٢) خالد الصوفي ، تاريخ العرب في اسبانيا ، نهاية الخلافة الاموية ، حلب ١٩٦٣ ص ٦٩ .

السلم فعقد له الناصر^(١) . ثم خلف شانجة أخاه أردون بعد وفاته في سنة ٩٥٦ م ، فأقام عامين ولكن نبلاء ليون وقشتالة ما لبثوا أن عزلوه عن عرشه ، وولوا مكانه على عرش ليون أردون الرابع المعروف بأردونيو الشرير لانهطاط خلقه وذلك في سنة ٩٥٨ ، وقد أيده قومس قشتالة ، وزوجه وابنته دنيا أراكة أرملة أردون الثالث .

اضطر شانجة المخلوع أن يلتبس الامن في حضرة جدته طوطة صاحبة نبرة ، فلجأ الى بنبلوثة ليكون بجوارها وبعث من هناك الى الخليفة الناصر يطلب منه أن يرسل اليه طبيباً ليعالجه من سمته المفرطة ، فأرسل اليه الناصر طبيباً الخاص حسداي بن شبروط اليهودي ، الذي نجح في تخفيف وزنه ، وكان لذلك أطيب الاثر في نفس الملكة طوطة وحفيدها ، فوفدا الى قرطبة في سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) على رأس سفارة كبرى يلتسمان من الخليفة عبد الرحمن أن يساعد شانجة على استرجاع عرش ليون ، فاستقبلهما الناصر استقبالا حافلا ، وأكرم وفادتهما ، وعقد الصلح لشانجة وجدته^(٢) ، وعقدت بين الطرفين معاهدة كسب الناصر من ورائها حصونا من مملكة شانجة مقابل مؤازرته له على استرجاع عرشه ، وبفضل المعونة العسكرية التي أنفذهها الناصر استطاع شانجة أن يسترد عرش ليون في سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) . ولكن شانجة نكث بعهده بعد وفاة الخليفة الناصر . أما أردون الرابع بن القونسو الراهب الذي خلع من العرش بعد استعادة شانجة له ، فقد اضطر الى الالتجاء الى اشتوريش ومن هناك رحل الى برغش . وفي هذه الاثناء هاجم البشكنس فردلند (فرنان جنثال) قومس قشتالة وأسروه ، ولكن غرسية ملك بنبلوثة أفرج عنه ، فبادر فردلند الى

(١) المقري ، ج ١ ص ٣٤٢ . أرسل الناصر محمد بن حسين رسولا من قبله الى اردون بن رديم ومعه شبروط اليهودي ببعض شروط هذا الصلح ، وقد عاد هذا السفير الاندلسي في سنة ٣٤٥ ومعه رد الملك الليوني (ابن عداري ، ج ٢ ص ٣٣٠) .
(٢) المقري ، ج ١ ص ٣٤٢ .

الاتصال في برغش بصهره أردون الرابع ، وأخذنا من هناك يغيران على أراضي الاسلام ، واضطر الخليفة الحكم المستنصر الى اعداد حملة كبرى لوضع حد لهذه الاعمال العدائية ، فخشي أردون الرابع أن تكون هذه الحملة سببا في القضاء عليه ، وكان يطمح في استرداد عرش مملكة ليون من شانجة الذي نكث بعهوده للخليفة الناصر والحكم ، فأرسل يلتبس من الحكم أن يساعده على اعادته الى عرشه ، وعزم على السير الى قرطبة لينتصر بالحكم ضد شانجة ابن عمه ، وبادر الى مدينة سالم حيث التمس من غالب الناصري صاحب هذه المدينة أن يسمح له بالذهاب الى قرطبة لمقابلة الحكم والاستعانة به ، فلما علم الحكم بذلك بعث في طلبه ، وفي ذلك يقول ابن حيان : « ومن آخر صفر من سنة احدى وخمسين ، أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله موليه محمدا وزيادا ابني أفلح الناصري بكتيبة من الحشم لتلقي غالب الناصري صاحب مدينة سالم المورد للطاغية أردون بن أذفونش الخبيث في الدولة ، الممتلك على طوائف من أمم الجلالقة ، والمنازع لابن عمه الملك قبله شانجة بن ردمير ، وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير الى باب المستنصر بالله من ذاته ، غير طالب اذن ولا مستظهر بعهد ، وذلك عندما بلغه عزم الحكم المستنصر بالله في عامه ذلك على الغزو اليه ، وأخذه في التأهب له ، فاحتال في تأميل المستنصر بالله والارتواء عليه ، وخرج قبل أمان يعتقد له ، فجاء به نحو مولاه الحكم ، وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور ، فانزلاهم ، ثم تحركا بهم ثاني يوم نزولهم الى قرطبة ، فأخرج المستنصر بالله اليهم هشاما المصحفي في جيش عظيم كامل التعبئة ، وتقدموا الى باب قرطبة ، فمروا بباب قصرها ، فلما انتهى أردون الى ما بين باب السدة وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله ، فأشير الى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة ، فخلع قلنسوته ، وخضع نحو مكان القبر ودعا ، ثم رد قلنسوته الي رأسه ، وأمر المستنصر

بأنزال اردون في دار الناعورة ، وكان تقدم في فرشها بضروب الغطاء والوطاء ، وانتهى من ذلك الى الغاية ، وتوسع له في الكرامة ولاصحابه» (١)

ثم أذن له الحكم بالثول بين يديه في قصر الزهراء ، واحتفل بذلك اليوم أجل احتفال (٢) ، وقد وعده الحكم بمساعدته واعادته الى عرشه الذي اغتصبه شانجة السمين لقاء تعهده له بالمحافظة على علاقات المودة بينهما وموالاته المسلمين . فلما علم شانجة بذلك خاف على ملكه ، وبادر في نفس هذه السنة بارسال سفافرة من قبله الى قرطبة ، فبعث ببيعه (٣) وطاعته له مع قوامس أهل جليقية وسمورة (Zamora) وأساقفتهم يرغب في قبوله ، ويعاهده على أن ينفذ اتفاقيته مع عبد الرحمن الناصر (٤) . ويرى الاستاذ ليفي بروفنسال أن قرطبة تحولت فجأة ضد أردون الرابع ، فلم تحفل بوجوده ، ويرجح أنه لم يرحل قط عنها ، بل انه مات موتة يكتنفها الغموض في نهاية سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) ، وقد بدد موته المبكر مخاوف شانجة ملك ليون ، فوجد في ذلك فرصة للتراجع والنكث بوعده للحكم ، فبادر بعقد حلف مع قومس قشتالة وملك نبرة وقومس برشلونة وبوريل وميرون ، فلم يجد الحكم بدا من اعلان الحرب على شانجة بعد أن شاهد بنفسه مدى تكفه بوعده وتحالفه مع ملوك المسيحية ضده (٥) ، وصمم على منازلة كل منهم على حدة ، ونجحت خطته نجاحا تجاوز كل تقدير في الحساب ، ثم حاله الحظ بوفاة شانجة مسموما في سنة ٩٦٦ م ، فخلفه ابنه ردمير الثالث (٩٦٦ - ٩٨٢) وكان طفلا في الخامسة من عمره ، فتولت الوصاية عليه عمته دنيا البيرة ، وكان لصغر سن هذا الملك وحدثاته أعظم

(١) المقرئ ، ج ١ ص ٣٦٦ .

(٢) طالع تفصيلات استقبال الحكم لاردون الرابع بالزهراء في المقرئ ، نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٧ - ٣٦٩ .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٥١ - المقرئ ، ج ١ ص ٣٦٠ .

(٤) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Mus., t. II, P. 198

تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٢٩٠ .

Ibid. (٥)

الآثر في انتفاض الامراء عليه وانتشار الفوضى في مملكة ليون ، وانقسمت مملكة ليون على هذا النحو الى امارات صغيرة ، أخذ كل أمير من أمرائها يتوجه الى قرطبة للاستعانة بخليفته ضد خصومه ، وتوالى السفارات على قرطبة منذ عام ٩٦٦ م ، ومن بين هذه السفارات سفارة ملكا برشلونة وطركونة يسألانه تجديد الصلح واقرارهما على ما كانا عليه . ويذكر المقرئ أنهما أرسلتا اليه هدية تتألف من عشرين صييا من الصقالب وعشرين قنطارا من فراء السمور ، وخمسة قناطير من القصدير ، وعشرة أذراع صقلبية ، ومائتي سيف فرنجية ، فتقبل الحكم هذه الهدية ، ووافق على طلبهما بشرط أن يهدما الحصون التي تضر بالثغور الاسلامية وألا يظهرأ عليه ملوك النصرانية الآخرين^(١) . كذلك وفد اليه سفراء غرسية بن شانجة ملك نبرة في جماعة من الاساقفة والقوامس رغبة في اقرار الصلح ، ووفود أم لذريق بن بلاشك أعظم قوامس جليقية ، وقد احتفل الحكم بقدموها احتفالا مشهودا^(٢) .

وفي عهد الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور احتكمت اليه ملوك النصراني فيما شجر بينهم من خلاف ، فتوسط عبد الملك بين قوامس قشتالة شانجة بن غرسية وبين قوامس جليقية مندى بن غند شلب Menendo Gonzalez الوصي على القونسو الخامس ملك ليون الصغير ، وكان شانجة خال القونسو يسعى الى تحية مندى عن الوصاية ، فأرسل عبد الملك بعض نصارى قرطبة ومنهم اصبح بن عبد الله بن ليل الذي احتكم لصالح مندى بن غند شلب^(٣) . فغضب شانجة لهذا القرار ، فنقض العهد بينه وبين عبد الملك ، فخرج اليه عبد الملك وحاربه ، فاضطر شانجة الى التماس السلم ، ووفد بنفسه الى قرطبة ، فأعظم عبد الملك وروده .

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٣٦١ .

(٢) نفسه .

(٣) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٣٦٤ - تاريخ المسلمين في الاندلس ، ص ٣٤٠ .

٣ - وفود أمراء المغرب المواليين للخلافة الاموية الى قرطبة :

كان ظهور الفاطميين في بلاد المغرب يشكل خطرا على دولة الامويين في الاندلس فطن اليه الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فعمد الى محاربة الفاطميين بوسائل مختلفة ، منها تلقيبه باللقاب الخلافة في ٢٨ ذي القعدة سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) وبثه بذور الفتنة بين قبائل البربر في بلاد المغرب ، فانضم اليه بنو ادريس أمراء العدو ، وملوك زناته ، واستولى عبد الرحمن على معبري الاندلس : سبتة في سنة ٩٣١ وطنجة في سنة ٩٢٧ ، وبدأت وفود أمراء الادارسة والزنايين المواليين له تصل الى قرطبة منذ سنة ٣٣٣ هـ . ففي هذه السنة دخل أبو العيش بن عمر بن ادريس في طاعة الناصر ، فأرسل ابنه محمد بن أبي العيش الى قرطبة مؤكدا له طاعته ، فاحتفل الخليفة بقدومه اليه احتفالا عظيما ، فبعث في استقباله القائد أحمد بن يعلي ، ثم استقبله الخليفة في قصر الزهراء ، وبالغ في تكريمه ، واستضافه في قرطبة بقية هذه السنة . وفي نفس السنة قدمت رسل الخير بن محمد بن خزر الزناتي ، وحميد بن يصل الزناتي لابلاغ الناصر دخولهما في مدينة تاهرت واقامتهما الدعوة له ، كما قدم رسولان من قبل أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الثائر بافريقية على أبي القاسم بن عبيد الله المهدي (١) . وفي سنة ٣٣٥ وصل الى قرطبة أيوب بن أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الاباضي رسولا من والده ابي يزيد ، فتلقاء الخليفة الناصر بالاكرام ، وأمر بانزاله في قصر الرصافة ، وأعد له فيه من الفرش والغطاء والانية والآلة ما يليق بأمثاله . وفي العام التالي وصل الى قرطبة حميد بن يصل المكناسي فاستقبل في قرطبة بالزينة والعساكر ، واستقبله الناصر في منتصف المحرم سنة ٣٣٧ بقصر الزهراء استقبالا حافلا ، كما استقبل في ذلك اليوم منصورا وأبا

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣١٨ - ٣٢٠ . ومن الملاحظ ان الخليفة الناصر حارب الفاطميين بأن شجع الثوار عليهم في المغرب وكانت ثورة ابي يزيد تلك اخطر الثورات جميعا على الدولة الفاطمية نفسها ، واستغرقت سنين طويلة .

العيش ابني أبي العيش الادريسي ، ودخل معهما حمزة بن ابراهيم صاحب جزائر بني مزغنا ، فخلع عليهم الخليفة خلعا سنية ، وأذن لهم في الانصراف الى بلادهم^(١) . وفي سنة ٣٣٨ توالى رسل أمراء المغرب من الادارسة وأبناء أبي العيش ورسول البوري بن موسى بن أبي العافية^(٢) . وفي جمادي الآخرة من نفس السنة وفد الى قرطبة فتوح بن الخير بن محمد بن خزر كبير أمراء زناتة بالمغرب وافدا الى الحضرة ومعه وجوه أهل تاهرت ووهران ، وفي عام ٣٤٤ قدم الى قرطبة ابن عم حميد بن يصل ومعه ٣٦ من وجوه كتامة ومن انحاز اليه من عسكر افريقية ، الخارجين على خلفاء الفاطميين ، فأمر الناصر بانزالهم ، وجلس لهم على سريرته بقصر الزهراء ، وخلع عليهم وغمرهم بكرمه وصلاته^(٣) .

وكثر وفود أمراء المغرب الى قرطبة في عصر الخليفة الحكم ، ففي سنة ٣٦٠ تلقى المستنصر يحيى وجعفر ابني علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسي صاحب المسيلة اللذين قدما برأس زيري بن مناد الصنهاجي قائد معد بن اسماعيل الفاطمي وبرؤوس أعيان أصحابه ، وفي ١١ من ذي القعدة عهد الحكم الى محمد بن أبي عامر صاحب السكة والموارث وقاضي اشيلية بالخروج لاستقبال جعفر بن علي ويحيى أخيه ، فخرج ومعه أربعة من عتاق الخيل وبغل أشهب منتقاة من دواب الخليفة بسروج الخلافة ولجمها ، ومعه الاخبية الديباجية وغير ذلك فاحتل ابن أبي عامر بالمرسى الذي خرج فيه جعفر قريبا من مالقة ، واتجه الموكب نحو قرطبة ، فازينت لقدمهم مدينة قرطبة ، وخرج أهلها لمشاهدة هذا الموكب ، وقد استقبلها الحكم في ٢٨ من ذي القعدة استقبالا مهيبا^(٤) ، كما وفد الى قرطبة في تلك الآونة حسن

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٢) نفسه ، ص ٣٢٤ .

(٣) نفسه ، ص ٣٣٠ .

(٤) نفسه ، ج ٢ ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

ابن قنون الحسني وشيعته من الادارسة بعد استنزالهم واستقروا في الدور
التي أعدها الحكم لهم^(١) .

وواصل المنصور بن أبي عامر وابنه من بعده عبد الملك سياسة
اصطناع أمراء المغرب ، فوفد الى قرطبة في عهديهما أعيان البربر ، ونخص
بالذكر منهم زاوي بن زيري بن مناد واخوته الذين نزلوا قرطبة في حجابة
عبد الملك ، فاستقبلهم أروع استقبال ، ووصلهم بصلات سنينة^(٢) .

(١) ابن عذارى ، ص ٣٧٠ .
(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٣٣٧ .

الفصل الثالث

سقوط الخلافة الاموية واثره في اضمحلال قرطبة

(١) الفتنة البربرية

- أ - التفوق العددي للعنصر البربري على العنصر العربي في الاندلس
- ب - غلبة العنصر البربري في عهد سليمان المستعين وتناوجه
- ج - نهاية عصر سليمان المستعين •

(٢) سقوط الخلافة الاموية بقرطبة

- أ - انهيار حزب الرواية
- ب - الصراع بين بني حمود للظفر بالخلافة
- ج - السنين الثمانية الاخيرة للخلافة الاموية

(٣) دثور قرطبة

- أ - المرحلة الاولى
- ب - المرحلة الثانية
- ج - المرحلة الثالثة
- د - المرحلة الرابعة

(٤) المسؤولون عن تكة قرطبة

الفصل الثالث

سقوط الخلافة الاموية واثره في اضمحلال قرطبة

(١)

الفتنة البربرية

١ - التفوق العددي للعنصر البربري على العنصر العربي في الاندلس :

هناك حقيقة تاريخية ثابتة أن العرب الذين دخلوا الاندلس على طوالع ثلاثة^(١) كانوا قليلي العدد بالنسبة الى جموع البربر الهائلة التي استقرت في الاندلس منذ أن افتتحه طارق بن زياد . وسبب هذا التفوق العددي يرجع الى ثلاثة عوامل رئيسية ، الاول : سهولة المجاز من العدو الى الاندلس ، والثاني توافر الثروات الاقتصادية في الاندلس وتضاؤلها في المغرب لكثرة سكانه وقلة خيراته^(٢) ، والثالث استخدام البربر في الجيش

(١) هذه الطوالع الثلاثة هي : طالعة موسى بن نصير في سنة ٩٣ هـ ، ثم طالعة الحر بن عبد الرحمن الثقفي سنة ٩٧ ، ومعظم هاتين الطالعتين من اليمانيين ، وعرفوا في الاندلس بالبلديين ، ثم طالعة بلج بن بشر سنة ١٢٤ ، ومعظمهم من القيسيين وعرف أصحاب هذه الطالعة الثالثة بالشاميين ، وبخلاف هذه الطوالع لم تفد الى الاندلس طوالع أخرى (Isidro de las Cagigas, Andalucia musulmana, Madrid, 1950, PP. 15-16 وتاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ١٢٠) .

(٢) Lévi-Provençal, Histoire de l'Esp. Mus, t. III, P. 168 يؤكد ذلك ما ذكره المقرئ نقلا عن الرازي من تهافت أهل العدو من البربر على نزول الاندلس بعد انتصار طارق بن زياد على جيوش القوط في وادي لكّة ، بغية التماس الغنائم او الاستقرار في هذه البلاد الغنية . يقول الرازي « وتسامع الناس من أهل بسر العدو بالفتح على طارق بالاندلس ، وسعة المغانم فيها ، فاقبلوا نعوته من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا من مركب وقشر ، فدخلوا بطارق . وارتفع أهل الاندلس عند ذلك الى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ، ولحقوا بالجبال » (المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٣) .

الاندلسي في خدمة أمراء بني أمية وخلفائهم منذ أن دخل عبد الرحمن بن معاوية الاندلس . ويهنا من هذه العوامل الثلاثة العامل الثالث ، فقد كان الأمير عبد الرحمن ابنا لامرأة بربرية من نفزة ، وربما كان ذلك سببا في الجهود التي بذلها البربر لحمايته من بطش عبد الرحمن بن حبيب الفهري به طوال السنين الاربعة التي قضاها عبد الرحمن في أرض المغرب ، وربما كان اتسابه لنفزة او ثقته في البربر الذين عاشروهم في خلال هذه السنين الطويلة سببا آخر يفسر اعتماده على قائد من قواد البربر في واقعة المصارة^(١) الى جانب رؤساء الروائية واليمانية ، ومحاوئته الدائمة انشاء مراكز بربرية لتواجه جماعات العرب الثائرة على حكمه^(٢) .

واتبع أمراء بني أمية بعد عبد الرحمن الداخل هذه السياسة ، فأصبح هناك تياران بربريان الى الاندلس : تيار الهجرة من المغرب الجذب الى الاندلس الخصب ، وتيار الخدمة في الجيش الاندلسي ، وكلاهما سار جنبا الى جنب في عهد أمراء بني أمية حتى بداية عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، بحيث أصبح عدد البربر والمولدين يؤلفون الاغلبية العظمى لسكان

(١) هو ابراهيم بن شجرة الاودي ، جعله عبد الرحمن قائدا على فرسان من صحبه من البربر (تاريخ المسلمين في الاندلس ص ١٩٠) .
(٢) Isidro de las Cagigas, op. cit., P. 20 . ويقول المقرئ نقلا عن ابن خلدون : « وكثرت ثورة رؤساء العرب بالاندلس على عبد الرحمن الداخل ونافسوه ملكه ، ولقي منهم خطوبا عظيمة ، فكانت العاقبة له ، واستراب في آخر امره بالعرب لكثرة من قاد عليه منهم ، فرجع الى اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالي » (المقرئ ، ج ١ ص ٣١٢) . وفي موضع آخر يقول المقرئ : « ولما اوقع عبد الرحمن باليمانية الذين خرجوا في طلب ثار رئيسهم ابي الصباح اليحصبي ، واكثر القتل فيهم ، استوحش من العرب قاطبة ، وعلم انهم على دغل وحقد ، فأنحرف عنهم الى اتخاذ الماليك ، فوضع يده في الابتياح ، فابتاع موالي الناس بكل ناحية ، واعتضد ايضا بالبرابر ووجه عنهم الى بر العدو ، فأحسن ان وفد عليه احسانا رغب من خلفه في المتابعة ، قال ابن حيان : واستكثر منهم ومن العبيد ، فاتخذ اربعين ألف رجل صار بهم غالبا على اهل الاندلس من العرب ، فاستقامت مملكته وتوطدت » (المقرئ ، ج ٤ ص ٣٦) .

الاندلس المسلمين^(١) ، ومنذ ذلك الحين أصبحت السياسة الخلافة ترمي الى اصطناع البربر ، والاستكثار منهم في الجيش لهدفين : الاول اضعاف العصبية العربية حسما لحركات الانتزاع ، والثاني مواجهة الخطر الفاطمي^(٢) ولم يقنع سياسة قرطبة الخلافة بهذه السياسة القائمة على اجتذاب البربر الى الاندلس ، واتجهوا الى تنفيذ سياسة توسعية في المغرب : فواصلوا سياسة التواصل الودي التي انتهجها الامير محمد مع الرستميين أصحاب تاهرت وبني مدرار أصحاب سجلماسة وبني صالح أصحاب ناكور^(٣) ، ووطدوا العلاقات مع بقايا الرستميين وبني صالح الذين ظلوا يناوئون الفاطميين حتى بعد سقوط تاهرت وناكور في أيديهم ، بل ان الابناء الثلاثة لسعيد بن صالح صاحب ناكور التي دخلتها القوات الفاطمية بقيادة مصالة ابن حبوس في ٣ من المحرم سنة ٣٠٥ هـ فروا الى الاندلس قبل أن تقمع ناكور في أيدي عسكر مصالة ، ولجئوا الى عبد الرحمن الناصر^(٤) ، الذي

(١) Lévi-Provençal, op. cit., t. III, P. 169.

ويذكر الاستاذ ليفي بروفنسال أن القرن الثامن الميلادي كله شهد سيلا متواصل من الهجرة البربرية قلب نظام التعمير الاسباني ومراكزه السكانية التقليدية ، وفي نفس الوقت شجع على اسلام قسم كبير من الكتلت السكانية الاصلية وطبقة الملاك الاسبان أو القوط تدريجيا (Lévi-Provençal, op. cit., t. III, P. 168).

(٢) Ibid. t. III, P. 173 — تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ،

ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

استولى الفاطميون على المغربين الأدنى والوسط ، اما المغرب الأقصى ، فقد كان مة سما الى امارات مستقلة منها امارة بني مدرار الخوارج بسجلماسة ، وامارة برغواطة الهراطقة على المحيط ، وامارة بني صالح السنين بناكور على ساحل البحر المتوسط ، وامارة الادارسة الشيعية الحسنيين بفاس .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٦١ — ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٤

Lévi-Provençal, La Política africana de Abd al-Rahman III, al-Andalus, Vol. XI, 1946, PP. 355, 362.

(٤) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٩٤ — ابن

عذارى ج ١ ص ٢٤٤

Lévi-Provençal, La Política africana, P. 302.

Terrasse, Histoire du Maroc, t. I, Casablanca, 1949, P. 132.

استقبلهم في مائدة وبجانة أحسن استقبال ، وقد نجح أحدهم وهو صالح ابن سعيد بن صالح في نفس السنة في استرجاع ناكور ، واعتبر عبد الرحمن الناصر هذا الفتح نصرا شخصيا له ، كما أن صالح بدوره أعلن تبعيته لعبد الرحمن الناصر ، « وهادي أمير المؤمنين بالخيـل والجمال »^(١) . وأمام الخطر الفاطمي عمل عبد الرحمن الناصر على تحسين مدينة طريف ، فأقام لها حصنا ما زال قائما حتى اليوم^(٢) ، ثم انه اجتذب قبائل زناتة الذين أخذوا يعملون له ضد الفاطميين ، واضطر أخيرا الى الاستيلاء على معبري الاندلس سبتة وطنجة ، وأتبعهما بمليـلة ، واتخذ هذه المدن قاعدة لعملياته الحربية في المغرب الاقصى . وبفضل استيلائه عليها أصبح في امكانه التحالف مع أعداء الفاطميين ، والسيطرة على القيادة السياسية لكل منطقة الريف ، والتدخل الحربي في المغرب الاقصى ، ولم يلبث القسم الاعظم من شمال المغرب الاقصى ومناطق واسعة من المغرب الاوسط أن دخلت في فلك الخلافة الاموية بقرطبة^(٣) .

ومنذ ذلك الحين أخذ المغرب الاسلامي من عناية الخليفة الاموي نصيبا وافرا ، وأخذت وفود البربر من زناتة والادارسة وبني خزر وبني أبي العافية ، تتوافد موجة بعد موجة على قرطبة حاضرة الخلافة^(٤) على نحو ما رأيناه في الفصل السابق . وقد أدت هذه السياسة الى تشجيع البربر على الخروج في جماعات كبيرة الى الاندلس حيث استخدموا في الجيش .

وباعتلاء الحكم المستنصر بالله عرش الخلافة كانت بداية استخدام البربر في الجيش كعنصر أساسي ، ومنذ خلافته يمكننا تأريخ بداية حركة تبربر Berbérisation القوات الخلافية على حد قول الاستاذ ليفي

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) Terrasse, op. cit., t. I, P. 156.

(٣) Lévi-Provençal, La Política africana, P. 366, 367

(٤) المقري ، ج ١ ص ٣٦١ .

بروفنسال^(١) ، وازدادت هذه الحركة دفعا في عهد سيطرة الحاجب محمد ابن أبي عامر الذي عمل على الاستكثار من البربر في جيشه واهمال رجال العرب ، ويذكر ابن خلدون : « انه استدعى أهل العدو من رجال زناته والبرابرة ، فرتب منهم جندا ، واصطنع أولياء ، وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم ٠٠٠ وقدم رجال البرابرة وزناته وآخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم »^(٢) . ويوضح لنا الامير عبدالله الزيري ملك غرناطة في مذكراته سر هذه السياسة الجديدة التي إتبعها المنصور في بربرة الجيش ، ويفسر لنا جدوى اتباعه لها ، فيقول : « وتوقع المنصور من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته اذ كانوا صنفا واحدا ، وتألبهم على معصية أمره متى أمر بما أحبوا او كرهوا ، فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسول له رأيته أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتا متفرقة : ان هم أحد الطوائف بخروج على الطاعة ، غلبها بسائر الفئات مع احتياجه الى تقوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلل بلاد العدو وتدويريها متى شاء . فاستجلب من رؤساء البربر وحمايتها وأنجدها من بلغه فروسيته وشدته ، وتسامع الناس بالجهاد فبادر اليه من شرق العدو من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصاري ما لا يخفاء به . وبهم كان يصلح ابن أبي عامر على العدو ، وهم كانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعترك الوغاء »^(٣) .

والواقع أن هذه السياسة الحكيمة التي ارتسمها المنصور بن أبي عامر على الرغم من عواقبها السيئة كانت لها آثار طيبة ، اذ تمكن بفضلها من ازالة العصية الجنسية من الجيش ، وانحصت بذلك مادة الفتن والاعتزاء^(٤) . ولا شك أن تفضيل ابن أبي عامر للبربر على العرب أسفر

Lévi-Provençal, Histoire de l'Esp. mus. t. III, P. 80 (١)

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤٨ - المقرئ ، ج ١ ص ١٧٤ .

(٣) مذكرات الامير عبدالله الزيري المسماة بكتاب التبيين ، تحقيق ليفي

بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٤) المقرئ ، ج ١ ص ٢٧٤

Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 83, 174.

عن تيجتين : الاولى أنه أوجد اختلالا خطيرا في الميزان العنصري ، فقد رجحت كفة البربر على العرب ، وبذلك أفسح المجال لايفار صدور العرب على البربر وغرس الاحقاد عليهم في قلوبهم . والثانية أن العصية العربية القديمة القائمة على العنصرية الجنسية تحولت الى نوع من التضامن أو التكتل القومي ، أو بمعنى آخر تحولت الى عصية أندلسية ، هدفها الاول مواجهة العناصر الجديدة الطارئة على الاندلس ، وتمثل في الصقالية والبربر المرتزقة^(١) .

أما غيد الملك بن المنصور فقد اتبع خطة أبيه في اصطناع البربر من العدو ، وكان أعظم من قدم منهم زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي المعروف بدهائه ومكره^(٢) ، على رأس حشود كبيرة من بربر صنهاجة . وكان المنصور بن أبي عامر قد عزف عن الاذن له بالدخول الى الاندلس خوفا منه ، ولكن عبد الملك أدخله بمن اصطحبهم معه من اخوته ، واستقبلهم عبد الملك أحسن استقبال ، ووصلهم بصلاته الكثيرة ، ولكنهم استصغروا ما وصلهم به على كثرتهم ، وابتدلوا الخلع التي خلعها عليهم ، ولم يعلنوا عن اغتيالهم بالمقام في الاندلس ، وانما كانوا يلتصقون التسريح جهلا وأثقة^(٣) . ويعلق ابن بسام الشنتريني على عدم اقدام عبد الملك على تسريح زاوي بن زيري عندما طلب ذلك بقوله : « والاقدار موكلة بثى عزم عبد الملك عن اسعافهم بسراحهم لما كان قدره - عز وجهه - من الفتنة ، وتفريق شمل الاندلس بأشباههم ، فلم يخرجوا عنها الى أن قاموا على الجماعة ، وشغبوا عليها بعد عبد الملك^(٤) » .

(١) Lévi-Provençal, op. cit., t. III, P. 175.

(٢) مذكرات الامير عبدالله الزيري ، ص ١٧ .

(٣) ابن بسام الشنتريني ، كتاب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٦١ .

(٤) نفس المصدر .

ب - غلبة العنصر البربري في عهد سليمان المستعين ونتائجه :

رأينا كيف اعتمد خلفاء بني أمية في قرطبة على الموالي والبربر دون العرب في تدعيم سلطانهم بالاندلس، واخماد الحركات الانفصالية، والقضاء على المؤامرات الانفصالية التي كان يقوم بها أشراف العرب والمولدون ، وكيف هيأوا بذلك المجال لتقديم هذين العنصرين على العناصر العربية . ولقد أسرفت الدولة العامرية في الاعتماد على البربر والفتيان الصقالبة ، ووزعت عليهم أرفع مناصب الدولة ، وجعلت منهم حزبا قويا عرف بالحزب العامري أو العامرية ، الا أن هذا الحزب لم يلبث أن انهارت دعائمه بعد قيام الحزب الاموي بالثورة التي أطاحت بعبد الرحمن شنجول بن المنصور، وانتهت باسترجاع الحزب الاموي لسلطاته القديمة ، ولكن هذه الثورة كانت شرا ويلا على الاندلس ، فقد حركت جميع طبقات المجتمع ورؤساء البربر والصقالبة ، وسرعان ما تحولت هذه الثورة الى حرب أهلية عاتية^(١)، وكان انتصار البربر وهم القوة التي اعتمد عليها سليمان بن حكم الملقب بالمستعين بالله في التغلب على غريمه محمد بن هشام الملقب بالمهدي وأنصاره من أهل قرطبة ، في سنة ٤٠٣ هـ بداية للفتنة ، « وسببا في تفريق البلاد وتملك أصحاب الطوائف »^(٢) ، فقد قسم سليمان المستعين بعض كور الاندلس بين أنصاره من رؤساء القبائل البربرية ارضاء لهم ، فوهب البيزة لبني زيري ابن مناد الصنهاجيين ، وأعطى جوفي البلاد لمغراوة ووهب جيان لبني برزال، ورندة لبني يفرن ، وشذونة ومورور لبني دمر وأزداجة ، في حين آلت سبتة لعلي بن حمود ، وطنجة وآصيلا والجزيرة للقاسم بن حمود^(٣) ،

Prieto Y Vives, Los Reyes de Taifas, estudio historico (١)
numismatico de los Musulmanes espanoles, Madrid, 1926, P. 14.
Mariano Gaspar Remiro, Historia de Murcia musulmana, Zaragoza,
1905, P. 90.

(٢) ابن بسام ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١١٩ .

وبذلك غلب العنصر البربري على دولة سليمان المستعين ، مما حمل الفتيان
 العامريين على الفرار الى شرق الاندلس خوفا على أنفسهم من بطش البربر
 بهم ، وقد عمل هؤلاء الفتيان على تكوين دويلات لهم بشرق الاندلس .
 كذلك يسجل انتصار البربر بداية اعتماد الاطراف المتخصصة على القوى
 المسيحية في اسبانيا في صراعها فيما بينها ، فقد اعتمد سليمان المستعين هو
 وأنصاره من البربر بعد هروبه من قرطبة الى الثغر الاعلى على القوة
 المسيحية التي زوده بها قومس قشتالة شائجة بن غرسية بن فردلند^(١)
 Sancho Garcia في صراعه مع محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي وواضح
 الفتى ، وبفضل هذه المساعدة تمكن المستعين من ايقاع الهزيمة بغريسه
 المهدي في واقعة قنتيش في ١٣ ربيع الاول سنة ٤٠٠ هـ^(٢) ، ودخل قرطبة
 ظافرا ، ووضع البرابرة والنصارى السيوف في رقاب أهل قرطبة ، ويذكر
 ابن حيان أن النصارى مالوا يومئذ على المنهزمين من المسلمين ، « فقتلوا
 منهم في صعيد واحد نيفا على ثلاثة آلاف رجل »^(٣) . وعندما التجأ المهدي
 الى طليطلة استنجد بقومس برشلونة ريموند بوريل الثالث Raymond
 (ويسميه العرب ارمقند^(٤)) وأخيه أرمنجول Armengol ، وفي مقابل
 ذلك يتخلى لهما عن مدينة سالم ، فزوداه بتسعة آلاف من الجنود
 القطلانيين ، وبفضل هذه المساعدة تمكن من استرجاع قرطبة بعد أن أوقع
 بقوات المستعين في موقعة عقبة البقر^(٥) . ولم يقنع المهدي بهذا الانتصار ،

(١) نفس المصدر ، ص ١١٣ . ويسميه ابن ادفونش (ج ١ ص ٤٠٣)
 بينما يسميه ابن عذارى ابن مامه دونه (ابن عذارى ، ج ٣ ص ٨٦) .

(٢) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٨٩ .

(٣) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٠ . ويذكر ابن عذارى ، ان
 النصارى قتلوا يومئذ من أهل قرطبة ما يزيد على ثلاثين ألفا ، ويعتبر هذا
 العمل أول ثارات المشركين على المسلمين (ابن عذارى ، ج ٣ ص ٨٣ - ابن
 الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١١٣) .

(٤) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٩٥ - ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ١١٥

(٥) راجع التفاصيل في تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٣٥٤ .

بل عمد الى مطاردة المستعين وجيشه البربري ، ولكنه مني هو وواضح ومن معهما من الفرقة القطلائية بهزيمة نكراء في وادي آره أو وادي يارو من أحواز مربلة، وتقهقر هو وواضح الى قرطبة أمام قوات البربر بقيادة المستعين وفي قرطبة وثب واضح بالمهدي فقتله ، وجدد البيعة لهشام المؤيد ترضية للبربر ، ولكنه اضطر الى الاستنجاد بملك قشتالة شانجة بن غرسية مرة ثانية (١) . ويبدو أن سليمان المستعين قد راسل الملك القشتالي مستمدا نظير أن يتنازل له عن عدد من الحصون الاسلامية ، كان المنصور بن أبي عامر قد انتزعها من القشتاليين ، وهكذا أراد شانجة أن يفيد من الطرفين المتنازعين ، ويضمن بذلك لنفسه الغنيمة دون أن يبذل لهما أي مساعدة (٢) ، « فأرسل الى هشام المؤيد يعرفه الحال ، ويطلب منه تسليم هذه الحصون لئلا يمد سليمان بالعساكر » (٣) ، فاستشار هشام أهل قرطبة في ذلك ، فأشاروا عليه بتسليم هذه الحصون الى شانجة حتى لا ينجد سليمان ، فاتفق هشام مع رسل شانجة في قرطبة على أن يسلم للمكهم ما يزيد على مائتي حصن لقاء تخليهم عن نصره سليمان، وتم ذلك في المحرم سنة ٤٠١ (٤) ،

كذلك اشترك القشتاليون في النزاع القائم بين الحزب الاموي يؤيده الصقالبة ، وبين البربر ، وذلك عندما بايع خيران العامري المرتضى من بني أمية (٥) .

أما الظاهرة الثالثة التي نتجت عن انتصار البربر على قوى المهدي ، فهي تمرض قرطبة حاضرة الخلافة الاموية في الاندلس لنقمة المستعين وأنصاره البربر الذين استباحوا دماء أهلها ، وغاثوا فسادا في جنباتها ، ونثروا الخراب في عمرانها على نحو ما سنقصله فيما بعد .

-
- (١) المقري ، ج ١ ص ٤٠٤ .
 (٢) Prieto Y Vives, op. cit., P. 15 .
 (٣) ابن الأثير ، ج ٧ (طبعة مصر ١٣٥٣ هـ) ، ص ٢٤٨ .
 (٤) نفس المصدر ، ص ٢٤٨ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١١٧ .
 (٥) المقري ، ج ٢ ص ٣٠ .

ج - نهاية عهد سليمان المستعين :

دخل سليمان المستعين قصر قرطبة في ٢٧ من شوال سنة ٤٠٣ هـ بفضل جهود زاوي بن زيري وأتباعه من بربر صنهاجة ، وفر العامريون وأتباعهم الى بلاد شرق الاندلس ، وقد امتلأت قلوبهم بكرامية المستعين وأتباعه البربر^(١) ، فأخذ رؤساؤهم يتآمرون من هناك لتقويض دولة المستعين والقضاء عليه ، أما المستعين فقد خلع هشاما وعهد به الى ابنه محمد ليخفيه عن الاعين ، وأوصاه بأن يحسن معاملته ، فأقام هشام أياما في كنف المستعين ، ثم اخفى شخصه الى الابد . وذكر ابن الخطيب أنه شاع يومئذ أن محمدا أعجل عليه دون اذن والده سليمان ، فاغتاله خنقا منفردا بذلك مع بطاقته : ابن حدير وغيره ، وذلك في ٥ من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ ، « وأشاعوا أنه فر لوجهه مأذونا له ، فتعيش زمانا سقاء بالمرية »^(٢) .

أما المتآمرون من العامرية وعلى رأسهم خيران ومجاهد العامريين ، فقد أخذوا يبحثون عن سلاح يشهرونه في وجه المستعين اذ كان يحدوهم الامل في أن يتمكنوا يوما من دخول قرطبة والعثور على هشام المؤيد ، واستلزم الامر البحث عن خليفة أموي يلتفون حوله ، فأقام مجاهد عليه خليفة رجلا يعرف بالفقيه المعيطي في سنة ٤٠٥ هـ سماه المنتصر بالله ، وأثبت اسمه في السكة وفي أعلامه^(٣) . غير أن وضع هذا الخليفة كان

(١) كان هذا الحزب العامري يؤيد هشاما المؤيد بالله ، ويعادي سليمان لاعتماده على البربر ، ويذكر ابن الاثير أنه لما تغلب سليمان المستعين على قرطبة « انهزم خيران في جماعة كثيرة من الفتيان العامريين ، فتبعهم البربر ، وواقعهم ، فاشتد القتال بينهم ، وجرح خيران عدة جراحات ، ونزل على أنه ميت ، فلما فارقه قام يمشي ، فأخذه رجل من البربر الى داره بقرطبة وعالجه ، فبرا ، واعطاه مالا ، وخرج منها سرا الى شرق الاندلس ، فكشّر جمعه » (ابن الاثير ، ص ٢٨٤) .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٢٠ .

(٣) ابن بسام ، قسم ١ مجلد ١ ، ص ٢٨ - ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

والمعيطي المذكور هو الفقيه ابو عبدالله بن الوليد المعيطي المديني ، اُحد من أزعجته الفتنه ، من اشراف قرطبة .

حرجا للغاية لعدم استناده على نسب أموي ، واقتضى الامر البحث عن خليفة آخر يدعمه نسب أموي أصيل^(١) ، فلم يجد العامرية أصلح لهذا الغرض من علي بن حمود الذي ينتسب الى شرفاء الادارسة الحسينيين ، ولم يكن علي بن حمود يزهد في محاربة المستعين لانه كان يتطلع الى الظفر بالخلافة دون منافس ، وكان البربر قد بدأوا يسأمون حكم المستعين ، ثم ان المستعين مهما كانت الاحوال لم يكن بربريا منهم ، وكانوا يتطلعون الى السيطرة والسلطان ، وعلى هذا النحو اجتمعت أهداف العامرية والبربر ، فتم التحالف بينهما ، واتفق الفريقان على الاتصال بعلي بن حمود أمير سبتة المتبربر ، فأطمعوه في تقلد الخلافة ، وذلّلوا مهمة الظفر بها دون أصحابها الشرعيين ، وأرسلوا اليه وثيقة منسوبة الى هشام المؤيد ، مكتوب فيها : « انقذني من أسر البربر والمستعين وأنت ولي عهدي »^(٢) . وكان علي ابن حمود وحلفاؤه البربر يعلمون حق العلم المصير التمس الذي آل اليه هشام المؤيد ، ومع ذلك فقد تظاهروا أمام الصقالة بالحماس في الخروج ضد سليمان بهدف الافراج عن هشام ، وبدأ علي وهو في سبتة بشق عصا الطاعة على المستعين سنة ٤٠٤ هـ ، وقتل قاضي المدينة محمد بن عيسى ، وعميدها الفقيه ابن يربوع بعد أن اتهمهما بالتحيازهما الى جانب سليمان وقيامهما بالتجسس لصالحه ، ثم تأهب للمجاز الى الجزيرة الخضراء قاعدة أخيه القاسم في جيوش كثيفة تمكن من جمعها^(٣) .

وكان خيران العامري في هذه الاثناء يكاذب رؤساء الاندلس الجنوبي ، ويحرضهم على الخروج ضد سليمان الذي اغتصب الخلافة من هشام المؤيد

(١) ذكروا ان مجاهد العامري ، اثر عودته مهزوما من غزوته لجزيرة سردينيا ، خلعه من الخلافة ، وقبض عليه ، ثم نفاه الى ارض العدو بعد أن اتهمه « بالمبث بالناس والاستئثار بالفيء والمجاهرة بالمعاصي » (ابن الخطيب ، ص ٢٢٠) .

(٢) يذكر ابن عذارى ان بعض العامريين أرسلوا الى علي بن حمود وثيقة منسوبة الى هشام المؤيد وبخطه عهد فيها بالامر من بعده الى علي بن حمود (ابن عذارى ، ج ٣ ص ١١٦ - ابن الخطيب ، ص ١٢١) .

(٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٢١

الخليفة الاموي الشرعي، فأيده في ذلك جماعة، منهم عامر بن فتوح بمالقة، وكان وزيراً للمؤيد^(١)، فلما تم لخيران تأليب أهل الاندلس على سليمان المستعين، كتب الى علي بن حمود يطلب منه العبور اليهم، فتنضم جيوشهم الى جيوشه، ثم تزحف الجيوش المشتركة نحو قرطبة. وتم عبور علي بن حمود من سبتة الى ساحل مالقة في سنة ٤٠٥ هـ، فسلمها اليه عامر ابن فتوح، ودعا له بولاية العهد، وفي نفس الوقت خرج خيران العامري ومن أجا به الى دعوته من المرية متجها نحو مالقة، والتقى بعلي بن حمود في بلدة المنكب في سنة ٤٠٦ هـ^(٢)، حيث عقدا عدة اجتماعات بحثا خلالها الخطة التي يمكن أن يتبعها للقضاء على سليمان، ثم تأهب الحليفان للسير نحو غرناطة، لتنضم قواتهما الى قوات حبوس بن ماكسن الصنهاجي، ومن غرناطة زحفت حشود علي بن حمود وخيران العامري بعد أن انضمت اليها عساكر حبوس نحو قرطبة.

ولم يكن ميزان القوى بين سليمان وخصومه متكافئا بأي حال من الاحوال، فقد خرج سليمان على رأس جيش من البربر لم تلتق أهدافه، وكان العدد الاعظم منهم يؤثرون عليه عليا بن حمود لانه وان كان ينتسب الى الادارسة الحسينيين كان متبريرا أقرب ما يكون الى البربر، ثم انه كان قد بلغهم أن المستعين كان ينوي بهم شرا، فقد ذكر المقرئ أنه أنشد لبعض خواصه أبياتا تكشف عن نواياه السيئة نحو البربر جاء فيها:

حلفت بمن صلى وصام وكبرا	لأغمدنها فيمن طغى وتجبيرا
وأبصر دين الله تحيا رسومه	فبدل ما قد كان منه وتغيرا
فواعجبا من عبثي مسلك	برغم العوالي والمعالى تبريرا
فلو أن أمري بالخيار لبذتهم	وحاكتهم للسيف حكما محررا ^(٣)

(١) ابن الاثير، ج ٧ ص ٢٨٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٨٥. ويذكر ابن بسام نقلا عن ابن حبان أن عليا اجتمع مع خيران وغيره من الفتيان في مدينة المرية (ابن بسام، مجلد ١، قسم ١ ص ٢٨).

(٣) المقرئ، ج ١ ص ٤٠٥.

وتم الاشتباك بين الطرفين المتنازعين في موضع يبعد عن قرطبة بنحو عشرة فراسخ^(١) ، وذلك في شهر المحرم سنة ٤٠٧ هـ ، ونشب القتال ، فاعصوب البربر على سليمان وأصحابه من أهل قرطبة^(٢) ، ودارت الدائرة عليه ، فانهزم هزيمة شنعاء ، وقبض عليه وعلى أخيه وأبيه ، وسيقوا أسارى الى علي بن حمود . أما خيران وعلي بن حمود فقد دخلا قصر قرطبة طمعا في أن يجدا هشاما على قيد الحياة ، ولكنهما لم يعثرا له على أثر ، وقيل لهما أنه قتل ، وعرض عليهما قبره ، فأمر ابن حمود بنبشه ، فأخرجت الجثة ، وأجمع بعض الشهود على أنها لهشام المؤيد . ويذكر ابن بسام أنهم فحصوا جسده ، فلم يجدوا فيه شيئا من أثر السلاح ، فتوهم ابن حمود فيه الخنق ، وأمر بالصلاة عليه ثم دفنه بجوار قبر أبيه الحكم المستنصر^(٣) . بينما ذكر ابن الاثير أن الشهود كانوا يعلمون بوجود هشام حيا ، وأنهم زوروا شهادتهم خوفا على أنفسهم من علي بن حمود الذي كان يطمع في الخلافة لنفسه^(٤) . ثم ان عليا استقدم سليمان وأباه وأخاه ، وأمر بضرب عنق سليمان ثم أتبعه بأخيه فأبيه ، وبويع لعلي بن حمود بالاجماع في باب السدة من قصر قرطبة في ٢٣ من المحرم سنة ٤٠٧ هـ وتلقب بالناصر لدين الله^(٥) . أما خيران العامري فقد أظهر الخلاف عليه لاسباب ذكر ابن الاثير منها أنه كان يأمل في العثور على هشام حيا ، فلم يجده كذلك ، ومنها أنه تقل اليه أن عليا يسعى الى قتله ، فرحل من قرطبة بعد أن أعلن خروجه علي ابن حمود^(٦) .

-
- (١) ابن الاثير ، ص ٢٨٥ .
 (٢) المقرئ ، ج ١ ص ٤٠٦ .
 (٣) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٢٩ .
 (٤) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٥ .
 (٥) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٧٩ . ويختلف ابن الاثير مع ابن حبان في اللقب الخلافي الذي تلقب به علي بن حمود ، فابن الاثير يذكر أنه تلقب بالمتوكل على الله ، بينما يذكر ابن حبان وهو أكثر ثقة في تاريخ الاندلس في عصر الطوائف أنه تلقب بالناصر لدين الله ، وأن هذا هو لقب أبو احمد بن المتوكل العباسي .
 (٦) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٥ .

(٢)

سقوط الخلافة الاموية بقرطبة

١ - انهيار حزب الروائية :

افتتح علي بن حمود خلافته بانصاف المظلومين وكسر شوكة البربر المتغلبين ، فأذل رؤساءهم ، وكان يجلس بنفسه لمظالم الناس ، ويتشدد مع المجرمين في أحكامه ، وأحس الناس لأول مرة منذ قيام الفتنة بالامن والنظام في ظله . وعلى هذا النحو تمكن علي بن حمود من غرس محبته في قلوب أهل قرطبة ، وفرض هيئته في نفوس عسكره البربر ، ومن أمثلة صرامته مع أجناده البربر أنه خرج يوما على باب عامر من أبواب قرطبة ، فالتقى بفارس من البرابر قدماه حمل عنب ، فاستوقفه ، وقال له : « من أين لك هذا العنب ؟ قال : أخذته كما يأخذ الناس » ، فأمر بضرب عنقه ، ووضع رأسه وسط الحمل ، ثم طيف به البلد كله^(١) . ولكن أهل قرطبة كانوا شديدي التقلب ، وقد عرفوا بميلهم الى السخط على الحكام ، وكانوا على حد قول ابن سعيد المغربي : « يضرب بهم بين أهل الاندلس في القيام على الملوك ، والتشنيع على الولاة ، وقلة الرضا بأمورهم حتى أن السيد أبا يحيى بن يعقوب بن عبد المؤمن لما انفصل عن ولايتها قيل له : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ قال : مثل الجمل ، ان خففت عنه الحمل صاح ، وان أثقلت به صاح ، ما ندري أين رضاهم فنقصده ، ولا أين سخطهم فنتجنبه ، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شرا من عامة العراق ، وان العزل عنها لما قاسيت من أهلها عندي ولاية ، واني ان كلفت العود اليها لقائل : لا يلدغ المؤمن مرتين »^(٢) . فلم تمض ثمانية أشهر على مبايعة أهل

(١) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ص ٨٠ - المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ص ٢٨ .
(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ١٠ .

قرطبة له بالخلافة حتى أنس منهم بالكراهية لدولته^(١) ، وفي نفس الوقت بلغه قيام الاندلسيين بالمرتضى المرواني في شرق الاندلس بايعاز من خيران العامري الذي ما فتئ يكد له المكائد منذ عودته الى المرية ، وهنا أدرك فساد سياسته الاولى ، فقد ضحى بشعبيته ضد عسكره البربر ارضاء لاهل قرطبة وتزلقا اليهم ، فما ان وجد منهم ميلا للمرتضى حتى بادر بتغيير سياسته ازاءهم ، وأسرع بجمع شمل برابرة ، « وانصرف الى حزبه البربري فأثره ، وأغضى على سوء ما كانوا عليه من الظلم والحيث ، فوقع أهل قرطبة وغيرهم في حالتهم مدة سليمان ، من استظالتهم عليهم ، وصب على أهل قرطبة ضروبا من التكيل والمغارم ، وانتزع السلاح منهم ، وهدم دورهم ، وقبض على أيدي الحكام عن انصافهم ، وأغرم عايتهم »^(٢) . وهكذا فقد ابن حمود محبة الاهالي ، وأجمع الناس على مقتته وكراهيته خاصة بعد أن أساء الى جماعة من أعيان قرطبة ممن خدموا في عهد سليمان المستعين ، ونخص بالذكر منهم أبو الحزم بن جهور ، والكاتب أحمد بن برد الاكبر ، فاعتقلهم ، وصادر أموالهم ، واعتدى على جماعة منهم بالضرب .

وكان خيران العامري قد بايع عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، الملقب بالمرتضى ، واستخدم دهاءه وبراعته في الاقناع في حث ملوك الطوائف بشرق الاندلس والثغر الاعلى على مبايعة المرتضى ، فأصفق على مبايعته منذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة والثغر الاعلى ، كما بايعه أهل شاطبة وبلنسية وطرطوشة والبونت^(٣) . وبفضل خيران أيضا تمكن المرتضى من تأليف جيش خرج على رأسه نحو غرناطة لمواجهة زاوي بن زيري الصنهاجي صاحب غرناطة وأحد حلفاء علي بن حمود ، وفي

(١) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ص ٨٠ .

(٢) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٨١ - ابن عذارى ج ٣ ص ١٢١ ،

١٢٣ - المقرئ ، ج ٢ ص ٢٨ .

(٣) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٥ - ابن الخطيب ، إعمال الاعلام ، ص ١٣٠ .

نفس الوقت تأهب ابن حمود للسير لمصادمة جيش المرتضى ، ومن العجيب أن ينتهي أمر هذا الطاغية ابن حمود بالقتل على أيدي خدمه ، وأقرب الناس إليه ، وهم ثلاثة فتيان من صقالبة بني مروان : منجح ولييب وعجيب ، ساءهم استبداده بأهل قرطبة وتعصبه لبني قومه ، فقتلوه في حمامه في غرة ذي القعدة سنة ٤٠٨ هـ (١) . وكان من الطبيعي أن يستدعي جنده الزناتيون ابنه يحيى ، وكان يلي سبته من قبل أبيه ، إلا أن العدد الاعظم منهم آثر استدعاء أخيه القاسم بن حمود من اشيلية التي كان يتولى أمرها من قبل أخيه ، وذلك لعاملين : الاول أنه كان يكبر عليا في عمره عشر سنوات وكان أجدر من أخيه علي باعتلاء دست الخلافة لهذا السبب ، وكان بعض رؤساء البربر يعتبرون تقديم علي على أخيه القاسم غبا له واغتصابا لحقه . والعامل الثاني أنه كان عند وفاة أخيه على مقربة من قرطبة ، بينما كان يحيى ابن أخيه في سبته بعيدا عن مسرح الاحداث (٢) . وهكذا كانت مبايعة القاسم بالخلافة بعد وفاة أخيه ايذانا بالصراع العنيف الذي قام بعد ذلك بين بني حمود من أجل الظفر بالخلافة ، وبداية لتصدع الجبهة البربرية في الأندلس .

ما كاد القاسم يظفر بالخلافة حتى شرع في اصلاح أمور الدولة ، وتسسم الناس في بداية عهده روح الرفق ، وباشروا ظل الامن ، واطمأنت بهم الدار (٣) . ولكنه اتجه الى اقتناء السودان ، وابتاع منهم عددا كبيرا قودهم على أعماله ، فأساء بذلك الى زعماء البربر ، فأخذوا ينحرفون عنه ، ولما أحس منهم ميلا (٤) الى يحيى بن علي ابن أخيه (٥) ، أخذ يكاتب منذر

(١) ابن بسام ، ج ١ قسم ١ ص ٨٢ - ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٢٢ - ابن الخطيب ، ص ١٢٩ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٢٩ .

(٣) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ص ١٢ .

(٤) نفسه ، ص ١٣ - المقرئ ، ج ٢ ص ٢٩ .

(٥) المقرئ ، ج ٢ ص ٢٩ .

ابن يحيى في السريته شأنهم ويستنهضه لتقويمهم^(١) ، كما كاتب العامرين واستمالهم ، وأقبطع زهيرا جيان وقلعة رباح وياسة ، وكاتب خيران واستعطفه ، فلجأ اليه ، واجتمع به^(٢) . ويبدو أن هذه السياسة الجديدة التي اتبعها القاسم حولت خيران والحزب العامري عن تعضيد الحزب المرواني ، خاصة وأن المرتضى أظهر الجفاء لمنذر بن يحيى وخيران ، فندما على تأييدهما لقضيته^(٣) ، وأضرما الكيد له وخذلانه في معركته المقبلة مع البربر المتغلبين في قرطبة وأعمالها^(٤) . خرج المرتضى على رأس جيش كثيف من الموالي العامرية ، وصحبه في جملة من جاء معه منذر التجيبي وخيران وعدد من فرسان الفرنج ، فعمدوا الى استدراج المرتضى الى غرناطة بحجة أنه لا يمكنه غزو قرطبة قبل أن يقضي على عدو يترص بهم في غرناطة ويهدد مؤخرتهم^(٥) ، فاقتنع المرتضى بذلك ، ولم يجد ما يمنع من البدء بزواي ابن زيري أكبر سند للقاسم بن حمود^(٦) . فنزل المرتضى بفحص غرناطة وكتب الى أميرها زاوي بن زيري مهددا وطالبه بالدخول في طاعته ، ولكن زاوي لم يعبأ بكثرة جيش المرتضى رقلة جيشه^(٧) ، وكتب على ظهر رقعة المرتضى : « ألهاكم التكاثر » حتى زرتم المقابر . كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » لم يزد حرقا . فغضب المرتضى وناشبه القتال في نهاية سنة ٤٠٩ هـ ، ولكن أنصاره خذلوه في المعركة ، فانهزم هزيمة شنعاء عند أول لقاء ، على الرغم من كثافة جيشه وانتظام كراديسه ، وتفرق عنه جنده

(١) ابن بسام ، ص ١٣ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٢٨٦ .

(٣) ابن الأثير ، ص ٢٨٦ .

(٤) يملل ابن حيان سبب قدر خيران ومنذر بالمرتضى بأنهما طلبا منه ان يخرج مبارك صاحب بلنسية معهم في غزو قرطبة فلم يجبهما المرتضى الى ذلك ، وأقر مبارك على التحالف لجمع الأموال ، فحقق كل من خيران ومنذر عليه ، وتظاهرا على القدر به (ابن بسام ، قسم ١ مجلد ١ ، ص ٤٠٠) .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٠٠ .

(٦) خالد الصوفي ، تاريخ العرب في اسبانيا ، ص ٢٦٩ .

(٧) كان جيش المرتضى في نحو أربعة آلاف فارس بينما كان عدد جند زاوي دون الالف (عبدالله الزيري ، كتاب التبيان ص ٢٢) .

مسلمهم وافرّنجهم، وأول من انهزم عنه من عسكره منذر بن يحيى، وخيران الصقلي، وسليمان بن هود، ولما رأى المرتضى هذه الهزيمة فر بنفسه، فوضع عليه خيران عيوناً قبضوا عليه قريباً من وادي آش، وقتلوه .

وأغلب الظن أن خيران ومنذر غدرا بالمرتضى وأنهما دبرا هذه الهزيمة بالاتفاق مع زاوي بن زيري، والا فكيف نفسر خذلانهما للمرتضى في المعركة على الرغم من كثافة عسكره ووفرة عددهم، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن بسام إذ أشار إلى أنهما « دسا إلى زاوي وأسرا عليه بالعدس بالمرتضى » (١) . ويذكر المقرئ أن خيران لما اقترب من غرناطة كتب إلى ابن زيري الصنهاجي المتغلب على غرناطة، « وضمن له أنه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه إلى قرطبة خذل عن نصرتة الموالي العامرين أعداء المروانيين وأصحاب رئاسة الثغور » (٢) . وعلى هذا الأساس لم يعبأ زاوي بكثافة جيش المرتضى، ورد على كتابه رداً ضمنه من التحدي ما أثار عليه غيظه . وأورد المقرئ أيضاً نصاً نقله عن ابن حيان جاء فيه أن زاوي قال لقومه بعد انهزام المرتضى : « ان انهزام من رأيتموه لم يكن عن قوة منا، إنما جره مع القضاء غدر ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا، فاني عرفت ذلك من يوم نزولهم » (٣) .

وبهزيمة المرتضى ومقتله ركبت ريح المروانية، وتشرّدوا في أرض الأندلس، واستهينوا، فلم تقم لهم قائمة (٤) وقد كانت تلك الواقعة على حد قول الأمير عبدالله الزيري : « أول ظفر ثبتوا به في أوطانهم (يقصد غرناطة) وهابهم الناس، وانقادت لهم الرعايا، وتوطد ملكهم بغرناطة، وطاعت لهم أكثر بلاد أعدائهم المهزومين » (٥) .

(١) ابن بسام، مجلد ١ قسم ١، ص ٤٠٠ .

(٢) المقرئ، ج ٢ ص ٣٠ .

(٣) ابن بسام، ص ٤٠٢ .

(٤) ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ص ١٣١ .

(٥) عبدالله الزيري، كتاب التبيان، ص ٢٣ .

ب - الصراع بين بني حمود للظفر بالخلافة :

كانت هزيمة المرتضى هزيمة للمروانية ولاهل الاندلس جميعا ، وانتصارا للبربر وتمكيناً لهم في الاندلس ، وقد اغتبط القاسم بهذا الانتصار لانه ألقا عرشه من السقوط ، ولكن ذلك الانتصار يسجل مع ذلك بداية مرحلة ضعفه وتسلب البربر عليه ، فقد انتهز يحيى ابن أخيه هذه الفرصة وأجاز البحر الى مالقة فتغلب عليها ، بينما أقام أخوه ادريس بسبته ، وتمكن يحيى من تكوين جيش ضخم ممن انضم اليه بمالقة ومن أعانه من جيرانه البربر ، وبهذا الجيش زحف يحيى نحو قرطبة . فلما علم عمه القاسم بقدمه استجار برؤساء البربر ، ففعدوا عن نصرته ، ويرجع سبب خذلانه بقدمه استجار برؤساء البربر ، ففعدوا عن نصرته ، ويرجع سبب خذلان المقرئ أن يحيى بن حمود كتب من سبته الى رؤساء البربر بقرطبة : « ان عمي أخذ ميراثي من أبي ، ثم انه قدم في ولاياتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان ، وأنا أطلب ميراثي وأوليكم مناصبكم وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس ، فأجابوه الى ذلك » (١) . ولما أدرك القاسم عجزه عن مواجهة قوات ابن أخيه فر الى عمله باشيلية وذلك في ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٤١ (٢) وبصحبه خمس فوارس فضبط البربر قصر قرطبة الى أن قدم يحيى ، وبايعه البربر والسودان وأهل المدينة في مستهل جمادي الآخرة وتلقب بالعتلي بالله . وعلى هذا النحو أصبح في الاندلس خليفتان من بني حمود : أحدهما في قرطبة والثاني في اشيلية . واستهل العتلي بالله حكمه بتعجب أخطاء أبيه وعمه ، فجانب العصية ، وآثر العدل ، ولكنه لم يلبث أن ارتكب ما عابه الناس على عمه ، فقد داخله الفرور والمجب ، واصطنع سفلة الناس وأراذلهم في المناصب الكبرى كالوزارة والكتابة .

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٣١ .

(٢) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١٣ - ابن الخطيب ، ص ١٣٢ . ويختلف المقرئ في تحديد تاريخ رحيله الى اشيلية فيجمله في ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٤١ (المقرئ ، ج ٢ ص ٣١) .

ثم أخذ يخضع لرغبات كبار البربر ، فطلبوا منه اسقاط مراتب السودان فبذل لهم ذلك ، فلم يقنعوا منه ، وأصبحوا يعملون على اسقاط هيئته والقضاء على نفوذ ، بل ان عددا من الامراء المواليين له تحولوا عنه ، وخطبوا باسم عمه القاسم^(١) .

واختلت الامور في قرطبة اختلالا يندر بالخطر ، وتخرج موقف يحيى في قرطبة بحيث أصبح مهددا بالقبض عليه ، فعزم على الفرار الى مدينة مالقة التي كان قد تغلب عليها عند مجازته الى الاندلس ، فقد بلغه أن أهلها كاتبوا خيران العامري ، وأن خيران يتأهب للاستيلاء عليها ، فرأى يحيى أن يلوذ بها قبل أن تخرج من يديه ، في الوقت الذي تضاعف سلطانه في قرطبة ، وانحصر ظله عنها ، فخرج في ليلة ١٢ من ذي القعدة سنة ٤١٣ هـ مع بعض خواصه الى مالقة . أما البربر في قرطبة فقد استقدموا القاسم بن حمود فأجلسوه على عرش الخلافة للمرة الثانية ، ولكن قدوم القاسم لم يحل الازمة ، بل على الضد من ذلك تخرج الموقف ، ووقع الاختلاف بين مختلف الاجناس ، وانقسم الناس الى ثلاثة أحزاب : حزب يعضد القاسم ويتألف معظمه من السودان ، وحزب يؤيد يحيى ومعظمهم من البربر ، والحزب الثالث وكان أقوى هذه الاحزاب جميعا ينادي بخليفة من بني أمية ، ويتألف هذا الحزب من أهل قرطبة أي من البلديين^(٢) . وازداد الخلاف بين هذه الاحزاب ، وتوسعت دائرته اتساعا خطيرا ، وضاق اهل قرطبة بهذا الوضع ، فأعلنوا الثورة على القاسم ، وخلعوه بالاجماع ، وأرغموه على الخروج من قصر الخلافة بقرطبة في ٢١ جمادي الآخرة سنة ٤١٤ هـ بعد أن حاصروه في القصر أياما يراوحوه القتال ويمادونه ، فانتقل القاسم الى الربض الغربي من قرطبة ، وعسكر بمن معه من جنود البربر والسودان ، خارج أحد أبواب السور الغربي^(٣) ، لعله باب العطارين ، وهو الباب المؤدي الى

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) نفسه .

(٣) ابن الخطيب ، ص ١٣٣ - المقرئ ، ج ٢ ص ٣٢ .

مدينة اشبيلية ، اذ كان يزعم قصدها بعد أن يفشل في قهر أهل قرطبة .
أغلق أهل قرطبة أبواب مدينتهم ، فحاصرها القاسم بقواته البربرية نحو
شهرين ، فلما طال عليهم الحصار فتحوا بابا من أبواب قرطبة الغربية ،
وخرجوا خرجة رجل واحد^(١) ، واستماتوا في مقاتلة البربر في موقعة حدثت
في المرج^(٢) ، وكادت الدائرة تدور على أهل قرطبة لولا تمسكهم بالصبر
على عدوهم ، « فانصرفت الكرة على البرابرة ، فقتلوا قتلا ذريعا ، وارتحلوا
عن قرطبة »^(٣) ، وذلك في ١٢ من شعبان سنة ٤١٤ هـ ، وفر السودان مع
القاسم بن حمود الى اشبيلية ، وفر البربر الى يحيى بن علي بمالقة^(٤) .

وكان القاسم عندما استدعاه بربر قرطبة بعد فرار يحيى بن علي الى
مالقة قد ترك بأشبيلية ولديه محمد والحسن على أن يتولى محمد أمر
أشبيلية ، ويكون ثقته المدير لامره محمد بن زيري وقاضيه محمد بن
اسماعيل بن عباد . فلما قدم القاسم ومعه جموع هائلة من السودان والبربر
كتب الى أهلها في اخلاء الف دار ليسكنها البربر^(٥) ، فعظم على أهل
أشبيلية ذلك ، وعز على ابن عباد ان يملك خصومهم البربر مدينتهم ، فعمد
الى الحيلة لاقتاذ اشبيلية من قبضة البربر ، فأطمع ابن زيري بن دوناس في
تملك اشبيلية^(٦) ، ولم يتردد ابن زيري في الوقوف أمام القاسم ما دام يظفر
في نهاية الامر بالامامة ، فأغلق الابواب في وجه القاسم ورجاله وحاربه ،
فقتل من البرابر والسودان خلق كثير ، واضطر القاسم في النهاية الى أن
يطلب أهل اشبيلية بولديه وأصحابه ، فأخرجوهم اليه ، فرحل بمن معه الى
قرمونة ، ومنها الى شريش بعد أن ينس في التغلب على اشبيلية . وهكذا

(١) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٧ - المقرئ ، ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١٧ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) المقرئ ، ج ٢ ص ٣٦ .

(٥) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٧ - ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥٣ .

(٦) المقرئ ، ج ٢ ص ٣٢ .

تخلص أهل اشيلية من القاسم وولديه ، ثم طردوا ابن زيري بعد ذلك (١) وقدموا على أنفسهم ثلاثا من شيوخهم وكبرائهم اضبط مدينتهم وحمايتها من عيث البربر هم : القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد اللخمى ، ومحمد بن يريم الالهاني (٢) ومحمد بن محمد بن الحسن الزبيدي (٣) .

أما القاسم فقد رحل الى قرمونة ولجأ عند واليها من قبله محمد بن عبدالله البرزالي ، ولكن هذا لم يلبث أن استبد بقرمونة بإيعاز من القاضي أبي القاسم ، بعد أن خلع القاسم بن حمود ، فاضطر القاسم الى السير الى شريش (٤) ، حيث استقر بها مع من بقي من رجاله ، ولكن يحيى بن علي لم يتركه يهنأ بما بقي له من نفوذ ، فقد زحف اليه ، ونازله بمدينة شريش ، وافتتحها ، وقبض عليه مع بنيه ، وسار بهم الى مالقة حيث أودعهم في حصن من حصونها ، وقضى القاسم في سجنه ثلاث عشرة سنة ثم قتله يحيى خنقا في سنة ٤٢٧ هـ (٥) بعد أن بلغه أنه قد خاطب حامية الحصن في القيام عليه (٦) .

ج - السنوات الثمانية الاخيرة للخلافة الاموية :

تخلص أهل قرطبة من الحكم البربري الغاشم بانتصارهم على القاسم ابن حمود في ١٢ شعبان سنة ٤١٤ هـ ، ثم قضوا ثلاثة أسابيع يتباحثون في مصير مدينتهم ، وأحسوا بالبون الشاسع بين عظمة قرطبة في عصر الخلافة الاموية ، واضمحلالها ودثورها على أيام البربر ، فقدموا على ما فعلوه ببني

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥٦ .

(٢) يسميه ابن خلدون محمد بن برمخ الالهاني (ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥٦) .

(٣) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٧ .

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥٦ .

(٥) المقرئ ، ج ١ ص ٤٠٧ ، ج ٢ ص ٣٣ . وقيل قتله سنة ٤٣١

(ابن الاثير ، ص ٢٨٧) .

(٦) نفس المرجع ، ج ٢ ص ٣٣ .

مروان ، ونادي شيوخهم بجعل قرطبة من جديد مقرا للخلافة الاموية في الاندلس ، وأجمعوا على جبر الدعوة المروانية^(١) ، وأخذوا يقلبون الرأي فيمن يصلح للخلافة ، واتفقوا على أن يقدموا لهذا الامر ثلاثا من أمراء بني أمية هم أمثل من بقي في ذلك الوقت من البيت الاموي : سليمان ابن عبد الرحمن المرتضى ، وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخي المهدي ، ومحمد بن العراقي ، وقرروا الاجتماع في المسجد الجامع بقرطبة في يوم ٤ من رمضان سنة ١٤٤ هـ لاختيار من يبايعونه بالخلافة من بينهم^(٢) . ولمع بين هذه الاسماء الثلاثة اسمان هما سليمان بن عبد الرحمن المرتضى وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ، فأما سليمان فكان محبوبا عند الخاصة ، وكان شيوخ قرطبة وعلى رأسهم الكاتب أحمد بن برد يؤثرونه على الاميرين الآخرين ، لانه ابن الخليفة عبد الرحمن المرتضى الذي قتل غدرا نتيجة لخيانة خيران العامري ومنذر التجيبي ، فأعدوا رق البيعة وقد سجل عليه اسمه ، ولذلك كان سليمان لا يشك في الظفر بالخلافة . أما عبد الرحمن بن هشام ، فقد كان في جملة من دخل قرطبة مستخفيا في عهد القاسم بن حمود وعاصر الفتنة القائمة بين أهل قرطبة والبربر ، وكان له نصيب كبير فيها ، اذ بث دعائه الى أهل قرطبة ، ولكن شيوخ قرطبة المدبرين لامرهم أنكروا أمره ، وطاردوه ، وشتتوا دعائه ، وقبضوا على الكثير منهم ، فاضطر الى الاستخفاء من جديد ، على أن ذلك لم يعقه قط عن الدعوة لنفسه ، ولذلك « أعلنوه بالشموري عند ايقاعها في ذلك الوقت لظهور

(١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٣٤ .

(٢) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٥ . ويذكر ابن الخطيب أن هذا الاجتماع عقد في ١٦ من رمضان (أعمال الاعلام ص ١٣٤) ، ويجعله المقرري في النصف من رمضان (نفع الطيب ، ص ٣٢) ، بينما يجعله ابن الاثير في ١٣ من رمضان (الكامل في التاريخ ، ج ٧ ص ٢٨٧) . ونعتقد أن التاريخ الذي أورده ابن حبان أولى بالثقة لأن ابن حبان عاصر تلك الاحداث .

براعته ، وأجمعوا عليه وعلى سليمان بن المرتضى وعلى محمد بن العراقي « (١) .

وفي اليوم الموعود اجتمع الخاصة والجند والعامّة على اختلاف طبقاتهم بالمسجد الجامع بقرطبة ، لشهود بيعة من يقع الاختيار عليه من بين هؤلاء الامراء الثلاثة خليفة بقرطبة ، وتقرر أن يتم الانتخاب في مقصورة الجامع . وكان سليمان أول من دخل من المرشحين للخلافة ، وكان دخوله من باب الوزراء الغربي المقابل للقصر (٢) ، وأقبل سليمان وهو لا يشك في الظفر بالخلافة ، « في أبهة وشارة دلت على المراد فيه » (٣) ، فاستقبله أصحابه وأنصاره وقدموه الى بهو الساباط (٤) ، فأجلس هنالك على مرتبة لا تليق الا بالخلفاء ، فأيقن بتمام الامر له دون منازع ، وكان من بين الحاضرين في ذلك اليوم المؤرخ الاندلسي الكبير ابن حيان ، ويروي لنا ابن حيان ما شاهدته في تلك اللحظة فيقول : « فبينما نحن على ذلك ، والقلق على القوم باد ، اذ غشيتنا ضجة وزعقة هائلة ، ارتج لها الجامع واضطرب لها من بالمقصورة ، فاذا عبد الرحمن بن هشام قد وافى شرقي الجامع في خلق عظيم من الجند والعامّة ، وقد تكنفه أميرا الدائرة محمود وعير (٥) في رجالهما شاهرين سيفيهما أمامه ، لهجين باسمه ، فراع الوزراء ذلك ، وألقوا للوقت بأيديهم ، وخذلتهم حيلهم ، ودخل المقصورة عبد الرحمن فبويع لوقته » (٦)

(١) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٥ .

(٢) هو الباب المعروف بباب الأمير محمد أو بوابة سان استيبان في الوقت الحاضر (راجع : Torres Balbas, La Portada de San Esteban, al-Andalus, Vol. XII, P. 127 - تاريخ المسلمين في الاندلس ص ٣٨٨) .

(٣) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٥ .

(٤) وبهو الساباط هو المشرع المؤدي الى الساباط الذي يصل بين المسجد والقصر (السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور في الاندلس ، ص ٣٧ - تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٣٩٥) .

(٥) ورد ذكرهما في اعمال الاعلام لابن الخطيب محمود وعنبر .

(٦) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٥ .

ثم أزيل اسم سليمان بن عبد الرحمن المرتضى من الرق وسجل مكانه اسم عبد الرحمن^(١) المستظهر بالله ، وجيء بسليمان بن المرتضى ومحمد بن العراقي ، فقبلا يد عبد الرحمن المستظهر بالله ، وبايعاه بالخلافة ، وما ان استكملت مراسيم عقد البيعة حتى أمر الخليفة الجديد بوضعهما في المطبق وهو سجن قرطبة المشهور ، تجنباً لما قد يثيرانه من قلق لو تركهما طلقاء . وعلى الرغم من شجاعة المستظهر وقوة بأسه ، فقد كانت تنقصه الحنكة السياسية وحسن التصرف ، في وقت كانت النفوس فيه تغلي بالسخط على المروانية وفي ظروف حرجة ، بلغ فيها التوتر السياسي في قرطبة ذروته ، وازدادت حساسية الناس ونزوعهم الى الثورة والانتزاع ، فقد أساء الى أهل بيته من أعقاب عبد الرحمن الناصر ، فسجن سليمان بن المرتضى ، وابن العراقي المنافسين له في الخلافة ، وتجاوزهما الى نفر غيرهما^(٢) ، ورفع جماعة من الاتباع الاغمار الى مشيخة الوزراء ، وقدمهم على سائر رجاله ، فأحقد بذلك التصرف الارعن أهل السياسة بقرطبة . ثم انه أقر مراتب للخدمة ووظائف لا تعدو أن تكون على حد قول ابن بسام : « زخرفا من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتباً نصبت بغير طائل »^(٣) ، وليس من المعقول أن يقوم خليفة في فقر المستظهر ، لا مورد مالي له الا ما يصيبه من نهب أو مستغل أو ضريبة ظالمة يفرضها على رعيته ، بالاتفاق على مثل هذه المراتب والخدمات ، ولذلك عجل هذا التصرف بالثورة عليه . ويذكر بعض المؤرخين أنه قبض على جماعة من الوزراء القدامى والشيوخ والاعيان بقرطبة ، فسجنهم بالمطبق لميلهم الى سليمان بن المرتضى ، فسعوا عليه من السجن ، وألبوا الناس للثورة عليه ، فاستجاب الناس لهم ، وكسروا المطبق ، وأعلنوا ثورتهم على القصر^(٤) . ويذكر ابن حيان سببا

-
- (١) ابن بسام ، قسم ١ مجلد ١ ، ص ٣٦ - ابن الخطيب ، ص ١٣٤ .
واشار ابن الخطيب انه تلقب بالطاهر بالله .
(٢) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٧ .
(٣) نفس المصدر .
(٤) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٧ - ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٣٤

آخر غير هذه الاسباب السابقة لعله كان الدافع المباشر للثورة على المستظهر ، وذلك أنه أفرج عن ابن عمران أحد جباة من الاشرار كان قد سجنهم بقرطبة ، فنصحه بعض أتباعه بعدم الافراج عنه لان في ذلك تعجيل بالقضاء عليه ، ولكنه لم يقبل النصيحة ، وكان قد ورد عليه قبل اطلاقه يومين « فوارس من البربر ، فكرم مشواهم ، وأنزلهم معه في دار الملك ، فاهتاج لذلك الدائرة ، وقالوا للعامة : نحن الذين قهرنا البرابرة وطردها عن قرطبة ، وهذا الرجل يسعى في ردهم اليها وتمكينهم من نواصينا »^(١) ، فهاج العامة ، وصاحوا : « عاد شر البرابر جدعا »^(٢) . وانطلق العامة في موجات عاتية نحو القصر فهاجموه وقتلوا البربر ، وتسلفوا مجلس الخلافة ، « ولم يشعر عبد الرحمن الا والرجالة قد استثروا على سقف القصر ، وسمع المسجونون عنده هتاف الناس ، فاستغاثوهم ، فدقوا الاغلاق دونهم ، واختلط بالحرم »^(٣) . وأدرك المستظهر نهاية أمره ، فقد أحاط به الثوار من كل مكان ، فاستغاث بالوزراء ، فانصرفوا عنه ، وتخلى عنه أخص أصحابه وأتباعه ، فاستخفى في أتون حمام القصر ، وفي هذه الاثناء بايع القوم ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر ، أحد المشتركين في الثورة عليه في ٣ من ذي القعدة سنة ٤١٤ ، وذلك في المجلس القبلي من مجالس القصر ، ولقبوه بالمستكفي بالله . وفي هذا اليوم عثر العامة على المستظهر ، فجاءوا به الى المستكفي ، وقتلوه أمامه .

لم يكن المستكفي جديرا بالخلافة ، اذ كان على تقيض المستظهر سيء الخلق عاهرا ، عاطلا من الخصال والقضائل ، معروفا بالتخلف والركاكة^(٤) . ويذكر ابن بسام أن الله أرسله على أهل قرطبة محنة

(١) ابن بسام ، قسم ١ مجلد ١ ، ص ٣٨ .

(٢) ابن الخطيب ، ص ١٣٥ .

(٣) ابن بسام ، قسم ١ مجلد ١ ، ص ٣٨ .

(٤) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٨ - ابن الخطيب ، ص ١٣٦ .

وبلية^(١) ، وكان الغدر من صفاته ، فهو الذي سعى على ابن عمه المستظهر ، وتهلل وجهه بقتله ، وهو الذي عاجل ابن عمه ابن العراقي بالقتل خنقا^(٢) ، وهو الذي سجن ابن حزم ، وابن عمه أبا المغيرة^(٣) ، واستؤصلت في عهده قصور عبد الرحمن الناصر بالهدم^(٤) والخراب ، وطمست أعلام قصر الزهراء ، واقتلع نحاس الابواب ورصاص القنى ، وغير ذلك من الآلات^(٥) وفي أيامه عاد خطر البربر يهدد قرطبة من جديد ، فقد عزم يحيى بن علي ابن حمود على الاستيلاء على قرطبة ، وزحف لهذا الغرض من مالقة ، ولكن المستكنى جبن عن لقاء البربر ففر من قرطبة في ٢٥ من ربيع الاول سنة ٤١٦ هـ ، فقتله بعض رجاله في بلدة أقليم (أو أقليمس) بالشعر^(٦) . ثم تمكن يحيى بن علي من استرجاع قرطبة ، ودخل القصر في ١٤ من رمضان سنة ٤١٦ هـ ، وأقام بها ما يقرب من أربعة أشهر ، ثم عاد الى مالقة حاضره في ٨ من المحرم بعد أن ترك في قرطبة وزيره أبا جعفر أحمد ابن موسى ، ودوناس بن أبي روح^(٧) ، ولكن بعض المؤرخين يذكرون أن جماعة من أهل قرطبة خاطبوا يحيى بن علي بالخلافة ، فوافقهم ، وأرسل اليهم نائبا عنه لولاية قرطبة يدعى عبد الرحمن بن عطف اليفرنى ولم يحضر هو باختياره^(٨) ، واتهز حبوس بن ماكسن الصنهاجي صاحب غرناطة فرصة غياب يحيى بن علي عن قرطبة ، وحرص مجاهد وخيران

-
- (١) ابن بسام ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٣٨٠ - ابن سعيد ، ج ١ ص ٥٥
(٢) ابن الخطيب ، ص ١٣٦ .
(٣) ابن سعيد ، ج ١ ص ٥٥ .
(٤) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٨٠ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٤٢ - ابن سعيد ، ج ١ ص ٥٥ - ابن الخطيب ، ص ١٣٦ .
(٥) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٣٨٢ .
(٦) نفسه - ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٤٢ - ابن الخطيب ، ص ١٣٦ .
(٧) ابن الخطيب ، ص ١٣٦ .
(٨) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٨ - عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، نشره الاستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٥٢ - المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٤٠٨ .

العالمين على دخول قرطبة ، فقدمت جيوش خيران ومجاهد بالفعل الى قرطبة ، وكان أهل المدينة ييغضون البربر ويمقتونهم ، فلما علموا بقدوم جيوش شرق الاندلس وجدوا في ذلك فرصتهم المواتية للتخلص من الحكم البربري البغيض الذي ورطهم فيه بعض المفسدين منهم ، فوثب أهل قرطبة على من كان في مدينتهم من جنود البربر في ٢٠ من ربيع الاول سنة ٤١٧ هـ ، فقتلوا منهم ما يقرب من ألف رجل ، ودخلت قوات خيران ومجاهد المدينة .

أقام خيران ومجاهد في قرطبة ما يقرب من شهر ، ثم دب بينهما الخلاف ، وبدأ كل منهما يشك في نية صاحبه نحوه ، فبادر خيران بالانسحاب من قرطبة ، وعاد الى المرية في أواخر ربيع الآخر سنة ٤١٧ هـ . أما مجاهد ، فأثر أن يبقى بقرطبة بعض الوقت ، ولم يلبث أن قتل بذوره عائدا الى دانية مقر مملكته (١) .

★ ★ ★

ومضى عام كامل منذ أن تخلص أهل قرطبة للمرة الثانية من حكم الخمودين ، وفي خلال هذا العام قنعوا بحكم جمهوري مؤقت ، تركزت السلطات في مجلس من رؤساء المدينة ، اتفق أهل قرطبة على اختيارهم ، عرفوا باسم « الجماعة » ، وكان يترأس هذا المجلس « عميد الجماعة » ، وكبير قرطبة أبو محمد جهور بن محمد بن جهور (٢) ، ويتولى هذا المجلس تصريف أمور المدينة وضبطها مؤقتا حتى يتم الاتفاق على إعادة رسوم الخلافة الاموية . ثم عقدت الجماعة اجتماعا للنظر فيمن يبايعونه من بقايا البيت الاموي ، وتم الاتفاق في ٢٥ من ربيع الآخر سنة ٤١٨ على مبايعة أبي بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ، وكان أخا

(١) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٨ - ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٤٥ - ابن الخطيب ، ص ١٣٧ .
(٢) المقرئ ، ج ١ ص ٤١٣ .

للمرتضى الذي غدر به العامريون في غرناطة وقتلوه في وادي آش قبل ذلك بتسع سنوات . وكان هشام هذا قد استقر بعد مصرع أخيه المرتضى عند عبدالله بن قاسم الفهري صاحب حصن البنت ، فبويغ غيايا ولقب بالمعتد بالله ، وظل أهل قرطبة يخطبون له بالخلافة وهو غائب عن قرطبة اما قائم في موضعه بالبنت أو منتقل في الثغور^(١) زهاء سنتين وسبعة أشهر . وحدث أن وقعت بين الرؤساء المتغلبين فتن كثيرة في الاندلس ، فاضطر أهل قرطبة الى استدعائه^(٢) ، فدخل قرطبة في ٨ ذي الحجة سنة ٤٢٠ هـ غير أنه لم يقيم بها الا عامين ، ثم خلعه وزراء قرطبة وشيوخها في ١٢ من ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ ، وكان سبب خلعه أن أحد وزرائه واسمه حكم بن سعيد ويدعى بالقزاز^(٣) أساء معاملة الوزراء ، واستبد بأهل المدينة ، بينما كان يكرم البربر ويحسن اليهم ، فثار أهل قرطبة على حكم وقتلوه ، واستغل أمية بن عبد الرحمن العراقي بن هشام بن سليمان بن الناصر فرصة الشغب والهيج الذي أدى الى مقتل القزاز وأثار العامة على ابن عمه المعتد ، طمعا في أن يتولى الخلافة من بعده حتى ولو دفع هو أعني أمية في ذلك حياته ثمنا لهذا المنصب^(٤) ، ونجح أمية في تنفيذ خطته ، فقد كان عوام قرطبة معروفين بجراتهم على الوثوب ، وشذوذهم عن ضبط السياسة^(٥) ، فلم يكذب أمية يحرضهم على اسقاط ابن عمه حتى استجابوا سريعا لتحريضه ، واحتشدوا حول القصر وحاصروه ، وكان

(١) ابن الأثير ، ص ٢٩٠ - ابن سعيد ، ج ١ ص ٥٥ - المراكشي ، ص ٥٨ - ابن الخطيب ، ص ١٣٨ .

(٢) نفسه ، ص ٢٩٠ - المراكشي ، ص ٥٨ .

(٣) ابن الأثير ، ص ٢٩٠ - ابن الخطيب ، ص ١٣٨ . ويسميه ابن حيان بابن الحائك (ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١١٤) .

(٤) نصحه جماعة من أهل قرطبة بعدم التطلع الى الخلافة في تلك الآونة لما يهدده من خطر التعرض للقتل ، فأجابهم بقوله : « بايعوني اليوم واقتلونني غدا » (ابن الأثير ، ج ٧ ص ٢٩٠ - ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٥٠) .

(٥) ابن الخطيب ، ص ١٣٨ .

المعتد أثناء ذلك غافلا بين نسائه ، فلما بلغه الخبر تحصن في العلية^(١) ، وهي غرفة عليا بالقصر . أما أمية ، فقد أيقن بتمام الامر له ، فتبوأ مجلس هشام ، ووزع أوامره على النهاية من أتباعه بالقبض على هشام المعتد بالله . وفي تلك الاثناء اجتمع وزراء قرطبة وشيوخها ، واتفقوا برئاسة عميد الجماعة الشيخ أبي الحزم جهور على خلع هشام المعتد ، و « محو رسم الخلافة لعدم الصلوح من أهل بيتها ، وسوء الجوار وفناء الاموال التي يرزق منها من يقهر به السلطان كواف الناس »^(٢) ، كما اتفقوا بعد الغاء الخلافة على اسناد الامور بالحضرة السى شيخ الجماعة أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور ، وكان معروفا عندهم بكفايته لتقلد السلطة والاضطلاع بالحكم ، ولكنه أبدى زهده عن قبول هذا المنصب ، فما زالوا به حتى قبله بشرط أن يؤازره في الحكم زميلان له في مجلس الجماعة هما محمود بن عباس ، وعبد العزيز بن حسن من آل بيته^(٣) ، وقرر مجلس الجماعة أيضا تقي المروانية واجلائهم من قرطبة . وعلى أثر ذلك القرار أخرج هشام المعتد بالله وولده ونسائه من العلية ، وأُنزل في سباط الجامع المفضي الى المقصورة حيث قضى يوما وليلة أسيرا خائفا ، يتربص الموت ، الى أن صدر أمر الوزراء بنفيه الى حصن ابن الشرف^(٤) ، وأعلن في الاسواق والارباض قرار الوزراء بنفي جميع أمراء بني أمية من قرطبة . أما هشام المعتد فقد التجأ عند سليمان بن هود المتغلب على الثغر الاعلى^(٥) ، فأقام في كنفه بسرقسطة حتى وفاته في صفر سنة ٤٢٨ هـ .

(١) نفس المصدر .

(٢) نفسه ، ص ١٤٧ .

(٣) دوزي ، ملوك الطوائف ، ترجمة كامل كيلاني ، القاهرة ١٩٣٣ ،

ص ١٠ .

(٤) ابن الخطيب ، ص ١٣٩ . ويذكر ابن الاثير انه حصن محمد بن

الشق بجبل قرطبة (ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩٠) .

(٥) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩٠ .

(٣)

دثور قرطبة

تعرضت قرطبة منذ اشتعال نار الفتنة في ١٦ جمادي الآخرة سنة ٣٩٩ الى سقوط الخلافة الاموية في ١٢ ذي الحجة سنة ٤٢٢ لتقمة الثائرين من سفال أهلها ومن البربر الذين انقلبوا على أهلها ، فاستباحوا دماءهم ، وعاثوا فسادا في جنباتها الى أن شمل الخراب والدمار معظم عمائرها على أيام سليمان المستعين بعد انتصاره على المهدي في موقعة وادي آره • وقد مر تخريب قرطبة بعدة مراحل :

المرحلة الاولى : عند بداية الفتنة في سنة ٣٩٩ هـ ، ويسجل تدمير مدينة الزاهرة •

المرحلة الثانية : بعد انتهاء محلات البربر

المرحلة الثالثة : عند اقتحام البربر لمدينة الزهراء في سنة ٤٠١ هـ وتخريبهم لعمائرها •

المرحلة الرابعة : عند دخول المستعين في قرطبة للمرة الثانية في سنة ٤٠٣ هـ

المرحلة الخامسة : بعد الفتنة •

١ - المرحلة الاولى :

استغل الرواية فرصة غياب عبد الرحمن شنجول بن المنصور بن أبي عامر أثناء غزوته في جليقية ، وعلنوا الثورة في ١٦ جمادي الآخرة سنة ٣٩٩ ، وتمكن محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي من الوثوب ، يؤيده أقاربه من بني مروان وأنصاره من العامة والفوغاء وسفلة القوم ممن وجدوا في تلك الفتنة فرصة مواتية للسلب والنهب • وانطلق الثوار من

العامة ، ومن انضم اليهم من أرباب الجرائم واللصوص ، من سجن العامة المعروف بالعامرية الى قصر الخلافة بقرطبة . ولم يكد هشام المؤيد يعلم بذلك حتى أمر بإغلاق أبواب القصر ، وارتقى الى السطح ، محاولا تهدئة خواطر الثوار ، الا أنهم هتفوا بسقوطه ، فتوارى في داخل القصر الخلافي^(١) . ولما كان من العسير اقتحام القصر بعد أن أغلقت أبوابه ، فقد كان لا بد من ثغرة في جدرانه ينفذ منها الثوار الى داخله ، ولذلك أمر محمد بن هشام أصحابه « بنقب القصر والدق لابوابه »^(٢) ، فشرع في ذلك ، وجلبت السلالم الخشبية تمهيدا لتسلق أسوار القصر . ولم يجد الخليفة هشام المؤيد بدا من التسليم بالأمر الواقع عندما اتضح له عجز فرقة الزاهرة عن نصرته ، فاستدعى محمدا بن عبد الجبار ، وتنازل له عن الخلافة .

وفي ذلك الاثناء انصب غضب العامة على العامريين وعلى مدينة الزاهرة التي أسسها المنصور بن أبي عامر في سنة ٣٦٨ واتقل اليها ونزلها في سنة ٣٧٠ هـ ، فقصدتها عشية ذلك اليوم حشود هائلة من أخلاط الناس بأمر من محمد بن عبد الجبار ، لأنها حصن العامرية المنيع ومقلها الاعظم ، وحاول الثوار اقتحام المدينة ، ولكن رجال حاميتها ردوهم عن أسوارها . وفي صباح اليوم التالي أرسل ابن عبد الجبار ابن عمه مع فرقة من رجاله لمخاطبة أهل الزاهرة في الاستسلام ، وانضم اليه من العامة النهاية حشود لا حصر لها ولا عد ، تدفقت على المدينة كالسيل الجارف ، واجتاحوا سورها ، فنقبوا فيه ثغرات من جانب باب السباع وباب الجنان^(٣) ، وانتشروا في قصورها يتهبون ما يقع بأيديهم في قاعاتها من مال وتحف وروائع وعدة وسلاح وذخائر ، « وتقسمت الايدي كل م

(١) ابن الخطيب ، ص ١١٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) Sanchez-Albornoz, Historia de la Espana musulmana, Buenos Aires, 1946, t. I, 379.

اشتملت عليه من مخزون وآلة ومتاع وعدد سلطانية ، وفرش وآنية ، حتى اقتلعت الابواب الوثيقة والخشب الضخمة»^(١) . ثم أمر ابن عبد الجبار بنقل ما بقي بعد النهب من أموال وذخائر الزاهرة ، وأصدر أمره بعد ذلك « بهدمها ، وحط أسوارها ، وقلع أبوابها ، وتشعث قصورها ، وطمس آثارها ، وتعجيل ذلك. توقعا لتدارك عبد الرحمن بن أبي عامر ومن لديه من الجيوش أمره ، وسوغ الناس انقاضها ، فبلغوا من تدمير تلك المدينة الجلية ما لا يبلغه الدهور المتعاقبة ، فأصبحت بلقعا كأن لم تغن بالامس»^(٢) . ويذكر المقرئ عن المطمح : « وخربت الزاهرة ومضت كأمس الدابر ، وخلت منها الدسوت الملوكية والدساكر ، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح ، وتلاشى أمرها ، فلم يرج لفسادها صلاح ، وصارت قاعا صفصفا وأبدلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصفاء»^(٣) . ولقد توزع أهل قرطبة خاصة والاندلس عامة أسلاب الزاهرة ، فلم تبق دار في الاندلس الا ودخلها من فيئها حصة كثيرة أو قليلة ، وقيل أن بعض ما نهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية^(٤) .

لقد كانت الزاهرة على حد قبول الاستاذ ليفي بروفنسال أكثر المنشآت الخلافية زوالا ، اذ لم يكن قد مضى على بنائها أكثر من ثلاثين عاما ، وكان زوالها شاملا لدرجة أنه لم يترك صدى في التقاليد المحلية ودعا بالتالي الى توليد الشكوك والمتناقضات حول موضعها الافتراضي^(٥)

(١) ابن الخطيب ، ص ١١١ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ١٢٢ .

(٤) نفس المصدر .

Lévi-Provençal, l'Espagne musulmane au Xe siècle, (٥)
Paris 1932, PP. 330-331.

Garcia Gomez, Ruina de Cordoba omeya, al-Andalus, Vol. XII,
1947, P. 278.

ب - المرحلة الثانية :

تبع تخريب الزاهرة قيام طائفة من أهل قرطبة على البربر ، فهاجموا دور البربر بالرصافة ، وهي دور بني ماكسن بن زيري ، وزاوي بن زيري ، واقتنعتهم^(١) ، وقد كان هذا العمل الاجرامي سببا في انحراف البربر عن المهدي وكرهيتهم له خاصة بعد أن أسقط منهم نحو سبعة آلاف ، وقد حملهم هذا التصرف الاهوج الى الانضمام الى الحزب المعارض للمهدي ويرأسه هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، ويضم صنائع ابن ابي عامر من الفتيان العامرية والبلديين . وحاول هشام بن سليمان قلب حكومة المهدي ولكنه انهزم هزيمة نكراء ، وقبض عليه المهدي وقتله ، وتحول غضب المهدي الى البربر الذين آزرُوا هشام بن سليمان ، فأمر العامة بتقتيلهم أينما وجدوا ، فتسارع عامة أهل قرطبة بالوثوب على البربر وقاموا بمذابيح بشعة قتلوا فيها عددا كبيرا من البربر ، ونهبوا دورهم ، ففر معظم بربر قرطبة الى أرملاط خارجها ، واتجهوا الى الثغر ، وبايعوا أحد أمراء بني أمية الموتورين من المهدي واسمه سليمان بن الحكم بن سليمان ، فسمى بالمستعين بالله وذلك في شعبان سنة ٣٩٩ .

وكان من الطبيعي أن تتأثر منازل البربر بحومة بلاط مغيث من الارباح الغريبة فيستولي عليها الخراب بعد خروج أهلها منها ، وقد أشار ابن حيان الى ذلك في قوله : « ومن رأى قرطبة أيضا من وجوه أهلها وأرباب النعم المؤثلة بها ، وأكثر التفجع على دياره منها لما استولى الخراب عليها عند فرار البرابر عنها ، الفقيه الاديب أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، ابن وزير آل عامر الاكبر ، فاني وجدت بخطه في خبر ذكره قال : وقفت على اطلال منازلنا بحومة بلاط . مغيث من الارباح الغريبة ومنازل البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة ، فرأيتها قد امحت رسومها ، وطمست اعلامها ، وخفيت معامدها ، وغيرها البلى ، فصارت

(١) ابن الخطيب ، ص ١١٢ .

صحاري مجدبة بعد العمران ، وفيافي موحشة بعد الانس ، وآكاما مشوهة بعد الحسن ، وخرائب مفزعة بعد الامن ، وماوي للذئاب ، وملاعب للجان ، ومغاني للغيلان ، ومكانن للوحوش ، ومخايي للصوص ، بعد طول غيانها برجال كالسيوف ، وفرسان كالليوث ، وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية ، وتنقص منهم بكثرة القطين الحاشية ، وتكنس في مقاصيرهم طباء الانس الفاتنة ، تحت زبرج من غضارة الدنيا ، تذكر نعيم الآخرة ، حال الدهر عليهم بعد طول النضرة ، فبدد شملهم ، حتى ساروا في البلاد أيادي سبا ، تنطق عنهم الموعظة ، فكأن تلك المحاريب المنمقة ، والمقاصير المرشقة التي كانت في تلك الديار كبروق السماء اشراقا وبهجة ، يقيد حسنها الابصار ، ويجلي منظرها الهموم ، كأن لم تغن بالامس ، ولا حلتها سادة الانس ، قد عبث بها الخراب ، وعمها الهدم ، فأصبحت أوحش من أفواه السباع فاغرة ، تؤذن بفناء الدنيا ، وتريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير اليه كل ما قد بقي ماثلا فيها ، وتزهك فيها ...» (١) .

وفي هذه المرحلة أمر واضح الفتى عندما حاصره البربر بهدم مدينة الرصافة واحراقها خوفا من أن يتمكن البربر من الدخول الى قرطبة من هذه الناحية . وفي أثناء هذا الحصار احتاج الخليفة هشام المؤيد للمال ، فاضطر الى بيع ما في قصره من تحف ومتاع ، فأخرج ما في قصره من حلى ثمينة وذخائر وأواني فضية وزهنية وأثاث وأمتعة وكتب ، حتى الادوية الطبية والعقاقير المجلوبة (٢) . وهكذا فرط الخليفة في تحف القصر وفي مكتبة الخلافة المشهورة ، وقد أشار المقري أيضا الى بيع أكثر هذه

(١) راجع النص في : Lévi-Provençal, En relisant le collier de Colombe, al-Andalus, Vol. XV, 1950, Appendice I, P. 361

ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٠٢ — Garcia Gomez, Algunas precisiones sobre la ruina de la Cordoba omeya, al-Andalus, Vol. XII, 1947, PP. 280, 281.

الكتب ، فقال ثقلا عن ابن خلدون : « ولم تنزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى أن بيع أكثرها في حصار البربر ، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالي المنصور بن أبي عامر ، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم ديارها عنوة » (١) .

ج - المرحلة الثالثة :

كانت أيام سليمان المبتعين على حد قول ابن حيان « شدادا فكادات ، صعبا مشثومات ، كرهات المبدأ والفاخرة ، قبيحة المنتهى والخاتمة ، لم يعدم فيها حيف ، ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغير السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ، واعتلاء المعصية ، وظعن الأمن ، وحلول المخافة » (٢) . ففي ٢٣ ربيع الاول سنة ٤٠١ هـ دخل البربر بقيادة المستعين مدينة الزهراء وقتكوا بحراسها ، وملكوا المدينة ، وقتلوا أكثر من كان يتولى الدفاع عنها من الجند ، كما ذبحوا من التجأ من أهل الزهراء الى مسجد الجامع رجالا ونساء وصبياناً ، وأضرموا النار في الجامع والقصر والديار ، فاحترق أكثر ذلك ، ونهبت الاموال (٣) .

وفي ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ اقتحم البربر أرباض قرطبة عنوة بعد حصار دام شهرا ونصف الشهر ، وأعملوا السيوف في رقاب أهل المدينة ، ونشروا الدمار والخراب أينما حلوا بساحاتها ، وهكذا اقترن دخولهم قرطبة بالقهر والفتك واستباحة الدماء ، « فأفرط في ذلك ارهابا للناس بذكره ، وتخويفا لهم من مثله ، فكان أجلب لنفار القلوب وقرف الندوب ، وبعد الشroud ، ونبس الحقود ، لما وتر جميعهم بالحادثة في قرطبتهم » (٤) ، فقتلوا

(١) المقري ، ج ١ ص ٣٦٢ .

(٢) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٢٥ .

(٣) ابن الاثير ، ص ٢٤٩ .

(٤) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٢٥ .

ما شاء لهم أن يقتلوا من أهل قرطبة ، ونهبوا من قصور المدينة ما استطاعت أيديهم أن تصل إليه . ويصف ابن الخطيب الفظائع التي ارتكبها البربر عند دخولهم قرطبة فيقول : « فكان الامر في هول يومها يجل عن الوصف ويشذ عن العبارة من استيلاء السيف والسبي والنار والتخريب » (١) .

وتتابعت على قرطبة منذ ذلك الحين النوائب والفتن ، واعتورتها المصائب والمحن ، وطحنتها النكبات ، فمحيت رسوم قراها ، ودثرت معالمها البارزة ، وتبدلت آثار عماراتها ، وقد كتب بعض شعرائها فيها فقال :

بك على قرطبة الزين فقد دهمتها نظرة العين (٢)

ورثاها الوزير الشاعر أبو عامر بن شهيد فقال :

ما في الطلول من الاحبة مخبر	فمن الذي عن حالها نستخير
لا تسألن سوى الفراق فانه	ينيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمان عليهم ففرقوا	في كل ناحية وباد الاكثر
جرت الخطوب على محل ديارهم	وعليهم فتغيرت وتغيروا
فدع الزمان يصوغ في عرصاتهم	نورا تكاد له القلوب تنور
فلمثل قرطبة يقل بكاء من	يكى بعين دمعها متفجر
دار ، أقال الله عثرة أهلها	فتبربروا وتغربوا وتمصروا
في كل ناحية فريق منهم	متفطر لفراقها متحير (٣)

ورثاها ابن حزم بقوله :

سلام على دار رحلنا وغودرت	خلاء من الاهلين موحشة قفرا
تراها كأن لم تغن بالامس بلقعا	ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا

(١) ابن الخطيب ، ص ١١٨ .
(٢) ابن غالب الأندلسي ، قطعة من كتاب فرحة الانفس ، نشرها الدكتور لطفي عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٨٣ .
(٣) راجع بقية القصيدة في : ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٠٦ ، ١٠٥ .

فيا دار لم يفرك منا اختيارنا ولو أننا نستطيع كنت لنا قبرا
ولكن أقدارا من الله أنفذت تدمرنا طوعا لما حل أو قهرا
ويا خير دار قد تركت حميدة . سقتك الغواصي مأجلا وماأسرا^(١)

د - المرحلة الرابعة :

استؤصلت قصور عبد الرحمن الناصر في أيام المستكفي بالله بالهدم والتخريب^(٢) ، وطمست أعلام قصر الزهراء ، واقتلع نحاس الابواب ، ورصاص القنى وغير ذلك من الآلات^(٣) . وفي أيام المعتد بالله أرغم الحكم ابن سعيد القزاز كبار التجار في قرطبة على شراء الرصاص والحديد المجلوب من القصور الاموية المتخربة^(٤) ، غير أن الهدم لم يشمل هذه القصور الا في عهد أبي الوليد محمد بن جهور ، فقد عهد ابن السقاء ، مدير دولة بني جهور بقرطبة ، الى ابن باشة المعروف بالاصفر بجمع أدوات البناء من أطلال هذه القصور ، وفي ذلك يقول ابن حيان : « وانكدر باثر وفاته ابن باشة المعروف بالاصفر هدام القصور ومبور المعمار ، وكان من التبجح في اللؤم والاتحاف للشؤم ، مع دناءة الاصل والفرع ، وتكسب السداد وتقليل الفساد على ثبج عظيم ، بيده بادت قصور بني أمية الرفيعة ، ودرست آثارهم البديعة ، وحطت أعلامهم المنيرة ، قدمه ابن السقاء مدير قرطبة لجمع ما تهدم من القصور المعطلة ، فاغتدى عليها أعظم آفة ، يبيع أشياء جليلة القدر ، رفيعة القيمة في طريق الامانة ، ولم يك مأمونا على باقة بقل ، فعاث فيها عياث النار في يبيس العرفج ، وباع آلاتها من رفيع المرمر ،

(١) ابن الخطيب ، ص ١٠٨ .

(٢) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ٣٨٠ - ابن عذارى . ج ٣ ص ١٤٢ - ابن سعيد ، ج ١ ص ٥٥ - ابن الخطيب ، ص ١٣٦ .

(٣) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ٣٨٢ .

(٤) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, éd. Lévi-Provençal, t. II, P. 340.

Garcia Gomez, la ruina de la Cordoba omeya, P. 282.

ومشمن العمدة ، ونضار الخشب ، وخالص النحاس ، وصافي الحديد والرصاص ، بيع الادبار ، ولم يزل ينفق ما غل بمرأى وسمع في أبواب الباطل ، حملت عنه في التبذير نواذر تشهد بأن الدار ليست بدار مثوبة ولا جزاء ، وكانت رسل الاملاك تأتيه لشراء تلك الآلات بأعلى الاثمان ، فيبذلها هو في أنواع الضلالات ، وأغيط من ذلك لأولي الاباب تسليطه على هدم قصور بني أمية المبتناة على أساس العلا المسخر فيها أصناف الوري ، المكتملة الاستواء في حقب من السنين تترى ، حتى اغتدت بجزيرة الاندلس كإرم ذات العماد ، لا يخشى على أركانها انهدام . فلما أذن الله تعالى بحط أعلامها وطمس آثارها ، أتاح لها هذا الانيسيان الضعيف ، القوي ، القصير المدى . كاتاحة الجرذ المهين لسد مأرب ذي الانباء البديعة ، فدكدكها حتى عادت كوم رماد ، ومصائد صباب ، ولم يقطع عنها حتى أوقع النار على صخورها ، وصيرها كلسا لكل مرتاد ، فيا لها موعظة لمن بقي على الارض ممن لحق هذه البقعة السعيدة بدولة أملاكها ، فتبارك منزل الآيات ومصرف الدولات ومعدل البقعات (١) .

وأغلب الظن أن المقصود بالقصور « المكتملة الاستواء في حقب من السنين تترى » مجموعة قصر الخلافة القديم بقرطبة (٢) ، والمقصود بقصور « بني أمية الرفيعة » قصور الزهراء ، التي أصبحت وفقا لهذا النص محاجر يستخرج منها الرخام والمرمر والحجر ، ثم يعاد استخدامه في مباني قرطبة وغيرها من مدن الاندلس ، وهذا يفسر قلة ما كشف عنه البحث الاثري من السواري الرخام في موقع الزهراء ، في الوقت الذي عثر فيه على رؤوس أعمدة وسواري صغيرة بأعلى مئذنة جامع الموحدين باشبيلية أعيد

(١) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١١١ .

(٢) مما يدل على أن قصر الخلافة تخرب في أيام الفتنة أن عبد الملك ابن جهور الذي تلقب بالقاب الخلافة اقام في داره ، كما أن الامير سراج الدولة عباد بن المعتمد اقام اثناء ولايته لقرطبة نائبا عن أبيه في دار ابن جهور (ابن الخطيب ، ص ١٥٨) .

استخدامها من أطلال الزهراء^(١) . وقد وصف الوزير أبو الحزم بن جهور قصور الامويين وقد تخربت فقال :

قلت يوما لدار قوم تفانوا أين سكانك العزاز علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلا ثم ساروا ولست أعلم أيننا^(٢)

هـ - المرحلة الخامسة :

وفي عصر الطوائف كانت مدينة قرطبة قد انكشفت رقعتها بنقص عدد سكانها أيام الفتنة ، وتخریب معظم ديارها ومنشأتها ، وأصبحت قصورها أطلالا دارة يكيها الشعراء ويندب عليها وينوح الادباء ، فالسيمير الشاعر يقف بالزهراء مستعبرا بيبكي آثارها^(٣) ، وأبو بكر محمد بن أحمد ابن جعفر يتحسر على قصر جده المعروف بالمصحفية^(٤) ، ووزراء المعتمد بن عباد وكتابه يجوسون بين أطلال الزهراء ، ويتقلون بين غرف وقاعات قصورها الدارسة ، ويزورون قصر البستان من مجالس قصر الخلافة بباب العطارين^(٥) . ويصف الشريف الادريسي ما أصاب قرطبة فيقول : «ومدينة قرطبة في حين تأليفنا لهذا الكتاب طحتها رحي الفتنة ، وغيّرها حلول المصائب والاحداث ، مع اتصال الشدائد على أهلها ، فلم يبق بها منهم الآن الا الخلق اليسير ، ولا بلد أكبر اسما منها في بلاد الاندلس»^(٦) .

وفي عصر الموحدين يصفها الشقندي على أساس ما كانت عليه في عصر الخلافة الاموية ، ويستخدم صيغة الماضي في وصفه لحاضرها ، ويذكر ما

(١) Garcia Gomez, Ruina de la Cordoba, P. 288.

(٢) الفتح بن خاقان ، مطمح الانفس ومسرح الناس في ملح اهل الاندلس ، قسنطينة ، ١٣٠٢ هـ ، ص ١٥ - المقرئ ، ج ٢ ص ٦٦ .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٦٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٧

(٥) نفسه ، ص ١٥٣ .

(٦) الادريسي ، وصف المغرب والاندلس ، ص ٢١٢ - الحميري ، ص ١٥٨

سمعه عن قنطرتها العظمى وكثرة أرحاء واديها وعن كنبانيتها^(١) . ويزور
الشيخ الزاهد محيي الدين بن عربي مدينة الزهراء ، فيلقاها خرابا ، ويصف
أطلالها بأبيات شعرية نطالع فيها الآيات الآتية :

ديار بأكناف الملاعب تلمع	وما ان بها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب	فيصمت أحيانا وحينا يرجع
فخاطبت منها طائرا متفردا	له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي	فقال على دهر مضى ليس يرجع ^(٢)

(٤)

المسؤولون عن نكبة قرطبة

يعبر ابن خلدون عن الكارثة التي أصابت الاسلام في الاندلس بقوله :
« وكذا دولة بني أمية بالاندلس ، لما فسدت عصيبتها من العرب ، استولى
ملوك الطوائف على أمرها ، واقتسموا خطتها ، وتنافسوا بينهم ، وتوزعوا
ممالك الدولة ، وانتزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته ، وشمخ
بأنفه ، وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية ، فتلقبوا بألقاب الملك ،
ولبسوا شارته ، وأمنوا ممن ينقض ذلك عليهم أو يغيره ، لأن الاندلس
ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سنذكره ، واستمر لهم ذلك ، كما قال
ابن شرف :

مما يزهدني في أرض أندلس	أسماء معتصم فيها ومعتصد
ألقاب مملكة في غير موضعها	كالهر يحكي اتفاخا صولة الاسد

فاستظفروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطراء على الاندلس ،

(١) المقرئ ، ج ٤ ص ٢٠٠ .

(٢) نفسه ، ج ٢ ص ٦٤ .

من أهل العدو من قبائل البربر وزناتة وغيرهم ، اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم ، حين ضعفت عصبية العرب ، واستبد ابن أبي عامر على الدولة « (١) » . والعبارة الاخيرة التي ذكرها المؤرخ الكبير ابن خلدون تلخص أسباب الكارثة التي حلت بالاندلس بسقوط الخلافة بقرطبة وقيام الفتنة ، فالعصر البربري الذي كان متوقفا في العدد على العصر العربي هو المسؤول الاول عن النكبة التي أصابت قرطبة خاصة والاندلس بقيام الطوائف عامة ، وعلى هذا العصر تقع تبعة سقوط الخلافة بقرطبة . ومما يدل على أن البربر هم أصحاب الفتنة أن أبا مروان بن حيان ، شيخ مؤرخي الاندلس الذي عاصر الفتنة ينعته بفتنة البرابر (٢) ، وبالفتنة « البربرية الشنعاء المدلهمة ، المفرقة للجماعة ، الهادمة للمملكة المؤتلة ، المغربية الشأو على جميع ما مضى من الفتن الاسلامية » (٣) ، ويرجع سبب الفتنة الى زاوي بن زيري الذي دخل الاندلس في عهد المظفر عبد الملك بن المنصور (٤) ، فيقول في احدي رسائله عندما بلغه نبأ وفاة زاوي : « ونعي الينا عدو نفسه زاوي بن زيري ، موقد الفتنة بعد الدولة العامرية » (٥) .

والواقع أن البربر هم الذين أشعلوا نار الفتنة في قرطبة ، وهم الذين أفادوا منها أكبر فائدة بعد أن عجلوا بسقوط الخلافة الاموية ، اذ تمكنوا من تأسيس دويلات بربرية في القسم الجنوبي من الاندلس حيث كان يسود العصر البربري ، الذي استقر به منذ الفتح الاسلامي . واذقنا بدراسة الكتلات السكانية في الاندلس ، نجد أن الكتلة البربرية اختصت بهذا القسم الجنوبي والجنوبي الغربي من الاندلس منذ قيام دولة بني أمية . وعندما بدأت الممالك المسيحية في شمال اسبانيا حركاتها التوسعية في أراضي

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة بيروت ١٩٦١ ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٢) ابن بسام ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٤٥٠ .

(٣) نفس المصدر ، مجلد ١ قسم ١ ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٤) نفسه ، قسم رابع مجلد ١ ، ص ٦١ .

(٥) نفسه ، قسم ١ مجلد ٢ ، ص ٩٩ .

الاسلام الشمالية ، أخذت جماعات من البربر تستقر في المناطق الجبلية التي تمتد بين منطقتي غرب الاندلس ووسطه وجنوبي الاندلس^(١) . أما العرب فكانوا أقلية بالقياس الى البربر ، إذ أن الصراع المرير بين العصيتين اليمنية والقيسية استنزف جانبا كبيرا من قواهم ، حتى اذا ما قامت الدولة الاموية أجهز أمراء بني أمية على البقية الباقية من هذه القوة ، بسبب اتباعهم مع العرب سياسة تقوم على اسقاط منازلهم وكسر شوكتهم والحد من سلطانهم ، واعتمدوا على عناصر جديدة طارئة ، فاصطنعوا البربر والموالي والصقالبة على النحو الذي أوضحناه عند حديثنا عن التفوق العددي للبربر ، ولم يسع العناصر العربية الا أن تكف عن ممارسة نشاطها السياسي والعسكري وينتهي بها الامر الى الاندماج مع أهل البلاد من المسالة والمولدين ، وأصبح هؤلاء يكونون مع الطوائف العربية حزبا يمثل التيار البلدي أو القومي في الاندلس الذي كان من أهم أهدافه تطهير البلاد من العناصر الطارئة الدخيلة بربرية أو سقلبية ، وقد تولى بنو عباد أصحاب اشبيلية زعامة هذا الحزب في عصر الطوائف .

ولا ينبغي أن نغفل مسؤولية محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي في اصطناع أراذل العامة واستظهاره بسفلة القوم من محترفي الاجرام واللصوصية ، الذين كان ظهورهم في المجتمع القرطبي وبالا على الدولة ، فقد نتج عن ذلك أن استبد هؤلاء العامة وداخلهم الغرور ، واستغلوا الظروف الحرجة التي كانت تجتازها البلاد لتحقيق مآربهم ، فهاجموا دور البربر بالرصافة واتتهبوا ، ودفعوهم الى مجازبتهم والانتقام منهم عند دخولهم قرطبة في سنة ٤٠٣ هـ ، ولذلك تقع عليهم مسؤولية ما حل بقرطبة من كوارث ونكبات ، وما انتهت اليه الفتنة من الإطاحة بالخلافة الاموية .

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, P. 88 - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ١٢٥ .

الفصل الرابع

عصر التخلف: من قيام دولة بني جهور حتى سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين

(١) طبيعة الصراع بين العصبيتين الأندلسية والبربرية في عصر الطوائف

(٢) قرطبة في عصر الطوائف

أ — في ظل بني جهور

ب — في ظل المعتمد بن عباد

ج — وصف القصور الدارسة بقرطبة والزهاء

(٣) قرطبة في عصر دولة المرابطين

(٤) نهاية قرطبة الإسلامية

أ — قرطبة منذ عهد الموحدين حتى سقوطها في أيدي القشتاليين

ب — ما بعد سقوط قرطبة

الفصل الرابع

عصر التخلف: من قيام دولة بني جهور حتى سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين

(١)

طبيعة الصراع بين العصبيتين الاندلسية والبربرية في عصر الطوائف

بينما كانت الفتنة تغلي في قرطبة ، وبينما كان النزاع قائما في الحضرة (قرطبة) بين الحموديين والروانيين للظفر بالخلافة على النحو الذي أوضحناه ، كان بعض رؤساء الاندلس وقادتها يعلنون انفصالهم في مختلف أنحاء البلاد عن السلطة المركزية التي كانت قد فقدت ظلها على الاقاليم منذ قيام الفتنة . فقد كان من الطبيعي بعد انهيار سلطان الخلافة الاموية بقرطبة ، واختلال ميزان النظام والامن في البلاد ، وضياع هيئة الخلفاء بسبب تهاقتهم على الخلافة وتراهمهم على أعتابها ، ومؤامراتهم الدنيئة للاطاحة بعروش من سبقوهم ، واستظهارهم في ذلك كله بالاشرار والفاستدين من أخط طبقات أهل قرطبة وسفلة القوم فيها ، أن ينتهي الامر بالفرقة بعد الجماعة ، فينتزي الرؤساء والقواد والولاة على اختلاف أجناسهم في سائر أنحاء الاندلس ، ويقتسموا خططه ، ويستبد كل منهم بتدبير ما تغلب عليه من النواحي ، وينتجل لنفسه لقباً ملوكياً . وعلى هذا النحو « أشبهت حال ملوك الاندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا »^(١) . ويعتقد الاستاذ هنري بيريس أن المقصود بملوك الطوائف ملوك الاحزاب^(٢) . والواقع أن حوادث القرن الخامس الهجري ، الذي اصطلح على تسميته بمصر ملوك الطوائف ، كانت

(١) المراكشي ، ص ٩٣ .

Henri Pérès, La Poésie andalouse en arabe classique au (٢) XIe siècle, Paris, 1937, P. 15.

تعتبر صراعا بين أهل الاندلس من البلديين أي أهل البلد سواء من العرب أو البربر القدامى الذين تأسبنوا بمرور الزمن أو العناصر المحلية التي تعربت ، وبين العناصر الطارئة على الاندلس من البربر والصقالبة ، وبذلك نستبعد قيام صراع بين العرب وحدهم وبين البربر لأن العصبية العربية كانت قد تحولت في عهود الاستبداد العامري الى عصبية أندلسية اتضح هدفها في أيام عبدالرحمن شنجول، وأصبح يقوم أساسا على مناهضة البربر والصقالبة ، وأصبحت هذه العصبية الاندلسية بمثابة الشعور القومي الذي تعبر عنه مختلف العناصر السكانية التي يتألف منها شعب الاندلس . ويؤكد الاستاذ ليفي بروفنسال أنه قامت طائفة بربرية وطائفة أندلسية ولم تقسم طائفة عربية^(١) ، على أن الاستاذ هنري بيريس يؤكد قيام طائفة صقلية ، وذلك منذ أن اضطرت نار الفتنة ، كما يؤكد أن هذه الطائفة الصقلية كانت تتحالف تارة مع الطائفة الاندلسية ، وتمثلها العناصر العربية الاندلسية والعناصر المحلية المتعربة، وتارة مع الطائفة البربرية وفقا لمصلحتها الخاصة ، وأن هذا التذبذب بين الطائفتين الاندلسية والبربرية ظل واضحا حتى سقوط الخلافة الاموية ، ومنذ ذلك الحين اتخذت الطائفة الصقلية جانبا في هذا الصراع ، فمالت الى جانب الطائفة الاندلسية واتبعت سياستها ودخلت بذلك في فلك الطائفة الاندلسية^(٢) .

اتهمزت العناصر البربرية فرصة سقوط الخلافة الاموية بقرطبة واقتطع رؤساؤها في الاندلس لأنفسهم دويلات مستقلة ؛ فاستقل بنو زيري الصنهاجيون بغرناطة، وبنو برزال الزناتيون بقرمونة ، وبنو دمر الاباضيون بمورور ، وبنو خزرون بأركش ، وبنو أبي قره برنده . كذلك استقلت

Lévi-Provençal, l'Espagne musulmane au Xe siècle, (١)
PP. 19-20 — Henri Pérès, op. cit., PP. 5-15 — Isidro de las Cagigas, Andalucia musulmana, Madrid, 1950, P. 34 — Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, P. 175.

Henri Pérès, op. cit., P. 15. (٢)

أسرات أندلسية بربرية الأصل ببعض النواحي مثل بنو الافطس ببطليوس ، وبنو ذي النون بطليطة ، وبنو الادلع أو بنو رزين بالسهلة . ولكن هذا الوضع لم يلبث أن تغير بعد ذلك ، إذ أن ملوك الدويلات الاندلسية التي قامت بعد سقوط الخلافة مثل بنو عباد باشيلية ، وبنو هود بسرقسطة تولوا مهمة جمع شتات أهل الاندلس ، ولم شعنهم ، وتنظيم حزب قوي يضم الاسرات العربية والمستعربة ، ونجح هؤلاء الملوك في توحيد القوى ، وتأليف جبهة أندلسية متحدة تهدف الى القضاء على الجبهة البربرية المعادية لها ، وتولى بنو عباد زعامة هذه الجبهة الاندلسية . وبالفعل لم تأت سنة ٤٣٥ حتى كانت خريطة الاندلس قد تغيرت تغيرا محسوسا ، فقد رأى القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد مؤسس الاسرة العبادية باشيلية ، ضرورة الالتفاف حول زعيم روحي ، وذلك عندما ضاق ذرعا بمزاحمة بني حمود من كل جهة ، وما كان لهم في الناس من نداء مسموع ، « فدعا الى تجديد بيعة الخليفة هشام المؤيد المشكوك في موته ، المدعي كثير من الناس أنه فر لوجهه ، وزعم أنه عثر عليه سائحا في الارض »^(١) ، وأنه استقر في قرية من قرى اشيلية ، فاستقدمه ابن عباد وبايعه بالخلافة ، واستحجبه ابنه اسماعيل شأن المنصور مع هشام المؤيد ، ثم خاطب الناس بكل جهة في شأنه ، فخطب له بعض الملوك ، وأبى بعضهم أن يفعل ، فمن هؤلاء ابن جهور بقرطبة وابن ذي النون بطليطة ، وعبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية وأعمالها ، والموفق صاحب دانية والجزائر الشرقية ، وصاحب طرطوشة . ولم يجد ابن عباد بدا من اصطناع العنف وقوة السلاح ، فغزا قرطبة ، وأرغم ابن جهور على الخطبة لهشام . أما يحيى بن اسماعيل بن ذي النون فقد دعت الضرورة الى مخالفة المعتضد بن عباد والدخول في دعوته الهشامية التي أنكرها أبوه قديما ، وذلك طمعا في

(١) ابن عداري ، ج ٣ ص ٢٠٠ - ٢٠٢ ، المراكشي ، ص ٩٦ - ابن الخطيب ، ص ١٥٤ .

نصرته على سليمان بن هود ، وخطب باسم هشام المؤيد على منابر طليطلة (١) .

ولم يمض عهد طويل حتى كانت مملكة ابن عباد باشييلية قد اتسعت اتساعا كبيرا ، أولا على حساب أمراء زناته في الجنوب والجنوب الغربي من شبه الجزيرة ، وهم بنو برزال بقرمونة ، وبنو إفرن برندة ، وبنو دمر بمورور ، وبنو خزرون بأركش ، وبنو يحيى ببلبة ، وبنو بكر بولبة ، وبنو مزين بشلطيش وشلب ، وبنو هارون بشتبرية ، ثم على حساب بني حمود في مالقة والجزيرة ، وبني صمادح بالمرية ، وبني جهور بقرطبة ، وبني طيفور بمرتلة ، وبني طاهر بمرسية (٢) . ومما يؤكد هذه السياسة الاندلسية قبول ملوك الطوائف الاندلسيين لمبدأ التحالف بين المسلمين والنصارى استمرارا للتقليد المتبع في الاندلس منذ قيام الفتنة ، وهو تقليد يتفق مع الاماني العميقة للشعب الاندلسي ، وان كانت له نتائج خطيرة للغاية في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، واذا كان تدخل هؤلاء النصارى الاسبان قد أصبح أمرا ضروريا الا أنه لم يمنح بدون مقابل، فقد اشترطوا نظير تقديم خدماتهم بأن يتنازل لهم الاندلسيون عن أراضي وحصون، وأن يدفعوا لهم جزيات سنوية . هذه التبعة للملك النصارى وقوامسهم وأمرائهم في الشمال وضعت ملوك الطوائف في مأزق خطير ، اذ أرغمتهم الاحداث على اختيار أحد أمرين : قبول سياسة اسبانية ، أو التصرف وفقا للمصالح العليا للإسلام (٣) ، وذلك باستدعاء المرابطين من المغرب ، وكره أهل الاندلس أن « يكونوا بين

(١) ابن عذارى ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٢) H. Pérès, op. cit., P. 10.

(٣) Ibid. P. 11 . وكان الفونسو السادس يطمع في امتلاك قرطبة حاضرة الخلافة نفسها ، ويذكر ابن بسام أنهم أشاروا عليه بلبس الناج ، فأبى حتى يطأ ذروة الملك ويستولي على قرطبة واسطة السلك (ابن بسام ، قسم { مجلد ١ ، ص ١٣١) وكان قد أعد لمسجدها الجامع ناقوسا تانق في ابداعه وتجاوز الحد في استنباطه .

عدوين : الفرنج عن شمالهم والمسلمين عن جنوبهم»^(١) ، بل ان هؤلاء الملوك كانوا ينوون قبل أن يكتبوا الى ابن تاشفين يدعونه للجواز لنجدهم ، دعوة عرب افريقية الهلالية^(٢) ، فنهاهم القاضي عبدالله بن محمد عن هذا القصد خشية « أن يخربوا الاندلس كما فعلوا بافريقية ويتركوا الافرنج ويبدأوا بالاندلسيين »^(٣) . ويذكر صاحب الحلل الموشية ان المعتمد بن عباد ايتشار اولياءه في دعوة ابن تاشفين أمير المرابطين ، « فقال له ولده الرشيد ما معناه : حاول الامر بجهدك مع النصراني (يقصد الفونسو السادس) ، ولا تستعجل بادخال من يبلبنا الملك ويشتت الشمل ، فالتاس من علمت . فقال المعتمد : يا ولدي ، لأن أموت راعيا بالمغرب خير عندي من أن أبرد الاندلس دار كفر »^(٤) .

(١) المقرئ ، ج ٦ ص ٨٦ .

(٢) هي قبائل عربية بدوية تميل الى التدمير والنهب ، اشتركت مع القرامطة في غزو الشام في بداية العصر الفاطمي ، ثم انتقلت الى مصر في عهد العزيز بالله الفاطمي ، ونزلوا بالجانب الشرقي من الصعيد ، واقاموا هناك الى ان قطع المعز بن باديس الدعوة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله في سنة ٤٤٠هـ ، ودعا للخليفة القائم ابي جعفر العباسي ، فأشار اليازوري وزير المستنصر بهجير القبائل الهلالية الى المغرب لتعيث فسادا في العمران المغربي ، فأرسلهم المستنصر الى المغرب في سنة ٤٤١ ، وسارت هذه القبائل وتتألف من بني هلال وبني زغبة وبني سليم وبني رياح وبني الاتيج وبني عدي وبني ربيعة ، ونجحوا في غزو برقة وافريقية حيث نثروا بذور الدمار والخراب في عمران هذه البلاد ، فاضطر المعز بن باديس الى الانسحاب الى المهديّة ، ودخل العرب القيروان ، فاستباحوا المدينة وخربوا ابنتها ، وقضوا على معالم حضارتها ، وعاثوا في البلاد ينهبون ويأسرون ويقتلون . حتى تغلب عليهم عبد المؤمن بن علي المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين ، وصيرهم جندا له ، واستنفر بعضهم الى الاندلس (راجع : المراكشي ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، Georges Marçais, La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen âge, Paris, 1946, P. 193 et s. 79. - السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامي ، ج ٢ ص ١٢٣ - ١٢٥ ، المغرب الكبير ، العصر الاسلامي ، مجلد ٢ ، الاسكندرية ١٩٦٦ ، ص ٦٦٦ - ٦٧٣ .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٩٣ .

(٤) ابن الخطيب ، ص ٢٤٥ - الحلل الموشية ، ص ٢٧ - الحميري ، ص ٨٥ .

فاستجد الاندليسيين بالمرايطين كان أمرا اضطراريا أرغمتهم الظروف الحرجة عليه لانتقاد الاسلام في الاندلس ، لا سيما بعد أن تسمى الفونسو السادس بالامبراطور « صاحب الملتين » في المصادر العربية^(١) ، ثم ادى استنصار أهل الاندلس بالمرايطين الى تفوق العنصر البربري وتمكينه في الاندلس في عصر دولتي المرايطين والموحدين *

والامثلة عديدة على العداء المتأصل بين ملوك الاندلس وبين البربر^(٢) ، فعندما بلغ المعتصم بن صمادح ان الشاعر خلف بن فرج السميسر قد هجاه احتال في طلبه حتى قبض عليه وأمره بان ينشد له ما قاله فيه ، فقال له الشاعر : « وحق من حصلني في يدك ما قلت شرا فيك ، وانما قلت :

رأيت آدم في نومي ققلت له : أبا البرية ان الناس قد حكموا
ان البرابر نسل منك قال اذن حواء طالقة ان كان ما زعموا

فأباح ابن بلقين صاحب غرناطة دمي ، فخرجت الى بلادك هاربا ، فوضع (ابن بلقين) على من اشاع ما بلغك عني لتقتلني أنت ، فيدرك ثأره بك ، ويكون الاثم عليك * فقال : وما قلت فيه خاصة مضافا الى ما قلته في امة قومه ؟ فقال : لما رأيته مشغوبا بتشديد قلعه التي يتحصن فيها بغرناطة ، قلت :

يبنى على نفسه سفاها كأنه دودة الحرير

فقال له المعتصم : لقد أحسنت في الاساءة اليه ، فاختر هل أحسن اليك وأخلى سبيلك أم أجيرك منه »^(٣) *

(١) ليفي برونفسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم ، ص ١٤٩ .

(٢) H. Pérès, op.cit., PP. 12-15

(٣) المقري ، ج ٤ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

وهكذا ظهرت النعرة الاندلسية واضحة في عصر الطوائف ، وكانت معالمها قد بدأت تتضح في عصر الفتنة . فبالنسبة للعرب لم نعد نسمع شيئا عن عصبيتهم المضرة واليمينية اللتين فقدتا مدلوليهما الجنسي والسياسي ، كما اننا لم نعد نسمع شيئا عن حركات ثورية يقوم بها المولدون او المستعربون ، وانما اصبحنا نسمع عن تعبير جديد هو « أهل الاندلس » ، او « العصبية الاندلسية »^(١) ، استخدمه كتاب الاندلس في كتاباتهم ، وكان هذا التعبير في بدايته مبهما ، ولكنه لم يلبث أن ازداد وضوحا عندما قام الصراع بين أهل قرطبة والبربر . وكان مصرع هشام بن سليمان على يدي المهدي بداية لقيام طائفتين او حزبين عدوين : حزب البربر وحزب الاندلسيين^(٢) ، واتخذ كل من الحزبين خليفة ، فالحزب البربري أيد المستعين ومن بعده خلفاء بني حمود ، أما الحزب الاندلسي فعضد بالتتابع هشاما المؤيد ثم المهدي ، ثم المرتضى ، ثم المستظهر ، فالمستكفي ، واخيرا المعتد . ثم اطلق على اصحاب العصبية الاندلسية اسم « الجماعة » ، ونعت هشام المؤيد بن الحكم المستنصر باسم « صاحب الجماعة » بينما عرف سليمان المستعين بأمير البرابرة^(٣) .

(١) ورد هذا التعبير في المصادر العربية في صور شتى ، فمرة يرد في صورة « أهل الاندلس » (ابن بسام ، قسم ١ مجلد ١ ، ص ٤٠١) او « الاندلسيون » (ابن بسام ، ص ٣٩٨ - ابن الخطيب ، ص ١٣١) ومرة في صورة « العصبية الاندلسية » (ابن الخطيب ، ص ٨٧) او « العصائب الاندلسية » (نفس المصدر ص ١٢٨) . ويشير ابن عذارى الى البرابر والاندلسيين كفرقتين ادناهما عبد الرحمن شنجول بن المنصور (ابن عذارى ، ج ٣ ص ٤٧) .

(٢) ابن الخطيب ، ص ١٢٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٦ .

(٢)

قرطبة في عصر الطوائف

١ - في ظل بني جهور :

في منتصف شهر ذي الحجة من سنة ٤٢٢ هـ اجتمع الملا من أهل قرطبة بعد خلع المعتد بالله على تقديم شيخ الجماعة وأمينها أبي الحزم بن محمد ابن جهور ، لما عرف عنه من حسن التدبير وبراعة السياسة ، وما اتصف به من الحكمة والدهاء وبعد البصيرة . فلما استولى على أزمة الامور لم ينتقل من داره بالربض الشرقي الى قصر الخلافة^(١) ، وظل مقيما بداره حتى توفي في سنة ٤٣٥ هـ ودفن فيها ، كذلك لم يتظاهر بالامارة والسلطان وانما تمسك بالجماعة ، ودبر امور قرطبة تديرا لم يسبق اليه ، فكان يجعل الفائض من الاموال بعد صرف رواتب الجند والخدم في أيدي ثقة من رجاله رتبهم لذلك ، مع قيامه بالاشراف عليهم ، وكان متى سئل عن مال ، قال : « ليس لي عطاء ولا منع هو للجماعة ، وأنا أميتهم »^(٢) ، وكان لا يقدم على اجراء الا اذا شاور فيه الوزراء ، ولذلك شهدت قرطبة في ظله عهدا من الاطمئنان والاصلاح والامن « فأنجح سعيه بصلاحها ، ولم شعثها في المدة القريبة »^(٣) ، وأثمر الثمرة الزكية ، ودب ديبب الشفاء في السقام ، فنعش منها الرفات ، وأحفها رداء الامن ، ومانع عنها من كان يطلبها من امراء البرابرة المتوزعين أسلابها ، بخفض الجناح والرفق في

(١) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩١ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥٩ .

(٢) ابن بـاسم ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١١٥ - ابن عـذارى ، ج ٣ ص ١٨٦ .

(٣) بذل ابن جهور كل جهوده لتيسير الحياة على أهل قرطبة ، وتوفير الرخاء فيها ، كما عمل على توثيق الروابط بينها وبين جاراتها ، فلم تلبث قرطبة ان عمرت بطوائف كثيرة من السكان وفدوا اليها واعادوا بناء الاحياء التي كان قد أحرقها البربر في الفتنة (دوزي ، ص ١٥) .

المعاملة ، حتى حصل على سلمهم واستدراز مرافق بلادهم ، ودرأ القاسطين عليه من ملوك الفتنة حتى حفظوا حضرته ، وأوجبوا لها حرمة ، بمكابדתه الشدائد حتى ألانها بضروب احتياله « (١) . وكان من نتائج هذه السياسة الإصلاحية الحكيمة ان دبّت الحياة في قرطبة ، وشاع فيها نوع من الرخاء ، ونعمت هذه المدينة التي شقيت فترة طويلة بالفتن وعانت مصائب الجروب الأهلية بنعم السلام في ظل حكومة عادلة ، وازدهرت فيها العلوم والآداب ، كما ازدهرت الحياة الاقتصادية سواء فيما يختص بالتجارة أم الصناعة ، وقامت فوق الاطلال الدارسة والميادين الخربة مرة أخرى ابنية شامخة يعمرها قوم سعداء (٢) ، وأقبل الناس الى قرطبة وانتجموها من سائر اقاليم الاندلس بعد ان هجروها ايام الفتنة ، وابتعث الاقتصاد القرطبي وتحرك الاسواق بعد ان رخت الاسعار ، وارتفعت اثمان الدور لكثرة من قصدها (٣) .

ولما توفي أبو الحزم جهور في ٢٠ من المحرم سنة ٤٣٥ هـ خلفه في الرئاسة ابنه أبو الوليد محمد بن جهور ، فاقتفى آثار أبيه في اصطناع ذوي الفضل من أهل العلم والادب كل في اختصاصه ، وكان المؤرخ الكبير ابن حيان ممن أفاد بهم أبو الوليد (٤) ، كما نهج نهج أبيه في حسن التصرف والمحافظة على الامن ومراعاة الانصاف ، ثم انه ارخى حبال الحكم ، فأحسن الناس في ايامه براحة واطمئنان بعد « الضبط الشديد ، وتجاوز الحدود بأيدي جبايرة الشرطة أيام الجماعة » ، وعمل أبو الوليد ايضا على رد الحقوق الى أصحابها ، وفك العقول السلطانية ، واطلاق عقارات الغيب على

(١) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) دوزي ، ملوك الطوائف ، ص ١٥ - اشباح ، تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة الاستاذ محمد عبدالله عنان ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٥ .

(٣) ابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١١٧ - ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩١ - ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٨٧ - ابن الخطيب ، ص ١٤٨ .

(٤) نفس المصدر ، مجلد ٢ قسم ١ ، ص ١١٨ ، ١١٩ .

أرياء (١) وفي أيامه بدأ شيعة المروانية وبقايا أشرف الأمويين يلتفون حول شاب من البيت الأموي يدعى ابن المرتضى ، كان يطمع في الاستيلاء على السلطان والقيام بفتنة جديدة ، فعمل أبو الوليد على إبعاده من قرطبة ، فاستقر بشرق الأندلس ، وبطل الأرجاف بعد خروجه (٢) . ويرجع الفضل في توجيه سياسة أبي الوليد إلى ابن السقاء مدبر دولته الذي ضبط أمور الدولة كلها أحسن ضبط ، وساسها أحسن سياسة وحافظ على استقلالها أمام العواصف السياسية التي تجتاح الأندلس ، حتى غص به المعتضد بن عباد صاحب أشبيلية ، وتضاءلت مطامعة بسببه في ضم قرطبة إلى مملكته الأشبيلية (٣) .

ولكن أبا الوليد ارتكب خطأ فاحشا كان العامل الأساسي في سقوط دولة بني جمهور بقرطبة ، فقد قدم ولديه عبد الرحمن وعبد الملك ، وبسط أيديهما في السلطان ، وقسم الرئاسة بينهما في حياته دون أن يخص أحدهما بالامر ، فأخذ كل منهما يستميل طائفة من الجند ، ويصطنع لنفسه من الرعية انصارا ، وتوترت العلاقات بين الأخوين ، وأصبح كل منهما يتربص بالآخر ، فخاف أبو الوليد أن يؤدي ذلك إلى قيام الحرب بينهما ، فجعل إلى عبد الرحمن النظر في أمر الجباية ، والإشراف على أهل الخدمة ، والتوقيع على الصكوك السلطانية وجصيع أبواب النفقات ، وجعل إلى عبد الملك (الأصغر) النظر في الجند ، والإشراف على إعطياتهم ، والنظر في أمور الدفاع واليعوث (٤) . ويبدو أن أبا الوليد آثر ابنه عبد الملك ، فقدمه على الناس ، وأخذ عليهم العهد له ، فاستبد وطمع ، وزادت مطامعه في السلطان ، وبعثت آماله ، حتى فاق أخاه وغلبه على الأمر ، واستبد دونه بالسلطان ، وجبر عليه وسجنه في بيته (٥) ، والتفت حول عبد الملك

(١) ابن بسام ، مجلد ٢ ، قسم ١ ، ص ١١٩ - ابن الخطيب ، ص ١٤٨ .

(٢) نفسه ، ص ١٢٠ .

(٣) ابن عذارى ، ج ٣ ، ص ٢٥٦ .

(٤) ابن بسام ، ص ١٢٢ - ابن عذارى ، ج ٣ ، ص ٢٥٦ .

(٥) ابن عذارى ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ - ابن الخطيب ، ص ١٤٩ .

بطانة من اصحاب السوء والمفسدين وسفال الناس تظاهر بهم في تحقيق اهدافه ، وامعانا في التظاهر بالعظمة والفخامة رأى عبد الملك ان يتقرب من المعتضد عباد^(١) أعظم ملوك الطوائف في عصره ، فوالى مكاتبته ومداخلته ، وزاره بنفسه^(٢) . فدى عباد الى عبد الملك بن جهور من جرأه على الفتك بابن السقاء مدبر الدولة الجهورية ، وكان شجا في حلق عباد ، فقد كان المعتضد عباد يعلم تمام العلم أنه اذا ازاح ابن السقاء من طريقه انفسح له المجال للاستيلاء على قرطبة بسبب ما يعرفه من سوء تدبير عبد الملك وضعف رأيه . ونجح عباد في خطته ، وأوهم عبد الملك بما يمثله ابن السقاء من خطر على نفوذه ، فعمد الى التخلص منه وازالته ، فأرصد له بعض رجاله في بعض الفصائل عندما قدم لزيارة ابيه ذات يوم ، فوثبوا عليه واحتزوا رأسه في سنة ٤٥٥ هـ ووضعوها في طرف رمح وطافوا به في الاسواق^(٣) ، وبرر عبد الملك هذه الجريمة بأن اتهم ابن السقاء بتدبير ثورة في قرطبة على بني جهور . وبمقتل ابن السقاء خلا الجو لعبد الملك وتهيأت له الفرصة في الاستئثار بالسلطان ، فتجاسر على التلقب بألقاب السلطان وهو أمر أحجم عنه ابوه وجده فتلقب « بذى السيادين المنصور بالله الظافر بفضل الله ، وخطب له على المنبر باسمه ، ولم يكن ابوه ولا جده انتقلا عن رسم الوزارة ، ولا تلبسا لشيء من أمور الامورية »^(٤) من التلقب بالالقاب الخرافية ولا الجلوس بمقصورة مصلنى الخلفاء بالجامع^(٥) . وحركت هذه السياسة العرجاء أطماع المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة في امتلاك قرطبة ، فوضع نصب عينيه التغلب عليها ،

(١) هو ابو عمرو عباد بن محمد بن اسماعيل بن عباد ، ولي امور اشبيلية واعمالها بعد وفاة ابيه في سنة ٤٣٩ هـ ، وجرى على نهج ابيه في الحكم الجماهي والاستشاري فترة من الوقت ثم استبد دون شركائه بالسلطان وتلقب بالمعتضد بالله ، ونوفي في جمادى الآخر سنة ٤٦١ هـ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٥٨ .

(٣) نفسه ، ج ٣ ص ٢٥٦ .

(٤) نفسه ، ص ٢٣٢ - ابن الخطيب ، ص ١٤٩ .

(٥) نفسه ، ص ٢٣٣ .

واستهان في ذلك بالمال والرجال ، وانتهاز فرصة وفاة المعتضد في سنة ٤٦١ هـ وزحف بجيوشه نحو قرطبة في سنة ٤٦٢ هـ (١) ، واستولى على حصن المدور من حصون قرطبة ، ثم أقدم على حصار قرطبة نفسها (٢) . واذ أحس عبد الملك بعجزه عن مقاومة ابن ذي النون وحده ، استغاث بحليفه المعتمد بن عباد ، فأمدّه المعتمد بكتيبة تتألف من ٣٠٠ فارس ، واتبعها بفرقة من الفرسان تتكون من ألف فارس بقيادة قائديه الكبيرين خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين (٣) ، وكان المعتمد قد أسر اليهما بالتعايل على التغلب على قرطبة اذ كانت هذه المدينة منتهى أمله ، ورسم لهما الخطة لتحقيق ذلك . فنزلت قوات المعتمد بالربض الشرقي من قرطبة (٤) ، وأقامت أياما تحمي حماها ، الى ان اضطر المأمون بن ذي النون الى رفع الحصار والعودة من حيث أتى ، وأدرك قائدا المعتمد بن عباد ، بعد ان اقاما بالمدينة عدة أيام ، تفاهة عبد الملك بن جهور ، « وقلة رجاله ، وكرهية رعيته فيه » (٥) . ويذكر ابن حيان أن العباديين قضوا ليلة رحيل ابن ذي النون يتحدثون في القفول الى اشبيلية ، وتظاهروا بالتأهب للرحيل بعد ان انتهت مهمتهم ، وعزم عبد الملك الى البكور لتوديعهم بما يليق بهم ، « فلم يرع الا احداقهم بقصره ، وارتفاع اصواتهم بالبراءة من امره ، واصمات الافواه عن ذكره ... وقبض للحين عليه وعلى اخواته وسائر أهل بيته وأسرته » (٦) . ويذكر ابن عذارى أنه لما رحل ابن ذي النون عن

(١) ابن بسام، ج ٢ قسم ١، ص ١٢٤ - ابن عذارى، ج ٣ ص ٢٥٧ - ابن الخطيب ، ص ١٤٩ .

(٢) ابن عذارى ، ص ٢٣٣ ، ٢٦٧ .

(٣) نفسه ، ص ٢٦٧ - ابن الخطيب ، ص ١٥٠ .

(٤) ابن بسام ، ج ٢ قسم ١ ، ص ١٢٥ - ابن عذارى ، ص ٢٥٧ - ابن الخطيب ، ص ١٥٠ .

(٥) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٦٠ .

(٦) ابن بسام ، ص ١٢٥ - ابن عذارى ، ص ٢٥٨ . ويذكر ابن الخطيب ان وثوب القائدين العباديين تم في يوم ٢١ من شعبان سنة ٤٦١ هـ ، وهو تاريخ لا يتفق مع ما ذكره ابن حيان .

قرطبة ، اجمع اهلها سرا على خلع عبد الملك ، لجوره وتعديه هو وحاشيته السفلة على الناس ، والدعوة للمعتد^(١) . ويصف لنا ابن عذارى نقلا عن كتاب الانباء في سياسة الرؤساء ، كيف سقطت دولة الجهاورة . فيذكر ان اهل قرطبة اخذوا ييثون عسكر ابن عباد شجوههم ، ويطالعونهم على سوء حالهم ، « ويناشدونهم الله ألا يبرحوا حتى يقبضوا على الغوي الظالم اميرهم عبد الملك بن جهور ، ويجسوا البلد على سلطانهم ابن عباد ، فأصبحوا عشي يوم الاحد المؤرخ على تعية سفرهم ، ثم قدم القائدان على الباب من ضبطه ، واسرعا التقدم في الجند والعامه الى دار عبد الملك ابن جهور ، فاستوى هو وخويصته فوق غرفة داره ، وتكاثر الجند عليهم ، فأتوه من كل جهة ، وتوصلوا الى داره من السقف المتصل به ، ونزلوا منه الى قعرها ، وغشيها جموع من الناس أعلاها واسفلها كالجراد المنتشر ، فتقدمت العامة على النهب ، فصيروا جميع ما احتوى عليه كحريق سريع ، وفضوا أقاصي مخازنه على نفيس أعلامها »^(٢) . أما أبوه الشيخ أبو الوليد محمد فقد لجأ الى مقصورة المسجد الجامع ترافقه نساؤه وبناته ، فاقتحمها عليه طائفة من نصارى جند ابن عباد ، وجردوهم مما كانوا يحملونه معهم^(٣) . أما عبد الملك فقد ذكرنا انه صعد الى عليا داره أغلقها . على نفسه وعلى نساؤه ، واضطر الى التسليم بالامان عندما صعد اليه الجند لاقتحامها عليه ، ثم امر القائد ابن مرتين الناس بالكف عن النهب ، وامر بارسال عبد الملك واخوته الى اشبيلية ، في حين اعتقل الشيخ ابا الوليد في دار صغرى ، وظل معتقلا بها الى ان وصل كتاب المعتد بنفيه الى جزيرة شلطيش ليلحق هناك بجميع أبنائه^(٤) .

(١) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٥٩ . ونحن نؤيد ما ذهب اليه ابن عذارى ، لان فرسان ابن عباد لا يمكنهم ان يقوموا بانقلاب داخلي في قرطبة بعيدا عن مدينتهم اشبيلية ما لم تساندهم قوة شعبية نابعة من ارادة جمهور قرطبة .

(٢) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٦٠ .

(٣) نفسه ، ص ٢٦١ - ابن الخطيب ، ص ١٥٠ .

(٤) نفسه ، ص ٢٦١ - ابن الخطيب ، ص ١٥٠ .

ب - قرطبة في ظل المعتمد بن عباد :

تحقق أمل المعتمد بن عباد في التغلب على قرطبة^(١) ، فانتظمت في سلكه ، وانضوت في فلكه ، وقدم اليها بنفسه ، فأنس أهلها له ، فأحسن معاملتهم ، وولى عليها ابنه سراج الدولة عباد الملقب بالظافر بالله ، فقدم اليها^(٢) ، ودخلها دخولا حافلا اغتبط به ابوه^(٣) . ثم عاد المعتمد الى اشبيلية بعد أن ترك عليها ابنه الظافر بالله وأبقى معه القائد ابن مرتين في فرقة من الفرسان ، فأفاض الظافر فيها نداءه ، وخصها بكثير من عنايته . وكان ابن ذي النون يتابع احداث قرطبة ، ويطلع على اخبارها ، فساءه ما شاهده من دخول قرطبة في فلك دولة ابن عباد ، فحرض على الوثوب بقرطبة قائدا من قواد الحصون المجاورة لقرطبة كان تابعا له يدعى حكم ابن عكاشة^(٤) ، وأكد له ابن عكاشة أن باستطاعته التفرير بابن عباد فقدم ابن عكاشة الى قرطبة مع جماعة من اتباعه ، واقام بها متحينا الفرصة المواتية للوثوب ، وجاءت اللحظة التي كان يترقبها للقيام بالانقلاب ، في ليلة شديدة الرياح والرعد والبرق ، فتسلل دون ان يشعر به احد في شردمة من فرسانه ورجاله^(٥) ، واتجه الى دار ابن جهور حيث يقيم الظافر ابن عباد ، فلما علم الظافر بذلك خرج من فوره وحده لمدافعتهم ، وحمل عليهم بسيفه ، فدفعهم عن باب داره ، ولكنه عثر في بعض كراته ، فسقط

(١) اغتبط المعتمد اغتباطا شديدا بضم قرطبة، وقد عبر عن ذلك بقوله :
 من للملوك بشاؤ الاصيد البطل ؟ هيهات جاءكم مهدية الدول
 خطبت قرطبة الحسناء اذ منعت من جاء يخطبها بالببيض والاسل
 وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها فاصبحت في سري الحللى والحلل
 عرس الملوك لنا في قصرها عرس كل الملوك بها في ماتم الوجلل
 (المقرئ ، ج ٢ ص ١٥٣)

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥٩ . ويذكر ابن خلدون انه قدمها من بلنسية ، ولكن بلنسية لم تكن تابعة لابن عباد ، وانما كانت تابعة لابن ذي النون ، ولذلك نعتقد أن ابن خلدون خلط بين المأمون بن ذي النون وبين الظافر بن عباد .

(٣) ابن الخطيب ، ص ١٥٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٥٨ . ويسميه ابن الاثير جرير بن عكاشة .

(٥) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩٢ - ابن الخطيب ، ص ١٥٨ .

على الأرض ، فوثب عليه أحدهم ، وقتله ، وجرده من ثيابه ، وتركوه مضرجا في دماائه عاريا ، فمر احد أئمة الجامع بجثته وقت السحر ، فخلع رداءه عن منكبيه ، وستره به ، وفي الصباح احتز جند ابن عكاشة رأسه ، ورفعوه على سن رمح ، وطاقوا به في قرطبة^(١) . أما ابن مرتين ، فقد قبضوا عليه ، وسيق مكبلا بالأغلال الى حصن ابن عكاشة .

وعلى هذا النحو تغلب ابن ذي النون على قرطبة عن طريق صنيعته ابن عكاشة ، فأقيمت فيها الدعوة الذنونية^(٢) وخوطب ابن ذي النون بذلك ، فقدم الى قرطبة من بلنسية في ٢٥ جمادي الآخرة سنة ٤٦٧ هـ ، ودخلها في احتفال كبير ، وبايعه اهله . واقام بها ما يقرب من خمسة اشهر ، ولم يلبث ان توفي بها مسموما في ١٨ ذي القعدة سنة ٤٦٧ هـ ، وحمل الى طليطلة حيث دفن بها^(٣) . وانتهم أهل قرطبة الذين تغلب عليهم العصية الاندلسية فرصة وفاة ابن ذي النون ، وخاطبوا المعتمد بن عباد في القدوم اليهم ، فلم يتردد في اجابتهم . وكان يتلف شوقا لطلب ثأر ابنه المقتول من قتلته ، فدخلها في ٢٧ ذي القعدة سنة ٤٦٧ هـ^(٤) . أما ابن عكاشة فقد حاول الفرار ، ولكنه قتل على يدي رجل يهودي من اهل قرطبة .

ثم ولى المعتمد بن عباد ولده المأمون على قرطبة ، وظلت قرطبة تابعة لمملكة ابن عباد باشبيلية ما يزيد على ١٦ سنة ، الى أن نزلها يوسف بن تاشفين بعد مجازته للمرة الثالثة الى الاندلس في سنة ٤٨٣ هـ بقصد خلع رؤساء الاندلس ، فنزل قرطبة ، واجتمع هناك بالمعتمد بن عباد^(٥) ، ومن هناك تحرك الى غرناطة حيث استنزل الامير عبد الله بن بلقين ملك غرناطة ثم نفاه الى مكناسة . وفي العام التالي أمر ابن تاشفين قائده الامير أيا عبد الله

(١) القرى ، ج ٢ ص ١٥٤ .

(٢) ابن الخطيب ، ص ١٥٨ .

(٣) ابن خلدون ، ص ١٥٩ .

(٤) يذكر ابن خلدون ان ابن عباد دخلها في سنة ٤٦٩ هـ .

(٥) مذكرات الامير عبدالله الزيري ، ص ١٤٧ .

محمد بن الحاج بالاستيلاء على قرطبة ، ونجح هذا القائد في افتتاحها في الثالث من صفر سنة ٤٨٤ هـ (١) . ويذكر صاحب روض القرطاس أن بطى ابن اسماعيل قائد سير بن أبي بكر اللمتوني هو الذي افتتحها ، وافتتح بعدها مدينة ياسة وأبدت وحصن البلاط والمادون والصخيرة وشقوية (٢) . ولم ينقض شهر صفر المذكور حتى لم يبق للمعتمد بن عباد من مملكته الواسعة سوى قرونة واشيلية ، واستشهد ابنه الأمون ووزيره ابن زيدون وابن بكر بمداخلة من أهل قرطبة عندما دخلها المرابطون (٣) . وكان المعتمد قد أوصى ابنه بتحسين قرطبة والدفاع عنها بكل امكانياته (٤) . ويبدو أن زائدة زوجة الأمون وكنته المعتمد، وقد امتلأ قلبها حقدا على قتلة زوجها وسجاني أبيه بعد قليل ، آثرت الالتجاء الى مملكة الفونسو السادس ، وأصبحت زوجة غير شرعية للملك قشتالة بعد أن ارتدت عن الاسلام واعتنقت المسيحية حتى تستطيع أن تدفعه الى محاربة المرابطين ، وقد أنجبت منه ولدها الأمير شاذي الذي قتل في المعركة التي خاضها ضد المرابطين في أقليم سنة ٥٠١ هـ (٥) .

وأقام القائد بطى بن اسماعيل بقرطبة حتى سكنها ، ومهد الامر فيها للمرابطين ، ورم ثغورها (٦) .

-
- (١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٦٠ .
(٢) ابن أبي زرع ، كتاب روض القرطاس ، نشره تورنبرج ، إيساله ١٨٣٩ ، ص ١٠٠ .
(٣) مذكرات الأمير عبدالله الزيري ، ص ١٧٠ .
(٤) ذكر عبدالله الزيري أنه كان حريصا على الإبقاء على قرطبة ، وكان يرجو بقاء حاله بشبوتها ، ويوصي ابنه بالصبر ويقول له : « لا تجزع فالموت أهون من الدل ، وليس السلطان إلا من القصر الى القبر » (مذكرات الأمير عبدالله ، ص ١٧٠) وكان المعتمد يتقوى بطول مقاومتها ، فلما سقطت بعد مقتل ابنه انقطع رجاؤه .
(٥) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٦٢ - الونشريشي ، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، صحيفة المعهد المصري بمطريد ١٩٥٧ ص ١٨٩ .
(٦) ابن أبي زرع ، ص ١٠٠ .

ج - وصف القصور النارسة بقرطبة. والزهاء. في عصر الطوائف :

تحولت قرطبة في عصر ملوك الطوائف الى مدينة تاريخية ، يقصد آثارها الاموية الوزراء والكتاب فيقفون عليها ويجوسون بين أطلالها ، ويعتبرون برسومها الدارسة ، من هؤلاء الوزير أبو الحزم بن جمهور الذي وقف على أطلال قصور بني أمية وأنشد قائلا :

قلت يوما لدار قوم تفانوا أين سكانك العزاز علينا ؟
فأجابت : هنا أقاموا قليلا ثم ساروا ولست أعلم أيننا (١)

ووقف الشاعر السيسر على أطلال الزهاء ، فاستعبر وبكى وقال :

وقفت بالزهاء مستعبرا معتبرا أنذب أشتانا
فقلت : يا زهرا ألا فارجلي قالت : وهل يرجع من ماتا ؟
فلم أزل أبكي وأبكي بها هيهات يغني الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد معنى فوادب يشدين أمواتا (٢)

وزار بعض وزراء المعتمد آثار مدينة الزهاء ، وجاسوا بين اطلالها ، ويصف الفتح بن خاقان هذه الزيارة عند ترجمته لسيرة المعتمد بن عباد فيذكر ، أن الوزير أبا الحسين بن سراج أخبره أنه « حضر مع الوزراء والكتاب بالزهاء في يوم غفل عنه الدهر ، فلم يرمقه بطرف ، ولم يطرقة بصرف ، أرخت به المسرات عهدا ، وأبرزت له الاماني خدها ونهدها ، وأرشفته فيه لماها ، وأباحته للزائرين حماها ، وما زالوا ينتقلون من قصر الى قصر ، ويتبدلون الغصون بجنى وهصر ، ويتوغلون في تلك العرفات ، ويتعاطون الكؤوس بين تلك الشرفات ، حتى استقروا بالروض من بعدما قضوا من تلك الآثار أوطارا ، ووفروا بالاعتبار قطارا ، فحلوا منها في درائك ربيع مفوفة بالازهار ، مطرزة بالجداول والانهار ، والغصون تختال

(١) القري ، ج ٢ ص ٦٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٨ .

في أدواحها ، وتشتى في أكف أرواحها ، وآثار الديار قد أشرفت عليهم
كشكالي ينحن على خرابها ، وانقراض أترابها وأطرابها ، والوهي بمشيدها
لاعب ، وعلى كل جدار غراب ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ،
وقلصت ظلالها وأفياءها ، وظلما أشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من
شذاهم وتأرجت ، أيام نزلوا خلالها ، وتفيئوا ظللالها ، وعمروا حدائقها
وجناتها ، ونهبوا الآمال من سناتها ، وراعوا اللبث في آجامها ، وأخجلوا
الغيوث عند انسجامها ، فأضحت ولها بالتداعي تلفع واعتجار ، ولم يبق
من آثارها الا نوى وأحجار ، قد دعت قبابها ، وهرم شبابها ، وقد يلين
الحديد ، ويبلى على طيه الجديد ، فبينما هم يتعاطونها صفارا وكبارا ،
ويديرونها أنسا واعتبارا ، اذا برسول المعتمد قد وافاهم برقعة فيها :

حسد القصر منكم الزهراء ولعمري وعمركم ما أساء
قد طلعت بها شموسا صباحا فاطمعو عندنا بدورا مساء

فساروا الى قصر البستان بباب العطارين ، فألقوا مجلسا قد حار فيه
الوصف ، واحتشد فيه اللهو والقصف» (١) .

(٣)

قرطبة في عصر المرابطين

جاز يوسف بن تاشفين الى الاندلس للمرة الرابعة في سنة ٤٩٦ برسم
النظر في مصالحها ، وصحبه ولداه الاميران أبو الطاهر تميم وأبو الحسن
علي ، وكان أبو الحسن علي أصغر سنا من تميم . وفي قرطبة دعا ابن
تاشفين جميع أمراء لمتونة وأشياخ البلاد وفقهائها وقادة الرأي ، وتلا عليهم

(١) الفتح بن خاقان ، فرائد العقيان ، طبعة القاهرة ١٣٢٠ هـ -
المقري ، ج ٢ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

عقد البيعة لابنه علي ، وضمنه الاسباب التي حملته على اختياره وليا للعهد ، ثم أخذ البيعة له من جميع الحاضرين ، وأقسم هؤلاء يمين الطاعة والولاء ، ثم وقعوا على عقد البيعة ، وقام علي على أثر ذلك ، فأقسم أمام الحاضرين بالتزام شروط العقد وترسم السياسة التي رسمها أبوه ، ثم أشهد الكتاب ، ووقع على الوثيقة^(١) .

وعلى الرغم من أن غرناطة كانت الحاضرة الاثيرة لدى المرابطين ، فإن قرطبة على الرغم مما أصابها من نكبات منذ أن طحنتها رحي الفتنة احتفظت في عصر المرابطين بمكائنها القديمة كحاضرة للاندلس ، باعتبارها القاعدة القديمة للبلاد منذ الفتح الاسلامي حتى سقوط الخلافة الاموية ، فيها كان يقيم ولي العهد حتى اذا مات أبوه انتقل الى مراكش وبويع أميراً للمسلمين^(٢) . وكانت بقرطبة دار للسكة كالشأن في غيرها من حواضر الاندلس الاخرى كاشبيلية وغرناطة وبلنسية ومالقة وسرقسطة ، كما كانت المركز الرئيسي لقاضي الجماعة الذي يتولى الاشراف على نظام القضاء في الاندلس قاطبة ، كالفقيه أبي الوليد بن رشد عميد فقهاء قرطبة^(٣) .

وظلت قرطبة موالية للمرابطين حتى سنة ٥١٥ هـ عندما شهدت من جديد ثورة قام بها الاهالي^(٤) على واليهم المرابطي أبي بكر يحيى بن رواده ، سببها أن أحد عبيد أبي بكر يحيى بن رواده مديده الى امرأة فأمسكها ، فاستغاثت بالمسلمين ، فأغاثوها ، فقامت الفتنة . ولما طالب الفقهاء من الامير المرابطي أن يقتل العبد الذي سبب تلك الفتنة أنكر ذلك ، وغضب وأظهر السلاح والعدد بقصد التأهب لمنع احتجاجهم بقوة السلاح ، فقاتله أهل قرطبة وهزموه ، فلاذ بالقصر وتحصن فيه ، فحاصروه وتسلقوا اليه ، فهرب منهم ، فنهبوا القصر وأحرقوا جميع دور المرابطين ، ونهبوا أموالهم

(١) روض القرطاس ، ص ١٠١ - الحلل الموشية ، ص ٥٦ ، ٥٧ .
(٢) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣٤٧ .
(٣) نفس المرجع ، ص ٣٦٧ .
(٤) ويجعلها ابن الاثير في سنة ٥١٤ (ج ٨ ص ٢٩٠) .

وأخرجوهم من قرطبة على أسوأ حال (١) . ويبدو أن هذه الثورة كانت من الخطورة على مركز المرابطين في الأندلس كله بحيث دعت الأمير علي بن يوسف إلى الحضور بنفسه إلى قرطبة ، فبادر الأمير بتجنيد الاجناد وحشد الجيوش من صنهاجة وزناتة والمصامدة وأخلاط البربر ، وجاز إلى الأندلس في عسكر لم يجتمع مثله للمرابطين قبله ، فاحتل بخارج قرطبة (٢) وحاصرها ، ولكن أهل قرطبة أغلقوا أبواب مدينتهم وتأهبوا لمقاتلته ، إلا أن علماء قرطبة وكبار شيوخها لم يلبثوا أن توسطوا عند أمير المرابطين ، واعتذروا له بأن ما قام به القرطبيون كان بقصد الذب عن الحرم والدماء والأموال (٣) وتم الصلح على أن يغرم أهل قرطبة ما نهبوه من أموال المرابطين .

وفي سنة ٥١٩ هـ كانت الحملة الكبرى التي قام بها الفونسو المحارب (ابن ردمير) ملك أرغون بايعاز من المعاهدين بغرناطة الذي استثاروا طمعه ، وفي هذه الغارة اخترق بلاد المسلمين مخربا ومدمرا كل ما قابله من قرى وحصون اسلامية من سرقسطة إلى بلنسية إلى جزيرة شقر فدانية وشاطبة ومرسية ثم برشانة وبسطة ووادي آش وبيانة واستجة حتى وصل إلى غرناطة ، ويبدو أنه شن غاراته أيضا على نواحي قرطبة وخاصة مدينة الزهراء ، وإن كنا لا نملك الدليل على ذلك (٤) . وعلى أثر تلك الغارة جاز قاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد بن رشد إلى مراكش حيث قابل الأمير علي ابن يوسف ، « وبين له القاضي أمر الأندلس وما أصيبت به من النصاري المعاهدين بها ، وما جرؤه إليها ، وجنوه عليها من استئساء ابن ردمير ،

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٩٠ .

(٢) الحلل الموشية ، ص ٦٣ .

(٣) نفس المصدر . وأشار ابن الخطيب أيضا إلى جواز علي بن يوسف إلى الأندلس « لاصلاح الامور بقرطبة » (ابن الخطيب ، ص ٢٤٧) .

(٤) Garcia Gomez, la Ruina de la Cordoba omeya, P. 291

ويذكر ابن الأثير أنه خرج في عساكره وجاس في بلاد الاسلام وخاضها حتى وصل إلى قريب قرطبة وأكثر النهب والسبي والقتل : ابن الأثير . ج ٨ ص ٣١٩ .

وتقويته على المسلمين ، وامداده ، وما في ذلك من تقض العهد والخروج عن الذمة . فلقى نظره بالقبول ، وأفتاد بتغريبهم واجلائهم عن أوطانهم وهو أخف ما يؤخذ به في عقابهم . ونفذ عهده الى جميع بلاد الاندلس بازعاج المعاهدين الى ناحية مكناسة وسلا وغيرهما من بلاد العدو » (١) .

وفي سنة ٥٣٤ ثار العامة بقرطبة مرة ثانية لضعف قاضيه ابن رشد ، فاضطر ابو جعفر احمد بن محمد بن حمدين الى الخروج للناس لتسكين ثأرتهم ، وانتهى الامر باستعفاء ابن رشد عن القضاء ، فاضطر أمير قرطبة أبو عمر اللمتوني الى تعطيل الاحكام بها ما يزيد على عام كامل تأديبا لاهل قرطبة ، ثم اذن لهم في اختيار قاض لهم ، فأجمعوا على اختيار ابن حمدين في سنة ٥٣٦ هـ . وكانت أحوال المرابطين قد ساءت كثيرا في المغرب بسبب الهزائم التي توالى عليهم على ايدي الموحدين اتباع المهدي ابن تومرت ، وذلك في عهد الامير المرابطي تاشفين بن علي بن يوسف (٥٣٣ - ٥٣٩) ، واستغل اهل الاندلس هذه الفرصة وثاروا في مدنهم على المرابطين . وكان منبع هذه الثورات ومصدرها الرئيسي جماعة من المريدين ببلدة شلب كان يرأسهم أبو القاسم بن قسي الذي يعزون اليه اشعال نار الثورة ضد المرابطين في مرتلة بغرب الاندلس ، ومن هناك امتدت نار الثورة على المرابطين الى يابرة وباجة وشلب ولبله ، ووصل لهيها الى قرطبة وشرق الاندلس .

وكان نفوذ الفقهاء قد ازداد زيادة ملموسة في حياة الامير علي بن يوسف ، وهم الذين كانوا قد أفتوا في أيام ابيه بخلع ملوك الطوائف ، واستنزلوا عليهم اللعنات ، وهم الذين املوا على علي بن يوسف مشيئتهم باحراق كتب الغزالي واهمها كتاب احياء علوم الدين الذي فضح نزعت الفقهاء في دراساتهم الفقهية وحرصهم على الدنيا (٢) ، وابن حمدين ،

(١) الحلل الوشية ، ص ٦٦ .

(٢) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٥٢ .

قاضي قرطبة ، الذي تولى القضاء على أهل قرطبة في سنة ٥٣٦ هـ ، هو نفسه الذي تقدم قبل ذلك بنحو ٣٣ سنة الى الامير علي بن يوسف بطلب احراق كتب الغزالي بقرطبة ، وتم احراق نسخة من كتاب الاحياء في الميدان الصغير الممتد أمام الباب الغربي لجامع قرطبة ، في محضر من الفقهاء (١) .

ظل ابن حمدين يتولى منصبه القضائي بقرطبة حتى سنة ٥٣٩ هـ ، عندما امتدت نيران الثورة الصوفية الى قرطبة ، ورحب أهل قرطبة بهذه الثورة لا بقصد التخلص من حكم المرابطين فحسب ، وانما اشباعا لطبيعتهم الثائرة المتقلبة ، فقد كان أهل قرطبة معروفين منذ ايام بني امية بالتقلب والولوع بالفتن والقتل ، فهم الذين ثاروا على الامير الاموي الحكم الربضي في عامي ١٨٠ ، ٢٠٢ هـ ، وهم الذين حركوا الفتنة الكبرى التي أطاحت بالخلافة الاموية ، وهم الذين اقلبوا على بني جهور وأيدوا المعتمد بن عباد ، ثم اقلبوا عليه بعد ذلك ، وهللوا لابن ذي النون ، ثم اعلنوا من جديد ولاءهم للمعتمد بن عباد ، ثم رحبوا بالمرابطين . ففي رمضان سنة ٥٣٩ هـ ثار العامة في قرطبة على الامير أبي عمر اللمتوني ، وخلعوا دعوة المثلثين بمجرد خروج أبي زكريا يحيى بن غانية المسوفي كبير قواد المرابطين في الاندلس لمواجهة الثوار على الحكم المرابطي في النواحي الاخرى ، واتفقوا على مبايعة القاضي احمد بن حنبل رئيس الثوار في بلدهم ، فنادى بنفسه في المسجد الجامع اميرا على قرطبة وتلقب بالقاضي الخليفة (٢) ، وأقام في قصر الخلافة بهذه المدينة ، وتسمى بأمر المسلمين وناصر الدين المنصور بالله . ولكن أهل قرطبة لم يأنفوا قط حياة الاستقرار والتمسك بالولاء لامير أو حاكم عليهم ، فلم يمض اثني عشر يوما على قيام ابن حمدين بثورته حتى قامت ثورة اخرى بقرطبة حمل لواءها انصار سيف الدولة احمد بن عبد الملك بن هود الذي ينتمي

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس . ص ٢٥٣ .

(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٥١ .

الى اسرة بني هود امراء سرقسطة ، وكان هذا الامير مقيما بشعر روطلة متعلقا بأذيال ملك قشتالة^(١) ، فانتهاز فرصة قيام أهل قرطبة بالثورة على المرابطين ، وقدم الى قرطبة في قوة من القشتاليين^(٢) ودخلها بمساعدة انصاره الذين عمدوا الى مداخلة أهل قرطبة واغرائهم بالوعود والعطايا . ولم يتردد هؤلاء في تأييده ، وقد بهرتهم نسبه الملوكية ، ونودي بسيف الدولة اميرا باسم المستنصر بالله . ومع ذلك فلم يطل تنعمه بهذا المنصب ، لان أهل قرطبة ضاقوا ذرعا باستبداد وزيره ابن شماخ، فثارت نفوسهم غضبا لمجرد رؤية اجناده النصارى في شوارع قرطبة ، فانقلبوا عليه بعد ثمانية ايام فقط من توليه الامارة ، وقتلوا وزيره ، فاضطر سيف الدولة الى الفرار الى حيان^(٣) ، واتزعمها من صاحبها ابن جزي ، ثم لم يلبث أن مد تقوده على غرناطة ، ولكنه فر منها بعد ان اقبلت جيوش المرابطين لمحاربتة ، ورحل الى مرسية وتمكن من دخولها في ١١ من جمادي الآخرة سنة ٥٤٠ هـ ، وهناك قتل في معركة وقعت بين المسلمين والنصارى في ٢٠ من شعبان من نفس السنة^(٤) . أما ابن حمدين فقد عاد الى قرطبة في ١٠ ذي الحجة سنة ٥٣٩ هـ ونودي به للمرة الثانية اميرا على قرطبة باجماع اهلها ، « فاستقام له الامر فيها ، ودون الدواوين ، وجند الاجناد ، ورسم الخطط »^(٥) .

ولم يكد يمضي ١١ شهرا على توليه الامارة حتى تبرم به أهل قرطبة ، فاتصلوا يحيى بن غانية في اثبيلية وطلبوا منه ان يعمل على تخليصهم من حكم ابن حمدين ، فزحف ابن غانية الى قرطبة في جمادي الآخرة من سنة ٥٤٠ هـ على رأس فرقة من النصارى ، ونجح في ايقاع الهزيمة بجيش ابن

-
- (١) ابن الخطيب ، ص ١٧٦ .
 (٢) اثباج ، تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ص ٢١١ .
 (٣) ابن الخطيب ، ص ٢٥٣ .
 (٤) نفس المصدر ، ص ١٧٦ .
 (٥) نفسه ، ص ٢٥٣ .

حمدن في أحواز استجة^(١) ، ثم دخل قرطبة في ١٢ شعبان سنة ٥٤٠ هـ ،
 بينما فر ابن حمدن الى بطليوس . ودخل النصارى قرطبة ، وعاثوا في
 مسجدها الجامع ، وربطوا خيولهم في اروقته ، واقاموا قداسا حافلا ،
 وتناولوا بأيديهم المصحف العثماني^(٢) ، فأثاروا بذلك غضب أهل قرطبة ،
 ويبدو أن السبب في ذلك أن السليطين الفونسو السابع ريموندس طالب
 ابن غانية بمدينة قرطبة كتمويض لمساعدته له ، ولكن ابن غانية صالحه على
 أن يعطيه بياسة وتحفا كثيرة ، ويرسل اليه جزية سنوية ، فخرجوا منها بعد
 عشرة أيام من دخولها^(٣) . ثم بحث ابن غانية مع أهل قرطبة عن شخص يتولى
 رئاسة المدينة ، فاختراروا عليهم محمد بن عامر صاحب شلب ، ولكن هذا
 الوالي الجديد اضطر الى التخلي عن الامارة ، فأقلم ابن غانية يحيى بن علي
 ابن عائشة واليا على قرطبة بينما سار هو الى غرناطة . وكانت جيوش
 الموحدن بقيادة ابراهيم بن براز المسوفي قد اقتربت من قرطبة وحاضرتها ،
 فسلمها واليها المرابطي يحيى بن علي بن عائشة اليهم في سنة ٥٤٣ هـ ،
 فدخلتها جيوش الموحدن^(٤) .

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٥٣ .

(٢) يشير الراكشي الى هذه الحادثة ، ولكنه يؤرخها خطأ في سنة ٥٠٣ هـ .
 فيقول « وحكم غير واحد ان الاذقش لعنه الله لما دخلها في شهر سنة ٥٠٣ هـ
 دخل النصارى في هذا المسجد بخيلهم ، فأقاموا به يومين لم تبل دوابهم ولم
 تروح حتى خرجوا منه . وهذه الحكاية مما تواتر عندهم واستفاض بقرطبة . »
 (المعجب، ص ٢٧٢) . أما ابن غالب فيذكر دخول النصارى في الجامع سنة ٥٤٠ هـ
 فيقول : « ودخلت النصارى هذا الجامع المكرم عند دخولها قرطبة سنة اربعين
 وخمس مائة عندما هاجت الفتنة الثانية ، ثم من الله تعالى بخروجهم بعد
 تسعة ايام او نحوها ، وحملت التفافيج التي كانت في النار من الذهب
 والفضة ، وحمل من النبر نحو نصفه وبقي الباقي ، ونهبت اوصاله وثرديات
 الفضة عند دخولهم ، وأما باب الذهب الذي كان للمقصورة فانه نهب مع
 بيت مال الجامع في الفتنة الاولى » (ابن غالب ، ص ٣٠) .

(٣) اشباح ، ص ٢٢١ .

(٤) ابن أبي زرع ، ص ١٢٥ .

نهاية قرطبة الاسلامية

١ - قرطبة منذ عهد الموحدين حتى سقوطها في ايدي القشتاليين :

لما تبين لالفونسو السابع نجاح الموحدين في الاستيلاء على اشبيلية وقرطبة وجيان وغيرها من مدن الاندلس الكبار ، أعد جيشا ضخما عدته أربعون الفا من الفرسان ، وزحف على رأس هذا الجيش الى قرطبة ، فحاصرها وكان يتولى الدفاع عنها القائد الاندلسي ابو النعمان السائب من ولد القائد ابن غلبون^(١) ، فلما بلغ الخبر عبد المؤمن بن علي بمراكش وجه حملة بقيادة ابي زكريا يحيى بن يغمور^(٢) بقصد الدفاع عن قرطبة ورد جيش القشتاليين ، وأقام الفونسو على حصارها ثلاثة اشهر ، واضطر امام مقاومة حامية المدينة ومناعة حصونها ، وقرب وصول المدد الموحيدي الى رفع الحصار عنها والرحيل الى بلاده^(٣) .

وتولى يحيى بن يغمور امانة اشبيلية وقرطبة ، ولكن عبد المؤمن عزله عنهما في سنة ٥٤٩ هـ بسبب استبداده ، واقام على ولاية قرطبة أبا زيد بن بكيت^(٤) ، وصحتها ابن تيجيت^(٥) ، وفي ولايته هاجم محمد بن سعد بن مردنيش قرطبة سنة ٥٥٤ هـ وحاصرها فترة ، كذلك هاجمها صهره ابراهيم بن همشك ، ودمر زروعها ، واستشهد ابن تيجيت وهو يدافع عنها في موضع يسمى الدارات^(٦) .

-
- (١) ابن الاثير ، ج ٩ ص ٢٨ . ولعله ابا النعمان بن عزون الذي كان قد زحف اليها من اشبيلية (ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٤٨ ، طبعة بيروت) .
 (٢) ورد هذا الاسم في الكامل لابن الاثير مختلفا ، فنقرأه يحيى بن يرموز (ابن الاثير ، ج ٩ ص ٢٨) .
 (٣) اشباح ، ص ٢٢٩ .
 (٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩٢ (ط . بيروت) .
 (٥) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامانة ، ص ١٠٦ .
 (٦) نفس المصدر ، ص ١٢٧ .

وفي عصر الموحدين تنازلت قرطبة عن مكانتها السياسية لاشبيلية ، واصبحت اشبيلية على هذا النحو حاضرة الموحدين في الاندلس . ومع ذلك فقد ظلت تحتفظ بمكانتها الادبية والروحية باعتبارها القاعدة القديمة لدولة الاسلام في الاندلس ، ولكونها تضم المسجد الجامع أعظم المساجد الجامعة في بلاد المغرب والاندلس . ويبدو ان عبد المؤمن أبدى رغبته في استقدام المصحف العثماني المحفوظ في جامع قرطبة من موضعه القديم بالجامع الى مراكش ، فحمله اليه ولداه السيدان ابو سعيد وابو يعقوب في ١١ شوال سنة ٥٥٢ هـ ، واعتنى به عبد المؤمن بن علي غاية الاعتناء ، فصنعت له كسوة تأتق الفنانون في تنميقها ، وصنع له محمل بديع مغشى بضروب من الترصيع والنقش في قطع الابنوس والخشب الرفيع ، وجعل لهذا المحمل كرسي مماثل في الزخرفة ، وأحيط الكرسي بتابوت رائع به باب تنفتح دفتاه بحركات هندسية يخرج على أثرها الكرسي^(١) . كذلك ولي قرطبة واشبيلية وجميع مدن غرب الاندلس السيد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في حياة أبيه سنة ٥٥٣ هـ^(٢) . وقد تأثر أبو يعقوب وهو بعد وال على المدن المذكورة بالحياة العلمية والثقافية بقرطبة ، فزالت عنه جفوة البربر واكتسب رقة أهل الاندلس ، وكان قد درس على الكثير من علماء قرطبة واشبيلية علوم اللغة وعلوم الدين ، كما شارك في الادب والفلسفة والطب ، واصطب من الفلاسفة أبا بكر بن رشد . وفي خلافته عقد على قرطبة للسيد أبي اسحق^(٣) ، وعلى اشبيلية لآخيه السيد أبي ابراهيم . ثم عقد على قرطبة بعد مضي وقت قصير من خلافته لآخيه السيد أبي الحسن ، وعلى اشبيلية لآخيه أبي علي وذلك في سنة ٥٧١ هـ^(٤) . وفي سنة ٥٧٨ عقد أبو يعقوب يوسف لابنيه السيد أبي يحيى على قرطبة والسيد أبي اسحق

(١) الحلل الموشية ، ص ١١٥ - ١١٦ ، المقري ، ج ٢ ص ١٤٢ - ١٤٤

(٢) القرطاس ، ص ١٢٩ - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩٧ (ط . بيروت)

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٥٠١ .

على اشبيلية ، وقد عانى السيد أبو يحيى من أهل قرطبة الكثير حتى اضطر الى أن يطلب الانفصال عن ولايتها لكثرة شغب أهلها وميلهم الى الثورة . وعلى الرغم من انحراف السيد أبي يحيى عن أهل قرطبة ، فقد أقام قصرا خارج المدينة على متن نهر قرطبة يقوم على أقواس حتى يذكره به أهل هذه المدينة رغما عنهم^(١) . ولما انفصل أبو يحيى عن ولايتها تولاها السيد أبو يوسف بن أبي حفص وذلك في خلافة أبي يوسف يعقوب ، ثم خلفه عليها السيد أبو زيد بن أبي يوسف يعقوب . وفي خلافة محمد الناصر ، تولى السيد أبو ابراهيم بن أبي يعقوب يوسف على اشبيلية وقرطبة ، وتولاها في خلافة المستنصر بن الناصر مع اشبيلية السيد أبو اسحق الاحول ، ثم عمه السيد أبو العلاء . ولما توفي المستنصر الموحيدي سنة ٦٢٠ ، انبعثت الفتن والثورات في أنحاء البلاد ، واضطربت الامور في الاندلس وتهاوى الناس للخلاف ، واجتمع شيوخ المغرب على تقديم عبد الواحد بن يوسف على الخلافة . وفي عهده تفرق أمر الموحدين ، وازداد تهاوتهم على الخلافة ، فاستقل ابو محمد عبدالله بن يعقوب بالاندلس ، وتلقب بالعدل ، وعندما قتل العدل في سنة ٦٢٤ هـ خلفه أخوه أبو العلاء ابن المنصور ، وبويع في اشبيلية مقر ولايته في حياة أخيه العدل ، وتلقب بالأمون . وفي نفس الوقت بويع أبو زكريا يحيى بن الناصر في مراكش وتلقب بالمعتصم ، ونشب صراع عنيف بين الأمون والمعتصم ، واتقل هذا الصراع الى أرض المغرب حيث قضى الأمون بقية عهده في معارك ضارية مع المعتصم . وبينما كان الأمون مشغلا بمحاربة ابن أخيه في المغرب ، كان النصارى يستولون على مدن الاندلس ، واشتعلت نيران الفتن في البلاد . وترجع أسباب التدهور الذي أصاب دولة الموحدين في الاندلس الى الضعف السياسي الذي منيت به على أثر هزيمة المسلمين بقيادة الناصر الموحيدي في واقعة العقاب Las Navas de Tolosa ، في سنة ٦٠٩ (١٢١٢م) ،

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٧ . ويعرف هذا القصر في المصادر العربية بقصر السيد، وسنعود الى ذكره عند حديثنا عن طوبوغرافية قرطبة التاريخية.

وفوضى الادارة ، وتفكك وحدة القبائل الموحدية ، وما سببته القبائل الهلالية في بلاد المغرب من اضطرابات ، بالإضافة الى التوسع المسيحي المتواصل في قلب الاندلس عقب هزيمة المسلمين في العقاب ، وضياح معظم مدن الاندلس العظمى من أيدي المسلمين كجزر البليار التي استولى عليها ملك أرغون في سنة ٦٢٧ ، وماردة وبطليوس التي استولى عليها فرناندو الثالث ملك قشتالة في سنة ٦٢٨ ، وياسة وبسطة في سنة ٦٣٠ ، وأبدة في سنة ٦٣١ هـ ، والعدد الاعظم من مدن غرب الاندلس التي التهمت مملكة البرتغال المفتية . ثم ظهر في الاندلس أمير من سلالة بني هود أصحاب سرقسطة يسمى أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود ويلقب بسيف الدولة ، ويعرف في المندوبات الاسبانية باسم Zafadola استقل بمرسية ونواحيها ، وتلقب بالتوكل على الله ، ودعا للعباسيين ، وبسط نفوذه على جيان وقرطبة ومالقة وبطليوس وماردة وغرناطة . وفي سنة ٦٢٩ هـ ضم اليه لشبيلية ، ثم دخلت قرطبة في هذه السنة في ملك قائد عربي آخر هو محمد بن يوسف بن نصر صاحب حصن أرجونة الذي بويح له على الدعاء للامير أبي زكريا الحفصي صاحب افريقية ، ولكنها لم تلبث أن خرجت من دائرة نفوذه وأعلنت تبعيتها لابن هود .

وكان فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون (ويعرف في المصادر العربية باسم هرانده) قد استولى في سنة ٦٣١ على أبده ، ثم زحفت جيوشه الى أندوجار ، وعاث القشتاليون في ساحتها ونواحيها ، وأسروا عددا كبيرا من المسلمين ، وتبين لهم عن طريق هؤلاء الاسرى سوء ما آلت اليه قرطبة ، كما عرفوا منهم أيضا اهمال أهل قرطبة لوسائل الدفاع عنها ، وتطوع بعض الخونة من بين هؤلاء الاسرى لمعاونة النصارى على افتتاحها ، فسارت فرقة من القشتاليين ليلا حتى وصلت الى قصبة قرطبة الامامية للمسماة بالشرقية في جمادي الاخرة سنة ٦٣٢ هـ ، ومن عجيب الاتفاق أن يتم استيلاء القشتاليين على قرطبة بنفس الطريقة التي تم بها افتتاح المسلمين لها على يدي مغيب الرومي ، فالقشتاليون استعانوا ببعض المسلمين ، كما استعان

المسلمون بأحد الاسبان ، كذلك يتشابه القتحان في قلة عدد الجند الذين أسهموا في الفتح ، وفي اتخاذ الليل وهطول الامطار ستارا لاختفاء ما يصدر من أصوات تحركات الجند ، وفي الصعود على سور المدينة ومفاجأة رجال الحامية .

تمكن القشتاليون من الاستيلاء على قسم من السور ودخلوا المدينة من جانبها الشرقي ، ولكنهم اصطدموا بمقاومة المسلمين ، فاضطروا الى التحصن في بعض أبراج السور ، وبعثوا رسولا الى قائد المنطقة الفار بيرث دي كاستروس Alvar Perez de Castros والى الملك القشتالي فرناندو الثالث يستمدونهما^(١) ، أما أهل قرطبة فكتبوا الى محمد بن هود يستنصرونه ويطلبون منه الاسراع لنجدتهم . ولكن ابن هود تلقى في الوقت ذاته استغاثة من أبي جميل زيان أمير بلنسية يدعوها فيها الى المبارزة باقارباها من الغزو الارغوني ، وأثر ابن هود أن ينقذ بلنسية خاصة وقد بلغته الأنباء بسقوط جانب منها ، وقدوم الملك القشتالي بنفسه في جيش كثيف لاستكمال فتحها ، فترك ابن هود قرطبة لمصيرها التحس ، آملا في أن يقوم أهلها بالدفاع عنها . واستبسل أهل قرطبة في الحق في الدفاع عن مدينتهم وتغافوا في الذود عنها ، ومنعها ، وقاتلوا عن كل شبر منها ولكن اليأس لم يلبث أن دب في قلوبهم عندما ضيق فرناندو عليهم ، فاضطروا الى مفاوضات في التسليم ، وسقطت قرطبة بذلك في ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ بعدما يقرب من أربعة شهور من بداية حصارهم لها ، وأثار سقوطها في أيدي التصاري الحزن والاسى في نفوس المسلمين ، فقد كانت رغم اضمحلالها رمزا لسيادة الاسلام في الاندلس ، وكان سقوطها نذيرا بالنهاية المحتومة للحركة الاسلام ، وقد علق المؤرخ الاشبيلي دي ثونيبنا على سقوطها بقوله : « سقطت مدينة قرطبة أنبل مدن الاسلام وأعظمها بعد رومة والقسطنطينية فاشيلية^(٢) » . وما كاد

(١) اشباخ ، ص ٤٢٩ - ٤٣٣ .

(٢) De Zuniga. (Diego Ortiz), *Anales Ecclesiasticas y seculares*, Madrid, 1796, t. I, P. 131.

القشتاليون يدخلون قرطبة حتى رفعوا الصليب على مسجد الجاهل ايدانا بتحويله الى كنيسة كبرى ، ورفعوا علم قشتالة على القصر الخلفي . وبدخول القشتاليين قرطبة هجرها العدد الاعظم من أهلها مرغمين ، وتفرقوا في أنحاء مملكة غرناطة ، فاستبدل فرناندو بهم سكانا آخرين من قشتالة وليون وقطالونية وغيرها من ممالك اسبانيا المسيحية .

ب - ما بعد سقوط قرطبة :

شهدت قرطبة في عصرها المسيحي محاولات اسلامية متتالية لغزوها ، فقد آل أمر ما بقى من ملك المسلمين في الاندلس الى محمد بن يوسف ابن نصر ، الذي نجح في تأسيس جبهة قوية أمام الخطر المسيحي الجاثم ، وقامت مملكته بقرطبة بين مظاهر الاضطراب الذي اجتاحت الاندلس بعد سقوط قرطبة في ١٠٣٣ واشبيلية في ١٠٤٦ ، وغيرهما من كبار مدن شرق الاندلس ، ومع ذلك فقد قدر لهذه المملكة الصغيرة أن تصارع دول اسبانيا المسيحية نحو قرنين ونصف من الزمان ، ويرجع الفضل في بقاء مملكة غرناطة رغم الانواء والعواصف السياسية التي كانت تجتاحها في الداخل والخارج ، الى أنه احتشد فيها خلاصة العناصر الاسلامية التي تشردت بعد سقوط حواضر الاسلام الكبرى في الاندلس أمثال قرطبة واشبيلية وجيان وبلنسية ومرسية وبياسة وغيرها ، ولم يكن هؤلاء المسلمون يحجمون عن الاشتراك في الحملات الحربية التي كان يوجهها سلاطين بني الاحمر بقرطبة وسلاطين بني مرين في فاس بقصد الاغارة على تلك المدن ، ومحاولة استردادها . ومن أهم تلك الحملات الحملة التي قادها عامر بن ادريس في مطوعة بني مرين من قبل السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني في سنة ١١٧٢ هـ ، وجاز بها الى الاندلس ، فاكسح بجيوشه الفصوص والزروع ، ووزع كتائبه في البسائط والوديان تنتسف الزروع وتدمر العمران . وفي غزوة ثانية تمكن السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني سنة ١١٧٤ في أيام محمد الفقيه سلطان غرناطة من محاصرة اشبيلية ، ودخل بجيوشه حصنا

قطيانة وجليانة والقلعة عنوة ، كما غزا شريش ، واكتسح بسائط حصن روطه ، ثم حاصر قرطبة ، وأوقع بالجيش القشتالي بقيادة دون نونيو دي لارا الذي يسميه العرب دننة في استجة قتل فيها القائد القشتالي^(١) . وفي المحرم سنة ٦٧٦ جاز السلطان يعقوب المريني اجازته الثانية الى طريف ، وانضم اليه أبو اسحق بن أشقيلولة صاحب قمارش ، وأبو محمد صاحب مالقة للغزو معه ، فغزوا اشبيلية ، واقتحموا الوادي يخربون العمران ويضرمون النيران في ساحة المدينة ، ويدمرون القرى والحصون المجاورة ، « فدخل حصن قطيانة وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة وأثنى بالقتل والسبي^(٢) » . واقام السلطان المريني في الجزيرة الخضراء بعض الوقت للراحة وتوزيع الغنائم ، ثم استنفر جيشه لغزو قرطبة ، ورغب رجاله في عمرانها ، وثروة أهلها ، وخصب أراضيها ، فسارعوا الى اجابته ، ووافاه السلطان ابن الاحمر بناحية ارشدونة ، وانضم جيشه الى الجيش المريني ، ثم نازلت الجيوش الاسلامية مجتمعة حصن بني بشير فدخلوه عنوة، وقتلوا من فيه من المقاتلة ، وسبوا النساء ، وخرّبوا الحصن ، وبشوا الغارات في البسائط حتى وصلوا الى قرطبة ، فنازلوها ، « فانهجرت حامية العدو من وراء أسوارها ، وانبثت بموت المسلمين وسراياهم في نواحيها ، ففسفوا آثارها ، وخرّبوا عمرانها ، واكتسحوا قراها وضياعها ، وتردد (السلطان المريني) على جهاتها ، فدخل حصن بركونة عنوة ثم حصن أرجونة كذلك^(٣) » .

ومن الغزوات الكبرى التي قام بها المسلمون في عصر الدولة النصرية الغزوة التي قام بها السلطان الغني بالله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد اسماعيل بالتعاون مع دون بطره^(٤) لفتح قرطبة فيما بين عامي

(١) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٣٩٧ (ط . بيروت) - المغرب الاسلامي ، ج ٢ ص ١٦٣ .
(٢) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤٠٤ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٤٠٥ .
(٤) هودون بيدرو القاسي ملك قشتالة .

٧٦٦ - ٧٦٨ هـ (١٣٦٤ - ١٣٦٦ م) ، ثم تنازل دون بطره عنها للغني بالله محمد انتقاما من نبلائها الثائرين فيها بزعامه دون هنريكي دي تراستمارا^(١) (القمط الريق) . ويذكر ابن الخطيب في احدى رسائله التي كتبها على لسان الغني بالله محمد الى سلطان بني مرين أن الجيوش الاسلامية أوقعت الهزيمة بالقوات القشتالية التي برزت للقائهم ، فتركهم المسلمون « حصيدا ، وأذاقوهم وبالا شديدا ، وجدلوا منهم جملة وافرة وأمة كافرة ، وملكوا بعض تلك الاسوار ، فارتفعت بها راياتهم الخافقة ، وظهرت عليها عزما تهم الصادقة ، واقتحم المسلمون الوادي سيبا في غمره ، واستهانة في سبيل الله بأمره ، وخالطوا حامية العدو في ضعفته ، خاقتلعوها ، وتعلقوا بأوائل الاسوار ففرعوها » . ثم يذكر أن المسلمين أقاموا على حصار قرطبة خمسة أيام أحدثوا خلالها في الاسوار أثقابا ، وقتلوا من حامية قرطبة أعدادا كبيرة ، ثم عمدوا الى « تخريب العمران وتسليط النيران ، وعقر الاشجار ، وتعفية الآثار » . ثم رحل عنها المسلمون وقد ارتفعت أعمدة الدخان فوق أسوارها^(٢) . وفي رسالة أخرى كتبها على لسان السلطان الغني بالله كتب يصف هذه الغزوة : « ثم كان الغزو الى أم البلاد ومثوى الطارف والتلاد قرطبة ، وما قرطبة المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الاقليم كان العمل والكربي للذي بعصاه رعي الهمل ، والمصر الذي في خطة المعمر الناقة والجل ، والافق الذي هو لشمس الخلافة العبشمية^(٣) الحمل ، فخيم الاسلام في عقرتها المستباحة ، وأجاز نهرها المعبي على السباحة ، وعم دوحها الاشب بوارا ، وأدار الكمامة بسورها سوارا ، واخذ بمخنفها حصارا ، وأعمل النصل بشجر نصلها اجتناء ما شاموا واهتصارا » . ثم يذكر كيف أضرم المسلمون النيران في المزارع

(١) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٦٧٩ -

Castejon, Guia de Cordoba, Madrid, 1930, P. 14.

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٤٩ - ٥٣ .

(٣) أي النسوبة الى عبد شمس الجد الاول للامويين .

المتدة بظاهاها فيقول : « فعند ذلك أطلقنا بها ألسنة النار ، ومفارق
الهضاب بالهشيم قد شابت ، والغلات المستغلات قد دعا بها الفضل فما
ارتابت ، وكان صحيفة نهرها لما أضرمت النار حافى ظهرها ذابت ...
وتخلفت لغمامم الدخان عمامم تلويها برؤوس الجبال أيدي الرياح ، وتنشرها
بعد الركود أيدي الاجتياح » (١) .

(١) المقري ، ج ٩ ، ص ٧٧ - ٧٨ .

القسم الثاني

التخطيط العمران

الفصل الخامس : التطور العمراني والتخطيط منذ الفتح الاسلامي حتى
انتهاء قرطبة في التوسع

الفصل السادس : معالم قرطبة ومنتزهاتها في العصر الاسلامي

* الفصل الخامس

التطور العمراني والتخطيط منذ الفتح الاسلامي حتى انتهاء قرطبة في التوسع

(١) اتساع العمران في قرطبة في عصر الامارة

- أ - المدينة العتيقة والفيض السكاني خارج الاسوار
- ب - تخطيط المدينة في العصر الاسلامي وأسوارها المحدثّة

(٢) التطور العمراني في عصر الخلافة وقيام الارباض

- أ - المدينة الوسطى وجوانبها الاربعة
- ب - أرباض قرطبة والحوامات •
- ج - الاسواق القرطبية في المصادر العربية والوثائق القشتالية
- د - احصائيات المؤرخين بالدور والحوانيت والمساجد والحمامات

الفصل الخامس

التطور العمراني والتخطيط منذ الفتح الاسلامي حتى انتهاء قرطبة في التوسع

(١)

اتساع العمران في قرطبة في عصر الامارة

١ - المدينة العتيقة والفيض السكاني خارج الاسوار :

كانت قرطبة عند الفتح الاسلامي تتألف من مركزين عمرانيين يفصل بينهما سور حاجز ، كان الغرض من اقامته فصل الاهالي الذين يسكنون القسم الشرقي عن القسم الغربي ، الذي يشتمل على المؤسسات الحكومية وثكنات الجند^(١) . أما القسم الشرقي فكان يقوم على جانب من الربض الشرقي الذي عرف في العصر الاسلامي بالشرقية ، وكان يشغل ما يعرف بالمدينة العتيقة^(٢) ، أو المدينة^(٣) ، أما القسم الغربي فكان يشغل القصبة^(٤) ، أو المدينة العليا^(٥) ، أو المدينة الوسطى^(٦) ، أو قبة قرطبة^(٧) كما كانت تعرف في العصر الاسلامي نفسه . وكانت هذه المدينة العتيقة مسورة عند الفتح الاسلامي ، ولعل السور الغربي منها كان مثلما في بعض أجزائه ، بحيث استلزم الامر ترميمه في ولاية السمح بن مالك الخولاني . وعلى هذا النحو يكون المركز العمراني الشرقي من قرطبة السابقة على الفتح الاسلامي

(١) Saavedra, op. cit., P. 83 - تاريخ المسلمين وآثارهم في

الاندلس ، ص ٨٦ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ١٣ .

(٣) ابن الخطيب ، ص ١٠٣ .

(٤) المقرئ ، ج ٢ ص ١٣ .

(٥) ابن غالب ، ص ٢٧ .

(٦) الادريسي ، ص ٢٠٨ - الحميري ، ص ١٥٣ .

(٧) المقرئ ، ج ٢ ص ٧٩ .

هو نفس ربض المدينة العتيقة من مجموع ارباض الجانب الشرقي لقرطبة في عصر الخلافة ، ويشغل القسم الغربي من الشرقية الذي يلي سور قرطبة الشرقي مباشرة . أما القسم الغربي فيقع في نفس الموقع الذي تقوم عليه المدينة الوسطى أو القصبة العتيقة . وكان يشق المدينة العتيقة من وسطها طريق فسيح مرصوف يعرف بالسكة العظمى أو المحجة العظمى (Via Augusta أو طريق أغسطس قيصر) ، وكان يتدىء من مدينة قادس Cadiz وينتهي بأربونة Narbonne ، مارا بأشبيلية Sevilla واستجة Ecija وقرطبة Cordoba وقسطلونة Cazorla وجنحالة Chinchilla وشاطبة Jativa وبلنسية Valencia وطركونه Tarragona وبرشلونة Barcelona ، ومن أربونة يرتبط هذا الطريق بطريق آخر يصل الى رومة (١) .

(١) كان بأبيريا (إبارية في المصادر العربية) طريق قديم يعرف بطريق هرقل لعله من أصل قرطاجني يربط أربونة بقرطاجنة مارا بامبوراس وبرشلونة وطركونة وبلنسية وشاطبة ، ثم اوصله الامبراطور أوغسطس بطريق آخر يمتد من شاطبة الى جنحالة وقسطلونة . ومن هذه المدينة الى قرطبة كان يتفرع الى فرعين : احدهما على الضفة اليمنى والآخر على الضفة اليسرى من نهر بيطي (الوادي الكبير) ، ثم يواصل طريق أوغسطس سيره بعد ذلك من قرطبة الى استجة ومنها الى اشبيلية وينتهي أخيرا بقادس . فلما إفتتح المسلمون الاندلس استخدموا هذه الجادة الرومانية في تحركاتهم وتنقلاتهم في داخل شبه الجزيرة ، ولكنهم اضطروا الى اهمال اجزاء منها ، واجروا فيها بعض تعديلات تتفق مع مصالحهم الاقتصادية والسياسية ، فان قادس التي كانت تبدأ منها هذه الجادة لم تعد في العصر الاسلامي تحتل مكانتها القديمة البارزة ، وحلت محلها في الاهمية مدينة الجزيرة الخضراء بسبب اتصالها المباشر بالمغرب الذي ارتبط بالاندلس طوال العصر الاسلامي ، وعلى هذا النحو اشتدت حركة المرور على الطريق الممتد من قرطبة الى الجزيرة ، وهو أيضا طريق روماني كان يربط قرطبة بقرطاجنة ولهذا سمي الباب الجنوبي المثل على مخرج هذا الطريق المار بها بباب الجزيرة نسبة الى وجهة هذا الطريق الى الجزيرة . اما الطريق المؤدي الى قادس فقد أهمل بعض الشيء . وكانت قرطبة من ناحية أخرى تتصل بطليطلة العاصمة القوطية القديمة عبر الطريق الروماني الممتد من الحمراء في منطقة لا مانشا (وتقع على طريق أغسطس فيما بين شاطبة وقسطلونة) الى طليطلة . ويستمر الطريق الروماني بعد ذلك من طليطلة الى الشمال الشرقي حيث يصل الى وادي الحجارة Guadalajara ومنها الى مدينة سالم Medinaceli فقلعة أيوب Calatayud ثم الى سرقسطة Zaragoza . ويعبر الطريق في =

وكأنه يحيط بالقصبة القديمة سور من الحجارة حصين تفتتح فيه عدة أبواب ، منها باب القنطرة الجنوبي وباب اشبيلية في الجنوب الغربي وباب رومية في الشرق ، وما يزال باب اشبيلية القديم قائما حتى يومنا هذا^(١) مع قسم من السور الروماني يتوزع على جانبيه الايمن واليسر .

ولم تستطع الاسوار الرومانية التي كانت تحيط بقرطبة القديمة أن تقف أمام الدفع العمراني في عصر الولاة على الرغم من قيام السمع بن مالك بترميم السور الغربي الذي تلم في أجزاء منه ، واضطرت الاسوار الى الانحناء أمام الطلائع العربية التي اكتظت بها المدينة منذ الفتح العربي الاسلامي ، فتفتحت هذه الاسوار من الشرق والغرب والشمال بعد أن

= سر قسطة نهر ابره من جسرہ القديم، ويواصل سيره الى برشلونة عبر لاردة وطركونة ، ويتخذ بذلك مع طريق اوغسطس الذي ذكرناه آنفا . ولقد حرص المسلمون على الاتصال المباشر بطليطلة قاعدة الثغر الاوسط ، فانخذوا طريقا مستقيما يمتد من الجزيرة الى طليطلة مارا بقرطبة . هذا الطريق عرف بالرصيف . والى هذا الرصيف يشير الرازي عند حديثه عن قرمونة (Lévi-Provençal, La Description de l'Espagne d'Ahmad al Razi, P. 95) كما يشير اليه الحميري عند حديثه عن بيارة اذ يقول : « وكان ميناءها على النهر الاعظم معقودا بالرصيف ، وكانت المحجة العظمى عليها من باب نربونة الى بابها الى باب قرطبة » (الحميري ، ص ٥٦) ، كما أشار الى هذا الرصيف عند حديثه عن استجة ، فيقول : « والمدينة مبنية على الرصيف الاعظم المسلولك عليه من البحر الى البحر » (الحميري ، ص ١٥) . وبقرطبة باب يذكر بهذا الرصيف أو الطريق الروماني هو باب طليطلة أو رومية المفتوح بسورها الشرقي ، كما أن باب القنطرة القبلي يذكر بالطريق الموصل من قرطبة الى الجزيرة . أما باب اشبيلية الغربي المعروف باب العطارين فهو الذي كان يصل قرطبة باشبيلية عبر الطريق المعروف باغسطس فيصر (Torres Balbas, la via augusta y el Arrecife musulman, al-Andalus, Vol. XXIV, 1959, PP. 441-448).

(١) يعتقد الأستاذ جومث مورينو أن باب اشبيلية الحالي هو الباب الروماني القديم بمقديه المتجاوزين وحجاراته المسنمة التي تتوزع على النحو الشائع في الابنية الرومانية (Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 12) والترجمة العربية للمؤلف ، ص ٢١ . ويعتقد كامبس اي كائورلا أن هذا الباب من عصر القوط (Camps Y Cazorla, Modulo, Proporciones y Composicion, en la arquitectura califal, Madrid, 1953, P. 22)

أصبحت قرطبة قاعدة للأندلس في عصر الولاة ، واتتجها العرب والبربر من البلدين ثم العرب الشاميون . ويبدو أن السور الغربي الذي رمه السمع ابن مالك كان أول قطاع من سور قرطبة التي جرفها العمران واكتسحها التوسع ، بسبب ضعفه وقلة تماسك بنيانه بالنسبة للأسوار الأخرى (١) . ولما أصبحت قرطبة حاضرة للدولة الأموية على أيام الأمير عبد الرحمن الداخل ، استلزم الضرورة تحويطها بسور حصين مانع ، يقيها خطر الطامعين في الإمارة من المنتزعين والثوار ، فقد كانت قرطبة مفتوحة للداخلين إليها والخارجين منها ، والحوادث التي وقعت عند دخول عبد الرحمن قرطبة تدل على ذلك ، فما أن انتصر عبد الرحمن الداخل على يوسف الفهري والصميل في موقعة المصارة (٢) في ١٠ ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ حتى « سار ابن معاوية حتى أتى القصر ، فلم يجد دونه أحدا » (٣) ، كذلك استطاع أبو زيد عبد الرحمن بن يوسف الفهري أن يغير على قرطبة ويحصر أبا عثمان عبيد الله بن عثمان في صومعة الجامع التي في القصر أثناء غياب الأمير عبد الرحمن دون عائق (٤) . لذلك رأى عبد الرحمن الداخل أن يحيط قرطبة بسور مانع ، فبنى سورا حصينا يدور حول المدينة (٥) في سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) . وأغلب الظن أن أعمال عبد الرحمن اقتصر على إعادة بناء الجزء الذي تهدم منذ الفتح الإسلامي لقرطبة والذي تولى السمع ترميمه باللبن ، فبناء عبد الرحمن بالحجارة (٦) .

(١) يدل على ذلك أن عبد الرحمن الداخل بنى في سنة ١٥٠ هـ سورا لقرطبة .

(٢) ابن القوطية ، ص ٢٨ .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٩٠ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٩٣ .

(٥) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، طبعة بيروت ، ١٩٥٩ ج ٣ ص ٢٩ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢١ - المقرئ ، ج ١ ص ٣١٣ ، ج ٢ ص ٨٤ (٦) شاهد ابن حوقل هذا السور ، وذكر أن قرطبة « مدينة ذات سور من حجارة » (صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١٠٨) . وفي موضع آخر يقول : « وهي نفسها حصينة السور ، وسورها من حجر » (ابن حوقل ، ص ١٠ - المقرئ ، ج ٢ ص ٨) .

وفي عهد الحكم بن هشام جددت هذه الاسوار ، وأثخن بناؤها ، وحفر حولها خندق في سنة ١٨٩ هـ ، أما شقادة الواقعة على الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير فكانت مسورة ، واعتبرت ربضا من أرباض المدينة^(١) فيما بعد في عصر الخلافة^(٢) .

وكان من الطبيعي وقد ازداد عدد سكان قرطبة هذه الزيادة المطردة منذ الفتح حتى سقوط الخلافة أن يفيض العمران خارج نطاق سورها القديم ، فتنشأ المنيات في ظاهرها دون أن تلتصق بأسوارها ، بحيث أصبحت المدينة واضحة المعالم بين العمران الممتد خارج أسوارها ، وقد لاحظ الرحالة ابن حوقل هذه الظاهرة فقال : « وأبنيتها مشتبكة على البلد من شرقه وشماله وغربه ... وقرطبة هذه بائة بذاتها عن مساكن أرباضها غير ملاصقة لها »^(٣) .

وكانت مدينة قرطبة صغيرة المساحة ، فمحيط أسوارها لا يزيد على أربعة كيلومترات^(٤) بحيث استطاع ابن حوقل أن يطوف حولها في قدر ساعة^(٥) . وكان هذا السور على شكل يقرب من متوازي أضلاع يمتد أحد جانبيه الصغيرين على الضفة اليمنى للوادي مسافة تصل الى ٨٠٠ مترا (١٦٠٠ ذراعا)^(٦) . ومن بين المنيات التي أقيمت في ظاهر قرطبة منذ الفتح وأصبحت بمضي الزمن بثورا التفت حولها مراكز عمرانية جديدة : منية عامر ابن هاشم القرشي من بني عبد الدار ، وكان يلي الصوائف قبل ولاية يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ، فابتنى هذه المنية غربي سور مدينة قرطبة^(٧) ،

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٠٧ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ١٤ .

(٣) ابن حوقل ، ص ١٠٨ .

(٤) ابن غالب ، ص ٢٧ - المقرئ ، ج ٢ ص ٧ .

Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, t. III, P. 367.

(٥) ابن حوقل ، ص ١٠٨ .

(٦) المقرئ ، ج ٢ ص ٦ . ويذكر الادريسي ان عرضها من باب القنطرة

جنوبا الى باب اليهود شمالا ميل واحد (الادريسي ، ص ٢٠٨) .

(٧) أخبار مجموعة ، ص ١٣ .

وعرفت بقناة عامر ، ومنها بلاط منغيث الذي أهدها موسى بن نصير لمغيث الرومي بدلا من قصر قرطبة ، ومنها أيضا منية الرصافة التي اتخذها الامير عبد الرحمن الداخل الى الشمال من قرطبة ، ومنية نصر التي اتخذها الفتى نصر الخصي أثير الامير عبد الرحمن الاوسط بن الحكم ، وكانت تقع على شاطئ الوادي الكبير بعدوة الربض الجنوبي شقندة ، وكانت في الاصل بيتا للرحى ؛ وفيها اختبأ أبو الخطار بعد هزيمته على يد الصمبل بن حاتم ، وقد تطورت هذه المنية في عهد الامير عبدالله ، ومنها منية الناعورة التي أسسها الامير عبد الله في حياة والده الامير محمد ، وكانت تقع على نهر الوادي الكبير جنوبي قرطبة لصق مصلي فحص المصاراة العتيق^(١) ، ومنها فحص المطرف بن عبد الرحمن الاوسط ، ويقع خارج السور الشرقي ، ومنية عبدالله في الشرقية ، ومنية عجب جارية الحكم بن هشام^(٢) في شقندة ، ومنية المغيرة^(٣) في الشرقية ، ومنية أرحاء فاصح^(٤) ، ومنية البنتي^(٥) ، ومنية دري الاصغر بوادي الرمان^(٦) ، ومنية نجدة^(٧) . وقد أصبحت جميع هذه المنيات ارباضا بعد أن ازدادت قرطبة في الاتساع بمن قصدها من البربر والصقالبة في عصر الخلافة وعصر الدولة العامية .

(١) ابن حيان ، القسم الخاص بالامير عبدالله من المقتبس ، تحقيق الاب انطونية ملشور ، ص ٣٨ .

(٢) اخبار مجموعة ، ص ١٢٦ .

(٣) ذكر ابن الخطيب موضع هذا الربض في جنوب قرطبة بينما ذكره ابن بشكوال في الشرقية ، وقول ابن بشكوال أولى بالثقة ، ولعل هذه المنية كانت تشغل ما يعرف بـ Huerta de San Pablo أو Huerta de San Agustin المشار اليهما في خريطة قرطبة سنة ١٨١١ .

(٤) ابن حيان ، المقتبس في اخبار بلد الاندلس ، القسم الخاص بعصر المستنصر (٣٦٠ - ٣٦٤) ، تحقيق الاستاذ عبد الرحمن الحجى ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٦٨ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٧٢ .

(٦) نفسه ، ص ١٠٦ .

(٧) نفسه ، ص ٩٦ .

ب - تخطيط المدينة في العصر الاسلامي ، واسوارها الحديثة :

وكان يشق مدينة قرطبة السكة العظمى أو المحجة العظمى من باب القنطرة الجنوبي الى باب عبد الجبار في الشمال الشرقي، وكان هذا الشارع يسمى بعد خروجه من باب عبد الجبار ودخوله في فحش المطرف بشارع المبطله وذلك في أيام الامير عبدالله ، وكثيرا ما سلك الامير عبدالله هذا الشارع عند زيارته للفقير بقي بن مخلد^(١) . وكان هذا الطريق بعد خروجه من باب القنطرة الجنوبي الى الربض القبلي يطلق عليه اسم فج المائدة^(٢) . كذلك وصل الينا اسم شارع يعرف بالزقاق الكبير يمتد من الباب الجديد من أبواب الجانب الشرقي الى الرملة^(٣) ، في حين كان يمتد على شط الوادي الكبير من الجهة الشرقية طريق يعرف بطريق الرملة^(٤) .

أما محجة قرطبة العظمى التي تشق المدينة وتخرق سوقها ، فكانت ضيقة بأدى ذي بدء ، فأمر الحكم المستنصر بتوسعتها بهدم الحوانيت المعترضة لها في ٨ من جمادى الاولى سنة ٣٦١ هـ^(٥) وكان يتفرع من هذه المحجة العظمى شوارع رئيسية تؤدي الى أبواب المدينة المختلفة ، تتشعب منها دروب وأزقة ، وقد وصلت الينا أسماء بعض هذه الدروب ، نذكر منها درب ابن شراحيل ، نسبة الى محمد بن شراحيل المعافري قاضي قرطبة في عهد عبد الرحمن الاوسط ، واليه أيضا ينسب مسجد كان يقوم في هذا الدرب نفسه^(٦) ، ومنها درب الزجالي^(٧) ، ولعله كان يقع في القسم الشمالي من قرطبة حيث يقوم حير الزجالي ، وهو منية خاصة بأحد أفراد هذه

-
- (١) ابن حيان ، تحقيق الاب انطونية ملشور ، ص ٣٨ .
(٢) أخبار مجموعة ، ص ١٥١ - ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ١٠٢ ، ٩٤ .
(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١٤ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٣٥ .
(٥) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الاستاذ الحجي ، ص ٧١ .
(٦) ابن القوطية ، ص ٥٨ .
(٧) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ١٧٣ .

الاسرة ، ومنها درب الفضل بن كامل ، وذكر الخشن أنه كان يقع في أيام عبد الرحمن الداخل قبلي مسجد أبي عثمان^(١) ، الواقع الى الشمال من قصر قرطبة^(٢) ، ومنها درب أبي الاشهب^(٣) ، ودرب بني فطيس^(٤) ، ودرب ابن زيدون^(٥) . وكانت لهذه الدروب والشوارع رحبات أي ميادين نذكر منها رجة أبان ، ورجة خولان ، ورجة ابن درهمين ، وسويقة القومس ، وسويقة ابن نصير ، وسويقة ابن أبي سفيان^(٦) .

ويجمع مؤرخو العرب وجغرافيوهم على أنه كان يفتح في سور قرطبة أو المدينة المسورة سبعة أبواب^(٧) موزعة على النحو الذي سنشير اليه بعد قليل ، ويغلب على الظن أن أبواب مدينة قرطبة كانت خمساً في عصر الامارة ثم أصبحت سبعة منذ عصر عبد الرحمن الناصر . وتشير المصادر العربية الى أنه أمر في شعبان من سنة ٣٠٢ بفتح باب عامر القرشي في السور الغربي لتيسير الانتقال الى مقبرة قريش أو مقبرة عامر القرشي^(٨) ، ولم يكن هذا الباب موجوداً من قبل عندما قام النزاع بين يوسف الفهري وعامر القرشي^(٩) . وقد يكون الباب الثاني الزائد الباب المسمى باب الجديد أو

(١) الخشن ، تاريخ قضاة قرطبة ، تحقيق خليان ربيرا ، مدريد . ١٩١٤ ، ص ٥٥ ، ٤٠ .

(٢) القرشي ، ج ١ ص ٣٥٤ .

(٣) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس ، تحقيق كوديره ، ج ١ مدريد ١٨٩١ ، ص ١٨١ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٧٩ .

(٥) ابن سعيد ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٤ .

(٦) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, P. 383 Note 2.

(٧) Ocana Jimenez, Las Puertas de la Medina de Cordoba, al-Andalus, Vol. III, 1935, P. 146.

(٨) Una Cronica anonima de Abd al-Rahman III, publicada por Lévi-Provençal y Garcia Gomez, Madrid, 1950, P. 51 . وقد سمي هذا الباب بعد الاسترداد الاسباني باب الجلالة de los Gallegos وتهدم في سنة ١٧١١ م .

(٩) اخبار مجموعة ، ص ٦٣ .

باب سرقسطة في السور الشرقي من جهة الجنوب ، ويعتقد ليفي بروفنسال أنه فتح في السور المذكور في عصر الامير الحكم الربضي^(١) . وتشيز المصادر العربية الى أن الخليفة عبد الرحمن الناصر عمل على تحصين أبواب مدينة قرطبة ، فابتنى لها أبوابا داخلية توازيها سنة ٣٠١ هـ^(٢) لتيسير الدفاع عنها وإتاحة الفرصة للحراس لمضاعفة الحراسة ، فقد كانت أبواب قرطبة القديمة تتألف من فتحة واحدة في السور^(٣) ، فأصبح لها بذلك فئحتان أو مدخلان وكانت لهذه الابواب مصاريع حديدية تعلق بها^(٤) . وفي أيام الفتنة التي أعقبت مصرع عبد الرحمن شنجول أمر ابن عبد الجبار وواضح الفتى باقامة سور يدور حول أرباض قرطبة حتى لا تتعرض للهجوم ، كما أمر باحاطة هذا السور الجديد بخندق^(٥) ، وكان يفتح في هذا السور الخاص بالارباط من الجهة الشرقية ثلاثة أبواب ورد ذكر أسمائها في المصادر العربية متناثرة في كتب التراجم ، منها على سبيل المثال باب الحديد وكان يقع جنوبي السور الشرقي للشرقية قريبا من الرملة^(٦) ، وباب الفرج الواقع بين السكة العظمى وطريق الرملة ، وأخيرا باب عباس الذي تتر منه السكة العظمى بعد خروجها من باب عبد الجبار^(٧) .

-
- (١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٦٠ .
 (٢) العذري ، ترصيع الاخبار وتنويع الآثار ، تحقيق الدكتور عبد الميزان الاهواني ، مدريد ١٩٦٥ ، ص ١٢٢ - Una Cronica, P. 48
 (٣) Una Cronica anonima, P. 48
 (٤) ابن حوقل ، ص ١٠٨ .
 (٥) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٩٩ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٣٥
 (٦) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١٤ .
 (٧) ابن الأبار ، كتاب التكملة لكتاب الصلة ، نشره جنثالث بلنسية ، مدريد ١٩١٥ ، ص ٥٦١ .

ابواب قرطبة

اولا - الجانب القبلي : (باب واحد)

باب القنطرة^(١) وسمى كذلك نسبة لقنطرة قرطبة القائمة على الوادي الكبير ، وهو أكبر أبواب قرطبة .

أو باب الجسر^(٢) وسمى كذلك نسبة لقنطرة قرطبة القائمة على الوادي الكبير .

أو الباب القبلي^(٣) وسمى كذلك بسبب وقوعه الى جنوب قرطبة .
أو باب الجزيرة^(٤) وسمى كذلك لانه يفتح على الطريق المؤدية الى الجزيرة الخضراء .

أو باب الصورة^(٥) وسمى كذلك بسبب تمثال قديم يمثل العذراء صاحبة قرطبة .

أو باب الشكال^(٦) وسمى كذلك بسبب تمثال قديم يمثل العذراء صاحبة قرطبة كان قائما على هذا الباب .

أو باب الوادي^(٧) وسمى كذلك بسبب اشرافه على الوادي الكبير .

أو باب المحجة^(٨) وسمى كذلك بسبب مرور المحجة من هذا الباب .

(١) ابن القوطية ، ص ٧٩ ، ٨١ - ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجري ، ص ٢٠٩ - أخبار مجموعة ، ص ١٠ ، ١١ ، ٢١ - الادريسي ، ص ٢٠٨ - الحميري ، ص ١٥٣ ، ١٥٦ - المقرئ ، ج ٢ ص ١٣ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٧٤ .

(٣) العذري ، ص ١٢٢ .

(٤) أخبار مجموعة ، ص ٢١ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١١ . وقد ظلت الصورة (او التمثال) قائمة في موضعها الى ان قذفها عمر بن حفصون برمح فاصابها في بداية عهد عبدالله (أخبار مجبوبة ، ص ١٥١) .

(٦) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٨٩ ، ٥٦ .

(٧) ابن غالب ، ص ٢٧ - المقرئ ، ج ٢ ص ١٣ .

(٨) ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجري ، ص ٢٠٩ .

ثانيا - الجانب الشرقي : (بابان)

- (١) الباب الجديد^(١) وسمي كذلك لانه افتتح في العصر الاسلامي .
أو باب سرقسطة^(٢) لانه يفتح على الطريق المتجهة الى تلك المدينة .
(٢) باب عبد الجبار^(٣) وسمي كذلك نسبة لنزول عبد الجبار بن الخطاب بن نذير مولي معاوية بن هارون ، وقيل مولي مروان بن الحكم بالقرب من هذا الباب^(٤) . وكان هذا الباب مغلقا زمن العذري ابن الدلائلي المتوفي سنة ٤٧٨ هـ ، فقد طمس أيام الفتنة .
أو باب طليطلة^(٥) بسبب مرور السكة العظمى المؤدية الى طليطلة عبر هذا الباب .
أو باب رومية^(٦) وسمي بهذا الاسم لوقوعه على السكة العظمى التي تنتهي برومة ، وكانت تشعب منه الرصف الثلاثة التي تخترق اسبانيا من قانس الى أربونة ثم الى رومة^(٧) .

ثالثا - الجانب الشمالي : (باب واحد)

- الباب الجوفي^(٨) وسمي كذلك لوقوعه بجوف قرطبة أي في السور الشمالي منها .

(١) ابن حيان ، نفس المصدر ، ص ٢٠٩ - الحميري ، ص ١٥٦ - المقرئ ، ج ٢ ص ١٣ .
(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ١٣ .
(٣) ابن حيان ، المقتبس ، نشر انطونية منشور ، ص ٣٧ - المقرئ ، ص ١٣ .
(٤) العذري ، ص ١٢٢ .
(٥) المقرئ ، ج ٢ ص ١٣ .
(٦) نفس المصدر .
(٧) نفسه .
(٨) العذري ، ص ١٢٢ .

أو باب ليون^(١) وسمي كذلك نسبة الى شخصية يهودية بهذا الاسم .
أو باب طلييرة^(٢) وسمي كذلك لانه يفتح على الطريق المؤدي الى
طلييرة .

أو باب اليهود^(٣) وسمي بهذه التسمية نسبة الى وقوعه بالقرب من
حي اليهود .

أو باب الهدى^(٤) وسمي كذلك تحريفا من كلمة اليهود اذ استقبح
الناس أن يقولوا باب اليهود

رابعا - الجانب الغربي : (ثلاثة ابواب)

(١) باب عامر القرشي^(٥) وسمي بهذا الاسم نسبة الى عامر بن عمرو
القرشي الذي نزل في منية تقع في غرب قرطبة قريبا من هذا الباب .

(٢) باب الجوز^(٦) وسمي بهذا الاسم نسبة الى شجرة جوز كانت

(١) المقرئ ، ج ١ ص ١٤٨ ، ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) نفسه .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ١٣ ، ص ١٦١ .

(٤) العذري ، ص ١٢٢ - المقرئ ، ج ١ ص ١٤٨ ، ج ٢ ص ١٣ ، ١٦١
وقد ظل باب اليهود أو الهدى قائما في العصر المسيحي ، وسمي بباب أوساريو
نسبة الى مقبرة كان يؤدي اليها تسمى بمقبرة أم سلمة ، ثم تحولت بعد
سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين الى جبانة لليهود

(Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 369).

(٥) هو عامر بن عمرو بن وهب بن مصعب بن أبي عزيز بن زرارعة بن
عمير بن هاشم بن عبد مناف ، فنسب اليه هذا الباب ، اذ كان ينزل بالقرب
منه (العذري ، ص ١٢٢) وورد اسم هذا الباب أيضا في المصادر الآتية :
اخبار مجموعة ، ص ٦٣ - الحميري ، ص ١٥٦ - المقرئ ، ج ٢ ص ١٣ .
ونلاحظ أن هذا الباب استحدث في أيام عبد الرحمن الناصر تسهيلا للاتصال
بين مدينة قرطبة وبين المقبرة الواقعة خلف السور الغربي من تلك الجهة كانت
تعرف بمقبرة قریش ، سبق أن أشرنا اليها فيما سبق .

(٦) ابن سعيد ، ج ١ ص ١٧٣ .

مغروسة في خارجه ، وكان هذا الباب قد طمس زمن الفتنة ، وشاهده
العذري مسدودا •

أو باب بطليوس^(١)، وعرف بهذا الاسم لانفتاحه على الطريق المتجهة
الى مدينة بطليوس •

(٣) باب اشبيلية^(٢) وعرف بهذا الاسم لانفتاحه على الطريق المتجهة
الى مدينة اشبيلية •

أو باب العطارين^(٣) وعرف بهذا الاسم لوقوعه في منطقة سوق
العطارين •

(٢)

التطور العمراني في عصر الخلافة وقيام الارباض

١ - المدينة الوسطى وجوانبها الاربعة :

يذكر المقرئ أن قرطبة « لم تزل في الزيادة منذ الفتح الاسلامي الى
سنة أربعمائة ، فانهطت واستولى عليها الخراب بكثرة الفتن »^(٤) ، ويذكر
المؤرخون أن العمارة في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة اتصلت فيما بينها،
وكان الناس يسировن على حد قول الشقندي بضوء السرج المتصلة عشرة
أميال^(٥) ، وقد شاهد ابن حوقل مدى زيادة العمران بقرطبة ، فأشار الى

(١) ويتفق موضعه مع موضع الباب الحالي المسمى بباب المدور
Almodovar ، ولعله كان يسمى بهذه التسمية أيضا لانفتاحه على الطريق
المسيرة ببلدة المدور Lévi- — 274 — Castejon, Cordoba Califal, P. 274
Provençal, Histoire, t. III, P. 368.

(٢) فتح الاندلس لأورخ مجهول ، ص ٩ - أخبار مجموعة ، ص ١٢ •

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ١٢ - Ocana Jimenez, op. cit., P. 146

(٤) المقرئ ، ج ٢ ص ٦ •

(٥) المقرئ ، ج ٢ ص ٥ ، ج ٤ ص ٢٠٣ •

أن الابنية كادت تتصل بين قرطبة والزهراء^(١) . وقد بلغ عدد سكان قرطبة في أزهى عصورها ما يقرب من مائة ألف من السكان وفقا لاحصاء تقديري قام به المهندس الاستاذ توريس بلباس^(٢) ، وهو رقم كبير للغاية بالنسبة لسكان المدن في العصور الوسطى . ويمكن تحديد هذه الزيادة في العمران القرطبي في جوانبها الشرقي والغربي والشمالي والقبلي ، بحيث أصبحت تتألف بعد انتهائها في التوسع والعمران على حد قول الادريسي من « مدن خمسة يتلو بعضها بعضا ، بين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفي كل مدينة ما يكفيها من الاسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات »^(٣) . وكانت كل مدينة من هذه المدن الخمسة التي تؤلف في مجموعها مدينة قرطبة تضم أرباضا يختلف عددها ونسبة اتساع كل منها ، ولم يكن مسورا من هذه المدن الخمسة في أول الامر سوى المدينة الوسطى أو القصبة ، فابن بشكوال يذكر أن قصبة قرطبة التي تقع في وسط هذه المدن الخمسة هي وحدها « التي تختص بالسور دونها » الا أنه في أيام الفتنة عندما تعرضت قرطبة لخطر الحرب الاهلية ، « صنع لها خندق يدور بجميعها وحائط مانع »^(٤) . وذكر ابن غالب أن هذا الخندق كان يحيط بجميع أرباض قرطبة ومساحتها ، وذرع دوره من جهاته الاربع ثلاثة وعشرون ميلا^(٥) . وأشار ابن حيان الى هذا الخندق ، فذكر أنه كان بالشرقية خندق يحف بالمحجة ، فأمر الخليفة المستنصر بتوسعة المحجة^(٦) ، وذلك بابتلاع الحوانيت المصاوبة لها وهدمها . كذلك لاحظ ابن حوقل أن مدينة قرطبة في خلافة عبد الرحمن الناصر كانت مسورة وحدها دون ما يحيط بها من مبان أقيمت خارجها ،

(١) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٠٧ .

(٢) Leopoldo Torres Balbas, Extension y demografia de las ciudades hispano-musulmanas, Revista de Studia Islamica, vol. III, 1955, P. 54.

(٣) الادريسي ، ص ٢٠٨ .

(٤) المقرئ ، ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٥) ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الانفس . ص ٢٧ .

(٦) ابن حيان ، المقتبس ، (القسم الخاص بالمستنصر) نشر الحجري .

ص ٦٨ .

كما ذكر أن هذه المباني متصلة من الرصافة الى شقندة ، فهي « مشتبكة مستديرة على البلد من شرقه وشماله وغربه^(١) » .

ب - أرباض قرطبة والحومات :

وكانت أرباض المدينتين الشرقية والغربية تزيد كثيرا على أرباض المدينتين الشمالية والجنوبية : فالشرقية كانت تضم سبعة أرباض ، والغربية تسعة ، أما الشمالية فكانت تشتمل على ثلاثة فقط ، والجنوبية على ربضين . ونستدل من توزيع هذه الأرباض حول المدينة العتيقة أو القصبة على أن قرطبة كانت تنقسم في القرن الرابع الهجري الى جانبين كبيرين : جانب شرقي كان يعرف بالشرقية ، وما زال يطلق عليه حتى اليوم اسم الشرقية Ajarquia ، وجانب غربي^(٢) . وأغلب الظن أن المدينة تجاوزت نطاقها القديم شرقا فيما وراء باب رومية والباب المستحدث في عصر الخلافة؛ ويسمى الباب الجديد ، كما تجاوزت نطاقها غربا فيما وراء أبواب عامر القرشي والجوز والطارين ، ويتفق كل من ابن بشكوال وابن الخطيب^(٣) ،

(١) ابن حوقل ، ص ١٠٨ .

(٢) Lévi-Provençal, las ciudades y las instituciones urbanas, Tetuan, 1950, P. 17. — Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 376. — Torres Balbas, La Medina, los Arrabales y los Barrios, Al-Andalus, 1952, P. 154. — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين في الاندلس ، ص ٢٩٨ .

(٣) ابن الخطيب ، ص ١٠٣ - المقري ، ج ٢ ص ٧ - ١٣ . وذكر المقري في نص نقله عن بعض المؤرخين ان عدد أرباض قرطبة بلغ ٢٨ ربضا (ج ٢ ص ٧٨) كذلك يذكر ابن عذارى ما يشير الى أن عدد أرباض قرطبة بلغ في زمن عبد الرحمن الناصر نفس هذا الرقم ، ويتضمن الرقم مدينتي الزهراء والزاهرة (ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٦) ، أما ابن غالب فيجعلها عشرين ربضا (ابن غالب ، ص ٢٧) . ونستبعد هذين الرقمين ٢٨ ، ٢٠ فالاول مبالغ فيه والثاني أقل ربضا واحدا من مجموع أرباض قرطبة التي اوردها ابن بشكوال ونعتقد ان ما اورده ابن بشكوال وابن الخطيب اصدق وأولى بالثقة مما ذكره ابن عذارى . وإذا كان ابن غالب قد جعل مجموع أرباض قرطبة عشرين فلعله استثنى منها المدينة الوسطى ، وبذلك يكون رقمه أقرب الى الرقم الذي اورده كل من ابن بشكوال وابن الخطيب . واحصائية الأرباض التي اوردها ابن =

على أن عدد أرباض قرطبة بلغ عند نهايتها في الاتساع ٢١ ربضا ، ولكنهما يختلفان في بعض الاسماء ، وفي تحديد المواقع . وفيما يلي عرض لهذه الارباض كما أوردتها ابن بشكوال مع مقارنته بالاسماء الواردة في المصادر العربية الاخرى :

اولا - المدينة القريبة :

- ١ - حوانيت الريحان (وردت في احصائية ابن الخطيب « حوانيت الريحاني » محرفة)
- ٢ - الرقاقين .
- ٣ - مسجد الكهف
- ٤ - بلاط مغيث
- ٥ - مسجد الشفاء .
- ٦ - حمام الالبيري (وردت في المقتبس لابن حيان « حمام اللبدي »)
- ٧ - مسجد السرور^(١) (وردت في احصائية ابن الخطيب « مسجد مسرور »)

= بشكوال كاملة مستوفاة ولذلك آثرنا الاخذ بما جاء بها ، اما احصائية ابن الخطيب فناقصة غير دقيقة في ذكر الاسماء وتحديداتها ، فهو يخطيء مثلا في جعل ربض فحص الناعورة في الجانب الشرقي من قرطبة بينما يقع هذا الربض في الحقيقة بالجهة الغربية قريبا من مصلى فحص المصاراة العتيق . (ابن حيان ، نشر انطونية ملشور ، ص ٣٨ - المقرئ ، ج ٢ ص ١٠١) .

(١) اغلب الظن ان الاسم الصحيح لهذا الربض هو مسجد مسرور كما ورد في احصائية ابن الخطيب ، لان مسرور اسم لكبير فتيان الامير عبد الرحمن الاوسط وابنه محمد ، وقد سجل اسم مسرور على عقد بوابة سان استيبان من الابواب الغربية بجامع قرطبة بتاريخ سنة ٢٤١ ، كما ورد هذا الاسم في المقتبس لابن حيان عندما أشار الى قيام الفتى نصر وصاحبه مسرور ببنيان الزيادة التي أمر بها الامير عبد الرحمن الاوسط في جامع قرطبة (ابن حيان ، تحقيق انطونية ، ص ٢٩٧ - Arakica, P. 90) . اما اسم السرور الوارد في احصائية ابن بشكوال فالظاهر انه اسم لمنية بالزاهرة (المقرئ ، ج ٢ ص ١١٧ ، ١١٨ ، ١٤٦) .

٨ - مسجد الروضة (وردت في احصائية ابن الخطيب « الروض
المحدث »)

٩ - السجن القديم

ثانيا - المدينة الشرقية :

١ - شبلاز (وردت كذلك في المقتبس ، ولكن ذكرها ابن الخطيب
تحت اسم فحص الناعورة)

٢ - فرن بريل (وردت في المقتبس باسم قرن مرمل)

٣ - البرج (غير موجود في ابن الخطيب)

٤ - منية عبدالله .

٥ - منية المغيرة (غير موجودة في ابن الخطيب ولكنه أوردتها خطأ
في المدينة الجنوبية)

٦ - الزاهرة (غير موجودة في ابن الخطيب)

٧ - المدينة العتيقة (وردت في ابن الخطيب المدينة فقط)

ويضيف ابن حيان الى هذه الارباض اسم ربض مسجد متعة .

ثالثا - المدينة الوسطى :

وتضم القصبة العتيقة أو قصبة قرطبة ومركزها .

رابعا - المدينة الجنوبية :

١ - شقندة

٢ - منية عجب (أورد ابن الخطيب مكانها منية المغيرة خطأ)

خامسا - المدينة الشمالية :

١ - باب اليهود

٢ - مسجد أم سلمة (ويسيه ابن الخطيب ربض قوت راشة المنسوب الى أم سلمة)

٣ - الرصافة

وكانت المدينة وأرباضها تنقسم الى حومات او حارات (أي أحياء) نذكر منها حومة باب الفرج، وحومة النجارين أو النشارين^(١)، وحومة عين فرقد، وكلها بالمدينة الشرقية^(٢)، كذلك ورد اسم حومة غدير بني ثعلبة بقرطبة^(٣) ونلاحظ في جدول توزيع الارباض سالف الذكر أن خمسا من أرباض قرطبة كانت تتسمى بأسماء مساجد هي : مسجد الشفاء ، وكانت أم ولد وجارية للامير عبد الرحمن الاوسط ، ومسجد الكهف ، ومسجد منرور ، وكان فتى من فتيان عبد الرحمن الاوسط ، ومسجد الروضة ، ومسجد أم سلمة، وكلها تقع في الجانب الغربي من قرطبة باستثناء مسجد أم سلمة فيقع في شمالها ، كما أن هناك أرباضا تتسمى بأسماء تجارية أو صناعية مثل ربض حوائت الريحان والرقاقين بالغربية . وبالإضافة الى المساجد التي أشرنا اليها كان بالجانب الغربي أيضا مساجد أخرى أقامتها جاريات لامراء بني أمية نذكر من بينها ، مسجد السيدة الكبرى الواقع قريبا من مقبرة عامر القرشي وبجوار دار منذر بن سعيد البلوطي^(٤) ، ومسجد متعة ، ومسجد طروب ، ومسجد عجب^(٥) .

(١) ابن خاقان . مطمح الانفس ومسرح التانس في ملح اهل الاندلس .
قسطنطينة ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) ص ٤٣ .
(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس . ج ١ ، مدريد : ١٨٩١ . ص ٢٨٨
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٥٤ .
(٤) المقرئ ، ج ٢ ص ٢٢٩ .
(٥) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس .
ص ٢٩٩ .

ج - الاسواق القرطبية في المصادر العربية والوثائق القشتالية :

وهناك مواضع أخرى لم يرد ذكرها في المصادر العربية ولكن أسماءها وصلت إلينا في الوثائق القشتالية التي ترجع الى الفترة التي أعقبت حركة الاسترداد المسيحي لقرطبة ، كذلك وصلتنا خريطة لقرطبة يرجع تاريخها الى سنة ١٨١١ تحدد لنا بعض المواضع القديمة تحديدا دقيقا يمكننا على هديه أن نحدد مواقعها الاسلامية، مثل القيسارية وتقع في الخريطة المذكورة الى الجنوب الشرقي من المسجد الجامع ، وحولها نجد أسماء شوارع لاسواق مختلفة ، منها شارع القصابين أو اللحامين Carniceros ، وقد ورد ذكر نفس هذا الاسم « القصابين » في تاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية^(١)، ومنها شارع الحياطين Calle de los Alfayates . وكثرت في الشرقية أسماء شوارع يمكن أن تكون مترجمة من العربية مما يدل على أنها تحتفظ اليوم بصلاتها بالنشاطات التجارية أو الصناعية في المدينة الاسلامية مثل شارع السراجين Silleria الذي يتفق مع اسم ورد ذكره في كل من المقتبس والبيان المغرب باسم حوانيت السراجين بقرطبة^(٢) . ومن أمثال هذه الاسماء أيضا أسماء الشوارع الآتية : الغلالين Vinagreros ، والوراقين أو الكتبية Libreria وسوق الخيط Cordoneros والحصارين Esparteria وقد ورد ذكر اسم هذا السوق الاخير في تاريخ ابن القوطية^(٣) ، وسوق الجيارين Calle del Ye . كذلك وصلت إلينا في قرطبة الحديثة أسماء شوارع تحتفظ بأصولها العربية مثل شارع الزنيقة وشارع المونة (أي الصابون) ورجبة المغرة . وبقرب قرطبة شارع يعرف اليوم بشوارع السبع لفات أو ليات Calle de las siete vueltas ، وهو اسم كان شائعا في شوارع المدن الاسلامية في المغرب والاندلس مثل اشبيلية وقرمونة ومالقة^(٤) .

(١) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٧٠ .

(٢) ابن حيان ، نشر الحجج ، ص ٢٠٧ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٧٠ ، وكان الحكم المستنصر قد حبسها على المعلمين لاولاد الفقراء ، والظاهر ان حوانيت السراجين كانت تقع بالشرقية في نفس الموضع الموضح في خريطة سنة ١٨١١ .

(٣) ابن القوطية ، ص ٧٠ .

(٤) Lévi-Provençal, Histoire de l'Esp. musulmane, t. III, P. 368 (٤)

وكان بقرطبة سوق للدواب لعله كان يقع خارج الاسوار^(١) ، ولا نعرف على وجه الدقة مكان انعقاده . أما أسواق العطارين فكانت تقع قريبا من باب اشيلية الذي كان يعرف أيضا بالعطارين . وذكر ابن عذاري اسمي سوقين أحدهما للصاغة والآخر للبيازرة^(٢) ، كما أورد اسمي سوقين آخرين أحدهما يقال له سوق الخشابين لعله هو نفس سوق النشارين^(٣) الذي سبق أن أشرنا إليه ، والآخر سوق السراشق الذي نستنتج من قول ابن عذاري أنه كان يقع قريبا من قنطرة قرطبة^(٤) .

د - احصائيات المؤرخين بالدور والحوانيت والمساجد والحمامات :

ويصور مؤرخو العرب اتساع قرطبة عمرانيا باحصائيات للدور والمساجد والحمامات والحوانيت التي اكتظت داخل نطاقها . أما المساجد فقد بلغ عددها في أيام عبد الرحمن الداخل ٤٩١ مسجدا وفقا لما ذكره الحميري نقلا عن البكري^(٥) ، ثم زادت بعد ذلك زيادة كبرى ، فوصل هذا الرقم ، وفقا لما ذكره ابن حيان ، في عهد المنصور بن أبي عامر الى ١٦٠٠ مسجدا في قول^(٦) ، و ٣٨٧٧ مسجدا في قول^(٧) ، و ٣٨٣٧ مسجدا في قول آخر^(٨) ، بينما ذكر ابن غالب نقلا عن ابن حيان أن مساجد قرطبة وصلت عند انتهاء كمالها الى ١٨٣٦ مسجدا^(٩) ، وأيا ما كان الرقم الصحيح فالظاهر أنها تجاوزت الالف مسجد . أما الحمامات فذكر المقرئ نقلا عن

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ١٦٢ .

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٣٨٧ .

(٣) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٠٧ ، ٥٧ .

(٤) نفسه ، ج ٣ ص ٨٠ .

(٥) الحميري ، نقلا عن البكري ، ص ١٥٧ - المقرئ ، ج ٢ ص ٧٨ .

(٦) المقرئ ، ج ٢ ص ٧٩ .

(٧) نفسه ، ص ٧٩ .

(٨) نفسه .

(٩) ابن غالب ، ص ٢٧ .

ابن حيان أن عددها وصل في أيام المنصور بن أبي عامر إلى ٩٠٠ حمام^(١) وقيل ٧٠٠ حمام^(٢) ، وقيل ٩١١ حماما^(٣) . أما ابن غالب فيجعل عدد حمامات قرطبة في ذروة تألقها ٧٠٠ حمام^(٤) . أما عدد دور الرعية فقد وصل وفقا لرواية المقرئ وابن غالب في أيام المرابطين والموحدين إلى ثلاثة عشر ومائة ألف دار في حين وصل عدد دور الخاصة والكبراء إلى ٦٣٠٠^(٥) ويذكر لنا المقرئ في موضع آخر أن عدد دور الرعية وصل في أيام المنصور ابن أبي عامر أي في أوج عظمة قرطبة إلى ٢١٣٠٧٧ دارا وأن عدد دور الخاصة والكبراء وصل في نفس الفترة إلى ٦٠٣٠٠^(٦) دار سوى مصاري الكراء أي الغرف المعدة للإيجار ، والحمامات والخانات . أما انحوائت فيجعل ابن غالب عددها في أيام ابن أبي عامر ٨٠٤٥٥ حانوتا . وفيما يلي جدول بهذه الاحصائيات :

-
- (١) المقرئ ، ص ٧٩ .
 - (٢) نفس المرجع .
 - (٣) نفسه .
 - (٤) ابن غالب ، ص ٢٧ .
 - (٥) المقرئ ، ص ٧٩ .
 - (٦) نفسه .

عدد الحوائيت	عدد الحمامات	عدد المساجد	عدد دور العامة	عدد دور الخاصة	عصر الانشاء	المصدر التاريخي
		٤٧١			في عصر الخلافة	ابن القزويني
		٤٩١			في عصر الخلافة	العدري والحصري (نقلا عن البكري)
	ما يزيد على ٧٠٠	١٨٣٦	١١٣٠٠٠		في عصر الخلافة	ابن غالب (نقلا عن ابن حيان)
		٣٠٠٠	١١٣٠٠٠		؟	ابن عداري
	٩٠٠	١٦٠٠			ابن أبي عامر	القرني (نقلا عن ابن حيان)
٨٠٤٥٥			٢١٣٠٧٧	٦٠٣٠٠	ابن أبي عامر	القرني (نقلا عن بعض المؤرخين)
		٤٩٠			عبد الرحمن الداخل	القرني (نقلا عن بعض المؤرخين)
			١١٣٠٠٠	٦٣٠٠	عصر دولتي المرابطين والموحدين	القرني (نقلا عن بعض المؤرخين)

الفصل السادس

ممالك قرطبة ومنتزهاتها في العصر الاسلامي

(١) في عصر الدولة الاموية والطوائف

القصر الخلافي — المسجد الجامع — القنطرة — الرصيف والسد والمنبر (الارحاء) — منية الناعورة — سوق قرطبة — مصليا المصاراة والربض — منية نصر ومنية عجب — فحص السراق — حير الزجالي — دور السكة والطراز والصناعة — برج الجانب الشرقي — سجن قرطبة — دور الخاصة والامراء وبعض الدور الهامة — مواضع أخرى من قرطبة — المقابر — الوادي — المنية المصحفية — القصر الفارسي — المنية العامرية •

(٢) في عصري المرابطين والموحدين

(٣) قرطبا قرطبة : الزهراء والزاهرة

أ — مدينة الزهراء

ب — مدينة الزاهرة

الفصل السادس

معالم قرطبة ومنتزهاتها في العصر الاسلامي

(١)

في عصر الدولة الاموية والطوائف

تميزت قرطبة الاسلامية بوجود بعض ابنية أو مواضع تردد ذكرها في المصادر التاريخية أو الجغرافية أو الادبية ، واستطعنا أن نحدد مواقعها على وجه التقريب ، اما استنادا على آثار تبقت منها ، أو لان أسماءها وصلت إلينا مقترنة بأسماء معروفة مواقعها .

(١) القصر الخلافي :

يقع القصر في داخل المدينة ، ولهذا السبب سميت المدينة الداخلية بالقصبة ، وهذا القصر بناء روماني قديم توارثه الملوك من العصر الروماني حتى الفتح العربي ، ثم اتخذته الولاة منذ ولاية أيوب بن حبيب اللخمي مقرا لهم الى أن قامت الدولة الاموية ، فوسع فيه أمراء بني أمية ، وشيدوا به قاعات جديدة ومجالس وقصور تألقوا في تزيينها حتى بلغت الغاية في الفخامة والبهاء ، وساقوا إليها المياه من جبال قرطبة ، وأجروها في ساحاته في برك وأحواض من الرخام ، وأطلقوها من تماثيل معدنية تنجم الماء من أفواهها . وقد وصف ابن بشكوال هذا القصر فقال : « هو قصر أولي تداولته ملوك الامم من لدن عهد موسى النبي صلى الله على نبينا وعليه وسلم ، وفيه من المباني الاولى والاثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط والامم السالفة ما يعجز الوصف ، ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان منذ فتح الله عليهم الاندلس بما فيها في قصرها البدائع الحسان ، وأنروا فيه الآثار العجيبة والرياض الانيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال

قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمنونا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها الى
القصر الكريم ، وأجروها في كل ساحة من ساحاته ، وناحية من نواحيه
في قنوات الرصاص تؤديها منها الى المصانع صور مختلفة الاشكال من
الذهب الابريز والفضة الخالصة ، والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة ،
والبرك البديعة والصحاريح الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة
العجيبة^(١) » . وعندما افتتح مغيث الرومي قرطبة احتل هذه القصر الى
أن أجلاه عنه موسى بن نصير واعتاضه عنه قصرا غربي قرطبة خارج
أسوارها يعرف ببلاط مغيث باعتبار ان هذا القصر القديم لا يصلح الا لمن
يتولى امانة قرطبة ، وكان هذا القصر من الاتساع بحيث كان متصلا
بسورها القبلي والغربي في آن واحد^(٢) . وظل هذا القصر مركزا للولاية
حتى كانت أيام عبد الرحمن الداخل ، الذي استقر فيه كذلك بعد انتصاره
على يوسف الفهري والصميل في واقعة المصاراة . ولما تمهد ملكه أخذ في
تجميل قرطبة ، فجدد مغانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ، وابتنى
قصر الامارة^(٣) . وأغلب الظن أنه أعاد بعض ما تهدم منه ، أو اضاف فيه
اضافات جديدة حتى يكون جديرا بقصر للامارة الاموية . ولا شك أن
أعمال عبد الرحمن الداخل كانت داخل نطاق سور القصر المرتفع بأبراجه
العالية السمو ، المنيفة العلو ، والتي اتخذ أحدها ليكون مئذنة للجامع ظلت
تؤدي هذه الوظيفة حتى بعد أن أتم الداخل بناءه للمسجد الجامع الجديد
في سنة ١٧٠ هـ^(٤) ، لمجاورته للجامع . وظل هذا البرج يؤدي هذه الوظيفة
الى أن شيد الامير هشام بن عبد الرحمن الداخل المئذنة الجديدة^(٥) .
ويبدو أن القصر كانت له منظرات تطل على النهر والربض الجنوبي ، فإن
هشام كان يجلس عادة في علية تطل على النهر والربض الجنوبي . ويبدو

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ١٢ .

(٢) الحميري ، ص ١٥٦ .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٤ ، ج ١ ص ٣٠٨ .

(٤) اخبار مجموعة ، ص ٩٣ .

(٥) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٢ .

أن القصر أضيف اليه في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي اتخذ القصور والمنتزهات ، وجلب اليها المياه من الجبال ، وجعل لقصره مصنعا اتخذته الناس شريعة^(١) ، ولعله بنى القصر المسمى بالكامل^(٢) . ويذكر ابن خلدون أن الأمير الحكم بن هشام وعبد الرحمن الأوسط والأمير محمد اهتموا بتشييد المجالس بقصر قرطبة ، فأسسوا فيه المجلس الزاهر والبهو الكامل والمنيف^(٣) . وفي المجلس الكامل جلس عبد الرحمن الناصر لاخذ البيعة^(٤) . وفي المجلس الزاهر استقبل الناصر سفير بيزنطة في سنة ٣٣٨ هـ . ومن أضاف الى القصر الأمير عبدالله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) عندما فتح بابا في القصر عند ركنه القبلي ساه باب العدل^(٥) ، وكان يجلس فيه للناس يوما في الاسبوع لياشر أحوال المظلومين بنفسه عندما يرفعون اليه فيه الظلمات ، وتصل اليه كتبهم على باب من الحديد^(٦) . كما أقام ساباطا يصل بين القصر والباب المعروف بباب سان استبان من أبواب جامع قرطبة الغربية المواجهة للقصر^(٧) . أما الناصر ، فانه لولعه بالبيان لم يترك في قصر الامارة بنية الا وترك فيها أثرا محدثا اما بتجديد أو بتزييد^(٨) ، ومن الابنية التي أضافها في القصر قصر بناء عرف بدار الروضة^(٩) بجوار قصره الزاهر ، ولعله سمى كذلك لانه كان يطل على تربة الخلفاء المعروفة بالروضة داخل القصر^(١٠) ، كما أسس الدار المسماة بدار الرخام^(١١) . وأغلب الظن أن هذه القصور أو المجالس التي أقامها هؤلاء الامراء في قصر قرطبة القديم كانت

-
- (١) المقرئ ، ج ١ ص ٣٢٥ .
 - (٢) ابن القوطية ، ص ٧٧ .
 - (٣) المقرئ ، ج ٢ ص ١١٢ .
 - (٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٢٣٦ .
 - (٥) ابن حيان ، نشر ملشور ، ص ٣٤ ، ٣٧ .
 - (٦) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .
 - (٧) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٢٩ .
 - (٨) نفسه ، ج ٢ ص ٢٣٦ .
 - (٩) المقرئ ، ج ٢ ص ١١٢ .
 - (١٠) ابن حيان ، نشر ملشور ، ص ٣ .
 - (١١) ابن حيان ، نشر الحجري ، ص ١٩٣ .

أبنية جديدة أقيمت على أنقاض القصر القديم أو أجزاء منه . ومع أن المصادر العربية لم تشر إلى أعمال الحكم المستنصر في القصر الخلافي ، فإنا نستدل من تيجان الأعمدة الست التي عثر عليها في القصر القديم على أن الحكم أضاف بنية جديدة في القصر : فعلى ثلاثة من هذه التيجان نقش يبين أنها عملت بأمر الحكم لغرف القصر ، وعلى واحد رابع نقش نصه : « عمل صفر لمصلى مولاه » ، وأربع من هذه التيجان يحمل تاريخ سنة ٣٥٣ هـ (١) ، ويعتقد ليفي بروفنسال أن هذه التيجان قد تكون من القصر ، ويرجح أنها كانت في واجهته ، وقد تكون اللوحة الموجودة في الجامع والتي عثر عليها في سنة ١٨٩٦ أثناء أعمال الإصلاح التي أجريت في أرضية المسجد اللوحة التذكارية لبنيته التي أضافها إلى قصر الخلافة ، ونص هذه الكتابة ما يلي :

« بسملة شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . ما شاء الله كان ولا حول ولا قوة إلا بالله وصلى الله على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وسلم عليه في العالمين . أمر الإمام عبد الله الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين ولي عهده وخليفته على عبادته ، الحافظ لحرمة ، والواقف عند حدوده ، والشاكر لنعمة أطال الله بقاءه في أتم كرامة وأعم سلامة ، وأكمل سرور وغبطة بهذه البنية ، فتمت بعون الله وقوته على يد مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رضي الله عنه بنظر معقل وتمام قتيبة في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة والحمد لله رب العالمين (٢) . ولكنني أعتقد أن العثر على هذه اللوحة داخل المسجد يدل على أنها تنتمي إلى أحد أبنية الجامع أو ملحقاته ، ولعلها تشير إلى قيامه

(١) Ocana Jimenez, Capiteles epigrafiados del Alcazar de Cordoba, en la Revista al-Andalus, Vol. III, 1935, PP. 155-167.
 Ocana Jimenez, Capiteles fechados del siglo X, al-Andalus, V, 1940, PP. 443-449 — Torres Balbas, Arte Hispano Musulman, en la coleccion Historia de Espana, Madrid, 1957, P. 591.
 Lévi-Provengal, Inscriptions Arabes d'Espagne, Paris, (٢) 1931, texte 14, P. 19.

بناء دار الصدقة التي كانت تقع غربي الجامع ، أو الى المكاتب التي أقامها حول ساحة الجامع ، أو البيوت التي ابتناها للفقراء قبالة الباب الغربي الكبير ، أو لبناء خزانات الجامع أو أحواضه وسقاياته .

وكان قصر قرطبة يضم قصورا داخلية نذكر منها بالإضافة الى الاسماء التي سبق أن ذكرتها المجدد والحائر وقصر الوزراء والمعشوق والمبارك والرشيقي والسرور والتاج والبديع^(١) . كما وصلنا اسم قصر البستان ويقع بجوار باب العطارين لعله كان مجلسا من مجالس القصر الخلافي بقرطبة لقربه منه^(٢) ، كما وصلنا اسم دار يقال لها دار الخيل . ونلاحظ أن بعض أسماء هذه القصور تماثل أسماء قصور أموية وعباسية بالشرق ، وقصر الحائر يذكرنا بقصري الحير الشرقي والغربي ، وقصر التاج يذكرنا بنظيره العباسي الذي أقامه الخليفة العباسي المعتضد في بغداد ، وقصر المعشوق وقصر المختار وقصر البديع تذكرنا بأسماء مماثلة في قصور العباسيين بأمراء ومن أبواب قصر الخلافة بقرطبة الابواب التالية :

الابواب القبلية :

باب السطح المشرف (باب السدة) : وقد فتحه الامير عبد الرحمن الاوسط في سور يمتد من سور المدينة لاغلاق الرصيف ، وكانت دفته من الحديد ، وبها حلق لأطون (من الصنر) ، على شكل رأس رجل يفتح فمه ، وكان في الاصل يزين باب مدينة أربونه ، فلما افتتحها الامير هشام في ١٧٧ جلب حلقها الى هذا الباب^(٣) واشترط على المعاهدين من

(١) ابن حيان، المتنبس نشر الحجري، ص ٢٣٠ - المقرئ، ج ٢ ص ١٢ .
وكان يجلس فيها الحكم المستنصر أيام مرضه للتسلي بشاهدة البربر وهم
المعسبون (Emilio Garcia Gomez, al-Hakam II Y los Berberes, al-Andalus, Vol. XIII, P. 211).

(٢) المقرئ، ج ٢ ص ١٥٣ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٢ .

أهل جليقية نقل عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتحة يحصلونها إلى باب قصره بقرطبة حيث بنى المسجد الواقع أمام باب الجنان^(١) وكان باب السدة أو السطح المشرف يفتح على رصيف قرطبة ، ويعتبر أحد الابواب الرئيسية بالقصر ، وكان الأمير يتشرف من السطح على إعدام الثوار أمام الباب^(٢) ، وتعليق جثثهم أو صلبها على شرفاته^(٣) ، وعلى هذا الباب صلبت جثة عمر بن حفصون في سنة ٣١٦ هـ ، بعد أن رفعت في جذوع عالية ، بجانب جثة ابنه سليمان^(٤) ، وعلى هذا الباب أيضا صلب الرامي المعروف بأبي نصر في سنة ٣١٢ هـ^(٥) ، وكان قد اشتهر بالرمية والاصابة أيام عمر بن حفصون، فصلب ورمي بالنبال حتى أصيبت جوارحه ، وبقي في الجذع أياما ثم أحرق . وعلى الباب نفسه سميت رأسا شنجول ابن المنصور محمد بن أبي عامر وصاحبه غرسية غومس على خشبة طويلة^(٦) ويبدو أن باب السطح المشرف أو السدة كان يعرف كذلك بباب الجنان ، لأن هذا الباب الأخير كان يقع بدوره على الوادي ، كما عرف أيضا باسم رابع هو باب الوادي ، مما يقطع بأن هذه الاسماء جميعا أسماء مختلفة لباب واحد هو الباب القبلي المطل على الوادي . وكان يقوم أمام هذا الباب على الرصيف المشرف على النهر مسجدان كان الأمير هشام يستعمل الحكم في المظالم فيها ، وقد بنى أحدهما بتراب سور أربونة ، بعد أن افتتحها الأمير هشام . وبجوار المسجدين المذكورين كانت تستد رحبة تعرف بالحصا تقع أدنى القصر وتشرف على النهر حيث كان يصلب الثوار في زمن عبد الرحمن الداخل^(٧) .

-
- (١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٩٥ - المقرئ ، ج ١ ص ٢١٦ .
(٢) ابن القوطية ، ص ١١٢ .
(٣) ابن القوطية ، ص ٩٧ ، ٩٨ - ابن عذاري ، ج ٢ ص ٧٤ - ٢٨٧ .
٢٨٨ ، ٢٩٤ .
(٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٢٩٤ . وكانت حثة سليمان قد صلبت في سنة ٣١٤ ابن القوطية ، ص ١١٥ .
(٥) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٢٨٦ .
(٦) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٧٠ .
(٧) أخبار مجموعة ، ص ١١٥ .

ومنها باب يقال له باب العدل فتحه الامير عبدالله ، وأقام الناصر أمامه فوارة في سنة ٣٠٧هـ (١) . وكان هذا الباب يفضي مباشرة الى الرصيف ، وقد تهدم في سنة ١٨٢٢ ، وكان ظاهرا في تخطيط قرطبة سنة ١٨٥١ (٢) . ويبدو أنه كان القصر قرطبة باب قبلي ثالث يقال له باب الحديد ذكر ابن عذاري أن المنصور بن أبي عامر أمر بسده بالحجر في سنة ٣٦٦ ، وقصر دخول الناس وخروجهم على باب السدة حتى يراقب الداخلين الى القصر ويمنع المتأمرين من الصقابة (٣) .

الابواب الشمالية :

وصلنا منها اسمان فقط هما باب قورية ، وباب الصناعة ، وكان هذا الباب الاخير مغلقا ، وسمى بباب الصناعة لمجاورته لدار الصناعة القريبة من مسجد أبي عثمان (٤) . ويضيف العذري بابا يقال له باب الملك (٥) .

الابواب الشرقية :

أهمها جميعا باب الجامع ، وهو الباب الذي كان يدخل منه الامراء على الساباط الى المسجد (٦) ، وقد فتح لهذا الساباط باب في جدار المسجد تجاهه من الجهة الغربية ، ويعرف هذا الباب الغربي بالمسجد اليوم بباب سان ميغل (٧) .

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٢٦١ .

(٢) Torres Balbas, las Norias fluviales en Espana, al-Andalus, Vol. V, 1940, P. 202.

(٣) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٣٩١ .

(٤) المقرئ ، ج ١ ص ٣٥٤ .

(٥) العذري ، ص ١٢٣ .

(٦) المقرئ ، ج ٢ ص ١٢ .

(٧) Gomez Moreno, op. cit., P. 56 والترجمة العربية ص ٦٣ - Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 416.

أما الجهة الغربية من القصر فكانت كلها بساتين وجنات وروضات •

وقد تعرض القصر لأعمال النهب والسلب والتخريب عقب دخول البربر قرطبة في سنة ٤٠٣ ، فطمست أبوابه في هذه الفتنة البربرية^(١) ولم يعد يقيم فيه الخلفاء والامراء والعمال ، فبنو جهور كانوا يتولون أمر قرطبة من ديارهم ، وعندما نزل المعتمد بن عباد قرطبة أقام في قصر البستان الواقع عند باب العطارين ، كذلك لم ينزل فيه الخليفة يعقوب المنصور عند مروره بقرطبة ، وإنما نزل بقصر السيد أبي يحيى الذي شيده على الوادي الكبير^(٢) •

ومع ذلك فقد ظل قصر قرطبة قائما حتى سنة ١٢٣٦ التي تسجل سقوط قرطبة في ايدي القشتاليين ، فكان قصر قرطبة من نصيب اسقفها ، وعرف منذ ذلك الحين بالقصر الاسقفي Palacio Episcopal . وأصيب هذا القصر باضرار جسيمة على مر العصور ، فقد احرق عدة مرات ، ثم حوله الاسقف دون سانشو دي روخاس (١٤٤٠ - ١٤٥٤) الى قصر من الطراز القوطي ، ثم احرق في سنة ١٤٥٦ ، وهدمت واجهته الجنوبية المطلة على الوادي في السنوات الاولى من القرن السابع عشر ، كما تهدم الساباط الذي كان يربط بين القصر وبين المسجد الجامع • وفي سنة ١٧٤٥ احرق القصر للمرة الثانية وفقد كل معالمه القديمة ، ولم يبق منه في الوقت الحاضر سوى الجدار المقابل لجدار الجامع وقسم من جداره الشمالي ، اذ ما زالا يحتفظان بنظام البناء في جامع قرطبة نفسه بما في ذلك الركائز التي تدعم الجدران وتدفع عنها الضغط^(٣) •

وفي قصر قرطبة يقول احمد بن سليمان الكاتب المعروف بالبياني

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٣ •

(٢) Torres Balbas, arte hispano-musulman, P. 592.

(٣) Castejon, Cordoba Califal, P. 74 - السيد عبد العزيز سالم ، مقال عن العمارة المدنية في الاندلس ، كتاب الشعب ، رقم ٦٤ ، ص ١٢٦ •

احد شعراء الحكم المستنصر ، عندما نزل الخليفة بعد اقامة طويلة في مدينة الزهراء :

يا قصر حلك للاله سلام عطفك عليه زيادة وتمام
ظلت تخايل في مصانعك العلى فيها على تلك السجوف زحام
قد كنت مهجورا مضاعا برهة فالآن حين أظلك الإكرام
والآن جد الملك في غلوائه فعلت له فوق النجوم خيام^(١)

(٢) المسجد الجامع بقرطبة :

يقع هذا المسجد على امتداد الواجهة الشرقية للقصر الخلافي ، والى شمال قنطرة قرطبة ، ويفصل بينه وبين القصر الطريق الاعظم المسمى بالمحجة العظمى . وجامع قرطبة من أجل أبنية قرطبة « كبر مساحة ، واحكام صنعة ، وجمال هيئة ، واتقان بنية ، تهتم به الخلفاء المرابطون ، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة ، وتتميم اثر تميم ، حتى بلغ الغاية في الاتقان ، فصار يحار فيه الطرف ، ويمعز عن حسنه الوصف »^(٢) . وكان جامع قرطبة لذلك من اشهر مساجد الاسلام الجامعة في المغرب والاندلس وكان مفخرة من مفاخر قرطبة الاربعة ، وفي ذلك يقول القاضي ابو محمد بن عطية :

بأربع فاقت الامصار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم أكبر شيء وهو رابعها^(٣)

وقد كان هذا المسجد موضع تعظيم واجلال اهل الاندلس ، لان حنش بن عبدالله الصنعاني وأبا عبد الرحمن الحبلي توليا تأسيسه

(١) ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجي ، ص ٢١٤ .

(٢) الحميري ، ص ١٥٥ .

(٣) المقرئ ، ج ١ ص ١٤٦ ، ج ٢ ص ١٤٦ .

بأيديهما ، وقوما محرابه، فنعتوه لذلك بالجامع الأعظم^(١) ، وهي تسمية نطالها في قول ابن عطية بن عبد الحق :

استودع الله أهل قرطبة حيث وجدت الحياء والكرما
والجامع الأعظم العتيق ولا زال مدى الدهر مأمنا حرما^(٢)

كما سموه بالجامع المبارك^(٣) ، والجامع المكرم^(٤) . وقد بلغ من اجلال أهل الاندلس وتعظيمهم لهذا الجامع أن اعتبروه مركزا دينيا هاما يحج اليه الناس ، ويتجلى ذلك في قول ابن المثنى شاعر الامير عبد الرحمن الاوسط :

بنيت لله خير بيت . يخترس عن وصفه الانام
حج اليه بكل أوب . كآئنه المسجد الحرام
كأن محرابه اذا ما حف به الركن والمقام^(٥)

وفي هذا الجامع كانت تعقد مشاهد ليلة القدر من كل عام^(٦) ، فكان المسلمون يقصدون من سائر أنحاء الاندلس لحضور الاحتفال الديني بليلة القدر ، وقد وصل الينا نص وصفي دقيق لجامع قرطبة في أحد هذه الاختقالات ، للكاتب الفقيه أبي محمد ابراهيم بن صاحب الصلاة الولبي ، قال فيه : « ... اني شخصت الى حضرة قرطبة - حرسها الله - منشرح الصدر لحضور ليلة القدر ، والجامع قدس الله بقعته ومكانه ، وثبت أساسه وأركانه ، قد كسي ببردة الازدهاء ، وجلى في معرض البهاء... »^(٧)

(١) المراكشي ، ص ٣٧٢ - ابن الخطيب ، ص ٤٣ ، ٤٨ - المقرئ ، ج ٢ ص ٩٩ ، ١٠ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ١٤٦ .

(٣) ابن حيان ، القتبس ، نصوص نشرها ليفي برونفسال في مجلة Arabica مجلد ١ قسم ١ ، لندن ١٩٥٤ ، ص ٨٩ ، ونفس النص في القسم الذي نشره الأستاذ الحجري ، ص ٢٤٣ .

(٤) ابن غالب ، ص ٣٠ .

(٥) المقرئ ، ج ١ ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٦) نفسه ، ج ١ ص ١٦٠ .

(٧) نفسه ، ج ٢ ص ٨٩ - ٩٢ .

وقد تعرض جامع قرطبة للزيادة فيه منذ أن أسسه عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هـ حتى سقوط الخلافة بقرطبة ثلاث مرات : الاولى في عهد الامير عبد الرحمن الاوسط سنة ٢٣٤ هـ ، والثانية في عهد الحكم المستنصر في سنة ٣٥٤ هـ ، وكانت كلتا الزيادتين من الجهة القبليّة ، والثالثة في عهد المنصور بن ابي عامر في سنة ٣٧٧ هـ من الجهة الشرقية ، لتعذر الزيارة فيه من الجانب الغربي لوجود السكة العظمى ، وتعذرهما من الجهة القبليّة لوجود السور وباب القنطرة والوادي . وكانت تشغل الموضع الذي أقيمت عليه زيارة المنصور دور ومستغلات ، اشتراها المنصور من أصحابها بثمان عادل وهدمها لتوسعة الجامع^(١) . وسنعود الى دراسة هذا الجامع تفصيلا من الناحيتين التاريخية والاثريّة .

٣ - قنطرة قرطبة :

وتقع شمالي باب قرطبة الجنوبي ، وهو الباب الوحيد الذي يفتح في سور قرطبة من هذه الجهة القبليّة ويصل بين مدينة قرطبة وبين ربضها القبلي المعروف بشقنودة ، وكانت هذه القنطرة من بناء الامبراطور أوغسطس قيصر ، وظلت قائمة تؤدي وظيفتها حتى أواخر أيام دولة القوط الغربيين ثم تهدمت قبل الفتح الاسلامي بقليل ، وسقطت حناياها ولم يبق منها سوى دعائسها الراكبة في النهر^(٢) . ويذكر ابن عذارى أن المسلمين « اذ فتحوا قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها على حنايا وثائق الاركان من تأسيس الامم الدائرة ، قد هدمها مدود النهر على مر الازمان »^(٣) . وظلت هذه القنطرة كذلك الى أن كانت ولاية السرح بن مالك الخولاني ، فكتب الى الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز يستشيريه ويعلمه « بأن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٢٩ - المقرئ ، ج ٢ ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٢٦ .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤ - المقرئ ، ج ٢ ص ٢٦ .

وامتناعه من الخوض الشتاء عامة، فإن أمرني أمير المؤمنين ببناء سور المدينة فعلت ، فإن قبلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند وتنفقات الجهاد، وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم^(١) » ، فأمر عسر بن عبد العزيز ببناء القنطرة بأحجار السور المتخرب ، فرمم القنطرة في سنة ١٠١٠هـ^(٢) ترميما حنا حتى أصبحت يحق إحدى مفاخر قرطبة، وقد وصفها الإدريسي بقوله : « ولقرطبة القنطرة التي علت القناطر فخرا في بنائها واتقانها وعدد قسيها ١٧ قوسا^(٣) بين القوس والقوس خمسون شبرا (١٠ أمتار تقريبا) ، وسعة ظهرها المعبور عليه ثلاثون شبرا (نحو ستة أمتار) ، ولها ستائر (أي جدران) من كل جهة تستر القامة ، وارتفاع القنطرة من موضع المشي الى وجه الماء في أيام جفاف الماء وقلته ثلاثون ذراعا (نحو ١٥ مترا) ، وإذا كان السيل بلغ الماء منها الى نحو حلقوها^(٤) » ويذكر صاحب مناهج الفكر أن طولها ٨٠٠ ذراعا وعرضها ٢٠ باعا ، وارتفاعها ستون ذراعا^(٥) . ولكن هذه الأرقام التي يوردها هذا المؤلف خيالية مبالغ فيها ، فإن طول القنطرة اليوم لا يتجاوز ٢٢٣ مترا . وقد تعرضت القنطرة لإصلاحات عديدة ، بسبب مدود النهر وعنف السيول ، ففي سنة ١٦١ « حمل نهر قرطبة حملا عظيما حتى سد حنايا القنطرة ، وهدم بعضها ، وزلزلها^(٦) » ولم يتهيا للامير عبد الرحمن الداخل أن يرممها لانشغاله باستئصال الثوار في الأندلس ، فتولى الأمير هشام مهمة ترميمها

(١) أخبار مجموعة ، ص ٢٤ .

(٢) نفس المصدر - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٥ .

(٣) تقوم القنطرة اليوم على ١٦ قوسا ، وكانت هذه الأقواس ترتكز على أرجل ضخمة (أكتاف أو ركائز) نصف أسطوانية تتوجها من أعلى كسوة زخرفية نصف مخروطية . وقد ذكر صاحب مناهج الفكر أن عدد أقواسها ١٨ قوسا ، وعدد أبراجها تسعة عشر برجاً (المقري ، ج ٢ ص ٢٦) بينما ذكر الحميري أن عدد أقواسها ١٩ قوسا (الحميري ، ص ١٥٨) .

(٤) الإدريسي ، ص ٢١٢ .

(٥) المقري ، ج ٢ ص ٢٦ .

(٦) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٣ .

بنفسه ، وأُتفق في إصلاحها أموالاً عظيمة^(١) . وفي سنة ١٨٢ اصيبت القنطرة مرة ثانية بسبب سيل عظيم جرف ربض القنطرة ، فلم يبق فيه داراً إلا هدمها ، وبلغ السيل شققة^(٢) . وفي سنة ٢٨٨ وافى بنهر قرطبة سيل جارف اغتصت به حلاقيم القنطرة ، وتثلمت بعض أرجلها^(٣) ، وفي سنة ٢٩٦ تعرض النهر من جديد لمد هائل^(٤) وفي عصر عبد الرحمن الناصر تثلمت قنطرة قرطبة بسبب مد نهر قرطبة في سنة ٣٣١^(٥) ، وفي سنة ٣٣٤ « كان السيل العظيم بقرطبة وبلغ الماء في البرج المعروف ببرج الاسد فهدم من آخر القنطرة ، وثلم الرصيف^(٦) » . وقد قام الناصر بإصلاحها ، ولكن القنطرة لم تلبث أن اصببت من جديد بعد وفاته بعام واحد^(٧) بسبب المد الطامي بنهر قرطبة في سنة ٣٥١ فرمها الحكم المستنصر في ٥ ذي القعدة سنة ٣٦٠ هـ^(٨) ، وذلك بأن أمر بعمل سد محكم الصناعة استخدم في بنائه صم الصخور والرمال والطفل ، وذلك على حاشية نهر قرطبة لصق الجسر ليصرف جريان الماء في هذه الجهة ، وبتيهاً له أن يكشف عن الأرجل (الدعائم) التي أثر فيها الماء على تطاول الامد، فكشط جيسها، ورممها^(٩) وفي ١٥ ذي الحجة تم عمل سد المنعة المعقود أسفل نهر قرطبة ، في الشرق منها لمنع جريان الماء عن أصول أرجل الحنايا التي ظهر وهيا من أرجل القنطرة ، واقتلعت حجارة قنوات الرحي المصاوبة للرصيف بغربي القنطرة حتى يتحول الماء عن الدعائم المذكورة ، فيتمكن من التوصل الى اصلاح أسسها وتقوية ضعفها ، فتقوت الدعائم المذكورة بتوايت الخشب الضخمة

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٩٨ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٠٤ .

(٣) ابن حيان ، نشر أنطونية ملشور ، ص ١٣٩ — ابن عذارى ، ج ٢

ص ٢١١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٤٤ .

(٥) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣١٦ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٣٢٠ .

(٧) نفسه ، ص ٣٥٢ .

(٨) ابن حيان ، نشرة الحجى ، ص ٥٨ .

(٩) نفس المصدر .

وأوتاد الحديد السميكة، الضخمة والصخر الصلب ، وكان الخليفة يتولى الاشراف بنفسه على هذه الاعمال ، أو يطل على القائمين به من أعلى باب السدة من قصر قرطبة . وتم البناء في ٢٦ من المحرم سنة ٣٦١ هـ ، ثم أصلحت الرحى في شهر صفر التالي (١) .

وكان الاتصال بين قرطبة وريضا القبلي في الاوقات التي تصاب فيها القنطرة بسبب المدود والسيول يتم عن طريق مراكب أو معديات ، فقد حدث في سنة ٤٣٩ هـ أن تعطلت القنطرة ، وحدث أن توفي أحد الفقهاء ، فحمل جثمانه على معديّة الى الربض (٢) .

وتعرضت القنطرة بعد سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين لاصابات عديدة ، فرمت في النصف الثاني من القرن ١٣ ، ثم رمت في السنوات التالية : ١٥٤٥ ، ١٥٩٩ ، ١٦٠٢ ، ١٦٢٦ ، ١٦٨٦ ، ١٧٠٣ ، ١٧٠٥ ، ١٧٨٠ ، ١٨٣٧ ، ١٨٧٥ ، ١٩١٢ ، بحيث أصبحت تؤلف مجموعة من الابنية التي لا تربطها أي وحدة ، أو أي طابع معين ، ولكن أكثر أجزاء القنطرة احتفاظا بالعناصر الرومانية القديمة الجزء الواقع ما بين العقد الثاني والثالث من جهة القلعة (٣) .

وتنتهي القنطرة من الناحية الجنوبية عند عدوة الربض القبلي بقلعة تحمي القنطرة ومدخل شقندة ، بناها الملك اريكي الثاني سنة ١٣٦٩ على أساس برج اسلامي كان يعرف ببرج الاسد (٤) . وتتألف القلعة الحالية من برجين كبيرين الشرقي منهما من بناء الملك خوان الثاني ، أما الغربي فيرجع تاريخ بنائه الى سنة بناء القلعة (٥) .

(١) ابن حيان ، نشرة الحجى ، ص ٦٥ .

(٢) ابن بشكوال ، كتاب الصلة في تاريخ ائمة الاندلس ، تحقيق كوديرة ، مدريد ١٨٨٣ ص ٣٤٥ .

(٣) Gomez Moreno, op. cit., P. 21. والترجمة العربية ص ١٩ .

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٣ .

(٥) راجع التفاصيل في : Castejon, Guia de Cordoba, P. 77.

والى جانب قنطرة قرطبة المشهورة أثارَت المصادر العربية الى قنطرة أخرى على نهر قرطبة شرع المنصور بن ابي عامر في بنائها في سنة ٣٧٨ ، وأتمها في منتصف عام ٣٧٩ ، وأنفق عليها ما يقرب من ١٤٠ ألف دينار^(١) ، وليس لهذه القنطرة في الوقت الحاضر أي أثر يدل عليها ، ويحدد ليفي بروفنسال موقعها عند نقطة وصول الرصيف الى المصاراة . وقد تكون هذه القنطرة العامرية مقامة من الجهة اليمنى من القنطرة الرئيسية، فقد شوهدت بقايا دعائم في نهر قرطبة في أوقات جفافه بجوار طاحونة^(٢) .

٤ - الرصيف والسد والمنبر (الارحاء) :

كان المسلمون يطلقون اسم الرصيف على كل الطرق المرصوفة كالطرق الرومانية ، ومن بينها السكة العظمى أو سكة أوغسطس^(٣) «Via Augusta» ، ولقد حرص أمراء بني أمية وخلفائهم على ترميم الارصفة الرومانية القديمة ، وخاصة في مدينة قرطبة العاصمة ، وبناء أرصفة أخرى جديدة مثل الرصيف الذي كان يربط بين قرطبة ومدينة الزهراء ، وكان طريقا أرضيته مرصوفة بالحجارة^(٤) .

وأكثر أرصفة قرطبة شهرة الطريق المحدث الذي كان يحف بالصفة اليمنى من نهر الوادي الكبير ، وكان يطل عليه الباب القبلي المؤدي مباشرة الى القنطرة ، وكان هذا الرصيف يمتد من الناحية الشرقية للمدينة حتى

(١) ابن مغازي ، ج ٢ ص ٤٣٠ .

(٢) Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, P. 622.

(٣) ارجع الى ما ذكره الرازي بشأن الرصيف الروماني المار باستجة وقرطبة والامتد من قادس الى اربونة ، وما ذكرناه من قبل عند دراستنا لتخطيط مدينة قرطبة (Lévi-Provençal, La description de l'Espagne de Razi, P. 95) . وما ذكره الحميري بشأن هذا الرصيف الأعظم الذي تمر عليه استجة (الحميري ، ص ١٥) وبشأن مدينة بيارة التي يقع ميناؤها على النهر الأعظم معقودا بالرصيف (الحميري ، ص ٥٦) .

(٤) Torres Balbas, la Via Augusta Y el Arrecife musulman, al-Andalus, Vol. XXIV, 1957, P. 448.

الناحية الغربية للقصر ، ثم يواصل سيره بعد ذلك فيحيط بالسوق العظسى نحو السهل الذي يقع فيه المصاراة ومصلاه^(١) ، ويعرف الرصيف هنالك برصيف القصايين^(٢) . وكان هذا الرصيف قد أعيد بناؤه كله في سنة ٢١٢ هـ بأمر الأمير عبد الرحمن الاوسط تحت اشراف أحمد العتبي^(٣) كذلك عمل عبد الرحمن الاوسط السقاية على الرصيف^(٤) . ويصف الادريسي الرصيف المذكور بقوله: «وتحت القنطرة يعترض الوادي رصيف سد مصنوع من الاحجار القبطية والعمد الجاشية من الرخام ، وعلى هذا السد ٣ بيوت ارحاء في كل بيت منها أربعة مطاحن^(٥) » . والى ارحاء هذا السد وهي ارحاء ناصح ومالك يشير ابن عبدون في احدي قصائده :

وليس ذميما عهد محبس ناصح فأقبل في فرط الولوع به نصحا
وأصال لهو في مسناة مالك معاطاة ندمان اذا شئت أو سبحا^(٦)

وكان السد من منتزهات قرطبة التي يقصدها الوشاح والشعراء ، وقد وصف الشاعر أبو شهاب المالقي يوم نزهة له بهذا السد فقال :

ويوم لنا بالسد لو رد عيشه بعيشة أيام الزمان رددناه
بكرنا له والشمس في خدر شرقها الى أن أجابت اذ دعا الغرب دعواه
قطعناه شدوا واغتباطا ونشوة ورجع حديث لو رقى الميت أحياء
على مثله من منزه تبغني المنى فله ما أحلى وما أبدع مرآه
شدتنا به الارحا وألقت نثارها علينا ، فأصغينا له وقبلناه
لئن بان انا بالأنين لفقده وبالدمع في اثر الفراق حكيناه^(٧)

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 378.

(٢) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الحجي ، ص ١٤٥ .

(٣) Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 378.

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٦ .

(٥) الادريسي ، ص ٢١٢ - الحميري ، ص ١٥٨ .

(٦) المقرئ ، ج ٢ ص ١٥٥ .

(٧) نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢١ .

وذكره أبو الحسن المريسي في موشحة له نصها :

مطلع

في نعمة العود والسلافة والروض والنهر والنديم
أطال من لا منى خلفه فظل في نصحه ملهم

دور

لله عصر لنا تقضى بالسد والمنبر البهيج
أرى اذكاري اليه فرضا وشوقه دائما يهيج^(١)

والمنبر الذي أشار اليه الوشاح المذكور هو الارحاء القائمة على
السد ، وكانت تعتبر احدى متنزهات قرطبة المطلة على النهر ، وفي الارحاء
يقول الزجال قاسم بن عبود الرياحي :

دور

بالله يا حبيبي اترك ذا النصار
واعمد أن نطيب في هذا النهار
واخرج معي للوادي لشرب العقار
فتمم نهارنا في لذة وطيب
في الارحاء والا في المرج الخصيب

دور

أو عند النواصي والروض الشريق
أو قصر الرصافة أو وادي العقيق
رحيق والله دونك هو عندي الحريق^(٢)

والناعورة المذكورة في هذا الزجل كانت ترفع المياه الى بساتين المنية
التي سميت بالناعورة ، وكانت عجلتها الكبرى تستند على جدار مبني من

(١) المقري ، ج ٢ ص ٢٣ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

الحجر والآجر تتخلله عقود متجاوزة منكسرة ، محاطة بطرر أو تريعات مربعة ، وكان هذا الجدار قائما في موضع متقدم من وسط الوادي حيث يزداد عمق المجرى ويشد تيار المياه ، وهما شرطان لا بد من توافرها لتحريك العجلة الضخمة ، وفي أعلى الجدار كانت المياه المرفوعة تجري في قناة تمتد الى أعلى باب الرصيف الى أن تصل الى ساحة الحصا بأعلى الرصيف، ازاء الجدار القبلي للقصر الخلافي . وأغلب الظن أن هذه الناعورة والقناة والرصيف كانت من انشاء عبدالرحمن الاوسط، الذي «شيد القصور وجلب اليها المياه ، وبنى الرصيف ، وعمل عليه السقائف ، وبنى المساجد الجوامع بالاندلس ، وعمل السقاية على الرصيف^(١)» . وقد ظلت هذه الناعورة قائمة في موضعها حتى زمن الاسترداد ، ثم أقيمت الساقية المعروفة بالبولافيا التي أمرت الملكة الكاثوليكية بازالتها لما كان يسببه آنيها من ازعاج لها^(٢) .

أما باب الرصيف الذي كان يسمى بباب الحديد فقد تهدم في سنة ١٨٢٢ ، كما اختفى الرصيف اليوم ، ولكننا - استنادا على بعض صورته القديمة - عرفنا أن عقديه كانا من النوع المتجاوز تحيط بهما طرطان أو تريعتان على النحو الشائع في العقود الاموية بالاندلس .

هـ - منية الناعورة :

كانت منية الناعورة في بداية أمرها أرضا تقع على شاطئ نهر قرطبة لصق مصلى فحصى المصارة العتيق ، اشتراها الامير عبدالله أيام والده الامير محمد بما حولها من الحقول من خليل البيطار في سنة ٢٥٣ هـ ، « فأنشأها منية عجيبة واسعة الخطة ، أرادها للفرجة ، فأوسع خطتها ، وأكثر غراساتها ،

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٣٦ .

(٢) Torres Balbas, Las Norias fluviales en Espana, PP. 201-205

واقصد مع ذلك في الاتفاق عليها « (١) . وأغلب الظن أن بساين هذه المنية كانت تسقى بسياه النهر التي كانت ترفعها الناعورة عند الرصيف . وقد انتقلت ملكية هذه المنية من بعد الأمير عبدالله الى حفيده عبدالرحمن بن محمد ، فأقام بها قصر الناعورة المشهور (٢) . وفي جمادى الآخرة من سنة ٣٢٩ أكمل عبد الرحمن الناصر بنيان جسر المياه الذي استغرق بناؤه ١٤ شهرا ، وأجرى فيه الماء العذب من جبل قرطبة الى قصر الناعورة ، « في المناهر المهندسة وعلى الحنايا المعقودة ، يجري مأوها بتدبير عجيب وصنعة محكمة الى بركة عظيمة ، عليها أسد عظيم الصورة ، بديع الصنعة ، شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيسا صور الملوك في غابر الدهر . مطلى بذهب ابريز ، وعيناه جوهرتان لها ويص شديد ، يجوز هذا الماء الى عجز هذا الاسد ، فيمجه في تلك البركة من فيه ، فيبهي الناظر بحسنه ، وروعة منظره ، وثجاجة صبه ، فتسقى من مجاجه جناز هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجنباته ، ويمد النهر الاعظم بما فضل منه ، فكانت هذه القناة وبركتها والتثال الذي يصب فيها من أعظم آثار الملوك في غابر الدهر ، لبعده مسافتها ، واختلاف مسالكها ، وفخامة بنيانها ، وسمو أبراجها التي يترقى الماء منها ، ويتصوب من أعاليها » (٣) .

ولقد أصبحت هذه المنية المقر الاثير لدى الناصر ، فكان يقيم بها للراحة بعد غزواته الى بيشتر ، معقل الثائر ابن حفصون ، فقد ذكر ابن عذارى أنه في سنة ٣١٧ هـ « كانت للناصر خرجة من قصر الناعورة مطالعا لببشتر ، ومعاينا لما قام من البنيان بها ، وما تم من ترتيبه فيها ، وكان خروجه من منية الناعورة يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة حلت من شوال ونزوله بجبل ببشتر يوم الخميس لعشر بقين منه ، فدخل المدينة وجال فيها وأحكم ماله من قصد أمرها ، ثم صدر عنها في اليوم الثاني ، ودخل القصر بالناعورة يوم الثلاثاء لأربع بقين من شوال » (٤) .

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق ملشور انطونية ، ص ٣٨ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ١٠١ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٠٠ .

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٠٢ .

وفي هذه المنية نزل أردون الرابع عند قدومه الى قرطبة في سنة ٣٥١ هـ^(١) ، وكانت منزلا للحكم عند رحيله من الزهراء الى قرطبة ، فكان ينزل في قصرها^(٢) . وقد تخربت منية الناعورة مع قصر الرصافة في سنة ٤٠٣ أيام الفتنة^(٣) .

٦ - سوق قرطبة :

كان بقرطبة مركزان تجاريان ، أحدهما يقع في الشرقية ، والآخر تجاه باب العطارين . وكان المركز الثاني أهم بكثير من الاول ، لأنه الموضع الذي تقوم فيه سوق قرطبة الكبرى ، وكانت تقع بداخل قرطبة من الجهة الجنوبية الغربية بازاء باب العطارين ، ثم توسعت في زمن الخلافة وأصبحت تمتد حتى الرصيف ، وكانت حوائت القضاين تصل في الامتداد الى النهر الى حد أن هذا الرصيف عرف هناك برصيف القضاين^(٤) . وكان من جملة حوائت سوق قرطبة الثانية حوائت السراجين التي حبسها الحكم المستنصر على المعلمين في جمادى الاولى سنة ٣٦٤ ، وأمرهم بعلم أولاد الضعفاء والمساكين من أهل قرطبة^(٥) . والظاهر أنها كانت تقع في الشرقية ، على جانبي المحجة العظمى . ويذكر ابن بشكوال أن حوائت الريحان والرقاقين كانت تقع في غرب قرطبة .

٧ - مصليا المصارة والربض :

اتخذ المسلمون منذ الفتح الاسلامي لقرطبة مصلى أو شريعة لهم في فحص المصارة بغربي قرطبة هو المصلى المعروف بالمصلى العتيق^(٦) ، وكان

-
- (١) المقري . ج ١ ص ٢٦٦ .
 (٢) ابن حيان . المقتبس : تحقيق الحجى . ص ٢١٢ .
 (٣) ابن عذارى : ج ٣ ص ١٠٢ .
 (٤) ابن حيان . نشر الحجى . ص ١٤٥ .
 (٥) ابن حيان ، المصدر السابق ص ٢٠٧ .
 (٦) سمي هذا المصلى بهذا الاسم بسبب قيام مصلى آخر جدد في الربض القبلي من قرطبة المعروف بشقندة : في ، د الحكم الربض .

يقع أيضا بجوار منية الناعورة على شاطئ نهر قرطبة . والمصلى في المدن الإسلامية ساحة فسيحة يجتمع فيها المسلمون لاداء صلاة الاستسقاء أيام الجذب والجفاف وصلاة العيدين في العراء^(١) . وقد اهتم عبد الرحمن الناصر بالمصلى العتيق فأقام له محرابا جديدا في سنة ٣٠٧ هـ^(٢) . أما المصلى الثاني الجديد فقد أقيم برىض شقندة بعد أن أمر الحكم الربضي . عقب اخماده لثورة الربضيين في ١٤ رمضان سنة ٢٠٢ هـ ، بهدم هذا الرىض وتسويته بالأرض ، « حتى صار مزرعة ، ولم يعمر طول مدة بني أمية »^(٣) ، وعلى الرغم من اكتظاظ مدينة قرطبة بسكانها ابان القرن الرابع الهجري ، واتساعها في العمران شرقا وغربا وشمالا ، فقد ظل هذا الرىض القبلي مهملًا في عصر بني أمية ، ولم يفكر أحد من خلفاء الحكم الربضي في تعمير هذا الرىض . وعلى أقتاض رىض شقندة القديم أقيمت جبانة واسعة تعرف بمقبرة الرىض ، وبجوار هذه المقبرة أقيم مصلى جديد في العراء عرف بمصلى الرىض . وفي هذا المصلى برز صاحب الصلاة بقرطبة محمد بن عمر بن ليابة في سنة ٣٠٢ هـ الى مصلى الرىض ، واستسقى بالناس خمس مرات في أيام مختلفة وذلك عندما توالى القحط وعم الجفاف في هذه السنة ، ثم برز أحمد بن أحمد بن زياد للاستسقاء بالناس في ١٣ شوال من نفس السنة^(٤) . وفي ٢٥ من المحرم سنة ٣١٧ امتنع المطر ، واشتد الجذب والمحل ، وغلت الاسعار في قرطبة ، فأمر الناصر بالاستسقاء في جامع قرطبة ومصلى الرىض ومصلى المصاراة^(٥) . وفي آخر عهد الناصر قحط الناس ، فأمر القاضي منذر بن سعيد البلوطي بالبروز للاستسقاء ،

(١) ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والاندلس ، ص ٧٤ - ٩٠ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٦١ ، ٢٩٩ -
Una cronica anonima de Abd al-Rahman III, P. 28.

Lévi-Provençal, l'Espagne musulmane au Xe siècle, Paris, 1932, P. 223.

(٣) ابن سعيد ، ج ١ ص ٤٢ .

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤٩ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٩٩ .

واجتمع له الناس في مصلى الربض حتى غصت بهم ساحة المصلى^(١) . وذكر ابن حيان أن بعض الناس أقاموا عدة دور خاصة في الربض في حجابة عبد الملك بن أبي عامر ، واتفق أن أطل الخليفة هشام المؤيد على السطح المشرف من قصره المطل على الوادي الكبير والربض ، ليمتع بصره بسنظر الوادي وما يليه من ناحية الجنوب ، ولاحظ الخليفة التغير الذي طرأ على منطقة الربض ومبادرة الناس بالبناء فيها ، فغضب لذلك ، وأرسل إلى المظفر عبد الملك رسولا يأمره بسرعة هدم هذه الابنية التي شرع الناس في اقامتها ، فامتثل عبد الملك المظفر لأمره^(٢) .

٨ - منية ابن عبد العزيز :

تقع في الصحراء الممتدة ما بين قرطبة ومدينة الزهراء غربي قرطبة ، وكان الزائر يصل إليها بعد أن يعرج على السدة والمصاراة والعقبة التي يقوم عليها مسجد الحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبدة (في عهد عبد الرحمن الاوسط) ، ثم ربض مسجد الشفاء ، ثم ربض حمام الالبيري أو اللبدي^(٣) . وفي هذه المنية نزل يحيى بن علي المعروف بابن الاندلسي صاحب المسيلة وأخوه جعفر في ٢٧ من ذي القعدة سنة ٣٦٠ .

٩ - منية نصر في الربض :

كان نصر الفتى مولى الامير عبد الرحمن الاوسط ، وكان أكبر الفتيان الخصيان في بلاط الامير ، وهو الذي وكل اليه عبد الرحمن بينيان الزيادة في جامع قرطبة^(٤) . وقد اتخذ نصر لنفسه منية في عدوة الربض

(١) ابن غالب ، ص ٣٦ - المقري ، ج ٢ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, P. 378.

(٣) ابن حيان ، تحقيق الحجى ، ص ٤٦ .

(٤) ابن حيان ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ - ونصوص خاصة بجامع قرطبة ، نشرها ليفي برونفسال في مجلة Arabica مجلد ١ قسم ١ ، ص ٩٠ .

تشرف على النهر بجوار مقبرة الربض العتيقة^(١) ، وكان موضع هذه المنية بيتا للرحا في أيام أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي^(٢) ، ويبدو أنه أقيم مكانها فندق « كان متقبله من أهل الاضرار والفسق »^(٣) ، فأمر عبد الرحمن الاوسط بهدمه بعد أن بويج بالامارة في سنة ٢٠٦ هـ ، ويبدو أن نصرا ، وكان أثيرا لدى الامير ، استأذن منه في اقامة هذه المنية ، فأجابه الى ذلك ، فأقامها نصرا ، وظل يستلکها حتى مات مسوما في سنة ٢٣٦ هـ ، على يدي الامير عبد الرحمن بسبب تأمره عليه^(٤) ، ثم نزلها زرياب المغني . وآلت هذه المنية بعد زرياب الى الامير عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن ، فكلف بها ، « وشيد بانيها وأتقن مصانعها ، الا أن ذلك في حد الإقتصاد والاقتصار للذين لم يفارقا مذهبه فيهما آخر وقته »^(٥) . وكان الامير يوزع أوقات نزهه بين هذه المنية ومنية الناعورة السالفة الذكر .

وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر اتخذها الحكم المستنصر ولي عهده^(٦) ، وفي هذه المنية نزل سفراء الامبراطور البيزنطي قنسطنطين السابع في صفر سنة ٣٣٨ هـ .

١٠ - منيتا عجب وابن أبي الحكم بن القرشية :

أقيمت منية عجب جارية الحكم الربضي في الربض القبلي في مواجهة السد والرصيف ، وكانت هذه المنية تستل على بضع مساكن موقوفة على المرضى^(٧) . أما منية ابن أبي الحكم فكانت تقع على النهر الاعظم بمنطقة

(١) ابن . ان ، تحقيق انطونية ملشور . ص ٣٨ .

(٢) ابن القوطية ، ص ٢٠ .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١٦ .

(٤) ابن القوطية ، ص ٧٧ - ابن سعيد . ج ١ ص ٤٩ .

(٥) ابن حيان ، نشر انطونية ملشور . ص ٢٨ .

(٦) المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٣ .

(٧) Lévi Provençal, l'Espagne musulmane au Xe siècle, P. 207, Note 3.

تعرف بالشامات أو الشباعات^(١) ، نزلها عيال علي بن الاندلي صاحب
المسيلة وعيال أخيه جعفر عند قدومها الى قرطبة في سنة ٣٦٠ هـ ، في حين
نزل القائدان الاخوان في منية ابن عبد العزيز ، ويرجع السبب في اقامة
حريهما وعياليهما في منية ابن أبي الحكم أنها كانت منيعة محصنة مرتفعة
الاسوار « مسورات في العمارات »^(٢) مبالغة من الحكم في اكرامه لجعفر
ويحيى وفي ستر أهليهما وصياتهن .

١١ - فحص السراق :

هو معلم هام من معالم قرطبة ، كان يقع جوفي نهر قرطبة بالطرف
الشرقي من المدينة^(٣) ، وكان من المتنزهات المشهورة التي يقصدها أهل
قرطبة للفرجة والنزهة ، وقد سمي بفحص السراق لأن خلفاء بني أمية
اعتادوا أن يبرزوا السراق في هذا الفحص قبل التوجه للغزو . ففي ٣١٩ هـ
أبرز الناصر السراق والابنية الى هذا الفحص قبل مسيره لغزو مدينة
طليطلة^(٤) ، وفي هذا الفحص برز القائد غالب الناصري غازيا في سنة ٣٤٦ هـ
الى دار الحرب^(٥) . وكان أمراء بني أمية قبل الناصر يبرزون قبل الخروج
الى الغزو ، وعلى الاخص في عهد الامير عبدالله في فحص شقندة أو صحراء
الربض بفج المائدة المطل على باب قرطبة الجنوبي^(٦) . وفي فحص السراق
يقول الشريف الاصم القرطبي :

(١) ابن حيان . المقتبس . نشر الحجي . ص ٤٣ . ٢٢٨ .

(٢) نفس المصدر . ص ٤٣ .

(٣) نفسه ، ص ٤٣ .

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٣١ .

(٦) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق انطونية ملشور . ص ٩٣ ، ٩٤ .

١٠٢ ، ١٠٣ - القرطبي ج ١ ص ٣٤٣ .

ألا فدعوا ذكر العذيب وبارق ولا تسأموا من ذكر فحوص السراق
مجر ذيول السكر من كل مترف ومجرى الكؤوس المنزعات السوابق
أيا طيب أيام تقضت بروضة وفكري في غيب لمراة شائقي
أيا طيب أيام تقضت بروضة على لمح غدران وشم حدائق^(١)
وفيه يقول الامير أبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن الاوسط اثر
عودته من غزوة :

أحل شدادي في السراق نازلا وللشوق عقد ليس ينحل عن قلبي
أقرطبة هل لي اليك وفادة تفر بعيني أو تمهد من جنبي^(٢)

١٢ - حير الزجالي :

كان يقع خارج باب اليهود بقرطبة ، وينسب الى بني الزجالي ، وكان
رئيسهم عبدالله بن محمد الزجالي الوزير من كبار كتاب الامير عبدالله^(٣) ،
وقد أقره الخليفة عبد الرحمن الناصر على الكتابة^(٤) سنة ٣٠٠ بينما ولي
ابنه عبد الرحمن بن عبدالله الزجالي خطة العرض^(٥) ، ثم ولاء الخزانة
سنة ٣١٦ هـ ، فالوزارة سنة ٣٤٤ هـ . أما أخوه محمد بن عبدالله الزجالي
فقد تولى خزانة المال في ٩ رمضان سنة ٣٠٧ هـ^(٦) ثم تولى الوزارة في ١٥
جمادى الاولى سنة ٣١٤ هـ ، وتوفي في شعبان سنة ٣١٥ هـ . كذلك استخدم
الناصر أخاهما عبيدالله بن عبدالله الزجالي على الموارث في سنة ٣١٥ هـ^(٧)

(١) المقري ، ج ٢ ص ٢١ .

(٢) ابن الأبار ، الحلة السراء . تحقيق الدكتور حسين مؤنس . القاهرة

١٩٦٣ : ص ١١١ .

(٣) ابن حيان ، نشر انطونية ملشور ، ص ٦٠ - ابن عذارى ، ج ٢

ص ١٨٢ .

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٣٧ . وتوفي عبدالله الزجالي في ربيع اول

سنة ٣٠١ .

(٥) نفس المصدر . ص ٢٣٨ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٢٦٢ .

(٧) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٩٢ .

ثم على الخيل في سنة ٣١٦ حتى وفاته في سنة ٣٢٠ . وكان حير الزجالي من أجمل المتنزهات وأبدعها في قرطبة ، ويصفه الفتح بن خاقان بقوله : « وهذا الحير من أبدع المواضع وأجملها وأتمها حسا وأكملها ، صحنه مرمر صافي البياض ، يخترقه جدول كالحية النضاض ، به جايه كل لجة بها كاية ، قد قربت بالذهب واللازورد سماؤه ، وتأزرت بهما جوانبه وأرجاؤه ، والروض قد اعتدلت أسطاره وابتسمت من كمائمها أزهاره ، ومنع الشمس أن ترمق ثراه ، وتعطر النسيم بهوبه عليه ومسراه ، شهدت به ليالي وأياما كأننا تصورت من لمحات الاحباب ، أو قدت من صفحات أيام الشباب ، وكانت لأبي عامر بن شهيد به فرج وراحات ، أعطاه فيها الدهر ما شاء ، ووالى عليه الصحو والالتشاء وكان هو وصاحب الروض المدفون بازائه أليني صبوة ، وحليني نشوة ، عكفا فيه على جريالهما ، وتصرفا بين زهوهما واختيالهما ، حتى رداهما الردى ، وعداهما الحمام عن ذلك المدى ، فتجاورا في الممات تجاورهما في الحياة . . . » (١) .

١٣ - المنية المصحفية :

أقامها الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي في خلافة الحكم المستنصر ، ثم تكن نعرف موقعها من قرطبة على وجه الدقة ، الى أن اهتديت الى نص بن عذارى يجعل أمر تحديد موقعها يسيرا ، فقد ذكر أنها كانت بالبقعة روفة بالش غربي قرطبة (٢) . وكان السبب في بنائها كما يروي ابن عذارى لحكم كان يتخوف من ابن أبي عامر على ابنه هشام المؤيد ، وكان لشدة ، في الحدثان متيقنا من أنه سينتزع السلطان من ولده ويؤسس لنفسه نة في موضع يسمى الش بفتح اللام ، فأمر حاجبه جعفرا بالسبق اليها روع في بنائها وأنفق عليها مالا عظيما ، ولكن اتضح بعد بنائها أن

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) ابن عذارى - ج ٢ ص ٣٨٤ .

بقرطبة موضعا آخر يقع في شريقها عند منزل أبي بدر يسمى ألس بضم اللام ، وقدر لهذا الموضع أن يكون البقعة التي اختارها المنصور بن أبي عامر بعد ذلك لانشاء الزاهرة مقر ملكه (١) .

وقد آلت النية المصحفية بعد نكبة جعفر المصحفي الى المنصور ، وفيها يقول أبو بكر محمد بن أحمد بن جعفر :

قف بالمصحفية وانذب مقلّة أصبحت بلا انسان
واسألها عن جعفر وسطاه وندهاء في سالف الازمان (٢)

١٤ - القصر الفارسي :

كان من القصور المقصودة للنزهة والفرجة في ظاهر قرطبة من الشمال ، وقد ورد اسم هذا القصر بين معاهد بني أمية التي شهدت أول اشراقه حب ابن زيدون الوزير لولادة بنت المستكفي ، وفيه يقول الشاعر وقد هاجت أشجاناه :

ويحتاج قصر الفارسي صابرة لقلبي لا يألو زناد الاسى قدحا (٣)

١٥ - النية العامرية :

تعتبر من النيات المشهورة بمدينة قرطبة منذ أواخر القرن الرابع الهجري ، أسسها المنصور محمد ابن أبي عامر في سنة ٣٦٩ الى جانب مدينة الزهراء (٤) ، وتقع آثارها اليوم على بعد نحو تسع كيلومترات غربي قرطبة ، وثلاثة فقط من مدينة الزهراء (٥) ، وحاطها بالرياض والجنان ،

(١) ابن عذارى ، ص ٣٨٥ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ١٧ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٥٥ .

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤١٤ - المقرئ ، ج ٢ ص ١١٥ .

(٥) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 594.

وأجرى فيها قناة تنساب ملتوية بين بساتينها ، وتحف الأشواح والأشجار
على ضفتيها ، وقد وصفها صاعد اللغوي البغدادي بقوله :

العامرة أضحت	كجنة الرضوان
فريدة لفريد	ما بين أهل الزمان
أنظر الى النهر فيها	ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكرا	على ذرا الأغصان
والقضب تلتف سكرًا	بمس القصبان
والروض يفتر زهوا	عن مسم الاقحوان
والنرجس العن يرنو	بوجنة النعمان
وراحة الراح تستا	ر نفحة الريحان ^(١)

وكانت العامرة تزهى بالنرجس والياسمين والبنفسج ، وقد وصف
الوزير الجزيري مجلسا للمنصور أبي عامر في العامرة ، صور فيه احتفال
المنصور بينان هذا القصر وابداع بساتينه فقال :

وتوسطتها لجة في قعرها	بنت السلاحف ما تزال تتنق
تنساب من فكي هزير ان يكن	ثبت الجنان فان فاه أخرق
صاغوه من ند وخلق صفحتي	هاديه محض الدر فهو مخلق
للياسمين تطلع في عرشه	مثل المليك عراه زهو مطرق
ونضائد من نرجس وبنفسج	وجنى خيري وورد يعبق
ترنو بسحر عيونها وتكاد من	طرب اليك بلا لسان تنطق
وعلى يمينك سوسنات أنابت	زهر الربيع فهن حسنا تشرق ^(٢)

وأشدد الجزيري مرة على لسان نرجس قصر العامرة :

حيثك يا قصر العاز والمجلس	أزكي تحيتها عيون النرجس
زهر تريك بحسنها وبلونيسا	زينة النجوم الجاريات الكنس ^(٣)

(١) المتري ، ج ١ ، ص ١٠٠
(٢) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٠٠
(٣) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٠٠

١٦ - دور السكة والطراز والصناعة :

كانت دار السكة الاموية في عصر الامارة تقع لصق باب العطارين من خارج مدينة قرطبة العتيقة^(١) ، وأول من أنشأ دار السكة في قرطبة وضرب الدراهم باسمه الامير عبد الرحمن الاوسط ، ولم تكن في الاندلس دار للسكة منذ افتتحها العرب ، ومن المعروف ان هذا الامير هو أول من فخم السلطنة بالاندلس^(٢) من أمراء بني أمية ، ويبدو أن أهل الاندلس قبله كانوا يتعاملون بالعملات الاموية القديسة والعملات العباسية . وكانت دار السكة الاميرية التي أسسها عبد الرحمن الاوسط تسك فلوسا يتعامل الناس بها كل ستين فلسا بدرهم . وفي سنة ٣١٦ هـ أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر باقامة دار جديدة المسكة في داخل مدينة قرطبة ، لضرب الدنانير والدراهم الاندلسية ، ولى خطتها لأحمد بن موسى بن حدير ، وخصصها لضرب العملات الذهبية والفضية الخالصة^(٣) ، ثم نقلها من قرطبة الى الزهراء بعد أن أسس هذه المدينة الخليفة^(٤) .

أما دار الطراز والبرد فقد أحدثها أيضا الامير عبد الرحمن الاوسط ، واستتبط عملها^(٥) ، وان كان ابن حيان يؤكد أن هذه الدار من بنيان الامير عبد الرحمن بن معاوية الداخل^(٦) . ويبدو أن عبد الرحمن الداخل هو الذي أنشأها واختصت منذ ذلك الحين بصناعة البرود الاميرية ولذلك عرفت بالدار البردية ، ثم تطورت في عصر الامير عبد الرحمن الاوسط ، فاتسعت مرافقها ، فقد ذكر ابن الخطيب أن في أيامه « اتخذ الطراز الذي

(١) الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، تحقيق دي غوبية ، لندن . ١٨٨٥ ، ص ٨٨ .

(٢) ابن سعيد ، ج ١ ص ٤٥ ، ٤٦ - ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٣٦ .

(٣) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٢٩٦ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٢١ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٣٦ .

(٦) ابن حيان ، المقتبس . تحقيق الحجي ، ص ٦٦ .

كان حديث الرفاق ومطرفة أهل الآفاق»^(١) ، ومعنى هذا أن دارا للطراز أقيمت الى جانب الدار البردية لنسج الطرز الاميرية على أبواب وبرود الامير وحرمة وخدمه وحشسه . وفي أيام عبد الرحمن الناصر اتسعت دار الطراز وأصبح ينسج فيها « ما يحتاج اليه من الخلع والكسي وملابس الحرم وغير ذلك » . ويضيف ابن الخطيب معلقا : « ولو تتبعنا أصنافهم وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم ويناغون به المشرق من بضائعهم ومقدار جريائاتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب »^(٢) . وقد أشار ابن حوقل الى شهرة قرطبة في زمن الناصر في صناعة جيد الثياب والكسي من لين الكتان وجيد الخز والقز^(٣) ، وقد تولى الطراز في عهد الامير عبدالله زيان الفتى^(٤) ، وتولاها زمن الناصر الفتى خلف الكبير^(٥) ، ثم تولاها في زمن الحكم المستنصر الفتى فائق المعروف بالنظامي^(٦) .

وأغلب الظن أن دار الطراز بقرطبة كانت تقع بجوار قصر قرطبة من الجهة الغربية ، استنادا الى ما ذكره المؤرخ القرطبي ابن حيان^(٧) والمؤرخ الغرناطي ابن الخطيب^(٨) .

-
- (١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٠ .
 - (٢) نفس المصدر ، ص ٤٠ .
 - (٣) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٠٨ .
 - (٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٢٣ .
 - (٥) نفس المصدر ، ص ٢٨٥ .
 - (٦) ابن حيان ، نشر الحجى ، ص ١١٧ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٨٧ .
 - (٧) نفس المصدر ، نشر الحجى ، ص ٦٦ . وذكر ابن حيان ان هذه الدار نقلت من موضعها الاول في سنة ٣٦١ في عصر الحكم المستنصر من غربي قصر قرطبة وفي صدر او مقدمة سوق قرطبة العظمي الى دار الزوامل بالمصارة في طرف قرطبة الغربي . اما دار الزوامل فقد نقلت بدورها من موضعها الذي شغلته دار الطراز الى دار تقع بالقرب من الحبس عند قصر الناعورة ، واما دار البرد القديمة فقد امر الحكم باقامة حوانيت للبزازين مكانها (ابن حيان ، ص ٦٦) .
 - (٨) ابن الخطيب ، ص ٤٠ .

أما دار الصناعة بقرطبة فكانت تقع بجوار مسجد أبي عثمان (عبيد الله ابن عثمان زعيم حزب موالي الروانية قبل دخول عبد الرحمن الداخل الاندلس) وكان هذا المسجد يقع في الجهة الشمالية من القصر بدليل أن هذا القصر كان يفتح في سوره الشمالي باب يعرف بباب الصناعة لأنه كان يشرف على دار الصناعة . ويبدو أن هذه الدار أنشئت في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط بعد غزو النورمان لاسبيلية ، وفيها أمر الأمير محمد بإنشاء المراكب في سنة ٢٦٦ ليتوجه بها الرعيطي المعروف بعبد الحصيد بن مغيث الى البحر المحيط^(١) . ولكن هذه الدار اقتضرت منذ أيام عبد الرحمن الناصر على صناعة التماثيل المعدنية والآلات . لكثرة ما أنشأه هذا الخليفة من دور الصناعة في سواحل الاندلس ، وفيها صنع اثني عشر تسالا من البرنز مرسعة بالدر النفيس الغالي ، ووضعت في مجلس المؤنس بقصر الزهراء^(٢) .

١٧- برج الشرفية :

كان يحيط بأرباض قرطبة في زمن الفتنة سور منيع أقيم من التراب أو الطابية^(٣) ، وكانت تدعه من الأبراج في جوانب مدينة قرطبة الأربعة ٢٠٧ برجا مربعة أو مستطيلة الشكل^(٤) . ولكن الجانب الشرقي من مدينة قرطبة وأعني به المدينة الشرقية كان يتميز بوجود برج ضخم أشبه ما يكون بالقلعة لعله كان برجا برانيا قصد به حماية مدينة قرطبة من هذه الجهة واغلاق الطريق على الأعداء في أضعف أجزاء السور^(٥) . ولما كانت الأبراج

(١) ابن عذارى . ج ٢ ص ١٥٥ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ١٠٤ .

(٣) الطابية بناء مختلط بالكس يصب بين لوحين من الخشب ومركزين على سميكتهما في المواضع المعدة للبناء . وكان السور يبنى سطرا أو مدماما مدماما الى ان ينظم السور كله ملتصقا كانه قطعة واحدة .

(٤) ابن غالب . ص ٢٧ .

(٥) فيما يتعلق بالأبراج البرانية Torres albarranas راجع كتابي : المساجد والقصور بالاندلس : سلسلة اقرا ، عدد ١٩٠ - ومقالتي : العمارة الحربية بالاندلس . كتاب الشعب رقم ٦٤ ، القاهرة . ١٩٥٩ . ص ١٥٨ .

البرانية من ابتداء الموحدين ، فمن المعتقد أنه أقيم في أيامهم ، وقد نسب الى هذا البرج ربض بالشرقية يعرف بربض البرج ، كان يمتد بعرض السكة العظمى بعد خروجها من باب عبد الجبار عند دخولها في مقبرة عرفت أيضا بمقبرة البرج^(١) . ويبدو أن هذا البرج ظل قائما حتى استيلاء القشتاليين على قرطبة ، وقد بدأ القشتاليون باحتلاله وتحصنوا فيه ومنه تمكنوا من الاستيلاء على الشرقية ، ثم على قصبة قرطبة نفسها على النحو الذي أوضحناه في القسم التاريخي .

١٨ - سجن قرطبة :

كان سجن قرطبة في أيام الامير عبد الرحمن الداخل يقع على النهر بالقرب من باب القنطرة ، وكان السجناء يخرجون منه الى النهر مع الموكلين بحراستهم ، وفي هذا السجن حبس أبو الاسود بن يوسف الفهري فترة ، ثم تمكن من الفرار منه^(٢) الى طليطلة عن طريق سرداب يصل بين السجن والهبط وهو الجزء المنخفض من شاطئ النهر^(٣) .

وأورد ابن القوطية اسم حبس بقرطبة يقال له الدويرة وذلك في عهد الامير الحكم الربضي^(٤) ، ولا ندري اذا ما كان هذا الحبس هو نفس السجن القديم الذي سمي به أيضا ربض بالمدينة الغريبة ، أم سجن آخر جديد ؟ والظاهر أنه نفس السجن القديم ، لأن الفترة التي انصرفت ما بين عهد عبد الرحمن الداخل وحفيده الحكم الربضي من القصر بحيث لا تدعونا الى الاعتقاد بحدوث تطوير في نظام السجن ، ثم ان حركة التجديد والتطوير في رسوم الدولة التي اقترنت بعصر عبد الرحمن لم تكن قد نشطت بعد ، وقد ظل حبس الدويرة قائما في عصر الخلافة بدليل أن اسمه ورد في أحداث

Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 368. (١)

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٧٥ .

(٣) الحلة السراء ، ج ٢ ص ٣٥١ .

(٤) ابن القوطية ، ص ٥٦ .

المستنصر^(١) . وكان بقصر قرطبة سجن آخر يعرف بدار النقيقة ، وفيه حبس الامير عبدالله بن محمد أخاه القاسم ، ثم نقله بعد ذلك من دار النقيقة الى حبس الدورية^(٢) . أما السجن الذي استحدث في زمن الدولة الاموية فهو المعروف بالمطبق^(٣) ، وفيه قال هاشم بن عبد العزيز وزير الامير محمد ابن عبد الرحمن عندما سجنه فيه الامير المنذر :

واني عدائي أن أزورك مطبق وباب منيع بالحديد مضرب^(٤)

وفيه سجن جعفر بن عثمان المصخفي ، وقد عرف هذا السجن أيضا بسجن العامرية^(٥) ، وكان يقع بداخل قصر قرطبة^(٦) ، وفيه أمر الامير عبدالله بن محمد بسجن ابن أخيه هشام بن محمد ، ومروان بن عبد الملك ، وسعيد بن وليد الشامي ، وأحمد بن هشام بن عبد الرحمن ، وموسى بن محمد بن زياد .

١٩ - أسماء بعض دور الخاصة والامراء والدور الرسمية بقرطبة :

ليس من السهل تحديد مواقع دور الخاصة في قرطبة على الخريطة ، فان المصادر العربية لم تزودنا ببيانات مفصلة عنها ، ومع ذلك فقد وصلت اليينا أسماء عدة دور لشخصيات عامة في تاريخ قرطبة استدعنا أن نحدد مواضعها من قرطبة الاسلامية تحديدا تقريبا ، ومن هذه الدور الخاصة ما يلي :

(١) ابن حبان ، المقتضب ، نشر الحديث ، ص ٢٠٢ .

(٢) ابن عسكري ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

(٣) ابن العديم ، ص ١٢١ - ١٢٥ .

(٤) انظر السمرقند ، ص ١٤٠ .

(٥) ابن العديم ، ص ١٢١ .

(٦) ابن عسكري ، نشر المقتضب ، ص ١٢١ .

- ١ - دار منذر بن سعيد اليلوطي : وتقع بجوار مسجد السيدة الكبرى بالقرب من مقبرة قریش بالربض الغربي من قرطبة^(١) ، وراء باب عامر القرشي .
- ٢ - دار بقي بن مخلد : بظاهر المدينة في فحص المطرف وعلى شارع المبطل الممتد من باب عبد الجبار^(٢) .
- ٣ - محمد بن طرفة : تقع قريبا من مقبرة بني عامر القرشي الواقعة خارج باب عامر^(٣) .
- ٤ - دار الصميل بن حاتم : كانت تقوم في الربض القبلي المعروف برض شقندة^(٤) .
- ٥ - دار ريان الوصيف : كانت تقع بجوار منار الجامع^(٥) .
- ٦ - دار الفقيه المشاور ابي ابراهيم : كانت تقوم بجوار مسجد أبي عثمان تجاه باب الصناعة من أبواب قصر قرطبة الشمالية^(٦) .
- ٧ - دار الامير عبدالله بن عبد الرحمن : كانت قريبة من باب القنطرة^(٧) .
- ٨ - دار الامير عبدالله بن محمد : كانت بجوار باب قرطبة الغربي ، وكانت لها عليّة مطلة على الطريق^(٨) .
- ٩ - دار مطرف بن عبدالله : كانت تقع بالقرب من القنطرة^(٩) .

-
- (١) المقرئ ، ج ٢ ص ٢٢٩ .
 - (٢) ابن حيان ، نشر أنطونية ملشور ، ص ٣٧ .
 - (٣) نفس المصدر ، نشر الحجّي ، ص ٢٠٠ .
 - (٤) ابن القوطية ، ص ٢٩ - ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ١ ص ٦٨ .
 - (٥) ابن حيان ، نشر الحجّي ، ص ٢٠٠ .
 - (٦) المقرئ ، ج ١ ص ٣٥٤ .
 - (٧) ابن القوطية ، ص ٧٩ .
 - (٨) ابن حيان ، نشر أنطونية ملشور ، ص ١٢٤ .
 - (٩) ابن القوطية ، ص ١٠٦ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٢١ .

١٠ - دار يوسف بن سليمان : كانت تعرف بدار ابن البياني ، وتقع داخل قرطبة ، أقامت فيها نساء جعفر بن الأندلسي^(١) .

١١ - دار قاسم بن يعيش : كانت تقع بداخل مدينة قرطبة ، نزلت بها نساء يحيى بن الأندلسي^(١) .

١٢ - دار محمد بن سعيد الأموي : كانت تقع بمنية عبدالله بالشرقية^(٢) .

ومن الدور الرسمية بقرطبة ما يلي :

١ - دار القومة : وكانت خاصة فيما يظهر بقومة الجامع ، وتقع الى شمال المسجد الجامع . وقد تعرضت هذه الدار لحريق أدى الى تدمير سقفها^(٣) .

٢ - دار الرهائن : كانت تجاور باب القنطرة^(٤) .

٣ - دار الصدقة : أنشأها الحكم المستنصر غربي المسجد الجامع بقرطبة ، وكانت مزودة بعلية^(٥) .

٤ - بيت العمال : كان دويرة من ملحقات القصر الخلافي ، اتخذت في الاصل لعمال القصر ، ثم تحولت الى سجن^(٦) ، وكان موضعها بفصيل باب الجنان المطل على النهر ، ولعلها هي نفس السجن القديم بقرطبة الذي سبق أن تحدثنا عنه .

٥ - دار الوزراء : ذكرها كل من ابن القوطية وابن حيان^(٧) ،

(١) ابن حيان ، نشر الحجي ، ص ٤٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٠٤ .

(٤) نفسه ، ص ١٧٦ - ابن القوطية ، ص ٩١ .

(٥) نفسه ، ص ١٩ .

(٦) نفسه ، ص ٢٠٢ .

(٧) نفسه ، ص ٢٥ - ابن القوطية ، ص ١٠٧ .

وأشار ابن القوطية الى أن عبد الرحمن « أول من رتب اختلاف الوزراء الى القصر والتكلم في الرأي على ما هو جار الى اليوم ، وكان له وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده مثلهم »^(١) . وعلى هذا الاساس يمكننا أن نستنتج أن هذه الدار كانت تقع في جانب من القصر الخلافي بقرطبة .

٦ - دار ابن أبي عامر القديمة : كانت بالرصافة ، وسعها المنصور في خلافة الحكم ، بعد أن عمر بابه ، وكثر جاهه^(٢) .

٢٠ - مواضع أخرى من قرطبة الاسلامية :

الرملة : منطقة تقع على شاطئ النهر فيما يلي ربض شبلار شرقا ، ويمكن للخارج من الباب الجديد أن يصل اليه على طريق الزاهرة المعروف بطريق الرملة^(٣) ، فاذا ما خرج المرء من باب الحديد من أبواب المدينة الشرقية ، وانحرف جنوبا في الزقاق الكبير ، وخرج الى الرملة ، وجد نفسه أمام مخاضة يمكن أن يعبر منها الى ربض شقندة^(٤) . وكانت الرملة متنزها من متزهات قرطبة المقصودة للفرجة والمتعة ، وكانت كثيرة الجنان والبساتين^(٥) .

المرج النصير ومواقع أخرى : كان يقع بالقرب من الرملة ، بين الوادي ونهر يتفرع منه يعرف اليوم باسم فونساتتا ، ومن هذا المرج حتى المصاراة علقت بحذاء الوادي جثث ثلاثمائة من ثوار الربض على الحكم الربضي ، صلبوا صفا واحدا على النهر^(٦) .

(١) ابن القوطية ، ص ٦٢ .

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٣٨٥ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١١٤ .

(٥) نفسه ، ص ٤٣٥ .

(٦) نفسه ، ص ١١٤ .

وقد عرف هذا المرج أيضا عند أهل قرطبة بالمرج النضير ، وورد اسمه مع مواضع أخرى بقرطبة في قصيدة لأبي القاسم عامر بن هشام القرطبي قال فيها :

مسارح كم بها سرحت من كمد قلبي وطرفي ولا سلوان يشيني
بين المصلى الى وادي العقيق وما يزال مثل اسمه مذ بان يكييني
الى الرصافة فالمرج النضير فوا دي الدير فالعطف من بطحاء عبدون^(١)

والاسماء التي وردت في هذه الايات أسماء مواضع ومنتزهات بقرطبة ، وهي المصلى ، ووادي العقيق ، والرصافة ، والمرج النضير الذي نحن بصدد ، ووادي الدير ، وبطحاء عبدون . وعرف هذا المرج أيضا بمرج الخز ، وهو الذي أنشد فيه أبو الحسين بن أبي جعفر الوقشي :

لله يوم بمرج الخز طاب لنا فيه النعيم بحيث الروض والنهر
وللاوز على أرجائه لعب اذا جرت بددت ما بيننا الدرر
والشمس تجنح نحو البين مائلة كأن عاشقها في الغرب ينتظر

وفيه يقول ابن سعيد المغربي :

ألا حبذا يوم ظفرنا بطيبه بأكتاف مرج الخز والنهر ييسم
وقد مرحت فيه الاوز وأرسلت على سندس دررا به يتنظم
ومد به للشمس فهو كأنه لثام لها ملقى من النور معصم^(٢)

ولا نعرف بالضبط مواقع وادي العقيق ووادي الدير^(٣) ، وأغلب الظن أنهما جدولان طرزت ضفافهما بالبساتين والادواح . أما بطحاء عبدون فهي منطقة مرتفعة لا نعرف موقعها من قرطبة على وجه الدقة . والارجح أنها منطقة مرتفعة بقبلي المدينة ، فقد ذكر ابن غالب أن بقلة قرطبة بطاح سهلة^(٤) .

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٠ .

(٢) نفسه ، ص ٢٠ .

(٣) لعله سمي كذلك نسبة الى دير ارملاط من احواز قرطبة «Guadimellato»

(٤) ابن غالب ، ص ٢٦ .

وقد ذكر ابن عبدون في إحدى قصائده يتشوق فيها إلى قرطبة ومعاهد ما بعد فراره عنها في عيد الأضحى بعض مواضع من هذه المدينة وردت في الآيات الآتية ، قمنا بدراسة بعضها وسنشير إلى البعض الآخر :

خليلي لا فطر يسر ولا أضحي فما حال من أمسى مشوقا كما أضحي
لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل أخص بمحوض الهوى ذلك السفحا
وما انفك جوفي الرصافة مشعري دواعي بث يعقب الأسف البرحا
ويحتاج قصر الفارسي^(١) صباة لقلبي لا يألو زناد الاسى قدحا
وليس ذميما عهد محبس ناصح فأقبل في فرط الولوع به نصحا
كأنني لم أشهد لدى عين شهدة نزال عتاب كان آخره الفتحا
وقائع جانبها التجني فان مشى سفير خضوع بيننا أكد الصلحا
وأيام وصل بالعقيق اقتضيته فان لم يكن ميعاده العيد فالنصحا
وأصال لهو في مسناة مالك معاطاة ندمان اذا شئت أو سبحا
لدى واد تصيبك من صفحاته قوارير خضر خلتها مردت صرحا
معاهد لذات وأوطان صبوة أحلت الملعى في الاماني بها قدحا^(٢)

ونخرج من هذه الآيات بالمواضع التالية : العقاب والرصافة وقصر الفارسي ومحبس ناصح وعين شهدة والعقيق ومسناة مالك وراكد . وقد قمنا بدراسة مسناة مالك والعقيق ، كما درسنا الرصافة . أما العقاب فموضع على سفح جبل من جبال قرطبة كان به قصر نزله ابن الاندلسي جعفر بن علي بن حمدون في زمن المنصور محمد بن أبي عامر وأقام فيه^(٣) ، ولعل هذا القصر نفسه هو الذي كان يعنيه ابن عذارى بمنية العقاب التي أورد ذكرها بمناسبة نزول جند شانجة غرسية في قرطبة^(٤) ، أما عين شهدة

(١) منية الفارسي هي نفس قصر الفارسي الذي اشرنا إليه من قبل . وكانت تقع في شمال قرطبة .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ١٥٥ .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤١٦ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٩١ .

وراكذ فموضعان لم تتمكن من تحديدهما على خريطة قرطبة لعدم استنادنا على مادة كافية تعيننا على هذا التحديد ، والظاهر أن عين شهدة كانت نبع ماء في سفح جبل قرطبة تحيط به بعض البساتين ، وأن راكذ هي بحيرة راكدة المياه كانت تطفو على صفحة مياهها نباتات وزهور ، أما منية أرحاء ناصح فكانت تقع غربي قرطبة ما بين منية الناعورة ومدينة الزهراء ، وكانت منزلا أثيرا للحكم المستنصر (١) .

منية قنتيش : أقامها الأمير محمد غربي قرطبة على الوادي الكبير في الطريق المتد من قرطبة الى اشيلية وقادس ، ويعتقد الاستاذ ليفي برونفسال أن اسم قنتيش تعريب للموضع الروماني Quintos وهو المرحلة الخامسة من السكة الرومانية، كما أن شقندة هي المرحلة الثانية Segundos وطرسيل هي المرحلة الثالثة Tercios ، وكورتش هي المرحلة الرابعة • Quartos

وادي قرطبة : كان من أجمل المواضع التي يقصدها أهل قرطبة للنزهة ، فقد كان في العصر الاسلامي مخفوا بالبساتين والدور والقصور والمنيات (٢) ، وكان لتقارب ضفتيه في قرطبة وتقطع غدره ومروجه ، « زيادة أنس وكثرة أمان من الفرق » (٣) . وقد ذكر الرازي أن نهر قرطبة ساكن في جريه ، لين في انصبابه ، تؤمن مغبة ضرره في حمله (٤) . وكان للمنصور بن أبي عامر في نهر قرطبة مركب للنزهة يسمى الزو يركبه ويطوف به في النهر (٥) .

-
- (١) ابن حيان ، المقتبس . نشر الحججي ، ص ٢١٢ .
(٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار في ممالك الامصار . ج ١ القاهرة ١٩٢٤ ، ص ٧٤ . وذكر الحجاري في المسهب انه « كان مكتنفا بديباج المروج . مطرز بالازهار . تصدح في جنباته الاطيار . وتنغر النواير ويسم النوار » (المقري - ج ١ ص ١٤٦) .
(٣) المقري - ج ٤ ص ٢٠٣ .
(٤) ابن غالب - ص ٢٦ - المقري - ج ٢ ص ٢٥ .
(٥) ابن الخطيب - ص ٨٠ .

٢١ - مقابر قرطبة :

تعددت المقابر في قرطبة ، فكانت بجانبها الغربي مقبرتان : احدهما مقبرة عامر القرشي أو مقبرة قريش الواقعة خارج باب عامر^(١) ، والثانية مقبرة متعة^(٢) ، وكانت تقع الى الشمال الغربي من مقبرة قريش . وفي ظاهر مدينة قرطبة من جهتها الشمالية كانت تقع مقبرة ام سلمة ، خارج باب اليهود . والى الشمال من هذه المقبرة الاسلامية كانت تقع مقبرة الجالية اليهودية وتعرف هذه المقبرة بقوت راشه . اما من الشرق فكانت مقبرة البرج تقع غربي باب عباس بالقرب من السمكة العظمية . وفي الجنوب كانت المقبرة الكبرى المعروفة بمقبرة الرض ، وبداخلها خصصت بعض المدافن لقريش^(٣) ، دفنت فيها من الشخصيات الهامة عقار جارية الامير محمد بن عبد الرحمن^(٤) وجارية اخرى له لعلها كريمة أو كوتر ، وفي هذه المقبرة دفن الامير ابان بن عبدالله بن محمد^(٥) .

وقد ورد لنا اسما مقبرتين بقرطبة ، منهما مقبرة مؤمرة جارية الامير عبد الرحمن الاوسط^(٦) ، ومقبرة العباس . ولعل هذه المقبرة الاخيرة هي نفس مقبرة البرج الواقعة قريبا من باب عباس من أبواب محلة الشرقية .

(١) اخبار مجموعة - ص ٦٣ - ابن القوطية - ص ٤١ - المقرئ .
ج ٢ ص ١٣ - ٢٢٩ .

(٢) Lévi-Provençal, l'Espagne musulmane au Xe siècle, P. 209

(٣) ابن حيان - نشر الحجى - ص ٩٢ .

(٤) Ocana Jimenez, Nuevas inscripciones arabes de Cordoba, (١) al-Andalus, Vol. XVII, 1952, P. 380.

Ibid., P. 381. ١٥١

(٦) ابن عذارى - ج ٢ ص ٢٥٢ .

(٧) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, La traduction espagnole, P. 245, Note 121.

في عصر دولتي المرابطين والموحدين

اقيمت في قرطبة في هذين العصرين آثار لم يصل اليها فيها كتبه مؤرخو العرب عن اخبارها الا اشارات قليلة عابرة . وكانت قرطبة قد انكششت رقعتها بعد الفتنة البربرية ، وتحول عيرانها الفسيح الى ميامه قفراء ، وارااضي جرداء ، ولم تعد تضم المنيات التي كانت نحدق بها والمروج التي تستد في نواحيها ، واقتصر عيرانها على المدينة الوسطى والشرقية وبعض اجزاء من الارياض الغربية وربض شقندة بعد ان كانت العمارة تستد بها ايام بني امية ٢٤ ميلا في الطول وستة اميال في العرض ، « وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادي المسمى بالوادي الكبير » (١) .

ومع ذلك فقد كانت في عصر الموحدين محل اعجاب الامراء والخلفاء والاسلاطين ، فقد وصفها خليفة الموحدين ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وكان قد عاش بها فترة قبل ان يتولى الخلافة : بقوله : « ان ملوك بني امية حين اتخذوها حضرة ملكهم لعلي بصيرة . الديار الكثيرة المنفسحة : والشوارع المتسعة ، والمباني الضخمة ، والنهر الجاري . والهواء المعتدل . والخارج النضر ، والمحراث العظيم ، والشعراء الكافية ، والتوسط بين شرق الاندلس وغربها » (٢) . كذلك وصفها محمد بن عبد الملك بن سعيد في هذا العصر بقوله : « هي من احسن بلاد الاندلس مباني : واوسعها مسالك ، وابرعها ظاهرا وباطنا ، وتفضل اشيلية بسلامتها في فصل الشتاء من كثرة الطين » (٣) .

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٦ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ١٠ .

(٣) نفس المصدر .

ومن القصور التي اقامها المرابطون في قرطبة منية الزبير ، وهي منية اقامها الزبير بن عمر المثلث ، والي قرطبة من قبل المرابطين ، وغرس في بستانها اشجارا من اللوز ، وفي هذا البستان يقول ابو بكر بن بقي الشاعر :

سقى الله بستان الزبير ودام في ذراه مسيل النهر ما غنت الورق
فكائن لنا من نعمة في جنبه كبرته الخضراء طالعها طلق
هو الموضع الزاهي على كل موضع أما ظله ضاف أما مأوه دافق
أهم به في حالة القرب والنوى . وحق له مني التذكر والعشق (١)

اما الموحدون فقد انشأوا بقرطبة قصورا ورد لنا اسم احدها وهو قصر السيد ، ويقع خارج مدينة قرطبة ، بناء السيد ابو يحيى بن ابي يعقوب ابن عبد المؤمن ، على متن نهر قرطبة ، بحيث يقوم على أقواس مشيدة فوق الماء ، وتألق في بنيانه ، وبالع في اتقانه . وأغلب الظن ان المهندس المالقي الحاج يعيش باني قصور الموحدين في اشبيلية هو الذي تولى بناء قصر السيد ، وقد قيل للسيد « كيف تأتقت في بانيان هذا القصر مع انحرافك عن اهل قرطبة ، فقال : علمت انهم لا يذكرون واليا بعد عزله ولا له عندهم قدر ، لما بقي في رؤوسهم من الخلافة المروانية ، فأجبت ان يبقى لي في بلادهم أثر اذكر به على رغبتهم » (٢) .

وقد وصفه الشاعر ناهض بن ادريس من شعراء محمد الناصر بن ابي يوسف يعقوب المنصور ، بقوله :

ألا حبذا القصر الذي ارتفعت به على الماء من تحت الحجارة اقواس
هو المصنع الاعلى الذي أنف الثرى ورفعه عن لثمه المجد والباس
فأركب متن النهر عزا ورفعة وفي موضع الاقدام لا يوجد الرأس
فلا زال معسور الجنب وبابه يغص وحلت أفقه الدهر أغراس (٣)

(١) المقري ، ص ١٨ .

(٢) نفسه ، ج ٢ ص ١٦٠ ١٧٠ .

(٣) نفسه ، ص ١٧ .

ولقد تبقت من هذا القصر آثار ، ما زالت قائمة فوق النهر لصق
الرصيف تجاه باب السدة الخلافي ، وقريبا من القنطرة .

(٣)

قرطا قرطبة : الزهراء والزهرة

أولا - مدينة الزهراء

شفف الناصر بالبنيان :

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر كلفا بالبنيان ، شغوبا بالانشاء
والتشبيد^(١) حتى انه آثر ذلك على لذات الملوك ، وخصص ثلث اموال
جبايته للبنيان^(٢) . ويذكر ابن خاقان في المطمح انه كان « كلفا بعسارة
الارض ، واقامة معالمها ، وتكثير مياهها ، واستجلابها من ابعد بقاعها ،
وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه ، وعزة سلطانه ، وعلو هسته ، فأفضى
به الاغراق في ذلك الى ابتناء مدينة الزهراء الشائع ذكره ، الدائع خبره ،
المنتشر في الارض أثره »^(٣) . وينسبون اليه ابياتا قالها في تسجيد البنيان ،
باعتباره من الآثار الخالدة الدالة على عظم قدر بانيها :

همم الملوك اذا ارادوا ذكرها من بعدهم فيألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم ملك محاء حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم قدره أضحى يدل على عظيم الشأن^(٤)

(١) ابن سعيد ، ج ١ ص ١٧٨ .

(٢) ابن غالب ، ص ٣٢ - ابن سعيد . ص ١٧٨ - ابن الخطيب :

ص ٢٨ - المقرئ ، ج ١ ص ٣٥٥ .

(٣) ابن خاقان ، المطمح ، ص ٤٠ - ابن غالب . ص ٣٤ - المقرئ :

ج ٢ ص ١٠٥

(٤) المقرئ ، ج ٢ ص ٦٢ . ١١٠٠

وكان وزراؤه يعرفون حب الناصر للبناء ، فأهداه احمد بن عبد الملك ابن شهيد في أول ولايته أميراً على الاندلس هدية كبرى ، من بينها كسبة كبيرة من صخر البناء ، وعشرين الف عود من الخشب القيم ، وذكر له ابن شهيد في رسالته التي بعثها مع الهدية : « وكما علمت نافذ عزمه - أبقاه الله تعالى - في البنيان ، وكلفه به ، وفكرت في عدد الاماكن التي تطلع نفسه الكريمة الى تخليد آثاره في بنيانها ، مد الله تعالى في عمره ، واوفى بها على أقصى أمل ، علست أن إسه وقوامه الصخر والاستكثار منه » (١) ، ولما كان ابن شهيد يعلم اشتهاه الناصر امتلاك احدى قرى الكنبانية ، اشتراها له بأحوازها (٢) .

ولكن شغف الناصر بالبناء ، واشتغاله بتنسيق قصوره ومبانيه ، كان يثير سخط الفقهاء في قرطبة عليه ، وبالذات القاضي منذر بن سعيد البلوطي . ويذكر ابن خاقان ان الناصر عندما شرع في بناء مدينة الزهراء ، استغرق في الاهتمام ببنيانها ، « واستفرغ وسعه في تجيدها ، واتقان قصورها ، وزخرفة مصانعها ، فانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجسعة بالمسجد الجامع الذي اتخذ (٣) » ، فأراد منذر بن سعيد ، رحمه الله ، وجه الله في ان يعظه ويقرعه في التائب ، ويقص عليه بما يتاوله من الموعظة بفصل الخطابة والتذكير بالانابة ، فابتدأ اول خطبته بقوله : (أتبنون بكل ربح آية تمبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعون ، واتقوا الذي امدكم بما تعلقون ، امدكم بانعام وبنين وجنات وعيون . اني اخاف عليكم عذاب يوم أليم) ، ووصل ذلك بكلام جزل ، وقول فصل جاش به صدره ، وقذف به على لسانه نحره ، واقضى في ذلك الى ذم المشيد والاستغراق في زخرفته ، والسرف في الانفاق

(١) المقرئ ، ج ١ ص ٣٣٧ .

(٢) نفسه .

(٣) يضيف المقرئ على ذلك « ثلاث جمع متواليات » المقرئ . ج ٢

ص (١٠٥) .

عليه ، فجرى في ذلك طلقا وتلا فيه قوله تعالى : (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين • لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا ان تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) • واتى بسا شاكل المعنى من التخويف للموت ، والتحذير منه ، والدعاء الى الله عز وجل في الزهد في هذه الدنيا الفانية ، والحض على اعتزالها ، والتبين لظاهر معانيها ، والترغيب في الآخرة وباقيها ، والتقصير عن طلب الدنيا ، ونهي النفس عن اتباع الشهوات ، وتلا من القرآن العظيم ما يوافقه ، وجلب من الحديث والاثر ما يشاكله ويطابقه ، حتى بكى الناس وخشعوا وضجوا وتضرعوا ، واعلنوا الدعاء الى الله تعالى ، فعلم الخليفة أنه المقصود به ، والمعتمد بسببه ، فاستجدى وبكى ، وندم على ما سلف منه من قرطه ، واستعاذ بالله من سخطه ، واستعصم برحمته « (١) • وكان منذر يكثّر من تعنيفه على اقباله على البنيان ، وزجره على زخرفته ، ويروي المؤرخون ان الناصر كان قد اتخذ لسطح العلية الصغرى القائسة على الصرح المسدود قبة ، ذهب قراميدها وفضضها ، وانفق عليها اموالا طائلة ، وجلس فيها بعد تمامها ، وقد جسع حوله كبار رجال دولته ووزرائه وقرابته ، واخذ يتباهى بسا صنعه فيها من التألق والزخرفة ، فقال : « هل رأيتم او سمعتم ملكا قبلي فعل مثل فعلي او قدر عليه ؟ قالوا : لا والله يا أمير المؤمنين ، وانك لأوحد في شأنك كله ، وما سبقك في مبتدعاتك هذه ملك ، وما بناء ، ولا انتهى اليها خبره • فأبهجه قولهم ، وسره ثأؤهم ، وينسا هو كذلك سادرا ضاحكا ، دخل عليه القاضي منذر بن سعيد البلوطي واجبا ناكسا رأسه ، فلما استقر في المجلس قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف واقتداره ، فأقبلت دموع القاضي تتحدر على لحيته ، وقال : والله يا أمير

(١) ابن خاقان ، المطمح ، ص ٤١ - ابن غالب - ص ٣٤ - ٣٥ - المقرئ .
ج ٢ ص ١٠٦ .

المؤمنين ، ما ظننت ان الشيطان اخزاه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا ان تمكنه من قيادك هذا التمكين ، مع ما آتاك الله ، وفضلك على العالمين حتى أنزلك منازل الكافرين . قال : فاقشعر عبد الرحمن من قوله وقال : انظر ما تقول ، كيف أنزلني منازل الكافرين . قال : نعم ، أليس الله تعالى يقول (ولولا أن يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون) الآية . فوجم عبد الرحمن ، ونكس رأسه مليا ودموعه على لحيته تجري خشوعا لله تعالى تذمنا اليه ، ثم أقبل على منذر ، وقال : جزاك الله خيرا عني وعن جميع المسلمين ، وكثر في المسلمين امثالك ، فالذي قلت والله الحق . وقام من مجلسه وهو يستغفر الله ، وامر بِنَقْضِ سَقْفِ القبة ، واعاد قراميدها ترابا « (١) » .

وذكروا ان منذر حضر يوما في الزهراء مع الخليفة ، فقام ابو عثمان ابن ادريس ، ومدح الناصر بقصيدة ، منها :

سيشهد ما أبقيت انك لم تكن مضيعا وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى وبالزهرة الزهراء للسلوك والعليا

فطرب الناصر ، واغتبط بهذا المديح ، ولكن منذر بادر بقوله :

يا باني الزهراء مستغرقا اوقاته فيها اما تمهل
لله ما احسنها روتقا لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال له الناصر : « اذا هب عليها نسيم التذكارات والحنين ، وسقتها مدافع الخشوع يا ابا الحكم لا تذبل ان شاء الله تعالى . فقال منذر : اللهم فاشهد اني قد بثت ما عندي ولم آل نصحا » (٢) .

(١) ابن خاقان ، المطمح ، ص ٤٥ ، ٤٦ - ابن غالب ، ص ٣٣ ، ٣٤ -
المقري ، ج ٢ ص ١٠٨ ، ١١٠ .
(٢) المقري ، ج ٢ ص ١١٠ .

سبب انشاء الزهراء وتسميتها بهذا الاسم :

ذكر ابن حيان ان عبد الرحمن الناصر شرع في بناء قصور الزهراء في اول المحرم سنة ٣٢٥هـ^(١) ، فاختار موقعا يبعد عن قرطبة من جهة الغرب بنحو اربعة اميال وثلاثي ميل^(٢) ، كان يعرف قديما باسم قوقريط^(٣) ، وذكر الادريسي ان المسافة بين قرطبة ومدينة الزهراء خمسة اميال^(٤) . وكان سبب بنائه لها وفقا لما ذكره الشيخ محي الدين بن عربي في المسامرات ، استنادا الى ما اخبره به بعض شيوخ قرطبة ان جارية مثرية من جاريات الناصر توفيت ، وتركت اموالا كثيرة ، فبحث في وجه ينفق فيه هذا المال ، فأمر بان يفك به اسرى المسلمين في بلاد الافرنج ، الا انه انتهى اليه بعدم وجود اسرى من المسلمين ، فرجته جاريته الزهراء ، وكانت احدي جارياته الاثريات لديه ، ان يبني لها بهذا المال مدينة تسمى باسمها ، وتكون خاصة بها ، فاستجاب لرغبتها ، وحقق لها رجاءها ، وبنى مدينة الزهراء في السفح الجنوبي لجبل العروس ، « واتقن بناءها ، واحكم الصنعة فيها ، وجعلها متنزا ومسكنا للزهراء وحاشية ارباب دولته » ، ثم حقق امنيتها فسمى المدينة باسمها ، وتأكيذا لذلك نصب تمثال الزهراء فوق بابها . ولما انتهى من بنائه للقصور وجلس مع جاريته الحساء في مجلس الزهراء ، وشاهدت بياض مباني المدينة بجانب الجبل الاسود (Sierra Morena) الذي اقيمت على سفحه ، طلبت من الناصر ان يزيل هذا الجبل لانه يشوه منظر المدينة الجميل ، ويزيل ما تحدثه في النفس من أثر حسن ، ولكن بعض جلسائه أثنوه عن ذلك لاستحالة هدم الجبل ، فأمر بقطع شجره وغرسه تينا ولوزا ، وكان لذلك اكبر الاثر في تجميل مدينة الزهراء ،

(١) المقرئ ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) ابن خلكان . وفيات الاعيان . طبعة محيى الدين عبد الحميد .

ج ٤ . القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١١٧ .

(٣) العذري ، ص ١٢٣ .

(٤) الادريسي . ص ٢١٢ .

خاصة في زمن الربيع عندما تتفتح الازهار بين الجبل والسهل^(١) . وواضح في هذه القصة عنصر التشويق وهي لذلك لا تعدو رواية خيالية ، نقلها القطب الاكبر ابن عربي عن لسان بعض اهالي قرطبة ، وكانت مما تواتر عندهم على مر السنين ، ولكن علينا ان نستبعد منها خضوع الناصر لنزوة احدى جارياته لتفسير اسباب نشأة الزهراء . لقد كانت للحكم الرضي جارية متيم بها اسمها عجب ، وكان لعبد الرحمن الاوسط جارية آثيرة لديه تسمى طروب ، وكان للحكم المستنصر ام ولد مولع بها هي صبح ، ولكننا لم نسمع ان احدهم وصل به حبه لجاريته الى حد ان يقيم مدينة لها ويسميها باسمها ، ثم انه لا يعقل ان رجلا في قوة عبد الرحمن الناصر وعظمته استنزل الثوار في الاندلس ، وتغلب على اهل العصيان ، ونازع سلطان الفاطميين في البحر المتوسط الغربي ، بل وفي أرض المغرب نفسها ، وارغم ملوك اسبانيا المسيحية على مهادنته ، وطلب سلمه وموادعته ، والذي قيل ان ايام السرور التي حققت له دون تكدير من جملة سني حكمه الطويل وقدرها خمسون سنة وسبعة اشهر وثلاثة ايام لم تتجاوز اربعة عشر يوما^(٢) ، لا يعقل ان يضعف مثل هذا الرجل العظيم امام نزوة جارية يمتلكها من بين مئات الجاريات التي تغص بهن قصوره ، ويقضي خسا وعشرين عاما من حكمه في بناء مدينة كرس من اجلها ثلث جباية امواله ولا يتم بناؤها الا بعد أربعين سنة من البدء فيه^(٣) . والحقيقة ان الناصر الذي يمثل الذروة العليا في ملوك بني امية ، والذي اشتهرت ايامه ، وبعد صيته ، وانتشرت بالعدوة طاعته ، وعلت على منابر الاندلس كلمته ، ووجد البلاد بعد انقسامها ، وقضى على الثوار والمتمردين ، وتمهد ملكه وعظم امره ، ومهادنته ملوك اوربا ، وقدمت عليه رسلهم اراد ان يبني مدينة ملكية

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٣٤٦ - ابن سعيد ، ص ١٧٧ - ابن غالب ، ص ٣١ - ابن الخطيب ، ص ٤٠ .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ١٠١ ، ١٠٥ .

قرية من حاضرتة ، تليق بجلال الخلافة وبهائها ، وابهة الملوكية وردائها ،
فأسس مدينة الزهراء اشباعا لرغبته في البنيان ، وتحقيقا لمجده وعظمته ،
وشغفه بالتشييد ، فقد اجمع المؤرخون على انه كان مغرما بذلك ، وذكر
ابن خلدون انه « لما استفحل ملك الناصر صرف نظره الى تشييد القصور
والمباني ، وكان جده الامير محمد وابوه غبد الرحمن الاوسط وجده
الحكم قد احتفلوا في ذلك وبنوا قصورهم على اكمل الاتقان
والضخامة » (١) . وكان قصر الخلافة بقرطبة قد ضاق عن الاتساع لرجال
حاشيته ، كما اكتظت مساحته بالزيادات المتتابعة فيه بحيث لم يعد هناك
مجال لمزيد من الزيادة ، كما انه لم يعد يليق بمظمة الخلافة ، زد على ذلك
ان هذا القصر الخلافي كان يقع في اكثر مناطق قرطبة ازدحاما بالسكان ،
قريبا من باب القنطرة حيث اكثر مناطق المدينة حركة وعجيجا ، وقريبا من
الحي التجاري الصახب ، فكان الخليفة يعيش هناك محوطا بالعامه ، وكان
شعوره بالاقامة فيه على الدوام يضايقه اشد المضايقة ، اذ كان يحن الى
الانعزال بين الحين والحين كما كان يفعل اجداده خلفاء بني امية في المشرق
الذين كان يدفعهم الشوق الى الصحراء والبادية الى الاقامة في القصور
الخلوية ، ولعله احتذى في ذلك حذو جده الاول عبد الرحمن الداخل
الذي اقام لنفسه ضاحية اميرية في شمال قرطبة سماها بالرصافة ، فعسده
الناصر الى تأسيس ضاحية خلافية يقيم فيها قصرا يتمتع فيه بالهدوء
ايام راحته من مهام منصبه الصعب ، ويليق في آن واحد بجلال الخلافة .
اما اسم الزهراء فقد يكون صفة للمدينة التي اسسها تفاؤلا بازدهارها
كالشأن في الجامع الازهر ومدينة الزاهرة ودار السلام ببغداد أو المنصورية
والمهدية في المغرب الادنى ، او قد يكون قد اطلق عليها لكثرة ازهار
بسائنها المحيطة بها (٢) . وأخيرا لعله سماها بهذا الاسم تحريفاً من اسم

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ١١٢ .

(٢) ورد هذا الاسم في بعض المصادر العربية على النحو التالي
« المدينة الزهراء » اي ان الزهراء صفة للمدينة ابن غالب . ص ٢١٠ - ٢٢٠
المقرئ . ج ٢ ص ١١٢ .

الزهرة الذي ورد في شعر أبي عثمان بن ادريس وهو اسم كوكب أو نجم عرفه العرب قديما في الجاهلية وكان واحدا من ثلوث كوكبي هو القمر والشمس والزهرة ، الاول ويمثله الاله المقة او سين او هوبس او شهر أو كهل أو أبم أكبر آلهة عرب اليمن ، والثاني وتمثله الالهة اللات الهة الشمس ، والثالث وهو عثر أي الزهرة^(١) ، وهو المعني به في القرآن الكريم « النجم الثاقب »^(٢) ، وكان أكثر نجوم السماء تألقا ولمعانا ، وسموه عزيز ونجم الصباح وذا الخلصة وملك . وكان العرب قد اعتادوا عند انشاء المدن ان تسمى احيانا باسم الكوكب الذي يمر وقت وضع الاساس كما حدث بالنسبة للقاهرة بعد ذلك . ونستدل على ما نذهب اليه بان الناصر نصب على الباب الشرقي من ابواب مدينته المستحدثة تمثالا لامرأة لا نشك في انه كان من بين التماثيل الكثيرة التي شاهدها المسلمون في اطلال المدن الرومانية بالاندلس في طالقة Italica او اشبيلية او قرطبة نفسها ، ولعله كان يمثل فينوس اليونانية ، وما أكثر المدن التي ازدانت بتماثيل على ابوابها : مثل مدينة قرطبة نفسها التي كان بابها القبلي يسمى باب الصورة او الشكال او الصاحبة بسبب تماثيل امرأة كان يعلو بابها ، ومثل مدينة بجانة وكان يعلو احد ابوابها تماثيل امرأة يشبه تماثيل باب القنطرة بقرطبة^(٣) ، ومدينة بلنسية التي كان يعلو أحد أبوابها تماثلا يمثل الشعبان ، فسمي لذلك بباب الحنش ، والمرية التي كان يعلو أحد أبوابها تماثلا للعقاب وغيرها من المدن^(٤) . كذلك استخدمت التماثيل القديمة في تجميل الحمامات الاسلامية ، ويذكر المؤرخون انه عثر في اطلال طالقة

(١) راجع في ذلك : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٤٦١ - رشيد الناضوري ، المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١١٣ .

(٢) القرآن الكريم . سورة الطارق ، ٨٦ آية ٣ .

(٣) الحميري ، ص ٣٨ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٢٣ .

(٤) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس . ص ٦٢ .

الرومانية على تمثال لجارية من المرمر حملت الى حمام باشيلية يقال له حمام الشطارة ، تعشقه بعض العوام^(١) . اما أن يكون تمثال مدينة الزهراء للجارية المزعومة فأمر مستبعد اساسا ، لسبب واحد هو ان الاندلس لم تعرف من فنون النحت فن التمثيل الآدمي الواقعي ، وكل ما عرفت من هذا الفن هو صور آدمية منقوشة على علب العاج ، لا تشير الى شخص بذاته ، وانما اتجه فن النحت في الاسلام بوجه عام الى تجريد الصور الآدمية او الحيوانية وحتى النباتية من حيويتها^(٢) . وقد كشفت الابحاث الاثرية في اطلال مدينة الزهراء عن جزء كبير من تمثال رخامي يمثل جسم امرأة لعله تمثال الزهرة الذي كان يقوم فوق باب المدينة^(٣) .

وعلى هذا الاساس يمكننا اعتبار قصة الزهراء جارية الناصر من ابتكار المؤرخين ، ولدها التشابه الكبير بين اسمي الزهرة والزهراء ، ولعل المدينة سميت بالزهراء منذ الاصل حتى لا يقترب الاسم بصورة من صور الوثنية العربية ، وفي نفس الوقت تفاؤلا بما سيكون لها من ازدهار ، ولكن هذا لا يمنع من انه تكون الفكرة قد نبعت حسبا ذكرناه من اسم الزهرة .

احصائيات بعدد العمال ومواد البناء :

عهد عبد الرحمن الناصر الى مسلمة بن عبدالله العريف المهندس بالنظر في بانيان الزهراء^(٤) ، وكان يساعده من البنائين ثلاثة أمناء هم : عبدالله بن يونس عريف البنائين ، وحسن بن محمد ، وعلي بن جعفر

-
- (١) السيد عبد العزيز سالم . العمارة المدنية في الاندلس . ص ١٤٢ .
(٢) السيد عبد العزيز سالم . القيم الجمالية في فن العمارة الاسلامية ، بيروت ١٩٦٣ . ص ١١ .
(٣) مدبنة الزهراء . دائرة معارف الشعب . عدد ٦١ ص ٢٨ .
(٤) ابن غالب . ص ٣١ - القرطبي : ج ٢ ص ١٠٣ .

الاسكندراني^(١) . أما الاشراف الاعلى على البنيان فقد عهد به الى ابنه وولي عهده الحكم^(٢) . وقد استخدم في بناء الزهراء كل يوم من حذاق البناء ثلثمائة والتجارين مائتان^(٣) ، ومن العمال والفعلة خمسمائة حاشا من كان يشترك في البناء من أعلاج النصارى^(٤) ، وقيل عشرة آلاف رجل يتفاوت أجر الواحد منهم ما بين درهم ونصف وثلاثة^(٥) . وكان ينفق في البناء كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى الآجر والصخر غير المعدل^(٦) المستخدم للتبليط في الإسس^(٧) . وذكر ابن حيان ان الناصر وضع في خدمة العمال والبنايين اربعمائة من زوامله ، واستأجر عريف البنايين ، بالاضافة الى هذه الزوامل ، من دواب الاكرة ألف بغل بلغت اجرتها في الشهر ثلاثة آلاف دينار ، وكان يحمل الى الزهراء من الجير في كل يوم خمسمائة حمل ، ومثله من الجبس . اما الرخام فقد كان يتولى جلبه عبدالله بن يونس عريف البنايين ، وعلي بن جعفر الاسكندراني من قرطاجنة وافريقية وتونس ، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة صغيرة او كبيرة بعشرة دنائير قاسمية اجرة لهم سوى ما كان يلزمها من المؤن والنقل . وكان يصلهم على كل سارية بثمانية مثاقيل ذهب^(٨) ، وقيل أنه كان يصلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنائير ، وعلى كل سارية بثمانية دنائير ، وقيل ايضا انه كان يثيب على كل رخامة صغيرة او كبيرة عشرة دنائير^(٩) . ويذكر ابن غالب قفلا عن المؤرخ القرطبي ابن حيان أن عدد

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٤ - المقرئ ، ج ٢ ص ١٠٤ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٣) ابن غالب ، ص ٣١ .

(٤) نفسه .

(٥) المقرئ ، ج ٢ ص ٦٧ .

(٦) نفسه . ويتفق ابن غالب مع المقرئ في هذا العدد من الصخور ، باستثناء المرتل ، ويرجح الدكتور لطفي عبد البديع ان المقصود بالمرتل الملائ (ابن غالب : ص ٣١ ملاحظة رقم ٢) .

(٧) ابن عذارى ، ص ٣٤٤ .

(٨) ابن غالب ، ص ٣٢ - المقرئ ، ج ٢ ص ١٠٤ .

(٩) المقرئ ، ج ٢ ص ٦٧ .

سوارى الرخام التى استخدمت فى بناء الزهراء ما بين صغيرة وكبيرة حاملة ومحمولة فى عصر عبد الرحمن الناصر ٤٣١٣ سارية ، منها ١٠١٣ سارية من افريقية ، و ١٩ من القسطنطينية ، ١٤٠ هدية من ملك رومة ، وسائرهما من مقاطع الرخام فى الاندلس : فالرخام المجزء من رية^(١) ، والابيض من المرية^(٢) ، والوردي والاخضر من أسفاقس وقرطاجنة^(٣) .

وبلغ عدد أبواب مدينة الزهراء ما يزيد على ١٥ ألف باب^(٤) ، وفى ذلك يقول ابن حيان : « ما زلت اسمع من الشيوخ المحصلين ان مصانع المدينة الزهراء وقصورها اشتملت على خمسة عشر ألف زوج باب ومئتين زائدة ، منها المصفح بالحديد المبيض بالقزدير ، ومنها المصفح بالنحاس الاصفر ، ومنها الخشب المنقوش والمرصع »^(٥) .

مجالس قصر الخلافة :

كان اول ما اقامه عرفاء عبد الرحمن الناصر بناء قصر الخلافة ، واحاطته بالفصلان^(٦) ، وكان يشتمل على ١٢٠ دارا ، ومخازن ، واهراء للزيت والسمن ، والسجن الكبير^(٧) ، وكان يضم مجلسين رئيسيين :

١ - المجلس الشرقي : ويعرف بقصر المؤنس . ويشرف على الرياض ،

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ١٠٤ .

(٢) عرفت المرية بثرائها فى الرخام الصقيل ابن الخطيب . مشاهدات ابن الخطيب ، ص ٨٣ - المقرئ - ج ١ ص ١٥٣ - ج ٢ ص ١٢٠٧ وتقع مقاطع رخام المرية فى جبل سيرا دى اوس فيلا بروس الواقع فى جهتها الشمالية السيد عبد العزيز سالم . تاريخ مدينة المرية . ص ١٦٣ .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٦٧ ، ١٠٤ .

(٤) نفسه ، ص ٦٦ .

(٥) ابن غالب . ص ٣٢ - المقرئ . ج ٢ ص ١٠٢ .

(٦) المقرئ . ج ١ ص ٣٦٣ .

(٧) ابن غالب ، ص ٣٣ .

وهو بيت المنام الخلافي^(١) ، وكان مزودا بمحراب أو بمجلس يجلس فيه الخليفة الحكم بحيث يشرف على السطح العلوي وعلى الروض^(٢) . وكان بيت المنام يزدان بحوض من الرخام الأخضر نصب في وسطه ، حفرت عليه نقوش تمثل صورا آدمية مذهبة ، كان قد جلبه أحمد اليوناني وبيع الاسقف من القسطنطينية^(٣) ، ونقل هذا الحوض بحرا الى الاندلس ، ثم وضعه الناصر في بيت منامه ، وأدار حوله اثني عشر تمثالا من النحاس مرصعة بالدر النفيس من صناعة قرطبة ، رتبها على النحو التالي : على أحد الجانبين الطويلين من الحوض نصب تمثال أسد بجانبه غزال ثم تمساح ، وفي الجهة المقابلة ثعبان وعقاب وفيل ، وعلى أحد الجانبين القصيرين : حمامة وشاهين وطاووس ، وعلى الجهة المقابلة دجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكانت هذه التماثيل تمتج المياه من أفواهها^(٤) .

ب - المجلس الغربي : ويسمى أحيانا بالمجلس البديع أو مجلس الذهب أو مجلس الاجراء^(٥) ، وكان سمك جدرانه من القراميد المذهبة والرخام الملون ، وكسيت أرضيته بالرخام الملون الصافي كما كسيت الجدران بتريعات مذهبة ومفضضة ، وكان يتوسط هذا المجلس اليتيمة التي أتخف بها اليون صاحب القسطنطينية^(٦) الناصر ، وهي حوض مذهب

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٥ - المفري ، ج ٢ ص ١٠٤ .

(٢) ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجي ، ص ٢٨ .

(٣) كشف في الزهراء عن نحو ١٥ قطعة من الرخام نقش عليها صور آدمية نصف عارية شديدة البروز مع فرس وماعز كما لو كانت تنتمي الى ناووسين كبيرين من الاسلوب اليوناني الروماني الاصيل (راجع جومث مورينو ، ص ٢١٣) .

(٤) عثر في اطلال الزهراء على تمثال من النحاس يمثل وعلا يبلغ ارتفاعه ٤٠ سم وكله ملسى بالملفات النباتية المحفورة ، والتمثال من نوع التماثيل الحيوانية التي تمتج المياه من أفواهها ، وكان الماء يصل الى فمه عن طريق أنبوبة تمتد من وسط قاعدته ، ثم يصعد في أرجله ورقبته (راجع جومث مورينو ، ص ٤٠٠) .

(٥) ابن حيان ، نشر الحجي ، ص ١٣٧ ، ١٨٤ .

(٦) يعني به الامبراطور البيزنطي ليو السادس الذي عرف بالفيلسوف (٨٨٦ - ٩١٢) لما أصابه من شهرة في العلم وفي الفلسفة .

كبير أو صهر ينج كبير كان الناصر يسأله يالزئبق ، « وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرسح بالذهب وأصناف الجواهر ، قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافي . وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار ، وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أو ما الى أحد صقالته ، فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك » (١) .

وكان يتوسط هذين المجلسين بهو اوسط كبير المساحة يقع جنوبي السطح المسرد (٢) ، المشرف على بساتين الزهراء ، فقد ذكر الادريسي أن مدينة الزهراء في ذاتها « مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثالث الاعلى يوازي على الجزء الاوسط ، وسطح الثلث الاوسط يوازي على الثلث الاسفل ، وكل ثلث منها له سور ، فكان الجزء الاعلى منها قصورا يقصر الوصف عن صفاتها ، والجزء الاوسط بساتين وروضات ، والجزء الثالث فيه الديار والجامع » (٣) . وكانت جدران البهو الاوسط مذهبة ، وكان البهو فسيحا للغاية ، أعد خصيصا للاحتفالات الكبرى باستقبال السفارات او لمبايعة الخلفاء ، ليتسع لعدد هائل من الناس والجند ، وكان للبهو الاوسط برطل او مظلة قائمة على عقود واعسدة . وكان يحيط بقصر الخلافة فصلاان ، منها فصيل الكتاب الذي يشرع بابه الى دار الوزراء ، وفصيل ابي العراض (٤) . وكانت تفتتح في هذه الفصلاان عدة

(١) المقرئ . ج ٢ ص ٦٨ . واول من أنر عنه انه اقام في قصره حوضا ملاء بالزئبق خماروبه بن أحمد بن طولون .

(٢) هو شرفة مرتفعة كانت تطل على سائين الزهراء في الجهة الشمالية

(٣) الادريسي . ص ٢١٢ .

(٤) ابن حيان . نثر الحجى . ص ٥١ .

ابواب ، الخارجي منها باب المدينة المطل على الصحراء^(١) ، ومنها باب الاقباء اول ابواب القصر الخلافي^(٢) ، ثم باب السدة الاعظم ، وهو باب القصر نفسه ، وكان يصطف خلفه فرسان العبيد حتى باب الاقباء ، ثم يتصل بهم فرسان الحشم وطبقات الجند والعبيد والرماة الى الباب القبلي الشارع الى الصحراء ، وهو الباب الذي تعلوه صورة الزهراء ، ولذلك عرف بباب الصورة القبلي^(٣) . وكان بداخل قصر الخلافة دار تعرف بدار الجند ، وهي الدار التي يقيم فيها الحرس الخلافي ، وكان لهذه الدار برطل (بائكة او مظلة قائمة على عمد) يطل عليها من الجنوب ثلاثة ابهاء لعلها المعروفة بدويرة البرطلات^(٤) . وفي البهو الاوسط منها جلس شانجة بن ردمير عندما وفد على الناصر ، وجلس عدوه أردون الرابع عندما قدم الى قرطبة ليستنصر بالحكم المستنصر^(٥) . وكان بقصر الخلافة جانب مخصص لحمام الخليفة^(٦) . وذكر ابن حيان ان قصر الزهراء اضيفت اليه دار تعرف بدار الملك في ايام الحكم المستنصر خصصها لتعليم ولده هشام ، وفتح في فصيل الفتيان بها بابا غريبا يسهل على الخليفة مهمة الخروج من قصره اليها^(٧) .

ولما تم بناء قصر الزهراء بجلالته وفخامته ، اجتمع الناس على انه لم يبن مثله في الاسلام ، ويعلق المقرئ على ذلك بقوله : « وما دخل اليه قط احد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة من ملك وارد ، ورسول وافد ، وتاجر جهبذ ، وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة ، الا وكلهم قطع انه لم ير له شبيها ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ،

-
- (١) المقرئ ، ج ١ ص ٣٦٤ .
(٢) نفسه ، ج ١ ص ٣٦٤ . ومن ابواب قصر الزهراء غير الاقباء باب الورد وهو الباب القبلي وباب دار الخيل وباب السدة .
(٣) ابن حيان ، نشر الحجري ، ص ٤٩ .
(٤) نفسه ، ص ١٩٧ .
(٥) المقرئ ، ج ١ ص ٣٦٦ .
(٦) نفسه ، ج ٢ ص ١٠٣ .
(٧) ابن حيان ، نشر الحجري ، ص ٧٧ .

حتى انه كان اعجب ما يؤمله القاطع الى الاندلس في تلك العصور النظر
اليه ، والتحدث عنه ، ولو لم يكن فيه الا السطح المرد المنرف على
الروضة ، المباهي بسجس الذهب والقبة ، وعجيب ما تضنه من اتقان
الصنعة ، وفخامة الهمة ، وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلة .
ما بين مرمر مسنون وذهب مصون ، وعسد كأنسا افرغت في القوالب ،
وتقوش كالرياض ، وبرك عظيمة الصنعة ، وحياض وتنايل عجبية
الاشخاص لا تهدي الاوهام الى سبيل استقصاء التعبير عنها «^(١) .

بساتين القصر :

كانت بساتين القصر واسعة ، اتخذ في جانب منها حديقة للحيوانات
اقام فيها الناصر « محلات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج . ومسارح
للطيور مظلة بالنباك »^(٢) ، على نحو ما فعله خسارويه بن احمد بن طولون .
اذ بنى للطيور برجاً من خشب الساج ، واطلق فيه جميع انواع الطيور ،
واتخذ في القصر داراً للسباع . وجعل لكل صنف من الدواب اضطبلاً
للجمال والفهود والنسور والفيلة والزرافات^(٣) . وفي موضع آخر من
بستان الزهراء اقام حوضاً للسباحة وسط الرياض . زوده بدرج ليسهل
بواسطته النزول في الماء . وقد اشار الفتح بن خاقان الى هذا الحوض في
معرض حديثه عن القاضي منذر بن سعيد البلوطي . فقال : « وحضر عند
الحكم المستنصر بالله يوماً في خلوة له في بستان الزهراء على بركة ماء
طافحة ، وسط روضة نافحة ، في يوم شديد الوهج . وذلك اثر منصرفه
من صلاة الجمعة ، فشكا الى الخليفة من وهج الحر الجهد . وبث منه

(١) المقرئ . ج ٢ ص ١٠١ . ١٠٢٠ .

(٢) المقرئ . ج ٢ ص ١١٢ .

(٣) ابن تفرج بردى . النجوم الزاهرة . ج ٢ . طبعه دار الكتب المصرية .
القاهرة ١٩٣٢ . ص ٥٨ - حسن محمود . وسيد الكاشف . مصر في عصر
الطولونيين والاخشيديين . القاهرة ١٩٦١ . ص ٩٢ .

ما تجاوز الحد ، فأمره بخلع ثيابه والتخفف عن جسمه ، ففعل ولم يطنفيء ذلك ما به ، فقال له : الصواب ان تنفس في وسط الصهريج انفماسة يبرد بها جسمك ، ولم يكن مع الخليفة الا الحاجب جعفر الخادم الصقلي امينه ، والحكم لا رابع لهم ، فكأنه استحيا من ذلك وانقبض عنه وقارا ، واقصر عنه اقصارا ، فأمر الخليفة حاجبه جعفرا بسبقه بالنزول في الصهريج ، ليسهل الامر فيه على القاضي . فبادر جعفر لذلك ، والقي بنفسه في الصهريج وكان يحسن السباحة ، فجعل يجول يمينا وشمالا ، فلم يسمع القاضي الا انقاذ امر الخليفة ، فقام والقي بنفسه خلف جعفر ، ولاذ بالقعود في درج الصهريج ، وتدرج فيه بعض تدرج ، ولم ينسبط في السباحة ، وجعفر يمر مصعدا مصوبا ، فدسه الحكم على القاضي ، وحمله على مساجلته في العموم ، فهو يعجزه في اخلاذه الى القعود ، ويعاتبه بالقاء الماء عليه والاشارة بالجذب اليه ، وهو لا ينبعث معه ولا يفارق موضعه « (١) » .

وفي جانب آخر من جوانب البستان اقيمت بحيرات للاسماك وانواع الحيتان ، كان يخبز لها في كل يوم نحو ٨٠٠ خبزة ، وقيل ١٢ الف خبزة ، وهو رقم مبالغ فيه ، وكان ينقع لها من الحمص الاسود ستة اقفة كل يوم (٢) . ويبدو ان الناصر اقتبس نظام البرك الصناعية والبحيرات من افريقية والمغرب الاوسط ، فقد عرف الاغالبه القصور المزودة بالبحيرات ، وكان برقادة قصر يقال له قصر البحر (٣) ، كما كان بالقيروان وغيرها من مدن افريقية الاغلبية مواجل وخزانات مائية ضخمة ، منها الماجل الكبير بالقيروان ، وكان لبني حماد الصنهاجيين في قلعتهم بالمغرب الاوسط قصر يعرف بدار البحر الحمادي (٤) ، كما كان ببجاية قصر بناه بنوزيري وجعلوا

(١) ابن خاقان ، المطمح ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) ابن الخطيب ، ص ٣٨ - المقري ، ج ٢ ص ١٠٩ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٤٥٧ .

(٤) De Beylié, La Kalaa de Beni Hammad, Paris, 1909, P. 36

— Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, Paris 1954, P. 83.

له بركة على حافتها أسود تمج المياه من أفواهها ، وفيها يقول الشاعر ابن حمديس الصقلي :

وضراغم سكنت عرين رياسة تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشي النضار جسومها وأذاب في أفواهها البلسورا
أسد كأن سكونها متحرك في النفس لو وجدت هناك مثيرا^(١)

وقد اتخذت بحيرات قصر الزهراء مثالا للوك الطوائف ، احتذوه في بحيرات قصورهم ، فكانت لقصر المأمون بن ذي النون بطليطة بحيرتان صفت على ضفافهما تماثيل أسود مذهبة تمج المياه من أفواهها هونا كرشيش القطر او سحالة اللجين^(٢) . وكان لقصر المعتمد بن عباد باشيلية بحيرة كبرى^(٣) .

قيام الدور والمسجد والاسواق :

ما كاد عبد الرحمن الناصر ينتهي من بناء قصوره وغرس بساتينها حتى شرع في اقامة الاسواق والحمامات والخانات والمتنزهات في المدرج الثالث ، وشجع الناس على قصدها وتوطنها ، ويذكر ابن حوقل انه « أمر مناديه بالنداء في جميع اقطار الاندلس : ألا من أن يبتني دارا او أن يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله من المعونة اربع مائة درهم ، فتسارع الناس الى العسارة ، وتكاثفت الابنية ، وتزايدت فيها الرغبة »^(٤) . واخذ الناس ينتجعونها من كل مكان حتى فاضت الزهراء بسكانها ، وامتد العمران خارجها في الطريق الممتدة ما بين قرطبة والزهراء حتى كادت الابنية ان تتصل بينهما ، ونقل اليها بيت المال والديوان والمطبخ والخزائن^(٥) ،

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) ابن بسام ، قسم ٤ مجلد ١ ، ص ١٠٢ .

(٣) ابن خاقان ، قلاند العقيان ، طبعة مصر ١٣٢٠ هـ : ص ٨ .

(٤) ابن حوقل ، ص ١٠٧ .

(٥) نفسه : ص ١٠٨ .

وأقام بها الناصر داراً لصناعة الآلات والحلى^(١) ، ويذكر الشقندي أن العمارة في مباني قرطبة والزهراء كانت متصلة^(٢) . ولم تكن للزهراء عند زيارة ابن حوقل لقرطبة فيما يقرب من سنة ٣٤٠ سور كامل يحيط بها^(٣) . وذكر الرازي أن دور الفتيان الصقالبة والبيد وكثير من الجند المرتبين بالزهراء وأهل الخدمة كانت خارجة عن القصر من الجهة الغربية من المدينة، أما دور الوزراء وأشراف الناس وكبار رجال الخدمة فكانت تقع إلى الشرق منها^(٤) . أما المسجد فكان أقل في القدر والاتساع من جامع قرطبة^(٥) ، وكان يعمل في بنائه ، منذ أن شرع في بنائه في ٣ من رجب سنة ٣٢٩ ، من حذاق الفعلة كل يوم ألف عامل ، منهم ثلاثمائة بناء ، ومائتا تجار وخمسمائة من الاجراء وسائر الصنائع ، واستغرق بناؤه واقتانعه ٤٨ يوماً . وكان بيت الصلاة فيه يتألف من خمسة بلاطات ، البلاط الأوسط منها أكثر اتساعاً من البلاطات المجاورة ، إذ كان اتساعه يصل إلى ١٣ ذراعاً ، بينما لم يكن اتساع كل بلاط من البلاطات الأربع المكتشفة له يتجاوز ١٢ ذراعاً (٦ أمتار) . وكان طول المسجد كله من الشمال إلى الجنوب باستثناء المحراب الذي كان يبرز عن الجدار ٩٧ ذراعاً (٤٨،٥٠ متراً) ، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٥٩ ذراعاً (٢٩،٥٠ متراً) ، وكان طول الصحن من الشمال إلى الجنوب ٤٣ ذراعاً (٢١،٥٠ متراً) ، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٤١ ذراعاً ، أي أن طول البلاط الواحد يصل إلى ٥٤ ذراعاً . وكان الصحن مكسواً بالرخام الخيري اللون ، تتوسطه فوارة ينبثق منها الماء ، وكانت المسجد صومعة يغلب على الظن أنها كانت تقوم في منتصف الواجهة الشمالية ، كالتشأن في صومعة جامع قرطبة ، وكان ارتفاعها يبلغ ٤٠ ذراعاً وطول قاعدتها المربعة عشرة أذرع . وأمر الناصر

(١) المقرئ : ج ٢ ص ١١٢ .

(٢) نفسه ، ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٣) ابن حوقل ، ص ١٠٨ .

(٤) ابن غالب - ص ٣٢ .

(٥) ابن حوقل - ص ١٠٨ .

باتخاذ منبر بديع لهذا الجامع ، فشم صنعه ، وحظرت حوله مقصورة خشبية رائعة . وتم وضع المنبر في موضعه من بيت الصلاة في ٢٣ من شعبان سنة ٣٢٩ ، واقيمت اول صلاة به في ٨ من شعبان ، وصلى الناصر فيه يوم الجمعة ٩ من شعبان ، وكان اول من خطب فيه القاضي ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن عيسى (١) .

تاريخ المدينة :

لم يمض اربع سنوات على انشاء جامع الزهراء حتى احتفل الخليفة الناصر احتفالا عظيما باستقبال محمد بن ابي العيش بن عمر بن ادريس بقصر الزهراء ، « وقعد له الناصر افخم قعود ، فأوصله الى نفسه ، وابلغ في تكريمه » (٢) . وفي العام التالي انتقل الناصر الى مدينة الزهراء ببيته وحرسه وخدمه ورجال حاشيته . وفي سنة ٣٣٦ نقل السكة من مدينة قرطبة الى الزهراء (٣) ، ومنذ ذلك الحين أصبحت مدينة الزهراء مركزا للاحتفالات الكبرى : ففي سنة ٣٣٧ هـ استقبل الناصر فيها حميد بن يصل ومنصور بن ابي العافية وأخاه ابا العيش . وفي سنة ٣٤١ استقبل الناصر فيها رسل امبراطور المانيا اوتون الاول ، كما استقبل فيها ايضا الملك الليونى المخلوع شانجة وجدته طوطة ملكة نبرة وغرسه ابنها الذين قدموا في سنة ٣٤٦ ليعينهم الناصر على اعادة شانجة الى عرشه .

ثم توفي الناصر في مدينة الزهراء في ٢ رمضان سنة ٣٥٠ ، وحمل جسده الى قصر قرطبة حيث دفن في روضة الخلفاء ، وفي اليوم التالي لوفاة الناصر اخذ الحكم المستنصر البيعة على الصقالبة الفتيان المعروفين بالخلفاء الاكابر ، واعتلى سرير الملك في البهو الاوسط من الابهاء المذهبة

(١) المقري : ج ٢ ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣١٨ .

(٣) نفسه . ص ٣٢١ .

القبيلة التي تشرف على السطح المرد ، حيث بايعه اخوته ، وتبعهم الوزراء واولادهم واخوتهم ثم اصحاب الشرطة وطبقات اهل الخدمة . وفي العام التالي (٣٥١) تم استقبال الحكم لأردون الرابع في قصر الزهراء . وفي سنة ٣٦٠ استقبل الحكم فيها ايضا رسل بوريل الاول صاحب برشلونة^(١) . ومن الجدير بالذكر انه وصلت اليها وصوف تفصيلية لجميع هذه الاستقبالات ، نطالع فيها ما يعبر عن مظاهر الابهة والفخامة المثلة في قصر الزهراء وفي احتفال الجند بالعدد والاسلحة والزينة وقيامهم صفين منتظمين في السطح وفي الفصلان المتصلة به ، بإيديهم السيوف ، ويتلوهم الرماة متكئين قسيهم وجعابهم ، ثم صفوف العبيد شاكين في الاسلحة الرائقة والعدد الكاملة ، وعلى رؤوسهم البيضات الصقلية ، وعلى اكتافهم الجواشن والاقية البيضاء ، وفي ايديهم التراس الملونة ، كذلك تشمل هذه الفخامة في تنظيم لجان الاستقبال على الابواب الخارجية للقصر ، وفي التقاليد المتبعة عند دخول الرسل ، ومرورهم بين صفي الجند المرتين في ساحة السطح ، وفي الروائع الفنية التي يزدان بها مجلس الاستقبال ، بجدرانه المكتظة بالزخارف المحفورة في الحجر والرخام ، والكسوات الذهبية التي تعلو سقفه الخشبية ، وعتاق البسط وكرائم الدرانك التي بسطت على السطح وفي صحن القصر ، وظلال الدياج ورفيع الستور التي ظللت بها ابواب القصر وحناياه ، وفي الابهاء المذهبة التي تتلألأ عند انعكاس الاضواء عليها ، وفي التحف الموزعة في مجلس الاستقبال من وسائد الدياج المثقلة بالذهب ، ومن كراسي مرتفعة مكسوة الاوصال بالذهب^(٢) ، وفي الحوض الرخامي المذهب الذي تدور عليه تماثيل النحاس تسج المياه من افواهاها في وسط المجلس الشرقي .

(١) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 425.

(٢) راجع وصف حفلات الاستقبال بقصر الزهراء في : المفري . ج ١ ص ٣٦٣ - ٣٦٩ . ابن حيان . نشر الحجي . ص ٤٤ - ٥٢ . وفيأوردناه خاصا بالوصف المفصلي لاستقبال الحكم المستنصر للملك اردون الرابع .

وفي عصر الحكم المستنصر كمل بناء مدينة الزاهرة بعد تمام خمسة عشرة سنة من نوليه الخلافة ، ويغلب على الظن ، كما يرجح الاستاذ توريس بلباس ، ان اعساله بدأب في مدينة الزهراء في سنة ٣٦٠ ، أي بعد انتهائه من الزيادة في جامع قرطبة وقصرها ، وان هذه الاعمال استغرقت خمس سنوات . ويستند الاستاذ توريس بلباس في ذلك على ارقام التواريخ المسجلة في بعض تيجان الاعدسة التي كشف البحث الاثري عنها في اطلال المدينة ، ومن بينها تاج من الطراز المركب مؤرخ في سنة ٣٦١ . وهنالك تيجان خلافة لعلها من مدينة الزهراء اعيد استخدامها في حمام البياسين بغرناطة ، محفوظة اليوم في متحف الحراء الاثري ، تحمل اسم الخليفة الحكم المستنصر وتاريخ سنة ٣٦١ . كذلك عثر في ساحة القس دي ميراندا El Conde de Miranda بقرطبة على تاج نقش عليه العبارة التالية : « بنظر صقر الفتى الكبير في سنة ٣٦٤ »^(١) . ولا شك ان كثيرا من هذه التيجان قد نهب واعيد استخدامه في مباني قرطبة واشيلية وغرناطة وغيرها ابان الفتنة بعد ان تعرضت الزهراء لاعمال العنف والتخريب على ايدي البربر .

ولا شك ان وفاة الحكم المستنصر في سنة ٣٦٥ وضعت حدا للزيادة والتوسع في بنيان مدينة الزهراء ، كما ان قيام مدينة الزاهرة ، التي شرع المنصور محمد بن ابي عامر في بنائها سنة ٣٦٨ وانتهى منه في عامين وضع حدا لازدهار مدينة الزهراء ، وسلب منها كل نشاطها الاداري والاقتصادي ، فقد انتقل المنصور الى مدينة الزاهرة في سنة ٣٧٠ ، « ونزلها بخاسته وغامته ، فقبوأها وشحنها ببئسيع اسلحته ، وامواله وامتعته ، واتخذ فيها الدواوين والاعمال ، وعمل داخلها الاهراء ، واطلق بساحتها الارحاء »^(٢) ،

(١) Ocana Jimenez, Capiteles epigrafiados de Madinat al-Zahra, y Capiteles epigrafiados del bano del Albaicin en Granada, al-Andalus, Vol. IV, 1936, PP. 158-168 — Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 426.

(٢) ابن عذاري . ج ٢ ص ٤١١ .

ولم تلبث الزاهرة ان اصبحت مقصد اصحاب الحوائج . وكتب المنصور الى سائر الاقطار بالاندلس والعدوة بالمغرب يأمر ولاته بان يحصلوا الى مدينته الزاهرة اموال الجبايات ، ويقصدها اصحاب الولايات . اما قصر الزهراء فقد تعطل من هذا النشاط : « واقام الخليفة هشام مهجور الفناء ، محجور الفناء ، خفي الذكر ، عليل الفكر ، مدود الباب ، محجوب الشخص عن الاحباب ، لا يراه خاص ولا عام ، ولا يخاف له بأس ولا يرجى منه انعام ، ولا يعهد منه الا الاسم السلطاني في السكة والدعوة »^(١) . ولم يكتف المنصور بذلك ، بل امر بتحسين قصر الخلافة في الزهراء بسور أداره حوله ، وأطاف به خندقا من جانبيه ، وشحن ابوابه وانقابه بالحراس ، ومنع الخليفة من الظهور ، كما منع ان يصل اليه اي خبر من الاخبار او امر من الامور بدون اذنه . وهكذا تحول قصر الخلافة بالزهراء الى سجن خلافي^(٢) ، ولم نعد نسمع شيئا عن احتفالات سياسية تقام في قصر الزهراء وفي مجالسه البديعة ، وسرعان ما ارتحل عن مدينة الزهراء ونواحيها العدد الاعظم من سكانها اجتذبتهم الزاهرة وشدتهم اليها .

ولما اشتعلت نار الفتنة البربرية بقرطبة ، تعرضت الزهراء لانتقام العامة والبربر . ويشير ابن حيان الى ان سليمان المستعين ، بعد ان بوع بالخلافة في جامع قرطبة في ١٧ ربيع الاول سنة ٤٠٠ ، انتقل بجللة جيشه البربري الى مدينة الزهراء حتى يبعدهم عن اهل قرطبة الموتورين ، على نحو ما فعل الخليفة المعتصم بالله العباسي عندما انتقل بمساكره الاتراك الى سامراء^(٣) . وكانت دار السكة ما تزال تؤدي وظيفتها في مدينة الزهراء ، فقد عثر على عدد من الدنانير التي ضربت في مدينة الزهراء في عام ٤٠٠ ، ودراهم عديدة باسم سليمان^(٤) . ولما انهز سليمان المستعين

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٣٤ .

(٢) Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 427.

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٣٥٢ .

(٤) Torres Balbas, op. cit., P. 427, Note 23.

وبرابرتة في موقعة عقبة البقر في سنة ٤٠٠ ، بادر البربر بالجلء عن الزهراء ، وفروا على وجوههم^(١) . واتهز عامة قرطبة فرصة جلء البربر عن مدينة الزهراء ، فدخلوها ، ونهبوا ما وجدوه فيها من تحف ، ودخلوا المسجد الجامع بالزهراء ، وجردوه من حصره وقناديله ومصاحفه وصفائح ابوابه^(٢) ، ويعتبر ذلك اول تخريب تعرضت له مدينة الزهراء .

ولما تجمعت صفوف سليمان المستعين من جديد ، وهزم بربره قوات المهدي محمد بن عبد الجبار في وادي آره ، في ٦ من ذي القعدة سنة ٤٠٠ ، حاصر البربر قرطبة . وعلى الرغم من وثوب واضح بالمهدي وقتكه به في ٨ من ذي الحجة ، فقد استمر البربر يحاصرون الحاضرة ، بل عدوا الى التشديد في حصارهم لها ، بعد ان اغضبهم واضح بغدره وخيائه للمهدي . وكان لا بد للمستعين من الاستيلاء على مدينة الزهراء ، ليتخذها قاعدة لقواته اثناء حصاره لقرطبة ، وليقطع سبل الاتصال بين قرطبة والزهراء . ففي ٢٥ من ربيع الاول سنة ٤٠١ دخلوا مدينة الزهراء ، بعد ان حاصروها ثلاثة ايام ، وفتكوا بحراسها ، وذبحوا من التجأ من اهلها الى الجامع . واضرموا النيران في الجامع والقصر والدور والمستغلات . ثم نجح سليمان في الاستيلاء على قرطبة في ٢٧ من شوال سنة ٤٠٣ ، وفي العام التالي انتقل في جملة جيشه البربري الى مدينة الزهراء ، التي كانت حتى ذلك الحين ما تزال تحتفظ ببعض بهائنها القديم ، وان كانت مبانيها قد اصبحت باضرار فادحة بسبب الحرائق التي اتت على اثارها ورياشها وكلست مواد بنائها .

وفي ايام المستكفي بالله بدأت الانظار تتطلع الى مدينة الزهراء عندما اقمرت خزائن الدولة ، فأبنية الزهراء وقصورها كانت ما تزال تضم ثروان معمارية هائلة ، من اعدة رخامية وبلورية ، الى عقود وحنايا من العاج . الى كسيات كبيرة من اخشاب البناء وما تبقى فيها من مصاريع الابواب .

(١) ابن الخطيب . ص ١١٥ .

(٢) ابن عذارى . ج ٣ ص ٩٥ .

وهنا بدأ استغلال اطلال الزهراء استغلالا منظما ، فاستؤصلت القصور بالهدم والتخريب لبيع انقاضها من رخام وحجر وقراميد ومرمر وبلور وخشب ورصاص القنوات ونحاس الابواب^(١) . واستمر بيع هذه الانقاض في ايام المعتد بالله على يدي وزيره الحكم بن سعيد القزاز . وحتى هذا العهد لم يكن الهدم قد تفشى بعد في منشآت المدينة وشملها كلها ، وانما اقتصر على ما كان قد تهدم من قصورها ، فقد ذكر الوزير الشاعر ابن زيدون معالم الزهراء والايام الجميلة التي قضاها مع ولادة بنت المستكفي في قوله :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقا	والافق طلق ووجه الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله	كأنما رق لي فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم	كما حلت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت	بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بنا يستسيل العين من زهر	جال الندى فيه حتى مال أعناقا ^(٢)

ويذكر في قصيدة اخرى ذكرياته في الزهراء مع ولادة ، ويشير الى قصورها وقبتها فيقول :

الا هل الى الزهراء أوبة نازح	تقضي تنائيهامدامعه ترحا
مقاصير ملك اشرفت جنباتها	فخلنا العشايا الجون اثناءها صباحا
يمثل قرطيهام لي الوهم جهرة	فقبتهام فالكوكب الرجب فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه	اذا عز ان يصدي الفتى فيه اويضحى ^(٣)

ولم يبدأ الهدم الفعلي لقصور الزهراء ومبانيها الا في ايام ابي الوليد

(١) ابن بسام ، قسم ١ مجلد ٢ ، ص ٣٨٢ .

(٢) غارسية غومس ، الشعر الاندلسي ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٥٤ .

(٣) المقري ، ج ٢ ص ١٥٦ .

محمد بن جمهور على يدي ابن باشة ونظر الوزير ابن السقاء^(١) ، فباع ابن باشة « آلاتها من رفيع الممر ، ومثمن العمد ، ونضار الخشب ، وخالص الثعاس ، وصافي الحديد والرصاص بيع الادبار ٥٠٠ وكانت رسل الاملاك (يقصد رسل ملوك الطوائف) تأتية لشراء تلك الآلات بأعلى الاثمان ، فيبذلها هو في انواع الضلالات ، وأغيط من ذلك لاولى الالباب تسليطه على هدم قصور بني امية المبتناة على اساس العلا ، المسخر فيها اصناف المدى المكتملة الاستواء في حقب من السنين تترى ، حتى اغتدت بجزيرة الاندلس كارم ذات العماد ، لا يخشى على اركانها انهدام ، فلما أذن تعالى بخطط اقلامها ، وطمس آثارها ، أتاح لها هذا الانيسيان الضعيف القوي ، القصير المدى ، كاتاحة الجرذ المهين لسد مأرب ذي الانباء البديعة ، فدكدكها حتى عادت كوم رماد ، ومصائد ضباب ، ولم يقلع عنها حتى اوقع النار على صخورها ، وصيرها كلسا لكل مرتاد »^(٢) .

وفي سنة ٤٥٠ هـ عزم المعتضد بالله عباد ملك اشيلية على الاستيلاء على قرطبة ، فتأهب لارسال ابنه اسماعيل في جيش الى قرطبة ، « والنزول بزهرائها المعطلة بأسفلها »^(٣) . وذكر ابن عذاري انه « في سنة ٤٥٠ هـ تواتر الارجاف بقرطبة ان عبادا المعتمد حاول النزول بزهرائها المعطلة التي منها أبدا يصاب مقتلها ، وسبق الخبر انه قد انهض نحوها ابنه اسماعيل ، وهو كالنار في احجارها مستكنة ، ولا يشك انه ارسل منه على قرطبة شواظ نار ولا يذر منها باقية ، فنفس الله مخنق اهلها بما تقض تدييره ، وثنى

(١) راجع الفصل الخاص بدور قرطبة في القسم التاريخي من هذا الكتاب .

(٢) ابن بسام . قسم ١ ج ٢ ص ١١١ .

(٣) Garcia Gomez, la Ruina de la Cordoba omeya, P. 282 . ولا يفصد بكلمة أسفلها القسم الأدنى من الزهراء . وانما المقصود بذلك الزهراء التي تقع أسفل قرطبة . وقد ذكر ابن غالب ملاح عن الرازي وابن النظام وابن حبان في ذلك ان « طول مدينة الزهراء المحدنة أسفل قرطبة وعربها من الشرق الى الغرب الما ذراع وسبعمائة » ابن غالب ، ص (٣١) .

عزيمه ، فأقتصر صاغرا ، وكان من قدرة الله ان كره هذا الفتى ما حمله
أبوه من ذلك ، وهاج منه حقودا كانت له بنفسه كامة ، جرتة على معصية
اييه ، وانصرف من طريقه ، اذ صعب عليه أمر الهجوم على مثل قرطبة مع
قرب حليفهم باديس بن حبوس^(١) ، الذي لا يشك في اسراعه اليهم ،
فعرض ذلك على اييه فاستجبه ، واغلظ وعيده ، فدير الفرار عنه «^(٢)» ،
فقتله المعتضد صبوا بيده .

ولقد أثار تخرب الزهراء وهي في مقتبل عمرها اسى الشعراء
والكتاب ، فانيروا يرثونها وييكون ما اصابها ، ويصفون اطلالها ، فمنهم
ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور الذي زارها يوما ، ووقف على
قصورها ، وقد تقوضت ابنتها ، وعوضت من انيسها بالوحوش في
افنيها ، فقال :

قلت يوما لدار قوم تفانوا أين سكانك العزاز علينا
فأجابت هنا اقاموا قليلا ثم ساروا ولست أعلم أيننا^(٣)
ورثاها السير الشاعر بقوله :

وقفت بالزهراء مستعبرا معتبرا أنسب اشتاتا
فقلت يا زهرا ألا فارجمي قالت : وهل يرجع من ماتا ؟
فلم أزل ابكي وابكي بها هيهات يغني الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى نوادب يندبسن مواتنا^(٤)

ولما دخلت قرطبة في فلك الدولة العبادية ، زارها الوزير الفقيه ابو
الحسين بن سراج مع الوزراء والكتاب ذات يوم ، وقضوا بين اطلالها يوما

(١) كان عمه اسماعيل قد قتل في سنة ٤٣٣ عند قيامه بمحاصرة
قرطبة على يدي باديس بن حبوس صاحب البيرة ابن عذارى . ج ٣
ص ٢٠٢ - ابن الخطيب . ص ١٥٥ .
(٢) ابن عذارى . ج ٣ ص ٢٤٨ .
(٣) ابن خاقان . مطمح الأنفس . ص ١٥ - المقرئ . ج ٢ ص ٦٦ .
(٤) المقرئ . ج ٢ ص ٦٦ .

تعاطوا فيه كؤوس الراح بين الشرفات والرياض . وفي عصر تبعيتها للمعتمد ابن عباد ارسل اليه الفونسو السادس يسأله ان تنزل امرأته القمطيحة بجامع قرطبة لتلد فيه تبركا بوضع كنيسة كانت قائمة في الجانب الغربي منه كانت معطلة لدى النصارى في بلاده ، كما سأله ان تقيم هذه المرأة بمدينة الزهراء^(١) وتختلف منها الى الجامع المذكور ، فلما منه بان مدينة الزهراء ما زالت تحتفظ في عهده بمعطتها التي تناقلها ملوك ليون ونبرة جيلا بعد جيل منذ أيام الخليفين الناصر والمستنصر ، ولكن المعتد رفض طلبه ، وقتل رسوله .

ويشير الادريسي الى خرائب الزهراء وما تبقى من اسوارها وقصورها في عصر المرابطين ، فيقول : « وهي قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها ، وفيها قوم سكان بأهلهم وذرائعهم ، وهم قليلون . . وهي الان خراب في حال الزهاب »^(٢) . وفي عصر الموحدين كان تشال الزهراء ما يزال منصوبا بأعلى بابها الجنوبي الشرقي المواجه لمدينة قرطبة . وقد زار الخليفة ابو يوسف يعقوب المنصور اطلال الزهراء في سنة ٥٨٦ للتأمل في آثار اليهود الاموية البائدة ، وامر يومئذ بازالة هذا التشال^(٣) ، فأزيل واقتلع من آثارها ما بقي من اعمدة ، اعيد استخدامها في مئذنة جامع الموحدين الكبير باثينية ، بل نقل بعضها الى مراكش وغرناطة .

ولما سقطت قرطبة في ايدي القشتاليين في سنة ٦٣١ ، كان ستار النسيان قد اسدل نهائيا على الزهراء ، فنسى الناس اسمها ، واطلق عليها القشتاليون في مجموعة وثائق بلاط فرناندو الثالث اسم قرطبة العتيقة Cordoba la Vieja ، وأشار في هذه الوثائق الى قيام بعض مزارع الكروم

(١) الحميري . ص ٨٤ .

(٢) الادريسي . ص ٢١٢ .

(٣) Torres Balbas, Arte hispano musulman, apud. Ibn Idhari, traduccion por Huici Miranda, PP. 158, 159 — Torres Balbas, la mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, Madrid, 1952, P. 134.

في بقعتها^(١) . وعلى الرغم من ان المؤرخ القشتالي الاسقف دون رودريجو خيسنت دى رادا لم يكن يعرف اسمها في مدوته ، فانه على الاقل عرف انها من بناء عبد الرحمن الناصر^(٢) .

واتخذت اطلال الزهراء بعد استرداد القشتاليين لقرطبة مقصدا لاجبار البناء التي اعيد استخدامها في بناء الكنائس والمشافي والاديرة بل وفي ترميم اسوار قرطبة نفسها^(٣) . وبالتدريج اخذت هذه الاطلال تنقرض وتلاشى تدريجيا ، وتطويها الارض بتوالي العهود والحقب ، حتى تلاشى ذكرها ، وضاعت معالمها . وطوى النسيان تاريخ هذه المدينة الخلافة حتى ان المؤرخ القرطبي امبروسيو دي مورالس Ambrosio de Morales (١٥١٣ - ١٥٩١) ظن ان هذه الاطلال ليست سوى آثار المستعمرة الرومانية التي أقامها كلوديو مارسيو ، وهكذا نسبها مورالس الى الرومان ، وكتب في ذلك : « ان الاندلسيين لم يكن لديهم هذه القدرات في البناء »^(٤) . ولكن المؤرخ القرطبي بدرو ديثا دى ريباس Pedro Diaz de Ribas كان أكثر معرفة بتاريخ مدينة الزهراء ، فقد كتب في سنة ١٦٢٧ مشيرا الى ان هذه الاطلال هي آثار اموية لحصن اقامه عبد الرحمن الثالث ، استنادا الى تشابه زخارفها مع زخارف جامع قرطبة وتمائل توزيع احجار البناء فيها مع نفس نظام توزيعه في جدران جامع قرطبة .

(١) Ramirez de Arellano & Diaz Morales, Historia de Cordoba, t. IV, Ciudad Real, 1919, P. 10, 164 — Torres Balbas, La mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, P. 137 — Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 429.

(٢) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 430.

(٣) استغل القس فاسكو ما بقي من احجار خرائبها في بناء دير سان خيرونيمو القريب منها San Jeronimo de Valparaiso في سنة ١٤٠٨ . كما رمت قنطرة قرطبة من احجار الزهراء سنة ١٤٢١ .

(٤) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 430.

واتخذت اراضي الزهراء في النصف الثاني من القرن السابع عشر مرعى للسائمة ، وفي سنة ١٧٦٠ اشار الاب روانو P. Ruano الى انها من آثار عبد الرحمن الثالث ، وذكر ايضا ان سور مزرعه فلدابوتتي امر فرناندو السادس بتشبيده من المواد البنائية لهذه الآثار الاموية (١) . ولم يمض على ذلك عدة اعوام حتى انتقد أنطونيو بونث Antonio Ponz نظرية المستعمرة الرومانية ، وأكد انها لقصر او بيت للراحة يرجع الى ايام العرب (٢) . وفي سنة ١٨٢٠ اشار كوندي Conde لأول مرة الى بناء الناصر لقصور الزهراء على بعد خمسة اميال من قرطبة ، ولكنه أخطأ في تحديد الموضع اذ اشار الى انها اقيمت بادنى الوادي الكبير . غير ان ثيان برمودث Cean Bermudez يعتبر أول من نجح في معرفة موقع مدينة الزهراء ، وتابعه في ذلك المؤرخ الكبير آنخل سافدرا في سنة ١٨٣٤ .

ولكن اطلال الزهراء كانت قد تحولت في طليعة القرن التاسع عشر الى تلال وكيمان ، وساعد على ذلك هبوب الرياح محملة بالأتربة ، وسقوط الامطار عليها ، وكسوتها بالنباتات البرية . وعندما اصدر جايانجوس Gayangos الترجمة الانجليزية لكتاب نفح الطيب في سنة ١٨٤٠ وعرف الباحثون حقائق تاريخية ثابتة عن نشأة مدينة الزهراء وتخرابها ، اخذ منها المؤرخون في تحديد موضعها ، ومنهم بدرو دي مادرائو Pedro de Madrazo الذي توصل في سنة ١٨٥٠ الى الاهتداء الى موضع الزهراء ، ونجح في ١٨٥٤ في الحصول على اذن من حاكم المدينة باجراء حفائر اثرية في اطلالها (٣) . ومنذ ذلك الحين توجهت الانظار الى هذه المدينة فتوالت عليها الحفائر ، التي كشفت عن حضارة من ازهى الحضارات الانسانية في العالم اجتمع .

F. Ruano, Historia General de Cordoba, t. I, Cordoba (١)
1760, P. 63 — Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 431.

Torres, Balbas, Arte hispano musulman, P. 431. (٢)

Ibid., P. 432. (٣)

ثانيا - مدينة الزاهرة

لم يكده يمضي عامان على وفاة الحكم المستنصر حتى كان ابن ابي عامر قد عظم نفوذه ، واستفحل سلطانه ، وكان قد استمال الناس بغزوتين : الاولى الى جليقية في ٣ رجب سنة ٣٦٦ ، والثانية في شوال سنة ٣٦٦ ، وافتتح فيها حصن مولة ، فولاه هشام المؤيد خطة الحجابة بالاشتراك مع جعفر المصحفي في سنة ٣٦٧ ، ولم يلبث ابن ابي عامر ان وثب بالمصحفي فغزله ، وتمكن وحده من الاستئثار بالحجابة ، واستبد بشؤون الدولة وسيطر على ازمته ، متمثلا في ذلك امراء الديلم بالنسبة للخلفاء العباسيين . ويبدو ان المنصور بن ابي عامر اراد ان يسجل بلغة العمارة والبنان ما وصل اليه من نفوذ وسلطان ، فابتنى لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة ، ويعبر ابن خاقان عن ذلك بقوله : « عندما تكامل واستفحل امره ، واتقد جمره ، وظهر استبداده ، فسمي الى ما سمت اليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه ويحل بأهله وذويه ، ويضم اليه رياسته ، ويتم به تديره وسياسته ، ويجمع فيه فتياه وغلمانه »^(١) . وهناك عامل آخر دفعه الى اتخاذ الزاهرة مقرا له هو خوفه على نفسه من الدخول الى قصر الخليفة بعد ان كثر حساده ، وتحالف عليه اضداده وانداده ، وايا ما كان السبب في ترك الزهراء وبناء الزاهرة ، فقد اثبت المنصور بهذه المدينة الاميرية انه لا يقل في القوة والسلطان عن الناصر والمستنصر . وما ان استقر رأيه على تأسيس زاهرته حتى اختار لها موقعا من اطراف قرطبة من الجهة الشرقية^(٢) ، مما يلي الرملة^(٣) ، بحيث توفي على نهر قرطبة الاعظم^(٤) ، وشرع في بنائها في سنة ٣٦٨ هـ ، فحشد لذلك العمال والفعلة ،

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤١٠ - المقرئ ، ج ٢ ص ١١٢ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ١٣ .

(٣) ابن عذارى - ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٤) نفسه ، ص ٤١٠ - المقرئ - ج ٢ ص ١١٣ . وذكر ابن عذارى ان

موضعها كان منزلا لابي بدر وكان يعرف باسم الش (ج ٢ ص ٢٨٥) .

وجلب اليها الالات الجلييلة من الرخام والقرايميد والصخور والاشخاب ، وبدأ في تسوية ارضها وبقعتها ، فأزال النجود ، وغطى الاغوار تمهيدا للبناء ، وتوسع في اختطاطها ، فامتدت رقعتها في السهل الواقع هناك امتدادا كبيرا ، وسورها بأسوار مرتفعة^(١) ، فتحت فيها عدة ابواب منها بابا السباع والجنان^(٢) ، وذكر ابن عذارى بابا ثالثا يسمى باب الفتح^(٣) . وقد استغرق بناء معظم الزاهرة عامين ، انتقل بعدهما اليها (في سنة ٣٧٠) ، فنزلها بخاصته وعامته ، « وشحنها بجميع اسلحته ، وامواله وامتنعه ، واتخذ فيها الدواوين ، وعمل في داخلها الاهراء ، واطلق بساحتها الارعاء ، ثم اقطع ما حولها لوزرائه وكتابه ، وقواده وحجابه ، فابتنوا بها كبار الدور ، وجليات القصور ، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة ، والمنازة المشيدة ، وقامت بها الاسواق ، وكثرت فيها الارفاق ، وتنافس الناس بالنزول بأكثافها ، والحلول بأطرافها ، للدنو من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو في البناء حوله ، حتى اتصلت ارباضها بأرباض قرطبة »^(٤) .

واعتبرت الزاهرة ربضا قائما بذاته من ارباض الشرقية ، وكانت تصلها بمدينة قرطبة طريق الرملة التي تلي جنان القصر ، وتمتد بحذاء شاطيء النهر^(٥) . وكان من الطيعي ان تضمحل الزهراء بعد ظهور الزاهرة ، فيهجرها اهلها ويرحلون عنها الى الضاحية الجديدة حيث يتقربون من صاحب السلطان فيصيبهم نصيب من النعمة بالتقرب منه ، وكان المنصور قد رتب في الزاهرة جلوس الوزراء والاعيان والشيخ ، وندب اليها كل صاحب خطة ، وجعلها مقرا للشرطة ، واقام عليها واليا على النحو الذي

(١) ابن عذارى . ص ١٠٤ - المقرئ . ج ٢ ص ١١٣ .

(٢) Sanchez-Albornoz, Historia de la Espana musulmana, Buenos-Aires, 1946, P. 379.

(٣) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi-Provençal, t. III, PP. 210-211.

(٤) ابن عذارى . ج ٢ ص ١١٢ - المقرئ . ج ٢ ص ١١٣ .

(٥) نفس المصدر . ج ٢ ص ٤٣٥ .

كان متبعا في مدينة الزهراء ومدينة قرطبة ، واقام بها مسجدا جامعاً ، ظل باقيا حتى سقوط الخلافة^(١) . وهكذا حلت الزاهرة محل الزهراء ، واصبحت بحق مركزا للسلطنة ، وقاعدة للحكم ، فاليها كانت تصل اموال الجبايات ، ويقصدها الولاة والحكام وطلاب الحاجات ، فانسع عمرانها وتزايد فيها البناء ، واقامت فيها المنيايات والمتنزهات ، والبساتين والرياض ، فمن منياتها وقصورها التي اقامها المنصور : منية السرور « ذات الحسن النضير ، وهي جامعة بين روضة وغدير »^(٢) ، وقصر ناصح ، وقصر الزاهي الذي كسيت جدرانه بالمرمر ، واجريت فيه المياه والفدران التي تحف بها الاشجار والازهار ، وقصر الحاجبية الذي اقامه المظفر عبد الملك الى جانب الزاهرة بخارج سورها^(٣) . ومن منياتها ومتنزهاتها ذات الوادين ، ومنية أرطانية^(٤) . وفي منيات الزاهرة وقصورها يقول صاعد اللغوي :

اما ترى العين تجري فوق برمرها	زهوا فتجري على احفافها الطربا
اجريتها فطما الزاهي بجريتها	كما طموت فسدت العجم والعربا
تخال فيه جنود الماء رافلة	مستلزمات تريك الدرع والغلبا
تحفها من فنون الايك زاهرة	قد أورقت فضة اذ أورقت ذهبا
بديعة الملك ما ينفك ناظرها	يتلو على السمع منها آية عجا
لا يحسن الدهر ان ينشئ لها مثلا	ولو تعنت فيها نفسه طلبا ^(٥)

واصبحت الزاهرة كالزهراء مركزا للاحتفالات السياسية الكبرى والاستقبالات الملوكية ، ففيها استقبل المنصور شانجة « Sancho Garces II »
« Abarca » ملك بنبلونة الذي قدم اليه زائرا ومستصرخا ، وكان المنصور قد

(١) كان يتردد عليه الشاعر صاعد البغدادي في سنة ٣٨٥ لاملأ مصنفه الذي امره به الحاجب على الكتاب .
(Torres Balbas, al-Madina al-Zahira, la ciudad de Almanzor, al-Andalus, Vol. XXI, 1956, P. 254).

(٢) المقرئ - ج ٢ ص ١٤٦ .
(٣) ابن عذاري ، ج ٣ ص ٦٢ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٩٩ ط . ليفي برونفسال .
(٥) نفس المصدر - ج ٢ ص ١١٤ - المقرئ ، ج ٢ ص ١١٥ .

حاربه حتى أذعن لأئذا بعفوه ، وكان قد أهذى لبنته الى المنصور ، وتزوجها وأولد منها ولده عبد الرحمن المعروف بشنجول «Sanchuelo» تصغيرا لشانجة ، اذ كان يشبهه لدرجة كبيرة . وصل شانجة الى قرطبة في ٣ من رجب سنة ٣٨٢ ، فتلقتة جيوش المسلمين اعظم لقاء ، واوكب الى قصر الزاهرة ، حيث استقبل استقبالاً حافلاً ، « فكان يومه احد ايام الدنيا الشهيرة ، حتى بهت الذي كفر ، ورأى من وفور المسلمين ، ونباهة اسلحتهم ، وجمال زيهم ، وكثرة عددهم ما لم يكن ظانا ان الدنيا تجمعهم ، ولا الايام تحشده ، ولا الخزائن تكنفه »^(١) . وكان ممن خرج لاستقباله حفيده عبد الرحمن شنجول . وكان طفلاً يرقد في السرج ، وقد حف به وزراء المنصور ووجوه القواد واکابر اهل الخدمة في احسن زي واكمل تعبئة ، فلما شاهد شانجة حفيده نزل اليه وقبل رجله واقبل معه الى ابيه في موكب فخم ، وكان يصطف على حفافي الطريق من قرطبة الى الزاهرة صفان من الجنود يلبسون الجواشن المذهبة والسوق والسواعد المصنوعة من الفولاذ ، وامسكوا الدروع السابرية ، وعلقوا الدرق ، ومن خلفهم صفوف الرماة قد شددت في اوساطهم المناطق المذهبة . ووصل الموكب العظيم الى مجلس المنصور ، فمر بين صفين من الوصفاء والصقالبة من باب القصر الى باب المجلس ، وكان المنصور قد جلس على سريره ، وقد اكتنفه وزراؤه واعاظم رجال دولته ، فبهت شانجة من عظمة المجلس وروعة الموقف ، وبهره ما عاينه من فخامة السلطنة ، وابته ، فلم يملك نفسه ان اهوى الى الارض مقبلاً ، واعاد ذلك عدة مرات وهو يستدنيه ، حتى قبل قدميه ورجليه ، ثم اجلسه المنصور على كرسي مذهب ، وامر الحاضرين بالانصراف ، وخلا به المنصور ، وعنفه لما قام به من النكث ، ثم خلع عليه الخلع السلطانية^(٢) ، وافرد لاقامته احد قصور الزاهرة .

(١) ابن الخطيب . ص ٧٣ .

(٢) نفس المصدر . ص ٧٤ .

ومن الشخصيات البارزة التي زارت الزاهرة الخليفة هشام المؤيد ، اذ دعاه اليها الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور في سنة ٣٩٨ ، فركب الى القصر على سبيله المهود من الاستخفاء عن اعين الناس لنزهة رسمها الحاجب له هنالك في قصوره ، فسر هشام من هذه النزهة ، ومنح عبد الملك خطة الوزارتين ، ولقبه بلقب المظفر^(١) . وفي قصر الزاهرة استقبل المظفر شائجة بن غرسية (في سنة ٣٩٤) الذي قدم الى قرطبة ليلتمس الصلح من المظفر .

ولم تطل حياة الزاهرة الى اكثر من ثلاثين عاما ، ثم دهمتها الفتنة بنارها ، فكانت اولى ضحاياها ، وهاجمها النائمون على عبد الرحمن شنجول في جمادي الاولى سنة ٣٩٩ ، فنقبوا سورها ، واقتحموا المدينة ، ونهبوا خزائنها ، وهدموا مبانيها ، ومحووا رسومها ، « وخربت الزاهرة ومضت كأمس الدابر ، وخلت منها الدسوت الملوكية والداكر ، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح ، وتلاشى أمرها ، فلم يرج لفسادها صلاح ، وصارت قاعا صفصفا » . وكانت كارثة الزاهرة اشمل من الزهراء ، لان موجة التخريب عليها كانت اشد عتوا وعنفا ، فعم الخراب سائرها ، ولم تبق دار في الاندلس الا ودخلها من فيئها حصة ، وذكروا ان بعض ما نهب فيها بيع في بغداد وغيرها من البلاد الشرقية^(٢) . وذكر ابن عذاري نقلا عن الرقيق ان العامة اتهمت ما كان في الزاهرة من « الاموال والاسلحة والخزائن والامتعة والالات السلطانية ، حتى اقتلعت الابواب الوثاق والخشب الضخم وغير ذلك مما حوته القصور ، وصار يباع بكل جهة لا يرع عنه من يشار اليه بصلاح او بعفة »^(٣) . وبعد ان

(١) ابن الخطيب ، ص ٨٨ .

(٢) القري ، ج ٢ ص ١٢١ .

(٣) ابن عذاري ، ج ٣ ص ٦١ .

اتى النهب على اكثر خزائن الكسوة والفرش والامتعة والطيب وغيرها امر
محمد بن هشام بن عبد الجبار بهدمها ، وحط اسوارها ، وقلع ابوابها ،
وتشعبت قصورها ، وطمس معالمها وتدمير آثارها ، واوصى القائمين
بالهدم بالمعجلة فيه قبل ان يصل عبد الرحمن شنجول ، فأباع لانصاره
واتباعه ما اقتلعوه من مرمرها وانقاض قصورها ودورها^(١) .

(١) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٦٤ .

القسم الثالث

آثار قرطبة الباقية

الفصل السابع : جامع قرطبة (الدراسة التاريخية)

الفصل الثامن : جامع قرطبة (الدراسة الفنية)

الفصل التاسع : آثار قرطبة الخلفية

الفصل العاشر : أثر العمارة الخلفية بقرطبة في العمارة المسيحية
والإسلامية

الفصل السابع

جامع قرطبة (الدراسة التاريخية)

- (١) عرض عام لمشكلات تاريخ جامع قرطبة منذ انشائه
- (٢) بنيان الجامع في عصر أمراء بني أمية
- (٣) تاريخ الجامع في عصر الخلافة
- (٤) تاريخ الجامع بعد سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين

الفصل السابع

جامع قرطبة (الدراسة التاريخية)

(١)

عرض عام لمشكلات تاريخ جامع قرطبة منذ انشائه

أورد كل من ابن عذارى^(١) والمقري^(٢) نصا تاريخيا هلمنا بالنسبة لتاريخ جامع قرطبة نقلاه عن الرازي (ت ٣٤٤) الذي اقتبسه بدوره عن الفقيه محمد بن عيسى ، وقد لاحظت أن هذا النص الوارد في نفح الطيب أكمل من نظيره في البيان المغرب ، ولذلك آثرت أن نقل النص الاكمل مع الاهتمام بتوضيح اوجه الخلاف في كل من النصين في موضعه ، وفيما يلي نص المقري : (ذكر ابن سعيد في المغرب عند تعرضه لذكر جامع قرطبة ما نصه : اعتمدت فيما نقلته في هذا الفصل على كتاب ابن بشكوال ، فقد اعتنى بهذا الشأن أتم اعتناء ، وأغنى عن الاستطلاع الى كلام غيره . عن الرازي^(٣) أنه لما افتتح المسلمون الاندلس امثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأي عمر رضي الله تعالى عنه ، بالشام ، من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحا ، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التي كانت داخل مدينتها تحت السور ، وكانوا يسمونها بشت بنجنت ، وابتنوا في ذلك الشطر مسجدا جامعا ، وبقي الشطر الثاني بأيدي النصارى ، وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة ، واقتنع المسلمون بما في أيديهم ، الى أن كثروا وتزايدت عمارة قرطبة ، ونزلها أمراء العرب ، فضاقت عنهم ذلك المسجد ،

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) المقري ، ج ٢ ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) يضيف ابن عذارى في اسناد النص عبارة عن الفقيه محمد بن عيسى

وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنون بها ، حتى كان الناس ينالون في الوصول الى داخل المسجد الاعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف ، وقصر أبوابها ، وتطامن سقفها ، حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الارض . ولم يزل المسجد على هذه الصفة الى أن دخل الامير عبد الرحمن بن معاوية المرواني الى الاندلس ، واستولى على امارتها ، وسكن دار سلطانها قرطبة ، وتمدنت به ، فنظر أمر الجامع ، وذهب الى توسعته ، واتقان بنيانه ، فأحضر أعظم النصارى ^(١) وسامهم بيع ما بقي بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه ، وأوسع لهم البذل ، وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه ، فأبوا من بيع ما بأيديهم ، وسألوا بعد الجد بهم أن يباحوا بناء كنيستهم ^(٢) التي هدمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشر الذي طولبوا به ، فتم الامر على ذلك ، وكان ذلك سنة ثمان وستين ومائة ^(٣) ، فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لا حاجة الى تفسير الزيادة فيه ، وانما الحاجة في وصفه بكماله . وفي بنائه لهذه الزيادة يقول دحية بن محمد البلوي من قصيدة :

وأنتق في ذات الاله ووجهه	ثمانين ألفا من لجين وعسجد
توزعها في مسجد أسه التقى	ومنهجه دين النبي محمد
ترى الذهب الناري فوق سموكه	يلوح كبرق العارض المتوقد

قال : وكمل سنة سبعين ومائة ^(٤) .

(١) ذكرها ابن عذارى « اعاجم قرطبة » .

(٢) ذكرها ابن عذارى كنائسهم ، والاصح كنيستهم لان الرازي يقصد الكنيسة التي هدمت خارج اسوار قرطبة من جهة الغرب ، وهي المعروفة بشنت أبلح San Ascielo .

(٣) ذكرها ابن عذارى سنة ١٦٩ ، وذكرها العذري سنة ١٦٩ (العذري ، ص ١٢٣) .

(٤) وردت في البيان « وتم بناؤه واكتملت بلاطاته ، واشتملت اسواره في سنة ١٧٠ ، فذلك من مدة عام واحد » .

ونستخلص من هذا النص الحقيقتين التاليتين : ١ - أن موضع الجامع كانت تشغله كنيسة تعرف بشنت بنجت اقتسها المسلمون مع نصارى قرطبة واتخذوا فيها مسجدا كانوا يضيفون اليه سقيفة بعد سقيفة كلما ازداد عدد المصلين ٢ - أن عبد الرحمن الداخل أقام على موضع الكنيسة والمسجد الاول جامعا استغرق بناؤه عاما واحدا وفقا لابن عذارى ، وعامين وفقا لما أورده المقرئ . وترتبط بهاتين الحقيقتين ثلاث مشكلات أساسية تتعلق بتاريخ بناء الجامع الاول كانت مثار جدال طويل بين رجال الآثار وعلماء التاريخ لم ينته بعد ، وما زالت هذه المشكلات قائمة حتى يومنا هذا ، بل ان النقاش ازداد في العشرين سنة الماضية بحيث انقسم الباحثون الى فريقين : فريق ينزعه الاثريون جومث مورينو ، وتوريس بلباس ، وفيلث هرناندث ، وأوكانيا خيث ، ورافائيل كاستخون ، وكرزول ، ويعتد هذا الفريق على نتائج الحفريات الاثرية . والفريق الثاني كان يتزعمه الاستاذان الفرنسيان ليفي بروفنسال ، وايلي لامبير، وقد أيدهما^(١) كما أيدهما استاذي الدكتور أحمد فكري^(٢) . ويعتد هذا الفريق على النصوص التاريخية مع محاولة التوفيق بينها وبين نتائج الحفريات الاثرية التي أجريت في أرضية الجامع . وقد احتدمت الآراء المؤيدة والمعارضة حتى بعد وفاة أساتذتي الاثريان جومث مورينو وتوريس بلباس ، والمؤرخان ليفي بروفنسال وايلي لامبير . ويسكننا أن تلخص هذه المشكلات في الموضوعات التالية : المدة التي استغرقها بناء الجامع ، وموضع الكنيسة بالنسبة للجامع ، وعدد بلاطات المسجد الذي بناه عبد الرحمن الداخل .

وفيما يلي دراسة لجميع تلك المشكلات على حدة ومناقشتها بقصد الخروج منها بنتائج موضوعية توفق بين الحقائق الاثرية والنصوص التاريخية دون أن أزعج أنني قست بحلها نهائيا ، لأن تاريخ الجامع الاول

(١) Al-Sayyid Salem, Cronologia de la mezquita mayor de Cordoba, al-Andalus, 1954, fas. 2.

(٢) أحمد فكري . مساجد القاهرة ومدارسها . المدخل . ص ٢٤٤ .

ما زال يكتنفه الغموض رغم الاضواء التي أحاول في الصفحات التالية أن أسلطها على المشاكل المعلقة ويحتاج الامر لحفريات أخرى جديدة في مواضع مختلفة من أرضية الجامع .

١ - مشكلة المدة التي استغرقها البناء :

يذكر ابن عذارى في النص الذي نقله عن الرازي عن محمد بن عيسى أن سنة ١٦٩ تسجل تاريخ قيام عبد الرحمن الداخل بهدم الكنيسة وبناء المسجد الجامع ، وأن سنة ١٧٠ تسجل الفراغ من أعمال البناء ، ويؤكد أن بناء المسجد الذي أقامه عبد الرحمن الداخل استغرق عاما واحدا ، ويؤيده في ذلك المؤلف مجهول الاسم لكتاب فتح الاندلس^(١) ، والجغرافي العذري المعروف بابن الدلائي^(٢) . أما النص الذي أورده المقرئ فيحدد سنة ١٦٨ لشراء عبد الرحمن موضع الكنيسة والشروع في البناء . وأيا ما كان اختلاف النصين المذكورين في تحديد مدة البناء ، فإن قصر هذه المدة سواء لعام واحد أو عامين أثارت تحفظا شديدا عند مؤرخي الفن الاسلامي في الاندلس . وكان الاستاذ جومث مورينو أول من عبر عن شكوكه حول هذه المدة القصيرة لبناء جامع عبد الرحمن الداخل ، فيقول : « ليس من المحتمل أن قبل قيام جامع قرطبة على يدي عبد الرحمن الداخل في عام واحد ما بين عامي ١٦٩ ، ١٧٠ ، فالواقع أن بناء مساحة مسقفه تصل الى ٢٣٣٠٠ ، علما بأنه اقيم في وقت كان يعاني فيه الاندلسيون عصرا من الركود الفني ، دون الاستعانة بنصارى الشمال ، ولا الافادة من التقاليد الفنية الوافدة من خارج البلاد ، هذا بالإضافة الى تعقد بنيته ، وثراء عناصر بنيانه بالزخارف والتسميات ، والدقة المتناهية في مظهر بنائه ، كل ذلك يجعل من المستحيل أن يكون هذا البناء قد اقيم في مثل هذا

(١) فتح الاندلس ، ص ٧٩ .

(٢) العذري ، ص ١٢٣ .

الزمن القصير»^(١) . كذلك، عبر الاستاذ لامير عن هذه الاستحالة بقوله : « نخرج من هذا التاريخ بحقيقة اولية غريبة الى حد ما ، فان عاما واحدا في عصر عبد الرحمن الاول ، وهو عصر كان فن البناء ما يزال بدائيا في الاسلام في المغرب ، يكاد لا يكفي لتحقيق المشروع الذي رسمه الامير الاموي لبناء مسجد يضارع المسجد الذي كان اجداده قد اسسوه في دمشق ، ولبناء مسجد كامل تزيد مساحته على ٢٣٠٠٠ م^٢ »^(٢) . كذلك أوضح الاستاذ توريس بلباس شكوكه حول هذه المدة القصيرة^(٣) ، ولكنه ادرك اخيرا عقم المناقشة في هذا الموضوع لقلة ما لدينا من نصوص تاريخية تساعد على اجلاء المشكلة ، فرأى ان عاما واحدا او حتى اقل من هذه المدة حسبما نفهم من نص كتاب فتح الاندلس^(٤) « أمر غير منطقي ، ولكن يجب الا نعتبره مستحيلا ، ويجب ان نتذكر ان جميع الاعددة التي استخدمت في المسجد الجديد اتخذت من ابنية سابقة ، وان المسجد على الرغم من اعداده لاستقبال المصلين ، لم يكن قد تم في السنة التي حددها المؤرخون »^(٥) . ثم يرجح أن البناء لم يتم في سنة ١٧٠ في عهد عبد الرحمن

Gomez Moreno, Excursion a traves del arco de herradura, (١)
Cultura espanola, Madrid, 1906, P. 797.

ولاحظ ايضا نحفظه في ابحاثه التالية :

- 1 — La civilizacion arabe y sus monumentos en Espana, Revista de Arquitectura, Madrid, ano II, No 19, 1919, PP. 310-312.
- 2 — El arte en Espana y el Magreb, P. 100.
- 3 — Ars Hispaniae, t. III, P. 24.

Lambert, de quelques incertitudes dans l'histoire de la (٢)
grande mosquée de Cordoue, dans Annales de l'Institut des Etudes Orientales de l'Université d'Alger, t. I, 1934-1935, PP. 179-180.

Torres Balbas, La Mezquita de Cordoba y Madinat (٣)
al-Zahra, P. 22.

(٤) يقول صاحب كتاب فتح الاندلس : « وفي غرة ربيع الاول منها ١٧٠ هـ أمر الامام عبد الرحمن بن معاوية رحمه الله بتأسيس المسجد الجامع بقرطبة - وكان في موضعه كنيسة » ا فتح الاندلس - ص ١٧٠ .
Torres Balbas, Arte hispano musulman, PP. 344-345. (٥)

الداخل ، وهو تاريخ قيام الجامع بوظيفته ، اذ كانت تنقصه بعد بعض الاعمال التكميلية . وأمام هذه المشكلة الزمنية خرج لنا الاستاذ جومث مورينو بنظرية جديدة قوامها ان بناء المسجد استغرق ست سنوات ، واستند في ذلك الرأي على نص من كتاب فتح الاندلس ، ولقد سبق ان فندت هذه النظرية من اساسها في دراستي عن « تأريخ جامع قرطبة » وذكرت ان النص الذي اعتمد عليه الاستاذ جومث مورينو لا يمت الى جامع قرطبة بصله ، وانما يشير الى جامع الجزيرة الخضراء ، فسنة ١٦٤ التي وردت في هذا النص هي سنة شروع عبد الرحمن بن خالد (والي الجزيرة) وليس عبد الرحمن بن معاوية في بناء المسجد الجامع بالجزيرة^(١) ، فمسألة اذن لا تعدو ان تكون اختلاطا بين تاريخ بناء جامع قرطبة ، وتاريخ بناء جامع الجزيرة الخضراء^(٢) . واغلب الظن ان هذه الشكوك التي ابداهها مؤرخو الفن الاندلسي ترجع الى اقتناعهم ، قبل ان يعثر الاستاذ ليفي بروفنسال على نص الرازي فيما يتعلق بتاريخ بناء الجامع ، بان زيادة عبد الرحمن الاوسط للجامع استغرقت ١٥ سنة ، فبينما يذكر ابن عذارى ان الزيادة قامت في سنة ٢١٨ ما بين الارجل (الدعائم) التي تقع ما بين السواري (الاعمدة) الى القبلة^(٣) ، فانه يشير في موضع آخر الى ان الفراغ من هذه الزيادة تم في جمادي الاولى سنة ٢٣٤^(٤) . وقد عبر لعالم الاثري جومث مورينو عن ذلك بقوله : « ويؤكد ذلك ايضا ان عبد الرحمن الاوسط الذي كانت ظروفه افضل بكثير من ظروف الداخل احتاج الى ١٦ سنة لاتمام زيادته في الجامع »^(٥) . كذلك يعبر الاستاذ

(١) Al-Sayyid Salem, Cronologia de la Mezquita de Cordoba levantada por Abd el-Rahman I, al-Andalus, 1954, P. 23.

(٢) يقول صاحب فتح الاندلس في ذلك : « ولما فرغ الامام من امر الرماحس القايم بالجزيرة الخضراء ولاها عبدالله بن خالد ، وامره ببنيان المسجد الجامع فيها ، وكان في موضعه كنيسة » (فتح الاندلس ، ص ٦٧) .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٢٦ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٤٣ .

(٥) Gomez Moreno, Excursion a traves, del arco de herra-dura, P. 797.

لامبير عن امتداد اعمال الزيادة في عصر الاوسط بقوله : « وفي عهد عبد الرحمن الثاني ، على الضد من ذلك ، احتاج الامر الى اكثر من ١٥ سنة فقط لتوسيع بيت الصلاة الى عسق اقل في مساحته من مساحة بيت الصلاة بجامع عبد الرحمن الاول ، مع ان عبد الرحمن الاوسط كانت تتوفر لديه امكانيات بلا شك اضعف ، وبناء اكثر عددا وحذقا من عبد الرحمن الاول »^(١) ، كما عبر عن ذلك مرة ثانية في بحث آخر^(٢) .

ومن هنا تولد الشك والارتياب في تاريخ بناء المسجد الاول . ولكن النصوص التي اكتشفها الاستاد ليفي يروفساكي اخيرا ونشرها اوضحت اعمال عبد الرحمن الاوسط التي قامت على مرحلتين : الاولى في سنة ٢١٨ ، والثانية في سنة ٢٣٤ . والواقع ان مدته عامين او حتى عام واحد لبناء مسجد عبد الرحمن الداخل ليست قصيرة بحيث تثير مثل هذه المسئلة . والامثلة عديدة على قيام ابنية اضعف من جامع قرطبة ، وافخم من حيث التكوينات الزخرفية ، في فترات قصيرة ، فزيادة الحكم المستنصر على روعتها من حيث البنية والزخرفة واشتمالها على قباب اربعة وساباط لم تتجاوز أربع سنين ، ومئذنة الناصر رغم ضخامتها وازدواج سلسها استغرق بناؤها ١٣ شهرا ، وزيادة المنصور ابن ابي عامر في الجامع استغرقت عامين ونصف عام ، وبناء جامع عمر بن عبدس باشيلية استغرق عاما واحدا (٢١٤) ، وبناء مدينة الزاهرة استغرق عامين فقط ، وجامع مدينة الزهراء استغرق بناؤه واتقانه ٤٨ يوما . ولا بد ان نضع في الاعتبار عوامل ساعدت على الفراغ سريعا من بناء جامع عبد الرحمن الداخل ، فاعادة استخدام بعض مواد البناء القديمة كالاغصدة الرخامية والاحجار المجلوبة من الكنائس القوطية والرومانية المخربة ساعد بلا شك في سرعة بنائه ، وكان الامير الداخل حريصا على الانتهاء من البناء في اسرع وقت

Lambert, de quelques incertitudes, P. 179. (١)

Lambert, l'histoire de la grande mosquée de Cordoue au VIII et IXe siècles, P. 165. (٢)

ممكن حتى يتيسر للمسلمين اداء صلواتهم الجامعة في الجامع الجديد ، كذلك راعى مهندسو الجامع سعيا لاتمامه بالسرعة المطلوبة البساطة في البناء وعدم التعقيد الذي قد يطيل أمد البناء ، وهو ما نشاهده بالفعل في بنية المسجد الاول التي تسودها البساطة المعمارية والزخرفية باستثناء النظام المعماري الرائع للعقود المتراكبة على صفيين . ونلاحظ ايضا ان المظهر الزخرفي العام بسيط للغاية ، ويقتصر على تناوب الالوان الناشيء من استخدام قطع الحجارة مع قوالب الآجر الاحمر . وتخطيط الجامع هو الآخر بسيط للغاية ، فهو لا يعدو بيتا للصلاة من تسع بلاطات تنحصر بين ثمانية صفوف من العقود المتعامدة على جدار القبلة ، والسقف كلها افقية لا تبرزها قباب مرتفعة تزيد من تعقيد البنية ، كل ذلك لا يقتضي ان يستغرق البناء اكثر من عامين من عمل متواصل ، ولا نشك ايضا ان الامير الداخل استخدم في بنائه عددا كبيرا من البنائين والعمال والفعلة حتى ينتهي العمل فيه سريعا ، واثق في ذلك مبلغا ضخما من المال يصل الى ثمانين الف دينار^(١) ، وهو مبلغ طائل تغنى به الشعراء^(٢) . وبالإضافة الى ما سبق نذكر ايضا انه الامير الداخل لم يبن محرابا جديدا للجامع الذي ابتناه ، وانما احتفظ بالمحراب القديم الذي ركزه حنش الصنعاني التابعي ، فنقله من موضعه القديم ، ووضعه في موقعه من جدار القبلة الجنيد^(٣) ، وقد ثبت من الحفريات التي أجريت في موضعه من أرض الجامع انه لم يكن بارزا عن جدار القبلة^(٤) ، ويعتقد الاستاذ تورييس

(١) يذكر الوزير الفساني انه انفق مائتي الف دينار (رحلة الوزير في افتتاحه الاسير ، نشرها سوفير Sauvair مع الترجمة الفرنسية ، باريس ١٨٨٤ ، ص ٢١) . والواقع انه اشترى موضع الكنيسة بمائة الف دينار ، وانفق على بناء الجامع ثمانين الف دينار (المقرئ ، ج ٢ ص ٨٣) .

(٢) فتح الاندلس ، ص ٧٠ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٢ - المقرئ ، ج ٢ ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) الرسالة الشريفة الى الاقطار الاندلسية ، من كتاب تاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية ، ص ٢٠٨ .

(٤) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 42 ، والترجمة العربية ص ٤٦ .

بلباس أنه كان يتخذ شكل حنية نصف دائرية^(١) . كذلك لم يتهاى للامير عبد الرحمن الداخل ان يكمل بناء عناصر جامعها كلها ، كالصومعة (المنذنة) وسقائف النساء ، والميضأة ، فأتمها ابنه وخليفته هشام الرضا .

وهكذا أمكننا استنادا على ما ذكرناه ان ثبت امكانية اتمام بناء المسجد الاول الذي اقامه عبد الرحمن الداخل بصورة تسمح باستخدامه للصلاة في مدة سنتين ، وان كانت المصادر العربية لمحت بان المسجد لم يكمل في عهد عبد الرحمن الداخل ، مما يقطع بأن أعمال البناء استمرت حتى بعد اقامة الصلوات فيه سنة ١٧٠ الى عام وفاة الامير في سنة ١٧٣ هـ^(٢) .

ب - موضع الجامع بالنسبة للكنيسة :

يجمع مؤرخو العرب الذين كتبوا في تأريخ بناء جامع قرطبة على ان موضع المسجد الذي اقامه الامير عبد الرحمن الداخل كانت تشغله كنيسة ، ولكنهم لا يضيفون شيئا من شأنه ان يوضح هذا الموضوع ويجلي ما اكتنفه من غموض ، والمقري هو المؤرخ الوحيد الذي نقل إلينا اسم هذه الكنيسة ، عن ابن سعيد عن ابن بشكوال عن الرازي عن الفقيه

(١) Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 351.

(٢) سجلت هذا الرأي في مقالتي عن تأريخ جامع قرطبة Cronologia de la Mezquita ، في سنة ١٩٥٤ ، وقد انتهى المرحوم الأستاذ توريس بلباس الى الاخذ به في سنة ١٩٥٧ في بحثه الكبير عن الفن الاسلامي في الاندلس (Arte hispano musulman) اذ يقول : « لا يمكننا ان نثق ثقة كبيرة في التاريخين المذكورين (١٦٨ او ١٦٩) لما نعلمه من الاخطاء المتكررة التي ترد دوما في النصوص التي لا تصل إلينا الا بعد ان تنسخ نسخا متتاليا مما أدى الى تحريف الكتابة الاصلية . ان التواريخ التي نعتقد وجوب الاخذ بها هي تاريخ سنة ١٦٨ (٧٨٤ م) الذي يسجل نزاع ملكية الكنيسة من اعاجم قرطبة ، و ١٧٠ هـ (٧٨٦) كتاريخ الشروع في قيام المسجد بوظيفته في الوقت الذي لم يتم بناء هذا المسجد في اجزاء منه وأعمال اخرى ثانوية » (Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 345).

محمد بن عيسى ، فأسمها شنت بنجنت ، وهي الكنيسة التي اقتسمها المسلمون بعد فتح قرطبة مباشرة مع أهلها النصارى ، على نحو ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد بالنسبة لكنيسة يوحنا المعمدان بدمشق ، وإن كان بعض المؤرخين يشك في صحة خبر تقسيم هذه الكنيسة الدمشقية^(١) ، ومن هنا تولد الشك فيما ذكره الرازي بشأن تقسيم كنيسة شنت بنجنت San Vicente بقرطبة بين المسلمين والنصارى . وقد ثبت هذا الشك في صحة التقسيم المذكور منذ أن ظهرت نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت عامي ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ في أرضية بيت الصلاة القديم بنظر المهندس والعالم الأثري دون فيلث هرناندث ، التي لم تؤد إلى الكشف عن آثار كنيسة أو بازيلكية ، باستثناء آثار رومانية كشفت على عمق كبير ، وتقتصر على بقايا فيفساء رومانية ، وأسس منازل ،

Creswell, Early muslim architecture, Vol. I, PP. 102 sqq. (١)
Creswell, a short account of early muslim architecture, PP. 65-72.
Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 341.

وقد أتيت لي فرصة مناقشة أستاذي الدكتور أحمد فكري في هذا الشأن ، وهو يميل إلى الاعتقاد بأن كنيسة دمشق لم يحدث أن قسمت وأن قصة مشاركة المسلمين نصارى دمشق في كنيستهم من ابتكار الرحالة الأندلسي ابن جبير وأنها قصة باطلة (فكري ، المدخل ، ص ٢٧٤) ، وبالتالي يشك سيادته في وجود كنيسة مسيحية بقرطبة أقيم عليها الجامع . والواقع أن ذكر الكنيسة ورد في عدد من المصادر العربية منها على الأقل أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس ، ص ٦١ - وفتح الأندلس لمؤرخ مجهول ، ص ٧٠ - والحميري ، ص ٨٤ - والعذري ، ص ١٢٣ - وابن عذاري ، ج ٢ ص ٣٤١ - ٣٤٢ ، وأخيراً المقرئ الذي نقل عن مؤرخين متقدمين أمثال الرازي ومحمد بن عيسى من مؤرخي القرن الرابع الهجري ، وضمن نصه المتن المذكور . المذكورة ، فالقضية على هذا النحو لم يشرها ابن جبير (الموفى سنة ٦٠٩) . ونستدل من مناقشة الأستاذ كرزول لمسألة تقسيم كنيسة دمشق بين النصارى والمسلمين ، وهي الكنيسة المسماة يوحنا المعمدان ، أن هذه الكنيسة ظلت قائمة وفي حالة سليمة حتى عهد الوليد ، فهدمها ، وأن مسألة التقسيم التي أثارها مؤرخو العرب وجغرافيوهم أمثال البلاذري وابن نتيبة وابن الفقيه الهمداني والطبري ، والمسعودي وابن عساكر وابن جبير ، فتختص بالسياج الخارجي للمعبد الوثني الذي بقي بعد بناء تيودوسيوس للكنيسة في غربي المعبد .

تعلوها آثار أسس لبناء خرب أرضيته من الملاط وجدرانها من بناء غير منتظم ، يتألف من ثلاثة أروقة تتجه من الشرق الى الغرب^(١) ، لعلها لكنيسة بدائية تنسم بالفقر في بنائها ، وضآلة حجتها اذا ما قيست بكنائس اخرى ترجع الى تلك العصور ، فان صغرها لا يتفق واعتبارها مركزا اسقفيا لعاصمة كقرطبة ، وهكذا لم يقنع هذا الكشف علماء الفن الاندلسي ، بأن الآثار الفقيرة التي أسفرت عنها الحفريات يمكن أن تكون لكنيسة قرطبة العظمى ، وعندئذ تولدت لديهم فكرة قيام عبد الرحمن الداخل باستغلال الجدران الخارجية للكنيسة الكبرى لتكون نفس جدران مسجده الذي بناه في سنة ١٧٠^(٢) ، وعندئذ فقط يصبح في الامكان القول بأن عبد الرحمن الداخل بنى جامع بقرطبة في الموضع الذي كانت تقوم عليه كنيسة وانه كان يشتمل لذلك السبب على احدى عشر بلاطا .

ولكن المشكلة تتركز في هذه الحالة في معرفة الاجابة على الاسئلة الآتية : في أي مكان من الكنيسة او في اي شطر من الكنيسة القديمة اقيم المسجد الذي ركز حشش الصنعاني قبلته ؟ والى اي حد استغل المسلمون هذه الكنيسة في بناء الجامع ؟ واين كان موقع النصف الثاني من الكنيسة الذي اشتراه عبد الرحمن الداخل ؟ .

وتصمت المصادر العربية صمتا مطبقا عن الاجابة على هذه الاسئلة ، ولذلك حاولت هنا ان اجيب عليها بقدر استطاعتي مستخدما الاستدلال المنطقي حيناً ، وما يمكن ان نستنبطه من المصادر العربية حيناً آخر ، مع مناقشة اصحاب الرأي القائل بان موضوع تقسيم كنيسة شنت بنجت

(١) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 20, 29 والترجمة العربية

Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 341. ص ٢٤ -

(٢) Gomez Moreno, op. cit., P. 29. والترجمة العربية - ص ٢٩

بعد الفتح لا يقوم على اساس تاريخي ، وان الكنيسة ظلت قائمة حتى ايام عبد الرحمن الداخل ، وانه اذا كان هناك ثمة تقسيم حقيقي حدث في الكنيسة ، فانه وقع حتما فيما بين عامي ١٣٠ ، ١٣٨^(١) .

ويعتبر دوزي اول من ابدى رأيا في تقسيم كنيسة قرطبة ، فهو يرى ان نصارى قرطبة كانوا يتمتعون بكاتدرائيتهم حتى سنة ٧٤٧م (وتوافق سنة ١٣٠ هـ)^(٢) ، ويستند دوزي في هذا الرأي على النص التالي ، اقتبسه من كتاب اخبار مجموعة : « ثم أتى بالاسرى ، وقعد لهم الصميل في كنيسة كانت في داخل مدينة قرطبة ، وهي اليوم موضع مسجدها الجامع ، ف ضرب اوساط سبعين منهم »^(٣) ، ثم يقول : « لم يكن النصارى في قرطبة يحتفظون الا بالكاتدرائية المعروفة بشت بنجت ، اذ كانت كنائسهم الاخرى قد هدمت ، وكانت معاهدة الصلح مع المسلمين قد منحتهم حق ملكية هذه الكاتدرائية »^(٤) ، ويضيف دوزي قائلا بان هذه المعاهدة احترمت طوال سنين عديدة ، « ولكن لما كانت قرطبة قد تلقت سيلا دافقا من السكان بوفود الاجناد الشامية ، واصبحت مساجدها لا تتسع لمثل هذه الكثرة السكانية ، فقد فكر الشاميون في ان يصنعوا ما سبق ان صنعوه في دمشق وحمص وفي مدن اخرى من وطنهم ، حيث شاطر المسلمون النصارى كنائسهم لاقامة مساجد ، ووافقت حكومة قرطبة على هذا النظر ، وبذلك ارغم النصارى على التنازل عن نصف كاتدرائيتهم »^(٥) . ولا ينبغي أن تترك ما ذكره دوزي دون مناقشة ، واول ما نأخذه على دوزي انه يرجع الى نص الرازي ، فيقتبس منه ما

(١) Ocana Jimenez, la Basilica de San Vicente y la gran mezquita de Cordoba, al-Andalus, Vol. VI, 1942, P. 356.

(٢) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi-Provençal, t. I, P. 281.

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٤) Dozy, op. cit., P. 281.

(٥) Ibid.

يخص كنيسة قرطبة العظمى وتهديم سائر الكنائس بحضرة قرطبة وفقا للعهد الذي صولح عليه اهل قرطبة ، بل ويقتبس ايضا من هذا النص ما رواه الرازي خاصا بشراء عبد الرحمن لنصف الكنيسة الآخر . ومع ذلك فانه لا يقر بمبدأ تقسيم الكنيسة زمن الفتح ، وهو ما اشار اليه الرازي واكدته بصفة قاطعة . ثم يزعم بعد ذلك ان قرطبة كانت تضم منذ الفتح مساجد اخرى غير الجامع الذي اسسه حنش داخل كنيسة شنت بنجنت ، ولكننا لم نعر حتى الآن على نص يؤكد انشاء جامع آخر سوى الجامع الذي ركز حنش قبلته بالكنيسة المذكورة . ومن المعروف ان المسجد الجامع هو اول ما يؤسس في المدن الاسلامية او في المدن المفتوحة ، ونعني به المسجد الذي تقام فيه الصلوات الجامعة ايام الجمعة ، ومن المعروف ايضا ان المسلمين في قرطبة لم يؤسسوا بعد الفتح بناء آخر سوى المسجد الجامع الذي اقامه حنش الصنعاني ، وقد اضيفت اليه سقائف متتابعة ليتسع بيت الصلاة فيه لأكبر عدد من المصلين ، والقنطرة التي رممها السمع بن مالك الخولاني من حجارة السور ، لحدائثة عهدهم بمصادر استقطاع الاحجار ، ولقرب القنطرة من السور ، وللرغبة في سرعة الفراغ من البناء . ثم يؤكد دوزي بصفة قاطعة ، ولكن على غير اساس ، انه بعد عام ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) - وفيه كان النصارى وفقا لرأيه يمتلكون بعد كاتدرائيتهم - وبعد ان تضاعف عدد سكان قرطبة بسبب وفود الاجناد الشامية الى الاندلس ، ارغمت حكومة قرطبة نصارى هذه المدينة على التخلي عن نصف كنيستهم ، وهو تأكيد لا يشبه اي نص تاريخي او حتى استدلال منطقي . واذا سلمنا جدلا بان هذا حدث بالفعل ، وان المسلمين اغتصبوا نصف كنيسة النصارى الذي كان بحوزتهم ، فلماذا اذن يكلف عبد الرحمن الداخل نفسه مشقة استحضار علوج النصارى بقرطبة ومفاوضتهم ، والحاحه في شراء نصف كنيستهم الباقية ، ولم يلجأ هو الآخر الى سياسة الضغط ؟ ولماذا اعطاهم حق اقامة كنيستهم المهتمة خارج الاسوار نظير تخليهم عن حقهم في هذا النصف ؟ ولماذا امتدح

الشعراء انفاقه الاموال، الطائلة في تأسيس الجامع ؟ انتهي لا أرى موجبا لنفي تقسيم الكنيسة بعد الفتح بين المسلمين والنصارى واقامة مسجد جامع في الشطر الذي آل الى المسلمين ، وفقا لمعاهدة الصلح ، ولنفي احترام المسلمين لهذه المعاهدة حتى قيام عبد الرحمن الداخل ببناء الجامع الجديد ، علما بان عبد الرحمن لم ينقض هذه المعاهدة بشرائه النصف الآخر من الكنيسة وبموافقة اصحابها . * ونلاحظ ان بناء المساجد الجامعة عند الفتح كان تقليدا متبعا عند المسلمين ، فموسى بن نصير لم يغادر الجزيرة الخضراء الا بعد ان اسس جامع الرايات ، كما ان حنش الصنعاني هو الذي اسس مسجدي البيره وسرقسطة^(١) . أما اختيار المسلمين لكنيسة قرطبة العظمى بالذات لبناء مسجدهم في شطر منها فلا يسجل حالة فريدة في نوعها في الاندلس خاصة وفي العالم الاسلامي عامة ، فقد فعل المسلمون في اشبيلية مثل ذلك عندما اقاموا مسجدهم في كنيسة ريبة Santa Rufina^(٢) ، وعندما اسسوا جامع طليطلة^(٣) ، كذلك فعلوا في كنائس الشام^(٤) ، وكنائس الاسكندرية^(٥) ، هذا الاختيار ان دل على شيء فعلى رغبة الفاتحين في تسجيل انتصارهم من الناحية الدينية ، وقد سبق لثيودوسيوس الاكبر ان اسس كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق على انقاض معبد وثني ، وان كنيسة القديس ميخائيل التي اقيمت في عصر قنسطنطين في الاسكندرية انما قامت على أنقاض معبد القيصريوم^(٦) ،

-
- (١) الحميري ، ص ٢٩ ، ٩٧ . - المقري ، ج ٤ ص ٦ .
(٢) ابن القوطية ، ص ١١ . ويقول ابن القوطية في ذلك : « وكان (عبد العزيز بن موسى بن نصير) قد ابتنى على بابها المسجد الذي قتل فيه » .
(٣) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, P. 224, Note 4.
(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، طبعة صلاح الدين المنجد ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ج ١ ص ١٤٦ . وراجع ايضا كتابي : تاريخ الدولة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٧٠٨ .
(٥) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٩ ، ص ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٦) نفس المرجع ، ص ٤٣ .

وقد فعل الاسبان نفس الشيء عند استيلائهم على مدن الاندلس ، اذ حولوا مساجدها الجامعة الى كاتدرائيات ومساجدها الصغيرة الى كنائس ، وكذلك فعل النورمان في صقلية اذ حولوا مساجد بلرمة وغيرها من مدن المسلمين الى كنائس مثل كنيسة القديس كاتالدو .

واتبع سيمونيت Simonet رأي دوزي ، اذ يشير الى أن الكنيسة كانت في سنة ١٣٠ (٧٤٨) في حوزة النصارى^(١) ، كذلك يؤكد الاستاذ كرزول تأكيداً حاسماً بأنه لم يبن مسجد في قرطبة منذ الفتح ، وأنه لا يوجد في قائمة الكنائس القرطبية السابقة على الفتح الاسلامي التي أعدها فلوريث Florez أي ذكر لكنيسة باسم سان فنسان^(٢) . وينكر كرزول حادثة تقسيم الكنيسة بين النصارى والمسلمين ، ويعتقد أن ابن جيرهو الذي ابتكر قصة تقسيم كنيسة دمشق وأتى بها الى الاندلس في نهاية القرن الثاني عشر ، فاقترنت بجامعة قرطبة بعد ذلك بمعهد قصير ، ثم أدخلت في مدونة الرازي خلال القرن الثالث عشر ، وعنها وصلت الى ابن عذارى والمقري^(٣) ، ومعنى هذا أن المسلمين لم يكن لديهم مسجد جامع زهاء ٧٥ سنة ، وهو أمر محال من الناحية العملية والمنطقية . كذلك أخذ الاستاذ أوكانية خيمث برأي دوزي^(٤) ، وأكد بأنه اذا كان البناء قد اتخذ كله أو جانب منه مسجداً للمسلمين ، فان المذبحة التي وقعت فيه في سنة ١٣٠^(٥) تصبح أمراً غير مقبول . ولكن الاستاذ خيمث نبي بلا شك أن النص

Simonet (F.J.): Historia de los Mozarabes de Espana, (١)
Madrid, 1897, P. 201.

Creswell, Early muslim architecture, Vol. II, PP. 138-139 (٢)

Creswell, a short account of early muslim architecture, (٣)
P. 213.

Ocana Jimenez, La Basilica de San Vicente, P. 349. (٤)

(٥) يقصد جلوسني السندس في كنيسة قرطبة وقيامه بقتل أسرى
اليمينية أصحاب أبي الخطار وابن خريث .

يشير الى أن هذه المذبحة انما جرت في داخل الكنيسة ، وليس في داخل المسجد ، وأن هذا النص الذي اعتمد عليه يؤكد على تقيض ذلك أن جزءا من الكنيسة احتفظ به النصارى في هذا التاريخ ، وأعتقد أن المقصود بالكنيسة في النص المذكور النصف الذي تركه المسلمون من الكنيسة الكبرى سان فسان بعد فتحهم لقرطبة ، فان كلمة كنيسة تعني البناء الذي يقوم فيه النصارى بأداء شعائر الدين المسيحي ، ولا شك أن الكنيسة الكبرى التي اقتسمها النصارى والمسلمون بعد الفتح الاسلامي لقرطبة كانت تضم مرافق وملحقات مختلفة : كمصليات ومعمودية ودار أسقفية وفناء كما يؤكد عليه الاستاذ خيمينث نفسه^(١) ، وأن مسجد حنش أقيم في موضع كانت تشغله بعض ملحقات الكنيسة المقسمة . ولا شك أيضا أن هذه الكنيسة التي يشير اليها النص العربي الذي استشهد به الاستاذ خيمينث كانت ، كما يفترض هو نفسه ، قد هجرها النصارى في هذا التاريخ (سنة ١٣٠) حتى أصبحت على هذا النحو مسرحا لمثل هذا العمل البشع^(٢) . ولكي يدعم الاستاذ خيمينث نظريته ، استشهد بنص ورد في كتاب « فتح الاندلس » جاء فيه أن قرطبة افتتحت صلحا على أن يترك للنصارى الكنيسة التي تقع في ذلك الوقت في غرب قرطبة^(٣) ، والكنيسة في اعتقاده لا يمكن أن تقع خارج الاسوار ، وانما في مدينة قرطبة نفسها ، حيث لم يكن في حوزة النصارى وقتئذ سوى البازيليكية^(٤) . ومع ذلك فأنني أعتقد أن صاحب فتح الاندلس الذي استشهد به الاستاذ خيمينث هذه المرة كان يعني كنيسة شنت أجلع خارج الاسوار San Asciclo ، التي أشار اليها أيضا صاحب أخبار مجموعة بقوله : « فلما بلغ الملك دخولهم ، خرج في جملة أصحابه وهم أربعمئة أو خمسمئة ومن خرج معه من باب

Ocana Jimenez, op. cit., PP. 361-366. (١)

Al-Sayyid Salem, op. cit., P. 6. (٢)

فتح الاندلس ، ص ٩ . (٣)

Ocana Jimenez, op. cit., P. 349. (٤)

المدينة الغربي يقال له باب اشيلية ، فتحصن بكنيسة في غربي المدينة حصينة ذات بنيان وتقانة ، وهي شنت أجلاح ^(١) ، وكانت هذه الكنيسة تقع وفقا لما أورده صاحب كتاب فتح الاندلس في الربض ^(٢) ، أي المنطقة الواقعة خارج السور الغربي ، فيما عرف بعد ذلك زمن المؤلف بالربض ، وبالذات خارج باب اشيلية المعروف في زمنه بباب المطارين ^(٣) ، وهناك مؤرخون آخرون يتفقون على هذا الموضع الذي كانت تقوم فيه كنيسة شنت أجلاح المذكورة ^(٤) . كذلك نستنتج من النص التاريخي الذي استشهد به الاستاذ خيمنث أن هذه الكنيسة كانت حصينة ذات بنيان وتقانة ، يأتينا الماء تحت الارض من عين في سفح الجبل ^(٥) ، وأنها لم تهدم تماما بعد الفتح ، فقد ورد ذكرها بعد ذلك تحت اسم كنيسة الاسرى ^(٦) ، أو كنيسة الحرقى ^(٧) ، والنصارى يعظمونها لتمسك من لاذ بها بدينهم مع شدة البلاء ، ولا شك أنها المقصودة بقول القاضي عياض في كتابه الشفاء عند تعرضه لذكر قرطبة : « ان دور قرطبة أربعة عشر ميلا ، وعرضها ميلان ، وهي على النهر الكبير ، وعليه جسران ، وبها الجامع الكبير الاسلامي ، وبها الكنيسة المعظمة بين النصارى » ^(٨) ، ولعلمهم عظموها لصبر من التجأ اليها على البلاء .

لكل هذه الاسباب اعتقد أن النص الذي اعتمد عليه الاستاذ خيمنث يشير الى كنيسة شنت أجلاح لا الى كنيسة شنت بنجنت ، التي كانت تقع

-
- (١) اخبار مجموعة ، ص ١٢ .
 - (٢) فتح الاندلس ، ص ٩ - ١٠ .
 - (٣) نفس المصدر ، ص ٩ .
 - (٤) المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
 - (٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٤٥ .
 - (٦) اخبار مجموعة ، ص ١٤ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٥ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٦ .
 - (٧) المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٦ .
 - (٨) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٦١ .

في داخل مدينة قرطبة تحت السور^(١) . فلما طلب عبد الرحمن من نصارى قرطبة بيع نصف الكنيسة القديمة الذي كان في حوزتهم أبوا عليه أول الامر ، ولكنهم سألوه بعد أن ألح عليهم في ذلك أن يسمح لهم ببناء كنيستهم المخربة خارج المدينة ، وأغلب الظن أنهم كانوا يقصدون بها كنيسة شنت أجلح المعطلة منذ الفتح .

ونستطيع بعد المناقشة السابقة أن نؤكد القول بأن المسلمين شاطروا نصارى قرطبة كنيستهم المعروفة بشنت بنجنت ، وأنهم أقاموا في قسمها الذي آل اليهم مسجدا ، أسس حنشل الصنعاني وعبد الرحمن الحبلي محرابه بأيديهما وركزا قبلته . ويبدو أن اتجاه القبلة كان محرفا نحو الجنوب ، ولكن أمراء بني أمية لم يفكروا قط في تعديلها ، تبركا بها ، بل حافظ الاميران عبد الرحمن الداخل والاوسط على المحراب القديم^(٢) ، كذلك ظلت القبلة محرفة نحو الشرق ، في عهد الحكم المستنصر ، فحافظ على اتجاهها القديم ولم يعمل على تعديلها اقتداء بأهل السلف ، عندما شرع في زيادته في الجامع^(٣) .

واعتقد أن جامع قرطبة في عصر الولاة كان يشغل جزءا من الكنيسة ، لعله فناءها أو احدى ملحقاتها ، وأن الكنيسة الفعلية ببذبحها وأروقتها ظلت من نصيب النصارى ، ولقد رجحت في رأي سابق فكرة قيام هذا المسجد البسيط الذي يسهل هدمه في فناء مسجد الامير عبد الرحمن الداخل^(٤) ، فلما عزم عبد الرحمن على بناء مسجد جديد هدم هذا المسجد

(١) فتح الاندلس ، ص ٤٣ - أخبار مجموعة ، ص ٦١ - المقرئ ، ج ٢ ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) الرسالة الشريفة في الاقطار الاندلسية ، ص ١١٦ ، ١١٧ . يقول صاحب الرسالة المذكورة أنه ورد في الاثر « انها (أي قبلة حنشل) روضة من رياض الجنة ، وبقيت الى بني أمية ، وبني بنيانا آخر لم يهدم المحراب ، ومشى على حمر خشب الى أن وقف في موضعه اليوم تبركا به » .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٩٨ .

(٤) A. Salem, Cronologia de la mezquita, PP. 401-402. (٤)

البدائي القديم ، وجعله صحناً فسيحاً لمسجده الجديد ، بينما أصبح الموضع الذي كانت تقوم فيه الكنيسة بيت الصلاة للمسجد الجامع الجديد . هذا الرأي الذي أدلى به يستند أساساً على نصين هامين : الأول أورده المقرئ وقرأ فيه : « وقال بعض المؤرخين في ترجمة عبد الرحمن الداخل ما صورته : انه لما تمهد ملكه شرع في تعظيم قرطبة ، فجدد مغاليها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ، وابتنى قصر الامارة والمسجد الجامع ، ووسع فناءه » (١) . وكان من الطبيعي أن يتم توسيع الفناء على أساس المسجد البدائي الاول الذي كان مقاماً من اللبن ، ومسقفاً بسقائف متلاصقة أقامها المسلمون سريعاً دون تخطيط سابق ولا نظام محدد ، وكلما أضافوا الى تلك السقائف سقائف جديدة كلما قل ارتفاع السقف ، وذلك لأن زيادة هذه السقائف كانت تنفذ من الجهة الشمالية لا الجنوبية التي تتميز وقتئذٍ بوجود جدار المحراب ، وهذا دليل على أن السقائف المذكورة كانت تقع شمالي بيت " صلاة الذي أسسه عبد الرحمن ، لأن الارض كانت تتدرج في الارتفاع في شمال المسجد ، فكلما التصقت سقيفة جديدة من السقائف القديمة كلما تظاهرت الاسقف وتعذر على المسلمين الصلاة وقوفاً . وكان من الطبيعي أيضاً أنه يجعل عبد الرحمن صحن جامع في الجهة الشمالية التي كان يقوم فيها المسجد البدائي الاول ، لأن بناء هذا المسجد كان بسيطاً من السهل أزالته دون مشقة ، بينما كان من الصعب هدم الكنيسة الاصلية المبنية من الحجارة والملاط ، والحفريات الاثرية التي أجريت في أرضية بيت الصلاة أثبتت بالفعل وجود كنيسة من ثلاثة أروقة في هذا الموضع . وعلى أساس هذه النظرية فإن كنيسة شنت بنجنت كانت تشغل الجانب الاعظم من بيت الصلاة في جامع عبد الرحمن الداخل الذي يقوم على الجانب الغربي من مجموع أبنية المسجد الجامع بقرطبة بعد الانتهاء من الزيادة فيه ، ونستند في ذلك أيضاً على نص ذكره

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٤ .

الحميري يؤكد أن الكنيسة كانت تقوم في الجزء الغربي من المسجد الجامع بقرطبة بعد أن استكمل صورته النهائية^(١) .

ويبقى علي أن أبين الى أي حد أفاد الامير عبد الرحمن من الكنيسة في بنيان جامع الجديد ، وهذا الموضوع يدخل في مشكلة عدد بلاطات الجامع .

ج - مشكلة عدد بلاطات المسجد الذي أقامه عبد الرحمن الداخل :

رأينا فيما سبق أن الامير عبد الرحمن الداخل ابتداءً في بناء الجامع في سنة ١٦٨ في قول ، و ١٦٩ في قول آخر ، ولكن المهم أن الجامع « لم يكمل في زمانه وكمل في زمان ابنه هشام »^(٢) ، ذلك لأن الامير توفي في سنة ١٧٢ دون أن يستكمل الجامع جميع عناصره المعمارية^(٣) ، كالمئذنة وسقائف النساء والميضأة^(٤) ، والظاهر أنه لم يتح له إقامة هذه المئذنة لانشغاله باتمام أعمال البناء التكميلية في المسجد وبناء مساجد أخرى بنواحي قرطبة . فاذا كان المسجد قد أصبح في سنة ١٧٠ صالحا لإقامة الصلوات ، إلا أنه كانت تنقصه كثير من الأعمال البنائية الأخرى التي

(١) جاء في نص الحميري أنه لما تأخر المعتمد بن عباد عن دفع الاتاة الى الفونسو السادس ملك قشتالة ، أمعن الفونسو في التجني ، « فسأل في دخول امراته القمطيجة (الكونتيسة) الى جامع قرطبة لتلد فيه من حمل كان بها ، حيث أشار اليه بذلك القسيسون والاساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه ، معظمة عندهم ، عمل المسلمون عليها الجامع الاعظم » (الحميري ، ص ٨٤) .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٣ . ويقول المقرئ في موضع آخر : « ومن محاسنه (هشام) أيضا اكمال بناء الجامع بقرطبة ، وكان أبوه شرع فيه » (المقرئ ، ج ١ ص ٣١٧ ، ونفس النص في ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٥) .

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢١ - المقرئ ، ج ١ ص ٣٠٨ .

(٤) يحدد ابن عذارى هذه الأعمال بقوله : « وهشام هو الذي اكمل سقائف المسجد الجامع بقرطبة ، ورفع منارته القديمة ، وبنى الميضأة العجيبة » (ج ٢ ص ١٠١) .

تستلزم وقتا كافيا لبنائها خاصة وأن المسجد أصبح منذ التاريخ المذكور يؤدي وظيفته على الاقل في أيام الجمعة مما يؤدي الى تعطيل القيام بهذه الاعمال . وقنع الامير عبد الرحمن بأحد أبراج قصر قرطبة المجاور ، ولعله كان يقع في السور الشرقي من القصر قرب الركن الشمالي الشرقي ليقوم مقام المئذنة ، وكان المسلمون في عصر الولاة يتخذونه مقام مئذنة لمسجد حنش الصناني^(١) .

فلما تولى هشام امارة قرطبة (١٧٢ - ١٨٠) أكمل الاعمال التكميلية التي لم يتهأ لايه الداخل ان يكملها في حياته ، وهي بناء المئذنة وسقائف النساء ومجنيات الصحن وحوض الوضوء ، فأقامها هشام من خمس فيء الفتح الاسلامي لاربونه^(٢) . وقد اهتمدى المهندس الاثري دون فيلث هرناندث الى موضع المئذنة ، واجرى فيه حفريات أثرية اسفرت عن كشف اساس قاعدتها المربعة . ويذكر ابن عذارى ان خمس فيء اربونة بلغ خمسة وأربعين ألفا من الذهب العين^(٣) ، ومن هذا الخمس اكمل هشام بناء جامع قرطبة ، ورسم القنطرة ، وبنى جانبا من القصر ، وبنى مسجدا أمام باب الجنان . وتخرج من ذلك كله بأن نفقات البناء على

(١) يقول صاحب اخبار مجموعة ، (ص ٩٣) : « وحصر أبو عثمان في صومعة المسجد الجامع التي في القصر » . وذكر المقرئ (ج ٤ ص ٣٣) أنه لما دخل يوسف الفهري القصر بقرطبة « تحصن أبو عثمان خليفة عبد الرحمن بصومعة الجامع ، فاستنزه بالامان » . وكان بقصر قرطبة المجاور - على حد قول ابن بشكوال - عدد من القصاب العالية السمو ، المنيفة العلو التي لم ير الراؤون مثلها في مشارق الارض ومفاريها ، (المقرئ ، ج ٢ ص ١٢) ، وكان أي برج من هذه الابراج او القصاب يقوم مقام المئذنة .

(٢) ابن القوطية ، ص ٤٣ - المقرئ ، ج ٢ ص ٩٧ .
وينسب الاستاذان جورج مارسيه وهنري ترأس هذه النفقات الى الامير عبد الرحمن الداخل ، والظاهر أنه اختلط عليهما الامر بين الداخل وابنه هشام
G. Marçais, Manuel d'art musulman, t. I, Paris, 1926, P. 215 —
Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, Paris, 1954, P. 137
H. Terrasse, l'art hispano mauresque, dès origines au XIIIe siècle, Paris, 1932, PP. 59-60.

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٩٥ .

الاعمال التكميلية بجامع قرطبة في عهد هشام كانت قليلة للغاية بالنسبة لما اتفق عليه ابو عبد الرحمن الداخل في بناء الجامع ، فقد رأينا ان الداخل اتفق في شراء الكنيسة مائة الف دينار ، واتفق في بناء الجامع ثمانين الف دينار ، وهو مبلغ ضخم يبرر ما قيل فيه من اشعار المدح والوصف . والواقع ان اعمال هشام في جامع قرطبة كانت كلها تكميلية لم تفرمه النفقات الهائلة التي تكلفها ابو عبد الرحمن من قبل ، مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد بان نظام العقود المتراكبة في بيت الصلاة هي من عمل الامير عبد الرحمن الداخل خاصة وان الشعراء وصفوا الاسقف الخشبية المذهبة ، ولا يمكن للاسقف الخشبية ان تقام قبل اقامة الاقواس او العقود وما يعلوها من الجدران الحاملة لهذه الاسقف . وبقي ان نعرف عدد بلاطات مسجد الامير عبد الرحمن الداخل ، وهذا يؤلف احدى المشكلات الرئيسية في تأريخ بناء جامع قرطبة . وقد انقسم المؤرخون ايضا بالنسبة لذلك الى فريقين : فريق يذهب الى ان مسجد عبد الرحمن الداخل كان يتكون من ١١ بلاطا ، ويعتمد هذا الفريق اساسا على الحقائق الاثرية التي اسفر عنها الكشف الاثري في ارضية بيت صلاة المسجد الاول دون اعتبار للنصوص التاريخية . والفريق الثاني يرى ان بيت الصلاة في هذا المسجد كان يشتمل على تسعة بلاطات استنادا على ما ورد في النصوص التاريخية وبعض الظواهر الفنية في المسجد ، ثم ظهر فريق ثالث يحاول التوفيق بين آراء الفريقين المذكورين .

وكان يتزعم الفريق الاول صاحب النظرية القائلة بالاحدى عشر بلاطا الاثري الكبير الاستاذ جومث مورينو ، الذي يذهب الى ان جزءا من المسجد ، وعلى الاقل الجدار الغربي من جامع عبد الرحمن الداخل ، لا يعدو ان يكون نفس جدار البازيليكية القديمة ، ويرجع عهده الى القرن السادس الميلادي استنادا على تماثل نظام البناء فيه مع نظام بناء باب

اشييلية الروماني في سور قرطبة^(١) . ولكن الاستاذ كرزول فند هذه النظرية ، فذكر أولا أنه من الطبيعي أن يكون أول عمل فني أقامه المسلمون في اسبانيا استمرارا للأسلوب الشائع عند قدومهم الى هذه البلاد ، على نحو ما حدث في سورية ، ثم أن الركائز التي تقسم الجدار الغربي لهذا المسجد الى مسافات منتظمة توحى بافتراض وجود كنيسة من ثلاثة أروقة متساوية في الاتساع ، وهو أمر لا يتفق مع هذه النظرية ، يضاف الى ذلك أن الاستاذ فيلث هرناندث عشر في الحفريات التي أجراها في أرضية بيت الصلاة بمسجد عبد الرحمن الداخل على آثار هامة لاتينية سابقة لا صلة لها اطلاقا بتخطيط أي جزء من البنيان الحالي^(٢) . ولقد أيد الاستاذ كامبس اي كاثورلا نظرية الاستاذ جومث مورينو ، ونسب الباب المعروف بباب سان استييان الى الكنيسة المزعومة ، وقدر عدد بلاطات الجامع الاول في عهد الداخل بأحد عشر بلاطا^(٣) . ويوافق الاستاذ هنري تراس على أن جامع عبد الرحمن الداخل كان يتألف من أحد عشر بلاطا ، ولكنه يعتبر باب سان استييان من عمل الداخل^(٤) . ويؤيد الاستاذ كرزول جومث مورينو في عدد بلاطات مسجد عبد الرحمن الداخل على الرغم من معارضته له في القول بأن الجدار الغربي من هذا المسجد هو نفس جدار الكنيسة^(٥) . أما الاستاذ ايلي لامبير فقد قبل باديء ذي بدء — مع بعض التحفظ — أن يكون عدد بلاطات الجامع الاول في عهد الداخل أحد عشر

(١) Gomez Moreno, Excursion a traves el arco de herradura, PP. 797-798.

(٢) Creswell, Early muslim architecture, Vol. II, P. 153. A short account of early muslim architecture, P. 223.

(٣) Camps Y Cazorla, Arquitectura califal y mozarabe, Cartillas de arquitectura espanola, t. IV, Madrid, 1929, P. 10.

(٤) Terrasse, L'art Hispano-Mauresque, P. 60.

(٥) Creswell, a short account, P. 214.

بلاطا^(١) ، ولكنه عدل عن ذلك فيما بعد عندما نشر الاستاذ ليفي بروفنسال النص التاريخي المتعلق بالجامع في عهد عبد الرحمن الاوسط من المقتبس لابن حيان .

غير أن النصوص التاريخية المذكورة التي توصل اليها الاستاذ ليفي بروفنسال ونشرها ، وهي نصوص قتلها المؤرخ القرطبي ابن حيان عن مؤرخين معاصرين لزيادة عبد الرحمن الاوسط في جامع قرطبة أمثال الرازي والحسن بن مفرج ومعاوية بن هشام القرشي الثبيني وابن النظام ، حددت تحديدا دقيقا عدد بلاطات مسجد الامير عبد الرحمن الداخل ، كما أوضح أعمال الامير عبد الرحمن الاوسط في الجامع المذكور . وتجمع هذه النصوص على أن بيت الصلاة في مسجد عبد الرحمن الداخل كان يشتمل على تسع بلاطات ، فأضاف اليها الامير عبد الرحمن الاوسط بلاطين جانبيين في سنة ٢١٨ استوسع بهما بيت الصلاة القديم بحيث أصبح مجموع بلاطات المسجد أحد عشر بلاطا ، ثم مد هذه البلاطات جميعا من جهة القبلة في سنة ٢٣٤ .

يقول الرازي : « وزاد الامير عبد الرحمن بن الحكم في المسجد الجامع بقرطبة ، أول الزائدين فيه من خلفاء بني مروان الزيادة الاولى الظاهرة من قبله للداخل اليه ، البارزة من بين البنية الاولى التي ابتناها أبو جده عبد الرحمن بن معاوية الامير الاول الداخل الى الاندلس ، على أساس مخطى هذا المسجد المبارك من العرب الفاتحين للجزيرة ، فمد عبد الرحمن زيادته تلك طولا مع القبلة في الفضاء البراح هنالك مع آخر

Elie Lambert, De quelques incertitudes dans l'histoire (١) de la grande mosquée de Cordoue, dans Annales de l'Institut des Études Orientales de l'Université d'Alger, t. I, année 1934-1935, PP. 175-188 — Lambert, Las tres etapas constructivas de la mezquita de Cordoba, al-Andalus, 1935, PP. 139-143.

هذا المسجد بباب المدينة الكبير القبلي المعروف اليوم بباب القنطرة . وقد كانت أبهاء المسجد الاقدم تسعة أبهاء ، زاد عليها عبد الرحمن بهوين من كل جانيه ، فأكملها أحد عشر بهوا ، استوسع به المسجد ، ورفع عن حاضريه ، واعتلى شأنه «^(١) . ويقول أبو بكر عبد الله بن الحكم بن النظام : « ومد عبد الرحمن زيادته هذه طولا من الابهاء التسعة ، وأنشاء حفافيهما من ابتدائها شرقا وغربا بهوين زائدين عليها ، ممتدين معها ، فأكمل عدد أبهاء المسجد أحد عشر بهوا ، صير سعة كل بهو من هذين البهوين تسعة أذرع ونصف »^(٢) . وواضح أن هذين النصين يزيلان الغموض الذي كان يكتنف تأريخ بناء جامع قرطبة في عصري الاميرين عبد الرحمن الداخل والاوسط^(٣) ، ويشيران في وضوح تام الى أن المسجد الاقدم الذي ابتناه الامير عبد الرحمن الداخل كان يتألف من تسعة أبهاء ، زاد عليها عبد الرحمن الاوسط بهوين أو بلاطين جانبيين ، واحد من كل من جانبي بيت الصلاة القديم ، سعة كل منها ٩ ١/٢ ذراعا ، وهي الزيادة الاولى لهذا الامير في الجامع ، وتمت في سنة ٢١٨ ، وهو تاريخ ذكره ابن عذارى وان كان قد جعله للزيادة الثانية .

اما الزيادة الثانية لنفس الامير عبد الرحمن الاوسط فتتمت في جسادى الاولى سنة ٢٣٤ ، وهي الزيادة الكبرى التي مدت فيها البلاطات الاحدى

(١) ابن حيان ، نصوص خاصة بجامع قرطبة نشرها ليفي بروفنسال في مجلة Arabica ، مجلد ١ قسم ١ ، لندن ، ١٩٥٤ ، ص ٨٩ (Arabica, Vol. I, fasc. 1, P. 89) وراجع أيضا نفس النص في : ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجى ، ص ٢٤٣ .

(٢) Arabica, P. 91-92.

(٣) يرجع سبب هذا الغموض الى تخطيط المصادر العربية وخطها بين الزيادة الاولى لعبد الرحمن الاوسط في سنة ٢١٨ وزيادته الثانية التي تمت في سنة ٢٣٤ . فابن عذارى يذكر هذين التاريخين للزيادة المنتظمة بالارجل (ابي المتصلة بالدعائم) وطولها خمسون ذراعا وعرضها ١٥ ذراعا (ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٢٦ ، ٣٤٣) ، وابن خلدون يذكر أن الامير عبد الرحمن الاوسط زاد في جامع قرطبة رواقين (ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٥) والمقري يذكر نفس العبارة (المقري ، ج ١ ص ٣٢٥) .

عشرة جنوبا تجاه باب القنطرة . وتنير النصوص الاخرى التي توصل اليها الاستاذ ليفي بروفنسال الى هذه الزيادة بجلاء ووضوح لاختفاء فيه البتة ، والنص الاول منها للحسن بن مفرج جاء فيه ما يلي : « أمر الامير عبد الرحمن بن الحكم بالزيادة في الجامع بقرطبة ، فزيدت طولاً ما بين الارجل الضخام الصخرية المائلة في صدره (يعني بها الدعائم) . الظاهرة لمن دخل اليه فيسا بينها الى آخر المسجد في منتهى المحراب »^(١) . والنص الثاني لمعاوية بن هشام القرشي الشبنيسي ، يحدد تاريخ الانتهاء من الزيادة الثانية وبدء الصلاة فيها في ٢٠ ربيع الاول سنة ٢٣٤^(٢) . أما النص الثالث للرازي فيؤرخ الفراغ من هذه الزيادة في جادى الاولى سنة ٢٣٤^(٣) . وأما النص الرابع لابن النظام فأهمها جميعاً وقد ورد فيه ما يلي : « كثر الناس بقرطبة أيام الامير عبد الرحمن بن الحكم المطبئة ، وانتابوها من كل أوب وجهة ، حتى تضايق عنهم مسجد جامعها ، وأخل كثير منهم بشهود الجمعة ، وقهرهم سلطانهم الامير عبد الرحمن عليه لأخذه برأي مالك في ألا تفرق بصر واحد صلاة الجمعة ، وحسبهم على مسجدهم هذا وحده ، فكانوا يلقون من اقتحامه قدحاً ، فأمر عند ذلك بتوسيعه والزيادة فيه ، ورسم أن يكون ذلك من قبل قبلته في الفضاء ما بينها وبين باب المدينة الراكب للقنطرة ، فعزل بها رسه حين الزيادة الثانية من بناء هذا المسجد الفاضل المنسوبة الى عبد الرحمن بن الحكم ، المحدودة من عند الارجل الحجرية الضخام المائلة اليوم في وسط أبهاء المسجد الى المحراب الاقدم الذي اتخذت فيه اليوم القبة الكبرى المخرمة ، ومد عبد الرحمن زيادته هذه طولاً من موقف حد المسجد الاول الى ناحية القبلة »^(٤) .

Arabica, op. cit., P. 90. (١)

Ibid., P. 90 (٢)

Ibid., P. 91 (٣)

Arabica, op. cit., P. 91-92. (٤)

ولكن هذا الوضوح والدقة اللذين تمثلهما هذه النصوص يتعارض مع نتائج الحفائر الاثرية التي قام بها المهندس الاثري دون فيلت هرناندث والتي تثبت بصورة حاسمة اشتغال بيت الصلاة في مسجد عبد الرحمن الداخل على أحد عشر بهوا أو بلاطا ، وعلى أساس هذا التناقض بين الحقائق الاثرية وبين النصوص التاريخية أصبح هناك فريقين : فريق يستند الى التحليل الاثري في البناء والحقائق التي أسفر عنها الكشف الاثري وهي حقائق لا تتفق قط مع ما ورد في النصوص التاريخية المكتشفة ، ويعتقد هذا الفريق بأن مسجد عبد الرحمن الداخل كان يحده من الغرب جدار الواجهة الحالية التي يفتح فيها باب سان استييان ، ومن الشرق جدار مماثل ، وأن هذا المسجد كان يضم أحد عشر بلاطا . وفريق يستند الى الوثائق التاريخية التي تنص صراحة وبصفة واضحة على أن المسجد الاول كان يتكون من تسعة أبهاء ، أضيف اليها أولا : بلاطان جانبيان في سنة ٢١٨ ، ثم زيدت هذه البلاطات جميعها في اتجاه القبلة في سنة ٢٣٤ . ويستعرض الاستاذ توريس بلباس الاسباب التي يرتكن عليها الفريق الاول وعلى رأسهم الاساتذة : جومث مورينو ، ورافيل كاستخون ، وتوريس بلباس نفسه ، من واقع الحفريات التي أجراها فيلت هرناندث في أرضية بيت الصلاة بمسجد الداخل ، والتي تتعارض نتائجها مع النصوص التاريخية التي اكتشفها ليفي بروفنسال ، وعلق عليها الاستاذ لامبير^(١) ، ونجمل هذه الاسباب أو الحجج فيما يلي :

١ - ان زيادة بلاطين جانبيين الى الشرق والغرب من بلاطات المسجد الاول الذي يشتمل على تسع بلاطات يقتضي هدم الجدارين الخارجيين اللذين يسوران المسجد من هذين الجانبين ، وكان من الطبيعي أن يستغل بناء هذه الزيادة الجدارين القديمين ، فبدلا من هدمهما كان الامر يقتضي فتح ثغرات فيهما لتكوين دعائم يمكن أن ترتكز عليها العقود ، وفي ذلك

Lambert, l'histoire de la grande mosquée de Cordoue (1)
aux VIIIe et IXe siècles, A.I.E.O.U.A., t. II, PP. 165-179.

توفير لجهد ونفقة ووقت لا ضرورة لها بهدم هذين الجدارين • وكان من المتوقع بعد القيام بحفريات في أرضية الصف الأخير من العقود في هذا الجزء من مسجد عبد الرحمن الداخل أن تكشف هذه الحفريات عن آثار أسس الجدارين المذكورين ، ولكن دون فيلث هرناندث لم يعثر على أقل أثر لجدار مستمر ، ولكنه تمكن من رؤية أسس مفردة للأعمدة التي تتوزع على امتداد البائكتين الجانبيتين • ومع ذلك فقد استطاع في حاله مشابيه لهذه الحالة وهي الجدار الشرقي من المسجد ذي البلاطات الاحدى عشر وهو الجدار الذي هدم عند شروع المنصور بن أبي عامر في زيادته للجامع من الجهة الشرقية ، استطاع أن يعثر على آثار لأسس هذا الجدار المهدم ، بل وآثار باب من الابواب التي هدمت في هذا الجدار عند شروع في الزيادة المذكورة •

٢ — بزيادة بلاطين جانبيين الى بيت صلاة المسجد الاول ليصبح عدد بلاطاته كلها أحد عشر بلاطا ، كان طبيعيا أن يوصل طرفا هذه الزيادة من ناحية القبلة بجدار المحراب وذلك بتكسلة هذا الجدار من الشرق ومن الغرب ، حتى يتصل بطرفي البلاطين المذكورين ، وكان طبيعيا أيضا أن يتميز البناء في هذه الوصلة بجدار المحراب من طرفيه عن نظام البناء القديم • ولما رفع دون فيلث هرناندث لوحات الرخام في الموضع المطابق لاحدى هاتين الوصلتين في الزاوية الجنوبية الشرقية من مسجد عبد الرحمن الداخل ذي البلاطات التسع شاهد أساس الجدار القبلي يمتد شرقا دون أن يبدو أي أثر لتلاحم الوصلة المذكورة عند نقطة الالتقاء المفترضة •

٣ — ان النقش الكتابي المسجل على الباب الغربي المعروف بباب سان استيبان على الرغم من أنه لا يشير بصفة خاصة الى هذا الباب ، فانه يؤكد أن هذا الباب أنشئ أو جدد في عام ٢٤١ هـ (٨٥٥) • ولقد ثبتت على جانبي هذا الباب آثار زخرفة نباتية متاكلة تكاد تتلاشى ، بسبب عوامل الرطوبة ، ويعتقد أن بوابة سنة ٢٤١ قد أدمجت في الجدار السابق أو ربما حلت محل أخرى هي صاحبة الآثار الزخرفية المتأكلة • وزخارف

البوابة الجديدة وهي من النوع المحفور خفرا مائلا ، وصلت إلينا في حالة ممتازة تختلف جوهريا سواء من حيث حالتها ومن حيث أدائها الفني عن الزخارف النباتية المتراكمة . ولما كان هذا الجدار قد أقيم ، وفقا للنصوص التاريخية التي أشرنا إليها ، مع الزيادة الأولى للمسجد في سنة ٢١٨ هـ (١) فلا يعقل أبدا أن تكون زخارف بوابته قد محيت وتآكلت بعد مضي ٢٣ سنة فقط من تاريخ نقشها بحيث استلزم الأمر ترميمها بعد ذلك في عهد الأمير محمد سنة ٢٤١ ، بينما يكون قد مضى على بناء عبد الرحمن الداخل للجامع ٦٩ عاما (٢) .

٤ - أشار المؤرخون إلى أن الأمير هشام أقام ميثأة بشرقي الجامع ، وقد تمكن الأستاذ فيلث هرناندث من الاهتداء إلى أسس الميثأة ومراحض في أرضية المسجد لصق الجدار الشرقي (٣) للمسجد ذي الأحد عشر بلاطا . وقد أثبت الفحص الفني الذي أجراه دون فيلث هرناندث على أن هذا الجدار الشرقي لهذا المسجد أقيم قبله جدار الحوض الملاصق للجدار المذكور (٤) .

ويتساءل الأستاذ توريس بلباس في أيهما ثق : أي الوثائق التاريخية الصريحة ، أم في الشواهد المادية التي كشفت عنها الدراسة الأثرية للمسجد ؟ ويجب الأستاذ بلباس بأنه لا يجب أن نثق ثقة عمياء في الوثائق العربية

(١) ذكر توريس بلباس تاريخ سنة ٢٠٦ لهذه الزيادة الأولى . والحقيقة أنها السنة التي تولى فيها عبد الرحمن الإمارة ، والمعروف أن الجدار المذكور أقيم في سنة ٢١٨ وفقا للنصوص التي أوردها ابن حيان (Torres Balbas, Arte hisp. Mus. P. 390).

(٢) Torres Balbas, La Portada de San Esteban, al-Andalus, Vol. XII, P. 133 — Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 390.

(٣) Torres Balbas, La mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, P. 22.

(٤) Castejon, La Portada de Mohamed I, Boletin de R.A.B.L.N.A.C., No 51, 1944, P. 505 — Torres Balbas, Nuevos datos sobre la mezquita de Cordoba, al-Andalus, Vol. VI, 1941, PP. 419-421.

التي طالما تعرضت للنسخ المتكرر والتحريف ، كما أنه لا يجب الاخذ بالشواهد المادية في البناء ما لم تكن مدعومة بحقائق تاريخية ، فان الابنية تتعرض عبر الحقب والعصور لتغيرات عديدة ، فاذا افترضنا صحة جانب من جوانبها فان تحليلها يدع مجالاً للتفسير الشخصي •

ولحل هذه المشكلات مؤقتاً عرض الاستاذان كاستخون وجومث مورينو نظرية جديدة للتوفيق بين النصوص التاريخية والشواهد المادية في البناء ، فرأيا أن عبد الرحمن أنشأ أحد عشر بلاطاً ، ولكنه فصل البلاطين المتطرفين عن بقية البلاطات الاخرى ، وجعلهما لصلاة النساء ، وظل هذان البلاطان منعزلين عن بيت الصلاة ، ولا تصلهما بالبلاطات الداخلية الا نوافذ مشبكة مفتوحة في الجدارين الفاصلين • ثم هدم الامير عبد الرحمن الاوسط هذين الجدارين ، وبدلها بصفين من العقود المماثلة لصفوف العقود الداخلية ، وبذلك أدمج هذين البلاطين في بيت الصلاة القديم^(١) • الا أن هذه النظرية باعتراف كاستخون نفسه لا تقوم على أساس تاريخي سليم ، بل وتتعارض مع بعض الحقائق التاريخية^(٢) ، فان نص ابن النظام يعبر بوضوح تام عن اضافة بلاطين متطرفين موازين للبلاطات التسعة الاخرى في المسجد الاول ، اتساع كل منهما ٩/٢ ذراعاً ، يضاف الى ذلك أن ما ذكره المؤرخون من أن عبد الرحمن الداخل لم يؤسس سقائف النساء وأن الذي أسسها هو الامير هشام في جوف بيت الصلاة في المسجد الاول • وهناك حقيقة تاريخية ثالثة هي أن الامير عبد الرحمن الاوسط هو الذي فتح في السورين أو الجدارين الشرقي والغربي للمسجد بابين^(٣) بالقرب من القبلة القديمة ، وذلك بعد أن زاد في

Gomez Moreno, *Ars Hispaniae*, P. 56 — Castejon, La (١)
Portada de Mohamad, P. 505.

Castejon, op. cit., P. 505. (٢)

(٣) يقول ابن النظام في ذلك : « وفتح في هذين البهوين الزيدتين من كلتي جنبتي البنية القديمة بأواخرهما مما يقرب من القبلة بابين بسور الشرق والغرب كملت أبواب الجامع بهما سبعة أبواب » (Arabica, op. cit., P. 91-92)

المسجد الاول زيادته الاولى ، لا شك أن الغربي منهما هو باب سان استيبان ، والثاني الباب المقابل له في السور الشرقي . وبذلك يكون باب سان استيبان من عمل عبد الرحمن الاوسط وليس من عمل عبد الرحمن الداخل . كذلك تتعارض نظرية التوفيق مع بعض الحقائق الفنية ، اذ كيف نفسر تماثل المساند المحدبة التي تتميز بها زيادة عبد الرحمن الاوسط الكبرى مع مساند البلاطين المتطرفين ؟ . كل ذلك يجعلنا لا نقبل نظرية التوفيق أو الحل الوسط التي أدلى بها كل من جومث مورينو وكاستخون ، وما زلنا نرجح كفة النصوص التاريخية التي اكتشفها ليفي بروفنسال لدقتها ، ولأنها حلت لنا مشكلة الاختلاف الواضح بين المساند المحدبة في البلاطين المتطرفين من مسجد عبد الرحمن الداخل وبين مساند بقية العقود في هذا المسجد ، وتماثل هذه المساند مساند الزيادة الكبرى الثانية التي قام بها عبد الرحمن الاوسط نفسه في سنة ٢٣٤ . أما تعارض هذه النصوص مع الحقائق الاثرية والشواهد المادية فليس عقبة حقيقية تمنع من قبولنا لها ، وسأقوم بمناقشة الاسباب التي حملت السادة تورييس بلباس وجومث مورينو وكاستخون على عدم أخذهم بالنصوص ، وليس معنى ذلك أنني لا أعترف بالشواهد الاثرية في المسجد ، ولكنني اذ احاول مناقشة الحجج التي قدمها تورييس بلباس أسعى جاهدا للتوفيق من جهتي توفيقا علميا بين الشواهد الاثرية والنصوص التاريخية على نحو يرضي الطرفين المتعارضين ، ولا يبخص من قدر ما يستندان عليه من وثائق .

فاذا بحثنا في الحجة الاولى التي يدلي بها دعاة الحقائق الاثرية ، وهي عدم وجود آثار دالة على أسس جدار المسجد الاول ذي البلاطات التسع الذي بناه عبد الرحمن الداخل ، وجدنا أنها حجة قوية وتثير الشك في حقيقة النصوص . وقد رددت عليها منذ عامين^(١) بأن عدم العثور على

(١) انظر مقالي : « أضواء جديدة على مشكلة تاريخ المسجد الجامع بقرطبة » بصحيفة المعهد المصري بمدريد . في العدد الخاص بتكريم الدكتور طه حسين (تحت الطبع) .

آثار لأسس تحدد الجدار الخارجي للجامع الاول لا تعني عدم وجود هذا الجدار أصلا ، فقد يكون هذا الجدار قد بني بمواد بناءية ضعيفة لم تترك وراءها أثرا بعد أن تهدم ، والظاهر أن هذا الجدار الغربي والجدار الشرقي المقابل له كانا قائمين على أساس جداري الكنيسة القديمة ، ففضل بناء عبد الرحمن الاوسط محو آثار أسسهما وازالتها تماما من الوجود ، ولعل لذلك دخل في أن أبحاث فيلث هرنانث لم تصل الى تحديد تصميم الكنيسة . واذا كان هؤلاء البناء لم يفعلوا كذلك بالنسبة لجدار القبلة في مسجد عبد الرحمن الداخل عند شروغهم في الزيادة الكبرى للأمير عبد الرحمن الاوسط فلأن أسس هذا الجدار لم تعزل صفوف العقود التي تتعامد على الدعائم المتبقية من الجدار المذكور ، بينما كان وجود مثل هذه الدعائم في الجانبين الشرقي والغربي من المسجد لا يجعل من الممكن انطلاق عقود بمثل اتساع عقود البلاطات الاخرى ، لأن الدعائم تشغل جزءا لا بأس به من الفراغ الذي تمتد فيه العقود ، كما حدث بعد ذلك في زيادة المنصور ، ولا شك أن قرب هذه الدعائم من السور الخارجي وضيق فتحات الاقواس المتصلة بها من العوامل التي تشوه التناسق العام للمسجد وتقلل من مظهره الجمالي ، بعكس الدعائم المتخلفة من الجدار الشرقي الذي هدمه المنصور عند زيادته الشرقية بطول المسجد ، فهي لا تؤثر في هذا المظهر ، ولعله تعمد تركها فاصلا بين زيادته وبين بيت الصلاة القديم ، تمييزا لزيادته عن أعمال غيره . على أنني في الحق لم أكن مقتنعا كل الاقتناع بردي السابق ، كما أنني لم أكن راضيا عنه كل الرضا ، أمام قوة الحجج التي يستند عليها دعاة الشواهد الاثرية ، ولكنني على أي حال رضيت به بصفة مؤقتة حتى أصل الى حل حاسم في وقت ما . وحدث أن التقيت في الصيف الماضي بأستاذي العالم الاثري الكبير الدكتور أحمد فكري ، فتباحثنا في هذه المشكلة وأبدى عدم اقتناعه بما أدليت به من حل لها ، وعرض علي حلا أجده مناسباً ومقبولاً للغاية ، وردا كافيا للمشكلة الاثرية . فقد ذكر لي أن جامع قرطبة في عهد عبد الرحمن الداخل كان يشتمل

حقيقة على تسع بلاطات كما هو واضح في النصوص ، ولكن من الجائز أن يكون البلاطان المتطرفان منها أكثر اتساعا من البلاطات الاخرى حاشا بلاط المحراب الذي يمكن أن يقاربهما أو يماثلهما في الاتساع . فلما شرع عبد الرحمن الاوسط في زيادته الاولى بالمسجد وهي الزيادة التي أضاف فيها الى بيت الصلاة بلاطين متطرفين وجد أن بإمكانه أن يقطع من البلاطين المتطرفين الفسيحين ما يكفي لبلاطين في مثل اتساع البلاطات المجاورة لهما شرقا وغربا ، ثم هدم جداري المسجد أي زحزحهما مسافة تكفي لاقامة بلاطين متطرفين جديدين أقل اتساعا من البلاطات المجاورة . وهذا يفسر عدم العثور على أي أثر لجدار خارجي تحت صف العقود الاخير من الشرق والغرب ، ولا على أي أثر لتلاحم في الوصلتين الشرقية والغربية بجدار القبلة في نقطة الالتقاء المفترضة . وأذكر أنني اقتنعت ظاهريا بهذه النظرية المنطقية التي أدلى بها أستاذي الدكتور فكري عن طريق المشاهدة . فلما ترويت في الامر وقمت بدراسة هذه النظرية دراسة عملية ازددت اقتناعا بها ، فقد رجعت الى مقاييس اتساع البلاطات فوجدت أن بلاط المحراب يصل في الاتساع الى ٧,٨٥ مترا وأن البلاطات الاربعة التالية له من كلا الجانبين يصل كل منها في الاتساع الى ٦,٨٦ مترا ، أما اتساع كل من البلاطين المتطرفين فيبلغ ٥,٣٥ م . وعلى هذا الاساس يمكن الافتراض بأن جامع عبد الرحمن الداخل كان يشتمل على تسع بلاطات ، البلاط الاوسط والبلاطان المتطرفان يصل اتساع كل منهما الى ٧,٨٥ مترا أما البلاطات الاخرى الستة فيبلغ اتساع كل منها ٦,٨٦ مترا . وفكرة اتساع البلاطين المتطرفين كانت مطبقة في بعض المساجد ولكنها شاعت مؤخرا في القرنين الخامس والسادس من الهجرة ، فزهير العامري أضاف الى جامع المرية بلاطين متطرفين أكثر اتساعا من البلاطات الاخرى^(١) ، كذلك طبق نظام البلاطين المتطرفين اللذين يزيدان في الاتساع عن البلاطات الاخرى في جامع

(١) العدي ، ج ٢ ص ٨٢ .

مدينة غرناطة الذي أقيم في القرن الخامس^(١) . كذلك كان الجامع الموحي بتينمل يضم بلاطات تسع عمودية على جدار القبلة، يتميز البلاطان المتطرفان منها بأنهما أكثر اتساعا من بقية البلاطات^(٢) ، وكان البلاطان المتطرفان بجامع حسان بالرباط أيضا أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى باستثناء بلاط المحراب^(٣) .

فلما شرع عبد الرحمن الأوسط في زيادته المذكورة ، هدم جداري المسجد الأول وهو مسجد جده الأول وأقام صفا من الأقواس القائمة على عمد على مسافة تبعد ٦,٨٦ مترا من الصف المجاور لها في كل من الجهتين الشرقية والغربية أي أنه أقام بلاطين في سعة مماثلة للبلاطات المجاورة وبقي من كل من البلاطين المتطرفين الأولين ما يقرب من متر ، فأضاف إليها من عرض الطريق المجاور ما يقرب من أربعة أمتار ونصف المتر ليتخذ على هذا النحو بلاطا متطرفا غربيا اتساعه ٥,٣٥ مترا ، وفعل مثل ذلك من الجهة الشرقية .

وبقي أن تتساءل عن السبب الذي دعاه الى تضيق هذين البلاطين المتطرفين المستحدثين بحيث أصبحا أقل في الاتساع من البلاطات الأخرى . وللرد على ذلك يكفي أن نشير الى أن أي اتساع في البلاطات من الجهة الغربية كان يتم على حساب المحجة العظمى الواقعة بين الجامع والقصر ، وكان من الضروري ألا يتجاوز مهندسو الجامع في ازاحة جدار الجامع الى أكثر من ١/٢ متر لأن ذلك كان يترتب عليه تضيق واضح للسحجة الفاصلة بين القصر والخلافي والجامع .

(١) E. Lambert, Les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al-Andalus, Vol. XIV, P. 283.

عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الإسلامية - بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٤٧ .
(٢) Terrasse & Basset, Sanctuaires et forteresses almohades, Paris, 1932, P. 48.

(٣) Margais, l'architecture musulmane d'Occident, P. 209.

والنظرية كما عرضناها تبدو منطقية ، ولكن الاخذ بها يحتاج الى اجراء بحوث أثرية في أرضية البلاطين المتطرفين حتى الجدارين الخارجيين أما النقش الكتابي المسجل على باب سان استييان فلا ينص على أن أعمال التجديد التي قام بها الامير محمد تقتصر على هذه الواجهة أو على الباب فحسب ، ولكنه نقش تذكاري يسجل أعمال التجديد التي قام بها هذا الامير لاتقان ما وجده يستحق التجديد في هذا المسجد ، ونص الكتابة ما يلي : « بسملة ... أمر الامير أكرمه الله محمد بن عبد الرحمن بينان ما حكم به من هذا المسجد واتقانه ، رجاء ثواب الله عليه وذخره به ، فتم ذلك ... في سنة احدى وأربعين ومائتين على بركة الله وعونه . سرور و (نصر فتياه) »^(١).

وكان الاستاذ لامير قد لاحظ اختلاف الكواويل أو المساند الملفوفة التي تحمل الدعائم القائمة على العمدة في مسجد عبد الرحمن الداخل عن نظائرها في البلاطين المتطرفين ، وفي الزيادة القبلية التي قام بها عبد الرحمن الاوسط ، فوجد أن المساند الاولى لها طابع متوسط بين المساند في زيادتي عبد الرحمن الاوسط والمساند الملفوفة في زيادة الحكم المستنصر . فمساند زيادتي عبد الرحمن الاوسط ملساء وبسيطة ولا تحمل الا بروزا واحدا في ربع دائرة ، أما المساند الملفوفة في بلاطات مسجد عبد الرحمن الداخل ، « فهي أكثر تطورا واتقاناً وأكثر تمقيدا ، وهي وان كانت قديمة الا أنها تبدو أحدث من النوع الذي استخدم في زيادة عبد الرحمن الاوسط ... فبدلاً من ربع الدائرة البسيط فان جوانب هذه المساند تشتمل على ثلاثة أو أربعة لفائف متصلة الامر الذي يجعل هذه المساند أقدم المساند الملفوفة في المسجد الجامع بقرطبة . وقد أعيد استخدام هذا النوع من المساند في

Combe, Sauvaget et Wiet, Répertoire chronologique (1)
d'Epigraphie arabe, le Caire, 1931, inscription No 373, P. 289 —
Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, t. I, Leiden, 1931,
P. 2.

القرن العاشر الميلادي في كل من زيادتي الحكم المستنصر والمنصور مع بعض التغيير في التفاصيل وذلك بسبب اضافة شوكة وسطى أو شوكتين تقسم لفائف المسند رأسيا من وجهه» (١) .

كذلك تحمل مساند مسجد عبد الرحمن الداخل الاقدم لفائف زخرفية أكثر بساطة من مساند الواجهة المطلة على صحن البرتقال ومساند الشرفة البارزة المطلة من أعلى على باب سان استييان ، اذ أن لفائف المساند في جامع عبد الرحمن الداخل تختلف عنها في أنها لا تحمل مثلها شوكة وسطى . ولما كانت هذه المساند المطلة على صحن الجامع وبأعلى بوابة سان استييان ترجع الى عهد عبد الرحمن الناصر (٢) ، وكانت من جملة الاعمال التي أجراها الناصر في المسجد سنة ٣٤٦ (٣) ، فإني أعتقد أنه يمكننا تحديد تاريخ المساند الملفوفة بجامع عبد الرحمن الداخل بالفترة ما بين عامي ٢٣٨ ، وهو تاريخ وفاة عبد الرحمن الاوسط وسنة ٣٠٠ هـ التي تسجل تاريخ اعتلاء عبد الرحمن الناصر عرش الامارة بقرطبة ، على أساس أن المساند الملفوفة المذكورة تمثل تطورا لنظائرها في زيادتي عبد الرحمن الاوسط ، كما تمثل مرحلة متوسطة من التطور بين مساند عبد الرحمن الاوسط والمساند المنسوبة الى أعمال عبد الرحمن الناصر . وأعتقد أن كواويل المسجد القديم وأعني به مسجد الداخل كانت ملساء ومجردة من اللفائف ، ثم أضيفت اليها اللفائف التي نراها اليوم ، على أساس أن الامير محمد هو الذي أتم البقية اليسيرة الباقية من أعمال أبيه عبد الرحمن الاوسط في المسجد وذلك في سنة ٢٤١ ، ونستدل في هذا الرأي على الوثائق التاريخية الآتية : -

(١) Lambert, de quelques incertitudes, PP. 182, 183.

(٢) ذكر ابن عذارى أن عبد الرحمن الناصر بنى صومعة المسجد .
وعدل بنيان المسجد ، وبنى وجه البلاطات الاحدى عشر (البيان المغرب .

ج ٢ ص ٢٤٤) .
(٣) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, t. I, P. 8, 9

١ - أن الكتابة المنقوشة حول طيلة عقد بوابة سان استيان تشير الى قيام الامير محمد بينان ما حكم به من هذا المسجد واتقانه ، ومعنى ذلك أن الترميم لم يقتصر على الواجهة أو البوابة وانما شمل كل ما رأى ضرورة ترميمه في هذا المسجد .

٢ - يقول ابن القوطية في تاريخ افتتاح الاندلس : « والامير عبد الرحمن (الاوسط) أمر بالزيادة في جامع قرطبة ، فتمت في أيامه الايسرا أتمه الامير محمد » (١) . ويقول في موضع آخر : « وكان عبد الرحمن بن الحكم قد بنى الزيادة في الجامع على ما تقدم ذكره وبقيت بقية أتمها الامير محمد » (٢) . ومعنى ذلك أن أعمال الامير محمد كانت تكميلية لأعمال أبيه في الجامع .

٣ - وتحدد النصوص التاريخية من المقتبس لابن حيان التي نشرها ليفي بروفنسال أعمال الامير محمد : وأولها نص لابن القوطية جاء فيه : « مات الامير عبد الرحمن وقد بقي عليه في هذه الزيادة بقايا يسيرة من تنجيد وزخرفة ، أتمها الامير ابنه محمد الوالي مكانه ، فاستوفيت الكمال في أيامه » (٣) . ويلييه نص لأبي بكر عبدالله بن الحكم بن النظام الكاتب الاخباري ونطالع فيه : « وهلك الامير عبد الرحمن قبل أن تتم زخرفة هذه الزيادة وتتميقها ، فأتى ذلك ولده الامير محمد ، وبلغه الغاية » (٤) . والنص الثالث لأحمد بن محمد الرازي وتقرأ فيه ما يلي : « قال أحمد بن محمد الرازي في مناقب الامير محمد بن عبد الرحمن أن اعتنى لأول خلافته بتتميم ما كان بقي من زيادة والده الامير عبد الرحمن المنسوبة اليه بالمسجد

(١) ابن القوطية . ص ٦٢ .

(٢) نفس المصدر . ص ٧٣ . ٧٤ .

(٣) Arabica, op. cit., P. 90.

Ibid., P. 92. (٤)

على جميع ذلك مرارا ، فأيت حائطيه قد مالا ، وغفيت جوائزه ^(١) ، فأمر
الامام وفقه الله أصحاب البيان أن يحتالوا فيه بما يقويه ويسك تداعيه
الشتوة الى أن يتمكن وقت العمل ، فعملوا بذلك ، وبنوا أرجلا رافدة
لحائطيه ^(٢) ، فتماسكا بذلك ، ونحن نحذر أن يأتي الشتاء العام عليه
وتركبه الامطار بكثرتها ، وهو على حاله هذه ، فيوشك أن يخر سقفه على
سطحه فيندق لبعد مهواها ، ونسأل الله العافية من ذلك ومن شنة ذكره
ان حل ، الى ما يتضاعف فيه من النفقة ، والامام - أصلحه الله - فقد
جدد جامع استجه ، وجامع شذونة ، وعمر بيوت العبادة بكل جهته ،
فكيف بهذا المسجد العظيم الذي هو بيضة المسلمين في جميع سلطان
الامام - أصلحه الله - وعماد مساجدهم ، وغيظ عدوهم . فرأى الامام
- أعزه الله - في الامر باصلاحه ، وتجديد العزم في تلافيه موقفا ان شاء
الله ... قال : فوق الامير على كتاب محمد (بن زياد) : انا لسنا نتفق
أحب الينا ولا أثر عندنا من الاتفاق فيما ذكرت به ، وحضضت عليه ،
ونحن آمرون بالنظر في بيان المسجد الجامع المكرم والاجتهاد في رم
شعته ، والاخذ بالجد في ذلك وتعجيله ، مع الابلاغ في تقويته وتحصينه ،
ونوكل كفائنا بعمله ، والقيام عليه ، ونأمرهم ألا يرمقوا أيديهم عنه غبا
أو حضورنا ، حتى يبلغ تمامه بحول الله وقوته ، ونحن نحملك مع ذلك
التفقد لذلك ، والمعونة عليه ، واحسان النظر في معانيه ، لتشركنا في عظيم

(١) الجوائز : جمع جائزة . وهي الكتل الخشبية التي تمسك اللوحات
المثبتة بالاسقف .

(٢) يعني بهما الحائط المثل على صحن الجامع والحائط الذي فتح
فيه عبد الرحمن فتحات واسعة تصل ما بين زيادته التي اجراها في سنة
٢٣٤ وبين المسجد الاول ، والسبب في ميل هذين الحائطين الدنع الذي
تمارسه عقود بيت الصلاة التي تتعاند عليهما . ونستدل على ذلك من أن
واجهة المسجد المظلة على الصحن تعرضت للانهارار من جديد في عهد الخليفة
الناصر الامر الذي دفعه الى ترميمها وتعديل ببيان هذا الوجه على النحو
الذي سنشير اليه .

ثواب الله والمعوثة عليه ، فانهض بذلك راشدا ان شاء الله تعالى» (١) .
٥ — يذكر ابن عذارى في حوادث سنة ٢٤١ أن الامير محمد جدد
طرز الجامع بقرطبة وأتقن نقوشه (٢) .

وفي موضع آخر يقول : « ثم زاد الامير محمد بن عبد الرحمن أن
أمر باتقان طرز الجامع وتنميق نقوشه » (٣) . والمقصود بكلمة طرز الاطار
المستطيل البارز الذي يحيط بدائرة العقد (٤) ، أو ما يعرف بالتريفة .
وإذا أخذنا بهذا التفسير ، فماذا يقصد بالاطر المستطيلة في الجامع ؟
والحقيقة أنه لا توجد بداخل الجامع أطر مستطيلة أو تربيعات ، وهذه
الاطر المستطيلة تقتصر على عقود الابواب الخارجية ، والظاهر أن ابن
عذارى استخدم كلمة « طرز » ولكنها نسخت بدون النقطة على الحرف
الاخير ، والطرز في هذا النص أو الطروز في نص الرازي تعني الافايرز
الزخرفية أو النقوش ، وهي لفظة تتناسب تماما مع المعنى المقصود ، ومع
سياق النص . ثم ان كلمة « طرز » لم ترد في البيان الا مرة واحدة ، بينما
ترددت لفظة طرز أكثر من مرة في عبارات مماثلة ، فبينما ذكر ابن عذارى
في المرة الاولى « جدد طرز الجامع بقرطبة وأتقن نقوشه » ، نراه يذكر في
المرة الثانية « أمر باتقان طرز الجامع وتنميق نقوشه » ، وما دامت طرز أو
طرر وردت مع كلمة نقوش فالارجح أنها طرز أي نقوش زخرفية وبذلك
يستقيم المعنى ، خاصة وأن الرازي استخدم لفظة قريبة منها وهي طروز
بمعنى نقوش .

(١) ابن حيان ، المقتبس ، النص الخاص بعصر الامير محمد .
ص ٢٢٣ — ٢٢٥ .

(٢) ابن عذارى ، ح ٢ ص ٣٤٣ .

(٣) نفسه ، ص ٣٤٣ .

(٤) ابن جبير ، الرحلة ، تحقيق وليم رايت . ص ٨٧ ، ٩٥ ، ١٥٢ .
وراجع تفسير لفظة طرة فيما يلي :

1 — Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, 2 Vols, Leiden -
Paris, 1927, Article Turra.

2 — Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, t. I, P. 8.

3 — Marçais, L'architecture musulmane d'Occident, P. 138.

ونعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الأمير عبد الرحمن الأوسط توفي قبل أن يستكمل زخرفة الزيادة التي أقامها ، ونعني بهذه الزخرفة زخرفة الابواب الشارعة الى بيت الصلاة ، وعلى الاخص باب الوزراء الغربي^(١) وهو الباب المعروف بباب سان استييان ، والابواب الاخرى الشارعة الى المسجد شرقاً وغرباً وعددها سبع ، اربعة في بيت الصلاة من الشرق والغرب منها باب الوزراء المذكور والباب الواقع على يساره من جهة القبلة وهو نفس الباب الذي أتمه الأمير عبدالله للدخول الى المقصورة ، والبابان المقابلان لهما من السور الشرقي للجامع ، ثم بابان يشرعان الى الصحن من الشرق والغرب ، وباب واحد في منتصف الواجهة الشمالية للمسجد^(٢) .

ويبدو ان الأمير عبد الرحمن الأوسط كان ينوي ترميم ما وهى من زخارف الجامع القديم (جامع عبد الرحمن الداخل) ولكن لم يتهياً له القيام بهذا المشروع فتولى ابنه الأمير محمد تنفيذه ، وبلغ به الغاية في الالتقان .

واول ما فعله الأمير محمد هو اتقان نقوش الابواب وتسيقها بالزخرفة ، ومن بين هذه الاعمال تزيين باب الوزراء الغربي المعروف بباب سان استييان بزخارف نباتية على كل من جانبيه ، ثم تزيين المساند التي ترتكز عليها عقود المسجد الاول الذي أقامه الداخل باللفائف ، وقد سبق أن استشهدنا بنصين للحسن بن مفرج ومعاوية بن هشام يتضمنان هذه الحقيقة ، وهي قيام الأمير محمد بترميم ما وهى من مسجد قرطبة بنية جده الاول عبد الرحمن الداخل ، وكانت قد اهتمت فيها اماكن لقدم عهدا وغفيت جوائزه واوشكت سقفه على السقوط .

هذا الترميم يفسر كيف ان لفائف الكواويل بمسجد عبد الرحمن الداخل وهو الاقدم تبدو من طراز اكثر تطوراً من لفائف كواويل الزيادتين

(١) ابن حيان ، المفتبس القسم الخاص بعصر الأمير عبدالله ، تحقيق الاب انطونية ملشور ، ص ٣٦ .

(٢) يعرف هذا الباب « بباب الصومعة الجوفي » (ابن حيان ، القسم الخاص بعصر الأمير محمد ، ص ٢١٩) .

المسويبتين الى عبد الرحمن الاوسط رغم حداثة عهدها ، ولكنها مع ذلك لا تصل في التطور الى ما وصلته لفائف الكوايل بواجهة الصحن او بالظلة المظلة على بوابة سان استيبان .

ونعود ثانية لاستكمال مناقشتنا للحجج المادية التي اوردها الاستاذ توريس بلباس ، ومنها وجود اسلويين زخرفيين مختلفين في واجهة باب سان استيبان المذكور مما حصل الاثري المذكور الى الاعتقاد بان الزخارف القديمة المتناكلة هي زخارف جدار جامع عبد الرحمن الداخل ، اد لا يعقل في رآيه أن تتناكلك هذه الزخارف بعد مضي ٢٣ من انشاء الجدار الخارجي للمسجد على يدي عبد الرحمن الاوسط ، فيضطر ابنه الامير محمد الى ترميمها . وللدرد على هذا الزعم نذكر من جديد ان النقش الكتابي المسجل على طيلة باب الوزراء لا يشير الى اصلاح قام به الامير محمد لهذا الباب بالذات وانما يشير الى جميع اعمال الامير محمد في الجامع . وقد اشترت فيما سبق ايضا الى النصوص التاريخية التي تذكر اعمال الامير محمد في المسجد كله ، ونستدل منها على انه : ١ - استوعب زخارف الجامع وأوثق ابوابه ٢ - ازال ما وهى من بنية مسجد عبد الرحمن الداخل وبالن في اتقانه حتى عاد كما كان عند اقامته ٣ - زين كوايل مسجد عبد الرحمن الداخل باللفائف الزخرفية . ونضيف الى ذلك ان الامير محمد لم يكن آخر من رمم واجهة باب سان استيبان التي يتخذها الاستاذ توريس بلباس ومن يؤيد رآيه دليلا على ان جدار هذا المسجد الخارجي من عمل عبد الرحمن الداخل ، وانما خلفه من الامراء من اهتم باصلاح البوابة المذكورة واصلاح غيرها . فابن عذارى يذكر أن الامير المنذر قام بتجديد السقاية واصلاح السقائف^(١) ، والمقري يورد نصا عن ابن سعيد جاء فيه : « وهناك (عبد الرحمن الاوسط) قبل ان يتم الزخرفة ، فآتمها ولده محمد بن عبد الرحمن ، ثم رم المنذر ما وهى منه »^(٢) .

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٢) المقري ، ج ٢ ص ٩٧ .

ويبدو ان زخارف هذا الباب قد تآكلت بفعل الرياح وعوامل الرطوبة ، وساعد على هذا التآكل طبيعة الحجر نفسه ، وهو حجر رملي رخو سريع التأثير بعوامل الطبيعة^(١) ، مما دعا الخليفة عبد الرحمن الناصر الى القيام بتعديل هذه الزخارف^(٢) ، ويبدو أنه أزال الاحجار القديمة المتآكلة في سنجات العقد وطبلته وطرته ، وكساها من جديد بأحجار صلبة نقشها بزخارف اخرى احدث عهدا من الزخارف القديمة وتشبه كل الشبه الزخارف المحفورة على الحجر التي كانت تكسو جدران قصر الخلافة بمدينة الزهراء ، كما تشبه عقد المحراب بجامع طر كونة ، وسنجات العقود في الابواب الخارجية بجامع قرطبة في زيادة الحكم المستنصر . ويبدو ايضا انه اقام بأعلى هذه البوابة شرفة بارزة او ظلة تقوم على كوابيل ذات لفائف زخرفية تشبه نظائرها في واجهة بيت الصلاة المثل على الصحن ، الذي ثبت من النقش التاريخي التذكاري انها من بنيانه كذلك^(٣) ، ولا تختلف كوابيل باب سان استييان عن كوابيل واجهة بيت الصلاة الا في بساطتها ، ولكنها تتشابه معها في تعدد لفائفها وفي وجود الشوكة الوسطى .

(١) يشير الاستاذ كاستخون الى اثر العوامل الطبيعية في تآكل الزخارف المحفورة في الحجر حتى في قطع الحجارة التي وضعها المهندس ريكاردو فيلاسكت بوسكو مكان القطع المتآكلة ، على الرغم من مضي ما يقرب من خمسين عاما منذ قيامه بأعمال الترميم (Castejon, La Portada de San Esteban, P. 492).

(٢) ذكر ابن عذارى انه قام بتعديل المسجد ، وبنيان الوجه للبلاطات ، والصومعة (ابن عذارى ، ص ٣٤٤) .

(٣) ابن عذارى ، ص ٣٤٤ . وقد سجل الناصر بنيانه لهذه الواجهة في لوحة تذكارية مدمجة على الجدار الواقع الى يمين باب بيت الصلاة المسمى بباب لاس بالماس ، ونطالع فيها النص الآتي : (بسمه ... امر عبدالله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله اطل الله بقاء بنيان هذا الوجه واحكام اتقانه تعظيما لشعائر الله ومحافظة على حرم بيوته التي اذن ان ترفع ويدكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الاجر وجزيل الدخر مع بقاء شرف الاثر وحسن الذكر . فتم ذلك بعون الله في شهر ذي الحجة سنة ست واربعين وثلاث مائة على يدي مولاة ووزيره وصاحب مبانيه عبدالله بن بدر . عمل سعيد بن ايوب) .

Lévi-Provençal, Inscriptions Arabes d'Espagne, t. I, P. 8, 9.

ولا شك ان اختلاف حالة الحفظ والصون بين الزخارف التي تزين
 سبجات العقد والزخارف الجانبية او العليا لا يمكن ان يرجع الى اختلاف
 في تنفيذها ، فان الباب قد طرأت عليه تغيرات عديدة واصلاحات متكررة .
 ولقد اشار الاستاذ كاستخون الى اصلاحات اجريت على البوابة في العصر
 الحديث^(١) ، مما دعا بعض مؤرخي الفن الى اعتبار عقد الباب بسبجاته
 الحجرية المزينة بالزخارف وطرره التي تحيط به عملا حديثا على نفس
 الاسلوب الخلافي^(٢) ، بل ان الاستاذ كاستخون يجاري هؤلاء في ذلك ،
 ولكنه ينسب الى الامير محمد الزخارف المنقوشة على جانبي العقد ،
 ويذكر أن جامع قرطبة لم يعرف قبل هذا الامير زخارف التوريق
 المحفورة^(٣) . ولكننا نعتقد ان هذه الزخارف القديمة البالية التي تزين
 جانبي باب سان استييان اقيمت في عهد الامير عبد الرحمن الاوسط
 لتشابهها بزخارف تيجان الاعمدة الموجودة في زيادته بالجامع ، بل انها مماثلة
 تماما لزخارف قوقعة زخرفية وقطع كشف عنها في أرضية الجانب الشرقي
 من زيادة عبد الرحمن الاوسط ، لعلها تخلصت من الباب الشرقي الذي

(١) يرى الاستاذ كاستخون انها رمت في سنة ١٨٦٠ على يدي
 المهندس المعماري رافاييل لوكي (Castejon, op. cit., P. 496) R. Luque
 ويذكر الاستاذ أنريكي روميرو دي توريس أن باب سان استييان أصلح في
 القرن السابع عشر وبالذات في سنة ١٦٠٢ على يدي مارتين روث اردونيث
 مدير اعمال كنيسة قرطبة ، كما يذكر أيضا ان هذا الباب نفسه أصلح قبل
 ذلك في عصر الملكين الكاثوليكيين (راجع :

Romero de Torres, Restauraciones desconocidas en la Mezquita
 aljama de Cordoba, Boletin de la R.A.C.B.L.N.A.C., No 62,
 PP. 207-212.

(٢) Terrasse, l'Art Hispano-Mauresque, P 67.

(٣) Castejon, La Portada, P. 492-498 . ويعتقد توريس بلباس
 ان الزخارف المتأكلة سواء على جانبي عقد الباب او بأعلى طرة العقد هي من
 بقايا واجهة مسجد عبد الرحمن الداخل .

Torres Balbas, La mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, P. 40.

هدم على أيام المنصور^(١) . وتسير زخارف هذه القطع الزخرفية بعنصر نباتي مشترك مع زخارف باب سان استيان وهو ورقة الاكنس . ونعتقد ايضا أن الامير محمد عمل على اتمام زخارف هذه البوابة ، وتسبب اليه العقود الصغيرة الثلاثة التي تعلو طرة عقد الباب ، وتريعات الزخارف المحصورة بينها . هذه الزخارف تقوم أساسا على ورقة الاكنس المتفرعة الى ثلاثة فصوص والمشقوقة في الوسط ، وتمائل الزخارف المتبقاة من جامع تطيلة ، وتشمل اسلوبا وسطا بين الزخارف القديمة ، وهي الزخارف التي تزين جانبي العقد ، وبين الزخارف التي تكسو السجرات الحجرية للعقد نفسه ، التي تبدو في حالة جيدة .

ونختتم مناقشتنا لمشكلات تاريخ بياض المسجد بآثار حوض الوضوء القائمة لصق الجدار الشرقي من بيت الصلاة المشتل على احد عشر بلاطا ، والذي ينسب مؤرخو الفن الاندلسي الى الامير هشام . غير أن وجود هذه الآثار في هذا الموضع لا يعد دليلا لتدعيم نظرية الاستاذين جومت مورينو وفيلث هرناندث . حقيقة أن هشام أقام ميضأة بشرقي المسجد ، ولكن ليس من الضروري أن يكون بياض هذه الميضأة ملاصقا لجدار المسجد ذي البلاطات الاحدى عشرة ، فقد تكون قد اقيمت على مسافة تبعد عن المسجد ذي التسعة بلاطات بما يعادل اتساع بلاطة زائدة ، وان عبد الرحمن الاوسط حرص على الا يزيد عرض هذه البلاطة الجانبية بأكثر من هذه المساحة حتى لا يهدم الميضأة ، فجعل سعتها اقل من سعة البلاطات الاخرى . وهناك حل يقوم على ادلة تاريخية : فالذي لا شك فيه أن هذه الميضأة كانت مقانة حقا بشرقي الجامع وانما بفناءه استنادا على نص لابن

(١) Ibid., P. 506 . ولكن الاستاذ جومت مورينو يرى ان هذه القوقعة من بقايا محراب المسجد الاول الذي بناه عبد الرحمن الداخل (الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ٤٦ - Ars Hispaniae, P. 42) وان كنت لا اؤيده فيما ذهب اليه لأن عبد الرحمن الاوسط نقل محراب حنش الى مسجده الجديد .

بشكوال ذكر فيه أن «الحكم المستنصر هدم الميضاة القديمة التي كانت بفناء الجامع الذي يستقي لها الماء من بئر السانية ، وبنى موضعها اربع ميضات في كل جانب من جانبي المسجد الشرقي والغربي، منها ثتان : كبرى للرجال وصغرى للنساء» (١) .

وعلى اساس هذا النص تكون ميضاة هشام التي رمت في عهد المنذر (٢) مقامة في صحن المسجد من جهته الشرقية . اما الاثار التي اكتشفها فيلث هرنانث فتصبح في هذه الحالة لاحدى الميضاتين اللتين أقامهما الحكم المستنصر في الجهة الشرقية من المسجد ، ولعل احدهما كانت تقوم لصق الجدار الشرقي من زيادة عبد الرحمن الاوسط والثانية في الصحن في الموضع الذي كانت تقوم فيه الميضاة القديمة . ولم تهدم هذه الميضاة الجديدة الا عند شروع المنصور بن ابي عامر في تنفيذ زيادته بطول الجامع ، فاضطر الى تهديمها وفتح ثغرات واسعة في الجدار الشرقي من المسجد ، ليستفيد من الدعائم المتخلفة في توفير الاعمدة والوقت والجهد ، فلم يتهيا له اجتثاث آثارها ، وانتزاع آثار أسس الاجزاء المتهدمة من الجدار الشرقي القديم .

★ ★ ★

وعلى الرغم من مناقشتي الطويلة لتنفيذ نظرية الاثرين جومث مورينو وتوريس بلباس وفيلث هرنانث وتأيد النصوص التاريخية التي اثبتت صحتها ، فان الحل النهائي لمشكلة تاريخ جامع قرطبة يحتاج الى اجراء حفريات جديدة في أرضية الجامع في موقع البلاط المتطرف الغربي من بيت الصلاة بمسجد عبد الرحمن الداخل وفي الصحن خاصة من الجانب الغربي . والى ان تجري هذه الحفريات ليس علينا سوى الاخذ بالنصوص التاريخية .

(١) المقري ، ج ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٣ .

دراسة بنيان المسجد الجامع بقرطبة في عصر الامارة

رأينا فيما سبق كيف اقام المسلمون بعد الفتح مسجدهم القديم في شطر من الكنيسة المعروفة بنسنت بنسنت ، وكان هذا المسجد فيما يبدو بسيطا في بنائه ، ولعله اقيم من اللبن لسهولة استخدامه ، وقام حش الصنعاني التابعي بتأسيس قبة هذا المسجد بيديه على نحو ما فعله بعد ذلك في مسجدي البيره وسرقسطة . وتمضي الايام ويتكاثر عدد المسلمين الوافدين الى حاضرة الاندلس بوصول افواج العرب الشاميين ، ووفود بقايا الامويين ومواليهم الى الاندلس بعد سقوط دولتهم في المشرق ، ونزولهم في قرطبة حتى ازدحمت بهم ، وضاق مسطح بيت الصلاة في المسجد العتيق عن الاتساع لجموع المصلين الذين كانوا يحرسون على شهود صلاة الجمعة ، واصبح الجامع لا يتسع لاعدادهم الكبيرة ، فجعلوا يعلقون فيه سقيفة اثر سقيفة يستكنون تحتها ، وكان ارتفاع هذه السقائف يقل تدريجيا لارتفاع مستوى سطح الارض كلما اتجهنا شمالا وهو الموضع الوحيد الذي يمكن الزيادة من جهته ، لارتفاع الجزء الشمالي من المسجد وانحدار أرضه من جهة الجنوب نحو النهر^(١) ، وقد سبب تظامن الاسقف وانخفاضها مضايقات عديدة للمصلين . وعندما اسس عبد الرحمن الداخل دولته لم يحفل باقامة جامع جديد للمسلمين لانشغاله بمحاربة خصومه في الداخل والخارج ، ولكن المشكلة استفحلت وازداد تعقدها بشكل حمله على التفكير في ايجاد حل لها مهما كلفه الثمن ، ولم يجد الامير بدا من مفاوضة نصارى قرطبة في شراء نصف الكنيسة التي بقيت في ايديهم منذ

(١) عالج الحكم المستنصر والمنصور هذه المشكلة فيما بعد عندما شرعا في اقامة زيادتهم ، فرفعا من مستوى أرض الجهة المراد اقامة الزيادة في اتجاهها وهي المنطقة الواقعة قبلي مسجد عبد الرحمن الاوسط . وهذا يفسر وجود الدرج الممتد بحذاء ابواب ومداخل هذه الزيادة بطول الجدار .

الفتح الاسلامي ، وضم ارضها الى ارض المسجد القديم ، وبناء مسجد جامع كبير يليق بمقامه كمؤسس لدولة بني امية في الاندلس ، ويتسع لحشود المصلين في ايام الجمع . وتم شراء الكنيسة في سنة ١٦٨ ، وشرع عبد الرحمن في هذه السنة نفسها في هدمها هي والمسجد العتيق ، بعد ان انتزع محرابه الذي كان قد اسسه حش الصنعاني بيديه ونقله الداخل الى موضعه من المسجد الجديد . وتم بناء بلاطات المسجد الجامع واسواره في سنة ١٧٠ ، ومع ذلك فان بناء المسجد بصورة عملية لم يتم الا في ايام ابنه هشام على نحو ما اوضحناه في الصفحات السابقة .

١ - مسجد قرطبة في عهد الامير عبد الرحمن الداخل :

الوصف العام : لم يتبق من جدرانه الخارجية سوى صف الدعائم الضخمة الواقعة بين المسجد الاول وزيادة الامير عبد الرحمن الاوسط ، وهي التي سماها الحسن بن مفرج وابن النظام « بالارجل الحجرية الضخام المائلة اليوم في صدره » وطول كل رجل منها على حد قول ابن النظام خمسة أذرع من الشمال الى الجنوب في عرض ذراعين من الشرق الى الغرب . وينقسم هذا الجامع الذي بناه عبد الرحمن الداخل شاته في ذلك المساجد الجامعة الاولى في الاسلام الى قسمين : قسم مسقوف هو بيت الصلاة ببلاطاته واعمدته ، وقسم مكشوف هو القناء او الصحن^(١) . وكان بيت الصلاة في هذا المسجد يشتمل على تسع بلاطات تتجه عموديا على جدار القبلة ممتدة على اثني عشر قوسا في كل بلاط ، ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة ان بلاطات جامع قرطبة كانت مثلا احتذته مساجد الاندلس الاخرى جميعا ، اذ اصبحت البلاطات العمودية على جدار القبلة من اخص مميزات

(١) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق ، نشره الفريد ديسيه لامار مع الترجمة الفرنسية ، الجزائر ، ١٩٤٩ ص ٢ - الحميري ، ص ١٥٣ .

المساجد الاندلسية في العصور المختلفة^(١) . وتقوم العقود على عمد من الرخام اتخذت من الكنائس الخربة ، وكان البلاط الاوسط اكثر اتساعا من البلاطات الجانبية على نحو ما اشرنا اليه من قبل . ويبلغ طول بيت الصلاة من الشرق الى الغرب ٦٢,٦٠ مترا وعرضه من الشمال الى الجنوب ٣٨,٠٥ مترا ، أما الصحن فكان عرضه من الشمال الى الجنوب ٣٦ مترا .

ولما كانت بنية المساجد بوجه عام ضعيفة لتعدد بلاطاتها كما هو الحال في قرطبة ، وتفصل بينها صفوف من العقود القائمة على عمد او دعائم قطاعها صغير للغاية حتى لا تشغل حيزا كبيرا في بيت الصلاة ، فيتسع لعدد كبير من المصلين من جهة ، ولا تحجب الامام عنهم أثناء قيامه بالخطبة من جهة ثانية ، ولما كانت الجدران الحاملة لاسقف الجامع تتكسى على العقود القائمة على هذه العمدة او الدعائم ، لذلك فان أي اختلال في استقرار الدعائم والعمد يسبب مباشرة هدم الاسقف . وتجنبنا لحركة العمدة وترجحها من مواضعها بفعل الضغط الذي تمارسه العقود والاسقف عليها ، ولتثبيت الدعائم والعمد في أماكنها اعتاد مهندسو المساجد ربط الدعائم من اعلاها ، والقضاء على حركة الدفع الذي تقوم به العقود والسقف عن طريق اوتار خشبية تندمج اطرافها في الحدائر التي تثبت منها العقود ، كما هو الحال في جامع عمرو بن العاص بالقسطنطين ، وجامع القيروان ، وجامع سوسة . ولما كانت الاوتار الخشبية تشوه المظهر العام للعقود ، وتبخس من قيمتها الجمالية ، فقد فكر مهندس جامع قرطبة في وسيلة أخرى لتأكيد التأثير الجمالي في المسجد ، وفي نفس الوقت لرفع الاسقف ، فابتدع حلا معماريا اصيلا ، وفريدا في نوعه ، فقد أطلال من ارتفاع الحدائر التي تثبت منها العقود الحاملة لالاسقف ، فجعل ارتفاعها مترين تقريبا بدلا من نصف متر في الحدائر العادية ، واصبحت هذه الحدائر دعائم متراكبة فوق القرم التي

(١) Lambert, les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al-Andalus, Vol. XIV, 1949, PP. 273-283.

تعلو الاعمدة ، وأبدل بالاوatar الخشبية التقليدية التي تربط بين رؤوس
العمد عقوداً هوائية متجاوزة على شكل حدوة الفرس تربط بين الدعائم
المذكورة من اطرافها الدنيا ، وتثبت هذه العقود الهوائية من الاذرع
الطويلة للقرم ، في حين ترتكز الدعائم العليا على كوابيل او مساند قائمة
على طنف التيجان . ويزيد قطاع الدعائم من اطرافها العليا عن طريق
حدائر متحررة تثبت منها العقود العليا نصف الدائرية . وهكذا امكن
للمهندس ان يرفع جدراناً علياً يتجاوز سسكها المتر فوق العقود العليا
لتقوم بحمل السقف ، وتهياً له تحقيق ذلك عن طريق التصاعد المدرج من
طنف الاعمدة الى القرم القائمة على عمد يتراوح قطر الواحد منها ما بين
٢٢,١٨ سم ، الى الدعائم المتكئة على الكوابيل ، وبذلك تمكن المهندس
من احداث تأثير جمالي لم يكلفه أكثر من ابدال العقود الهوائية بالاوatar
الخشبية ، ورفع أسقف المسجد عن طريق الدعائم العليا الى ٨,٦٠ متراً .
ولم يقنع مهندس الجامع بهذا التأثير ، بل أراد تأكيده باضفاء مظهر زخرفي
بسيط يقوم على تناوب اللونين الاحمر والاصفر الشاحب نتيجة لتناوب
الحجارة والآجر ، بحيث يتألف من هذا التناوب سنجة حجرية وثلاثة
صفوف متلاحمة من الآجر الاحمر تؤلف سنجة اخرى . وجسيع اعسدة
المسجد الذي اقامه عبد الرحمن الداخل رومانية او قوطية ، اتخذت من
الكنايس الخربة ، وأعاد بناء المسجد استخدامها في مسطح بيت الصلاة ،
وكانت جدران المسجد من الخارج تشبه الجدار الغربي الحالي الذي اقامه
الامير عبد الرحمن الاوسط ، وكانت تدعسها ركائز قوية تتلقى في الجدار
القبلي الضغط الذي تمارسه العقود المتعامدة على جدار القبلة ، في حين
اقتصرت وظيفتها في الجدارين الغربي والشرقي على اكساب المسجد صفة
القلاع ، وهو مظهر يؤكد وجود افريز الشرفات المثلثة المستنة الذي يتوج
الجدران من الخارج . وحين يتخذ المرء طريقه داخل بيت الصلاة بين صفوف
الاعمدة الممتدة الى ما لا نهاية بمقودها المزدوجة ، توحى اليه هذه العمد
والعقود المتكررة بالطبيعة الحية تحت ظلال في لون الشفق بحيث تشل

الجدران العليا. ويعتقد توريس بلباس ان البلاط الاوسط كان اكثر ارتفاعا من البلاطات الاخرى ، وان كان هذا الاعتقاد لا يستند على أي سند تاريخي ، ولكنه اعتقاد يقوم على القياس بين مسجد قرطبة ومساجد دمشق وحلب والرصافة والجامع الاقصى والقيروان والزيتونة والحاكم بأمر الله (١) . وأعمدة المسجد من أنواع شتى ، ولكن ارتفاعها يصل الى ٤,٢٠ مترا ، وتقوم على قواعد تتفاوت في الارتفاع والانبعاجات الزخرفية ، أما سوارى الاعمدة فكانت تختلف من حيث المادة والشكل ، فبعضها من الرخام ، وبعضها من الجرانيت ، وبعضها يحمل قنوات رأسية ، وبعضها حفرت فيه قنوات لولبية . أما تيجان الاعمدة فتختلف فيما بينها اختلافا كبيرا ، ويغلب عليها النوع الكورنثي الطراز على النوع المركب . أما القرم فهي على شكل هرمي ناقص قاعدته المقلوبة مربعة ، وتكثر في المسجد القرم القوطية التي تكسوها زخارف بارزة من صلبان ودوائر ومعينات وخطوط متعرجة ، وبعضها يزدان بانبعاجات كلاسيكية الطابع ، وتستند الدعائم العليا على كوابيل ذات لفائف سبق الاشارة اليها ، والى انها من عمل الامير محمد ، وتزدان هذه الكوابيل من جانبيها بدوائر او تجعدات او لفائف مخفورة ، وبعض الكوابيل يزدان بزخارف نباتية من النوع الذي نشاهده على جانبي عقد باب سان استيبان ، وقد أرجعناه الى الامير محمد كذلك .

مظاهر الاصاله : بحث مؤرخو الفن الاندلسي في اصل فكرة ازدواج العقود بجامع عبد الرحمن الداخل ، وارجعوها الى عقود الجسور الرومانية التي تقوم على طابقين أو ثلاثة ، وقارنوا نظام عقود جامع قرطبة بعقود الجسر الروماني بماردة ، وهو الجسر المعروف بجسر المعجزات (٢) *de los Milagros*

Ibid., P. 351. (١)

Marçais, Manuel d'art musulman, t. I, P. 231 — L'architecture musulmane d'Occident, P. 147 — Creswell, Early muslim architecture, Vol. II, P. 157 — Gomez Moreno, *Ars Hispaniae*, P. 41 — Torres Balbas, *arte hispano musulman*, P. 364. (٢)

ويزعم هؤلاء المؤرخون ان عقود الجسر المذكور تقوم بنفس الوظيفة البنائية التي تقوم بها العقود السفلى بجامع قرطبة ، وهي الربط بين الدعائم المرتفعة تفاديا لانهيارها^(١) . والواقع أن مهندس جامع قرطبة استخدم عقودا رابطة بدلا من الاوتار الخشبية ، محافظا بذلك على الفكرة من استخدام الاوتار أو العقود الهوائية ، وفي نفس الوقت محاولا تقليد طابقي العقود بجامع دمشق .

ويقر الاستاذ كرزول بأن جامع دمشق يتميز بوجود صفيين من العقود المتراكبة^(٢) . وعلى هذا الاساس فان مهندس جامع قرطبة تأثر بهذا النظام المتراكب للعقود في جامع دمشق ، فطبقه في قرطبة بطريقة اخرى اكثر اصالة ، بعد ان رفع السقف الى ضعف ارتفاعه باستخدام الدعائم فوق البعد ، فاتخذت العقود القرطبية صورة جديدة مبتكرة امتلأها عناصر البناء ومواده التي تتوفر لديه والحاجة الى زيادة ارتفاع سقف الجامع . واذا قارنا بين عقود قرطبة الموزعة على طابقين وعقود دمشق الفينا عقود دمشق العليا لا تعدو ان تكون عقودا اصغر حجما وقائمة على عمد مستقرة على جدار قائم بدوره فوق العقود السفلى . اما في قرطبة ، فالامر مختلف لان العقود السفلى تبدو طائفة في القضاء بين صفي الاعمدة والدعائم ، الغرض منها واضح وهو ربط الدعائم العليا المرتكزة على الاعمدة السفلى . وبالنسبة لجسر المعجزات نجد ان الدائرة العليا من عقود الجسر السفلي ليست طائفة في الهواء كما هو الحال في العقود السفلى بجامع قرطبة ، اذ أن لها بنيقات مليئة بالبناء تمتد باعلى العقد كما هو الحال في دمشق ، وتعلو مفتاحه ايضا ، أما عقود قرطبة فعلى الضد من ذلك عقود حرة منطلقة ، يسكن أن تقوم بمفردها دون ان تندمج مع عقود اخرى كما يمكن ان تتقاطع معها مؤلفة شبكة كالتي تؤلف قواعد قباب زيادة الحكم المستنصر في الجامع نفسه^(٣)

Torres Balbas, op. cit., P. 363. (١)

Creswell, a short account, P. 227. (٢)

Camps y Cazorla, Modulo, proporciones y composicion (٣)
en la arquitectura califal de Cordoba, Madrid 1953, P. 23.

وهي لهذا السبب عقود أصيلة مبتكرة ، وعلى هذا الاساس لا تصح مقارنة ظاهرة العقود المزدوجة في جامع قرطبة بعقود جسر ماردة ، لاختلاف وظيفة كل من البنائين من جهة ، واختلاف طريقة الاداء من جهة ثانية ، واختلاف الظروف الزمانية التي أقيم فيها كل منهما من جهة ثالثة ، واختلاف النسب بينهما من جهة رابعة ، والمقارنة على هذا النحو فيها تعمد واضح لتجريد مظاهر الاصاله والابتكار من جامع قرطبة ، ونسبة الفكرة الى آثار رومانية لا علاقة لها قط باثرنا الذي تقوم بدراسته . ولا شك ان فكرة العقود المتراكبة في جامع قرطبة ابتداء فريد في تاريخ العمارة^(١) ، وقد أقر الاستاذ كرزول باصاله عقود قرطبة وعدم وجود امثلة مماثلة لها قبل ذلك في أي مكان آخر ، ويعبر عن ذلك بقوله : « لقد قيل ان هذا النظام القرطبي استلهمه مهندس الجامع من العقود المزدوجة بالجسور الرومانية مثل الجسر المعروف بلوس ميلاجروس بماردة . ولكن العقود القرطبية هنا ليست مثلها ، ولذلك فانا يجب ان نعطي مهندس الجامع ما يستحقه من الاصاله لتوفيقه الى هذا الحل البارع الذي لا يوجد له نظير في أي مكان »^(٢) .

ويتجلى مظهر الاصاله أيضا في تناوب السنجات الحجرية مع السنجات المتخذة من قوالب الآجر بالعقود ، وقد ارجع مؤرخو الفن هذه الفاترة الى آثار رومانية قديمة من امثلتها البيت المعروف باسم Citarista في بومبي (٧٩ ق م) ، وبعض امثلة اخرى من عصر متأخر مثل عقود قصر تريفيرس Tréveris بالمانيا^(٣) ، وقد انتقلت هذه الطريقة الفنية لبناء عقود بالحجر والآجر الى العمارة البيزنطية والكارولنجية مثل عقود واجهة قصر تكفور سراي بالقسطنطينية وترجع الى القرن الحادي عشر ، كما تتسل أيضا في بعض الامثلة الاموية مثل بعض عقود الجامع الاموي بدمشق

(١) فكري ، المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ، ١٩٦١ ، ص ١٤ .

(٢) Creswell, a short account, P. 228.

(٣) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 365.

وبعض العقود بجامع حماة وبعض القصور الاموية مثل حصن قصير الحلابات حيث تتناوب سنجات رخامية مع أخرى من البازلت^(١). ولكن على الرغم من كثرة امثلة هذا النوع من الزخرفة المعمارية وتعددتها ، فانها لم تجتمع في أثر مثل ما اجتمعت في جامع قرطبة ، فقد غمرت العقود وامتدت الى الجدران الخارجية .

ب - المسجد الجامع في عهد خلفاء عبد الرحمن الداخل :

اعمال الامير هشام : كان الامير هشام قد أكمل المسجد الذي بناه أبوه عبد الرحمن الداخل ، فأنشأ مئذنة المسجد القديمة التي كانت تقوم لصق السور الشمالي للمسجد من الخارج بجوار الباب الرئيسي الذي كان يتوسط هذه الواجهة الشمالية على مسافة تبعد نحو ٢٣,٩٠ مترا من الجدار الشمالي الحالي للمسجد^(٢) ، وقد تمكن المهندس الاثري دون فيلت هرناندث من كشف أساس هذه المئذنة ، فوجد أن قاعدتها كانت مربعة ، طول كل جانب منها ستة أمتار . ويذكر المؤرخون أن ارتفاع هذه المئذنة حتى موضع الآذان بلغ أربعين ذراعا ، أي ما يعادل عشرين مترا تقريبا . وكان يتوسط المئذنة من الداخل نواة مربعة الشكل يدور بينها وبين جدرانها الخارجية درج لولبي على نحو ما نراه في برجي سان خوان وساتياجو بقرطبة وكانا في الاصل مئذنتين لجامعين ، ومئذنة جامع ابن عديس باشيلية ، ويعتقد الاستاذ توريس بلباس أن الاصل الاسباني لهذا النوع من المآذن يرجع الى فترة تسبق الفتح الاسلامي ويتمثل في الدرج اللولبي بمعمودية جايا بغرناطة^(٣) .

Sauvaget, La mosquée omeyyade de Médine, étude sur (١)
les origines architecturales de la mosquée et la basilique, Paris
1947, P. 105.

Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 44. (٢)

Torres Balbas, La primitiva mezquita mayor de Sevilla, (٣)
al-Andalus, Vol. XI, 1946, P. 436.

والامير هشام أيضا هو الذي أكمل سقائف المسجد ، فابتنى في تهاية بيت الصلاة مما يلي الصحن سقائف لصلاة النساء ، كما أقام ميضأة في الجانب الشرقي من صحن المسجد^(١) .

أعمال الامير عبد الرحمن الاوسط : ولما تولى الامير عبد الرحمن امارة الاندلس بعد وفاة أبيه الحكم الربضي في سنة ٢٠٦ هـ (٨٢٠ م) رفع من شأن قرطبة ، وجعلها عاصمة تليق بالامارة . وفي عصره كثر الناس بقرطبة ، « واتبوها من كل أوب وجهة ، حتى تضايق عنهم مسجد جامعها » وأخل كثير منهم بشهود الجمعة ، وقهرهم سلطانهم الامير عبد الرحمن عليه لأخذه برأي مالك في ألا تفرق بمصر واحد صلاة الجمعة ، وحسبهم على مسجدهم هذا وحده ، فكانوا يلقون من اقتحامه قدحا ، فأمر عند ذلك بتوسيعه والزيادة فيه^(٢) ، فعمد الامير الى توسعة المسجد مرتين : ففي المرة الاولى أضاف بلاطين جانبيين في سنة ٢١٨ ، استوسع بهما المسجد^(٣) ، ثم أوصل هذين البلاطين في سقيفتين يحفان بصحن المسجد من الشرق والغرب ، كل سقيفة منهما تقوم على ١٩ سارية ثم أوصل هاتين السقيفتين أو المجنبتين من أبوابهما القبليّة بالسقائف التي كان قد أسسها الامير هشام في جوفي بيت الصلاة ، ثم ربط بين هاتين السقيفتين عند طرفيهما الشماليين بسقيفة شمالية تقوم على ٢٣ سارية^(٤) . أما الزيادة الثانية فقد تمت في سنة ٢٣٤ ، وفيها مد بلاطات المسجد جنوبا في القضاء الواقع ما بين القبلة القديمة وباب المدينة القبلي ، وهي الزيادة « المحدودة من عند الارجل الضخام المائلة اليوم في وسط أبهاء المسجد الى المحراب

(١) ابن القوطية ، ص ٤٣ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤٢ - المقري ، ج ١ ص ٣١٧ .

(٢) ابن حيان ، النص الخاص بزيادة عبد الرحمن الاوسط للجامع ، نشرها ليفي برونفسال في مجلة Arabica ص ٩١ - ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجى ، ص ٢٤٥ .

(٣) Arabica, P. 89.

(٤) Ibid., PP. 91-92.

الاقدم الذي اتخذت فيه اليوم القبة الكبرى المخزومة»^(١) ، وهي القبة التي أقامها الحكم المستنصر عند مدخل زيادته . ويحدد الحسن بن مفرج هذه الزيادة بين الارجل الضخام الصخرية المائلة في صدره ، الظاهرة لمن دخل اليه فيما بينها الى آخر المسجد في منتهى المحراب»^(٢) . وقد بلغ طول هذه الزيادة من الجنوب الى الشمال خمسين ذراعا (ما يعادل ٢٣,٥٠ مترا تقريبا) ، واستخدم فيها ثمانين عمودا^(٣) . وقد أشرف على تنفيذ هذه الزيادة أكبر فتيانه الخاصة نصر ومسور ، كما أشرف عليها قاضي قرطبة وصاحب الصلاة فيها محمد بن زياد . وسأيرت زيادة عبد الرحمن أسلوب البناء والزخرفة في مسجد الامير الداخل ولم تشذ عنه الا في الكواويل التي اقتصرت على بروز محدب يعادل ربع الدائرة . وفتح عبد الرحمن الاوسط في زيادته الاولى بابا في كل من جداري المسجد الشرقي والغربي ، الباب الغربي منهما هو الباب المعروف بباب الوزراء (سان استيان) ، وفي الزيادة الثانية فتح في جداريها الشرقي والغربي بابين آخرين يعرف الغربي منهما اليوم بباب سان ميغل ، وكان يعرف في العصر الاسلامي بباب الامير ، لأن الامير عبدالله أوصله بساباط يصل ما بين القصر والجامع . أما البابان الشرقيان فقد هدمتا عند شروع ابن عامر في زيادته .

وجدران المسجد الخارجية من انشاء عبد الرحمن الاوسط ، وتتميز بالركائز الضخمة التي أكسبت الجامع مظهر القلاع^(٤) ، ويعلو الجدران من أعلى شرفات مثلثة مسننة ومتدرجة ، تقوم على افريز منبجج يدور بأعلى الجدران كلها . ويعتقد الاستاذ تراس أن المسلمين اقتبسوا شرفات مساجدهم من العمائر الحربية الكلدانية والفارسية القديمة ، وإن الشائع

(١) Ibid., P. 92. — ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٢٦ ، ٣٤٣ .

(٢) Arabica, P. 90.

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٢٦ .

(٤) Gomez Moreno, op. cit., P. 29. ، والترجمة العربية ، ص ٢٩

في هذه العماائر استخدام الآجر ، ولكن هذا الموضوع نقل الى الاندلس مع اختلاف بسيط هو استبدال الحجارة بالآجر^(١) ، والظاهر أن بناء الجامع اقتبسوه من جامع القيروان^(٢) . ويتميز ببيان هذه الجدران بالصفوف التي تتناوب فيها كتل الحجارة الطولية والعرضية .

وفي زيادة عبد الرحمن الاوسط يقول الشاعر ابن المثني :

بنيت لله خير بيت .	يخرس عن وصفه الانام
حج اليه بكل أوب	كأنه المسجد الحرام
كأن محرابه اذا ما	حف به الركن والمقام

وقال آخر :

بنى مسجدا لله لم يك مثله ولا مثله لله في الارض مسجد
سوى ما ابتنى الرحمن والمسجد الذي بناه نبي المسلمين محمد
له عمد حمر وخضر كأنما تلوح يواقيت بها وزبرجد^(٣)

وهذه الاعمدة التي أشار اليها الشاعر هي أربعة أعمدة نفيسة في عضادتي المحراب الحالي ، الذي أقامه الحكم المستنصر ، نقلها الى محرابه الذي أنشأه بزيادته^(٤) ، وهي اثنان اخضران واثنان زرزوريان^(٥) .

ويمكننا أن نرى هذه الاعمدة الاربعة في الوقت الحاضر في محراب المسجد ، وتعتبر هذه الاعمدة من صناعة اسلامية خالصة شأنها في ذلك شأن الاعمدة الاسلامية وتيجانها الاحدى عشرة التي تزدان بها زيادة

(١) Terrasse, L'art hispano Mauresque, P. 61.

(٢) Marçais, Manuel d'art musulman, P. 32 — L'architecture musulmane d'Occident, P. 19.

(٣) القرني ، ج ١ ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٣٥٥ .

(٥) ابو حامد الغرناطي ، عجائب المخلوقات ، مخطوط محفوظ باكسفورد

. Hunt 565

عبد الرحمن الاوسط^(١) . وتتميز زخارف زوج من تيجان هذه الاعمدة الاربعة بصف أدنى من أوراق الاكشس التي تحني من أعلاها ، عددها ثمانية ، تعلوها أربعة ركنية يتوسطها في كل وجه غصنان نباتيان متداخلان على شكل دائرتين متقاطعتين ، ينتهيان من أعلى ورقتي الاكشس القائمتين بطرفي التاج بلقيفتين . أما الزوج الآخر فيشتمل على ثلاث مناطق متساوية : المنطقتان السفليتان تحتشد في كل منهما ثمان ورقات من الاكشس تنبت من أعلاها لقيفتان ركنيتان متداورتان في كل وجه ، ويتفرع منهما في الوسط لقيفتان متقابلتان ، ولكنهما أصغر من لقيفتي الركنين ، ويزدان طرف التاج عند منتصفه بزهرة كبيرة^(٢) .

وكان مسجد عبد الرحمن الاوسط يشتمل وفقا لما ذكره صاحب كتاب مجموع المفترق على تسعة أبواب تتوزع كما يلي : ثلاثة في صحن المسجد غربا وشرقا وشمالا ، وأربعة في بلاطاته : اثنان شرقيان واثنان غربيان ، وفي مقاصير النساء من السقائف بابان فتحهما الامير عبد الرحمن الاوسط بعد اضافته الاولى^(٣) . أما ابن النظام فيجعلها سبعة : أربعة في بيت الصلاة وثلاثة شارعة الى صحن المسجد ، ولم يحتسب ابن النظام البابين الداخلين الى سقائف النساء مع أنه أشار اليهما^(٤) . وأهم أبواب زيادة عبد الرحمن الاوسط في الجامع بابا السور الغربي الشارعان الى بيت الصلاة ، أولهما باب الوزراء المعروف اليوم بباب سان استييان ، والباب الذي يليه من جهة القبلة وهو باب الامير ، ويعرف اليوم بباب سان ميغل .

باب الوزراء : ويتميز باب سان استييان بوقوعه بين ركنيتين ، وتبرز واجهة الباب قليلا عن الجدار ، ويعلو الباب عقد على شكل حدوة الفرس

Gomez Moreno, *Ars Hispaniae*, P. 49 — Torres Balbas, (١)
arte hispano musulman, P. 397.

Torres Balbas, op. cit., P. 401. (٢)

(٣) القرى ، ج ٢ ص ٩٥ .

Arabica, P. 91. (٤)

مسدود تجاوز نصف الدائرة الى ما يقرب من $\frac{1}{4}$ قطر الدائرة ، وسنجات العقد تمتد الى نصف القطر ، لأن سنجاته السفلى تتألف من ٤ كتل حجرية من كل من جانبيه ، ويقوم العقد على حدارتين مقعرتين من جانبيهما المتقابلين ، وتسنيج الثلث العلوي من العقد يتناوب فيه سبع سنجات حجرية وثمان مجموعات من الآجر كل مجموعة تتألف من ٤ قوالب قائمة . ويحيط بالعقد افريز بارز مستطيل الشكل (أو طرة) يمتد حتى رجلي العقد ثم يدور به من أعلى ، ويفصل العتب عن طلبة العقد شريط أفقي بارز من الكتابة يمتد الى باطن العقد . ويغلب على الظن أن طلبة العقد كانت مكسوة في الاصل بزخارف هندسية على نحو الزخارف التي نشاهدها اليوم في طבלات الابواب الاخرى .

ويحتفظ باب سان استييان من الداخل بنفس نظامه الخارجي ولكن بدون الافريز الذي يدور بدائرة العقد وبدون الزخارف التي تغطيه من الخارج . أما الافريز المستطيل فيقتصر في الداخل على شريط أملس قليل البروز يعلوه افريز آخر حفرت فيه شرفات مستنة صغيرة تشبه الشرفات التي تعلو جدران المسجد من الخارج . ويعلو الباب من أعلى الطرة المستطيلة الشكل ثلاثة عقود صماء متباعدة ، تجاوزت نصف الدائرة ، تبت أقواسها من حداثر مقعرة الجوانب ، ويكسو الفراغ الواقع بين كل عقدتين زخارف من التوريق قد محيت معالمها ، وان كنا ما زلنا نميز فيها الفروع الملتفة التي تتوسطها أوراق الاكشس ، وبأعلى واجهة الباب شرفة بارزة أو ظلة تقوم على تسعة كوابيل ذات لفائف يخترق الكابولي من وجهه شريط رأسي يشطر اللفائف الى شطرين .

وعلى جدار كل جانب من جانبي عقد الباب ، وفي الفراغ المستد بين جانبي طرته والركيزتين اليمنى واليسرى ، زخارف محفورة في الكتلة الحجرية التي تتوسط الجدار من كلا الطرفين في نطاق مدرج زخرفي من ثلاثة طوابق ، يحيط به افريز بارز يزدان بأوراق من الاكشس محفورة فيه ، وعلى جانبي هذا المدرج الزخرفي جوفتان مسطحتان تكملان مع المدرج

الزخرفي شكل مستطيل ، ويغمر المدرج الزخرفي وتغطيه مع الجوفتين المذكورتين زخرفة من التوريق ، أوراقها محفورة ومختمة تمتد بين فروع ملتوية ومتداخلة ، ولكن الاحجار التي حفرت عليها الزخارف ، قد تآكلت وبليت بتأثير الرطوبة ، فمحيت أجزاء منها ، ويعلو المستطيل الزخرفي الذي يتشكل من المدرج والجوفة المسطحة في الوقت الحاضر من كلا جانبي الباب نافذة مشبكة من الرخام تحيط بها زخارف نباتية دقيقة ، محصورة في طاقة صماء على شكل عقد متجاوز ، ويمكننا أن نميز في هذه الزخرفة النباتية التي بليت ومحيت رسومها بسبب تآكل أوجه الكتل الحجرية ، أوراق العنب بين فروع منحنية في دوائر ، وورقة الاكشس كذلك . أما النافذتان المشبكتان فيعتقد الأستاذ توريس بلباس أنهما اتخذتا من بناء روماني (١) ، وان كنت أعتقد أنهما من العصر الاسلامي وبجامع قرطبة أمثلة مشابهة في واجهة الباب الاخير من الجانب الشرقي من جهة القبلة ، كما أن جامع دمشق يضم نوافذ مشابهة كذلك (٢) .

ويعتقد الأستاذ توريس بلباس أيضا أن نظام التقسيم الرأسى الثلاثى لبوابة سان استييان مقتبس من الابنية الرومانية في عصر الامبراطورية وكذلك من الابنية البيزنطية (٣) ، ولكن بوابة سان استييان تختلف في اعتقادي من حيث التصميم والاداء عن الامثلة التي ذكرها الأستاذ توريس بلباس ، وكل ما في الامر أن المهندس قد راعى أن يسود التناسق والانسجام ، والايقاع والتوازن في توزيع الفراغات والكتل ، وقد وفق في عرض توزيع ايقاعي ، وكان من أثر ذلك أن كل عنصر من عناصر هذا الباب سواء ما يتعلق بالبناء أو الزخرفة يشهد بالاصالة والدوق .

(١) Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 406.
(٢) شاهدت في الكنيسة البيزنطية بدير سانت كاترين بسيينا سنة ١٩٥٩ نافذة مماثلة الرسم والتخطيط للنافذة اليمنى من باب سان استييان.
وقد اتفقت مع الأستاذ فورسابت رئيس البعثة الامريكية وقتئذ على ارجاعها الى العصر الاموي ، لأن الكنيسة المذكورة تعرضت في العصر الاسلامي لكثير من اعمال التجديد والترميم .
(٣) Torres Balbas, op. cit., P. 411-413.

أعمال أمراء بني أمية بعد عبد الرحمن الأوسط : توفي الأمير عبد الرحمن قبل أن يستكمل تنسيق زيادته بالجامع ويزخرفها ، فأتمها ولده الأمير محمد بن عبد الرحمن^(١) في سنة ٢٤١ • وقد كان هذا الأمير على حد قول معاوية بن هشام « مجبولا على حب البنيان ، مشغوفاً بتشيد مبانيه ، مستتبها لآلاتها ، مختاراً لصناعها ، مبالغاً في اتقانها ، سناخياً بالاتفاق عليها ، مؤثراً لآنافه أشخاصها على فسح ساحاتها ، راغباً عما كان يأخذ به آباؤه من الاقتصاد في تنجيدها إلى ضد ذلك من التضخيم لها والاعلاء لفررها ، ومعاملتها من التجيد والزينة والفرش والآلة بما يشاكلها ويضاهيها ، فكل متقن من آفة الملك وسرى من آله ونفيس من زينته ، فمن اقتناء محمد واستخراج فطنته واستنباط قريحته »^(٢) • فهو الذي أتم طرز الجامع ونسق نقوشه^(٣) ، واستوعب زخارفه وأوثق أبوابه^(٤) ، وجدد البنية الأولى ونعني بها البناء الأول للجامع الذي أقامه الداخل ، فأصلحها ورممها على النحو الذي فصلنا الحديث عنه من قبل • وفي سنة ٢٥٠ هـ أقام مقصورة بالمسجد ، وهو أول من اتخذها من أمراء بني أمية^(٥) ، وجعل لها ثلاثة أبواب^(٦) ، فلما كملت دخل الجامع من باب الصومعة الجوفي « وقد أمر باغلاق أبواب الجامع ، فلم يدخل معه غير فتياه الأكابر الخصيان ومحمد بن زياد • • • صاحب الصلاة ، فنظر إلى البنيان ، ومشى في المسجد مجيلاً طرفه فيه ، فسر باتمام ما وقع بموافقته ، وتقدم إلى المحراب فصلى فيه ، ثم خرج فرجع إلى قصره »^(٧) • وفي ذلك يقول مؤمن بن سعيد الشاعر في قصيدة له :

-
- (١) المقرئ ، ج ٢ ص ٩٧ •
 (٢) ابن حيان ، المقتبس ، القسم الخاص بعصر الأمير محمد ، تحقيق الدكتور مكي ، ص ٢٥٦ •
 (٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٤٣ •
 (٤) Arabica, P. 92. - والنص الخاص بعصره من كتاب المقتبس ، ص ٢١٩ •
 (٥) Ibid., P. 92
 (٦) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٣ •
 (٧) ابن حيان ، المقتبس ، النص الخاص بالأمير محمد ، ص ٢١٩ - ٢٢١

لعمرى لقد أبدى الامام النواضعا فأصبح للدينيا وللدين جامعاً
بنى مسجداً لم يبن في الارض مثله وصلى به شكراً لذي العرش راکماً
فطوبى لمن كان الامير محمد له اذ دعا فيه الى الله شافعاً^(١)

وأغلب الظن أن المقصورة كانت تمتد على مساحة من أرض الجامع
فيما يلي المحراب ، بحيث تضم ثلاثة أساطين من بلاط المحراب ، وثلاثاً من
كل من البلاطين المجاورين له ، على نحو ما بيناه في تخطيطها . أما الامير
المنذر فقد قام بترميم ما وهي من زخرفة المسجد^(٢) ، وهو الذي زاد في
الجامع البيت المعروف ببيت المال ، فوضع فيه الاموال الموقفة لغياب
المسلمين ، كما أمر بتجديد السقاية واصلاح السائف^(٣) . أما بيت المال ،
فأعتقد أنه أقامه في ركن من الصحن على مثال بيت المال بمساجد دمشق
وحماة وحمص ومنبج ، وكان يسمى بقبة الخزانة^(٤) . ويبدو أن مال

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٢) القري ، ج ٢ ص ٩٧ .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٤) كانت قبة الخزانة بجامع حماة بناء متمنا محمولاً على أعمدة . يقع
في الزاوية الجنوبية الغربية من الصحن ، وكانت تشبه قبة مال جامع دمشق
التي ما تزال قائمة حتى اليوم . وكانت كل من القبتين ، على حد قول
المستشرق فان برشم . تشتمل على غرفة مرتفعة على شكل مشمن ، تعلوها
قبة ، وتقوم على ثمانية أعمدة تيجانها كورنثية (Van Berchem, Voyage
en Syrie, t. I, M.I.F.A.O.C., le Caire, 1914, P. 174) . وقد وصف ابن
بطوطة قبة بيت المال بجامع دمشق فقال : « وفي هذا الصحن ثلاث من
القباب ، أحدها في غربيها وهي أكبرها ، وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين ،
وهي قائمة على ثمان سوار من الرخام مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة .
مسقفة بالرصاص ، يقال ان مال الجامع كان يخزن بها » (ابن بطوطة ،
طبعة دار صادر بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٨٩) . ويستنتج الاستاذ سوفاجيه
من هذا الوصف ان بنيان القبة كان يتبع الاسلوب البيزنطي
(Sauvaget, Les Monuments Historiques de Damas, Beyrouth,
1932, P. 23) . ويرى الاستاذ فان برشم ان وجود هذه القباب في المساجد
الثلاثة يمثل استمراراً للتقاليد السورية . ويعتقد بالتالي ان هذه القباب
اقيمت وفقاً لبعض التقاليد المحلية القديمة . ويستند في ذلك على ان المساجد
الثلاثة اقيمت على انقاض كنائس ، وقد تكون هذه الكنائس في الاصل معابد
وثنية (Voyage en Syrie, P. 175) وبناء مثل هذه القبة في صحن
جامع قرطبة يكشف عن تأثيرات سوره وفدت الى قرطبة .

الاحباس^(١) كان يودع في مقصورة الجامع وذلك بعد أن اتخذ الجامع صورته النهائية ، ولعله كان يحفظ في مخزن الجامع .

وأما الامير عبدالله بن محمد فقد أنشأ الساباط الموصل من القصر الى المسجد الجامع ، وفي ذلك يقول الحسن بن مفرج : « وكان يلتزم الصلوات الخمس في المسجد الجامع لصق قصره ، يسهل عليه الخروج لها من القصر عند الاذان ، فيدخل من غربي المسجد من أول أبوابه المعروف بباب الوزراء ، فاذا الناس تراؤوه قاموا له صفا على أقدامهم حتى يصير بداخل المقصورة ... فابتنى هذا الازج المعروف بالساباط المائل عقده فوق الطريق ما بين قصره والمسجد ، ووصله بباب شرعه اليه من قصره الى مقصورة المسجد الجامع ، ظل يخرج منه مستترا عن الناس متى أراد الصلاة في خاصة من خدمه الخصيان وبطائه في خفية ، فيقضي بداخل المقصورة ما شاء من فريضة وناقلة ، لا يراه أحد في مجيئه ولا انصرافه ، ولا يتكلف له مؤونة قيام ولا ارساد لخروج ، فكان أول من اتخذه من خلفاء بني أمية في الاندلس ، فاتبع سبيله فيه كل من جاء منهم بعده »^(٢) .

ويذكر أحمد بن محمد بن عبد ربه ، أنه كان يواظب الصلاة في المسجد بمصلاه الى جانب المنبر طول مدته^(٣) . والساباط المذكور كان طريقا يعلو الطريق الرحب الشارع الى باب القنطرة ، ويقوم على حنايا^(٤) ، ويمتد هذا الساباط من باب فتحه الامير محمد في جدار قصره الى الباب المعروف بباب الامير (Puerta de San Miguel) الشارع الى المقصورة ، وكان ينزل اليه عن طريق درج يتصل بالباب من الشارع . فاذا انقضت

(١) ابن عذاري ، ج ٣ ص ٩١ .

(٢) ابن حيان ، نشر أنطونية ملشور ، ص ٣٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٧ .

(٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٣٤٣ .

الصلاة ، انصرف من المسجد على طريقه المستور المؤدي الى قصره ، فارتقي الى السطح الاكبر القائم على باب السدة القبلي^(١) . كذلك أقام ستارة تمتد من نهاية الساباط حتى المقصورة .

(٣)

تاريخ جامع قرطبة في عصر الخلافة

١ - اعمال الخليفة عبد الرحمن الناصر :

بعد أن أتم الامير عبدالرحمن الاوسط الزيادة الاولى والثانية في الجامع ، أصبح صحن هذا الجامع محاطا في جوانبه الاربعة بمجنيات أو سقائف ، منها سقيقتان شمالية وجنوبية مخصصتان لصلاة النساء ، ومجنتان شرقية وغربية لربط السقيفة الشمالية من طرفيها الشرقي والغربي ببيت الصلاة . ويعتقد الاستاذ لامبير أن « الصحن القديم للجامع وسع ، في فترة لا نستطيع تحديدها على وجه الدقة ، من ناحية المئذنة أي من الجهة الشمالية ، مسافة تبلغ نحو ٢٤ مترا . ولما أصبحت المئذنة القديمة على هذا النحو في وسط الصحن ، الذي زيد اتساعه ، عمد الناصر الى استبدال مئذنة جديدة بالمئذنة القديمة ، فأمر بدوره بانشاء صومعة أعظم من صومعة هشام ، وذلك بحذاء الجدار الشمالي للجامع ، بحيث لا تبرز هذه المرة نحو الخارج »^(٢) ، ويضيف الاستاذ لامبير قائلا : « ومع ذلك ، فلم نثر على نص تاريخي يشير الى تلك الزيادة في اتساع صحن الجامع ، وعلى ذلك فاننا نجعل الفترة التي تمت فيها هذه الزيادة فيه ، وبما أننا لا نملك في الوقت الحاضر أي وثيقة تاريخية تحدد لنا زمن هذه الزيادة ، فانه يمكننا

(١) ابن حيان ، نشر انطونية منشور . ص ٣٤ .

(٢) Lambert, l'histoire de la grande mosquée de Cordoue, P. 177.

أن تسب هذه الزيادة أيضا الى الامير عبد الرحمن الاوسط ، استنادا الى عدد الاعمدة التي تقوم عليها السقيقتان المطلتان على الصحن من الشرق والغرب ، ثم حالت وفاة عبد الرحمن دون اتمام مشروعه ، في اقامة مئذنة جديدة على حافة الجدار الشمالي للجامع المطل على الصحن»^(١) . ولكننا لا تقبل هذا الرأي ، لأن الناصر لم يبن صومعة الجامع الجديدة بسبب وقوع المئذنة القديمة في وسط الصحن بعد أن اتسع من الجهة الشمالية ، ومن الصعب جدا الاعتقاد بأن مئذنة تبقى في وسط صحن الجامع مدة تصل الى ستين سنة دون أن يقوم واحد من خلفاء عبد الرحمن الاوسط باقامة مئذنة أخرى في ركن من الصحن أو في وسط المجنبه الشمالية أو في موضع آخر من الجامع بخلاف ذلك الموضع . ولكننا نعتقد أن عبد الرحمن الناصر أقام صومعته الجديدة للأسباب الآتية : -

أ - نعتقد أن السبب الرئيسي هو تصدع مئذنة هشام ، وتشققها بحيث أصبح وجودها يشكل في حد ذاته خطرا على حياة المؤذنين أو من يصلي في السقيفة الشمالية . ويذكر ابن عذارى « أن الذي دعاه الى بنائها صدع حدث في القديمة فهدمت الى قواعدها »^(٢) .

ب - أصبح صحن الجامع ضيقا بالنسبة لبيت الصلاة الذي اتسع اتساعا كبيرا نحو القبلة بعد زيادة عبد الرحمن الاوسط ، فبلغت سعته ١٠,٦٢ مترا في حين أصبحت سعة الصحن بعد اقامة السقيفة الجوفية ثلاثين مترا ، ولعل ذلك كان من بين الاسباب التي حملت عبد الرحمن الناصر على اختيار موضع يبعد عن المئذنة القديمة بما فيه الكفاية لبناء المئذنة الجديدة ، اذ أصبح من الضروري أن يزيد اتساع الصحن من الجهة الشمالية بما يعادل ٢٤ مترا حتى يصبح اتساعه الكلي ٥٤ مترا ، وهو اتساع يتناسب مع اتساع بيت الصلاة بعد الزيادة فيه ، بحيث أصبحت

Ibid. (١)

(٢) ابن عذارى : نشر ليفي بروفنسال وكولان . ص ٢٢٨ .

نسبتهما بعد الزيادة تقارب نسبتهما قبل الزيادة :

٣٨,٠٥ م اتساع بيت الصلاة قبل الزيادة : ٣٦ م اتساع الصحن القديم في زمن الداخل و ٣٠ في عهد الاوسط .

٦٢,١٠ م اتساع بيت الصلاة بعد الزيادة : ٥٤ م اتساع الصحن بعد الزيادة .

ج — كان في امكان عبد الرحمن الناصر أن يرمم مئذنة هشام ، ولكن المئذنة لم تعد تليق بعظمة الجامع ، وأصبحت صغيرة بالنسبة لمسجد في اتساع مسجد قرطبة الجامع بعد زيادة عبد الرحمن الاوسط .

د — كان الجدار الشمالي للجامع وهو الجدار الذي يستند عليه الجدار القبلي للمئذنة منحرفا بعض الشيء نحو الشمال الشرقي ولم يكن محاذيا لجدار القبلة أو جدار واجهة بيت الصلاة المطل على الصحن ، وكان من الطبيعي أن يهتم عبد الرحمن الناصر باقامة جدار شمالي للجامع يوازي جدار القبلة حتى يتم تناسق المجنبات وتتنظم أشكالها .

هـ — أراد الناصر أن يسجل في الجامع زيادة تعبر عن عظمة الخلافة ، ولما كان مشغولا ببناء الزهراء فقد اكتفى بتوسعة الصحن واقامة مجنبات جديدة تدور حوله واقامة صومعة ضخمة تتناسب مع اتساع مساحة الجامع .

و — في بداية القرن السادس عشر هدمت مجنبات الصحن وأعيد بناؤها على نفس النظام القديم ، واستخدم في هذه المجنبات الحديثة أعمدة ذات تيجان اسلامية تماثل تيجان الاعمدة بواجهه بيت الصلاة التي أقامها عبد الرحمن الناصر^(١) .

(١) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 82 . ومن المعروف ان السقائف الحالية التي تدور حول الصحن اقيمت ما بين عامي ١٥١٠ ، ١٥١٦ على يدي الاسقف مرتين فرناندث .

ونعتقد للأسباب السابقة أن الخليفة عبد الرحمن الناصر هدم الجدار الشمالي للجامع في نفس الوقت الذي هدم فيه مئذنة هشام المتصدعة ، ثم السقيفتين الجانبيتين للصحن من الشرق والغرب مسافة ٢٤ مترا ، ويؤيدنا فيما ذهبنا إليه أن عددا من المؤرخين العرب يشيرون الى أن الناصر زاد في المسجد الزيادة الكبيرة المشهورة (١) .

ويبدو أن الناصر ربط بين طرفي السقيفتين الجانبيتين للصحن بعد مدهما شمالا بسقيفة جوفية بحيث أصبح الصحن محاطا كله بسقائف أشبه بسقائف الدير ، على النحو الذي نراه اليوم . بدليل أن ابن خلدون يذكر أنه أمر « بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس » (٢) وقد فسرنا كلمة ظلة بسقيفة جوفية على نحو الظلة الشمالية بمسجد الرسول بالمدينة ، وفسرنا عبارة « على صحن الجامع » بمعنى التي تطل على الصحن قبالة بيت الصلاة . ولكن الاستاذ ليفي بروفنسال ذهب في تفسيرها مذهبا آخر على أنها مظلة من النسيج تعلق على الصحن في أوقات القيظ لحماية المصلين الذين لا يجدون لهم مكانا للصلاة في بيت الصلاة من الوقوف تحت الشمس (٣) . ولكنني أستبعد أن يكون المقصود بها ما يعنيه الاستاذ ليفي بروفنسال ، لأن الصحن لم يكن مهبطا لتقام فيه الصلاة إذ كان مقسما الى أحواض مغروسة بأشجار البرتقال والليمون ، ثم اتنا لم نسمع قط بصحن مسجد في مثل اتساع صحن جامع قرطبة تغطيه مظلة من النسيج في فصل الصيف ، فقد أجمع الرحالة والجغرافيون العرب

(١) ذكر ابن الخطيب أن الناصر « زاد في المسجد الاعظم الزيادة الهائلة وبني المنار الاعظم بقرطبة » (ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٣٨) كذلك ذكر ابن عذارى أن الناصر « زاد في المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة » (ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤١) .

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤٤ .

(٣) Lévi-Provençal, histoire des Mus. d'Esp., t. II, P. 140.

الذين وصفوا الجامع على أن صحن جامع قرطبة كان مكشوفاً للهواء^(١) ، ولو أننا افترضنا أن وجود المظلة المزعومة لا يتعارض مع الحقيقة بأن للجامع صحن مكشوف للهواء ، فالتساؤل عن سبب إقامة ظلة من النسيج بأعلى الصحن ما دام الصحن مغروساً بالأشجار الوارفة الظلال ، وما دامت للجامع سقائف ومجنيات دائرية تحيط به يمكن أن تقي المصلين فيها من تعرضهم لأشعة الشمس . ونضيف إلى ذلك كله أن الظلة في المسارة اصطلاح يعني السقيفة المقامة في جانب من جوانب المسجد ، فقد ذكر الطبري أن المسجد الجامع بالكوفة كانت تقوم في مقدمته ظلة طولها مائتي ذراع تقوم على أعمدة من الرخام كانت للملوك الساسانيين^(٢) ، كما ذكر المؤرخون أن جامع المدينة كانت له ظلتان قائمتان على جذوع ، وتكسوها عروش النخل والجريد والخصف والاذخر^(٣) .

وذكر ابن عذارى أن الناصر « زاد في المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة المتصلة بزيادة ابنه الحكم من بعده ، وفيها القبول الكبير الذي يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للأذان وهو من أعجب البنيان »^(٤) . وقد أثار النص المذكور ارتباكاً في تأريخ جامع قرطبة ، فقد ترجم الأستاذ غرسية جومث هذا النص على النحو التالي : « وزاد الناصر في المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة الملاصقة للزيادة التي قام بها ابنه الحكم

(١) ذكر الإدريسي أن « نصفه مسقفاً ونصفه صحن الهواء » ا وصف جامع قرطبة . ص ٢) وذكر الحميري أن نصف الجامع مسقف « ونصفه صحن بلا سقف » (ص ١٥٢) ، وذكر ابن سعيد أن الصحن المكشوف منه ثمانون ذراعاً وغير ذلك مفرمد (القرى : ج ٢ ص ٨٧) .

(٢) محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الأمم والملوك الذي نشره دي غوييه بعنوان Annales quos scripsit . ج ٥ . لندن ١٨٩٣ . ص ٢٤٨٩ وطبعة مصر ١٩٢٩ : ج ٣ ص ١٤٨ .

(٣) السهودي . وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى . القاهرة ١٣٢٦ هـ . ج ١ ص ٢٣٩ - أحمد فكري . مساجد القاهرة ومدارسها : المدخل : الإسكندرية ١٩٦١ . ص ١٧٠ .

(٤) ابن عذارى . ج ٢ ص ٢٤١ .

المستنصر بعد ذلك بسنوات ، وفي زيادة الناصر يوجد القبو الكبير الذي يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للاذان وكان من أعجب البنيان »^(١) ، كذلك ترجم الاستاذ ليفي بروفسال كلية القبو الكبير بكلمة الساباط^(٢) كما ترجمها أمادور دي لوس ريوس بالمئذنة^(٣) . ولكنني فهمت النص فهما آخر ، بل انني استندت على هذا النص في اثبات أن الناصر وسع صحن الجامع ، فقد اتضح لي أن ابن عذارى يقصد بعبارته المعنى التالي : « زاد الناصر في جامع قرطبة زيادته المشهورة التي تبعثها في الزمن زيادة ابنه الحكم المستنصر من بعده ، وفيها (أي وفي هذه الزيادة الحكيمة) القبو الكبير (أي القبة المخرمة الكبرى) الذي يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للاذان ، وهو من أعجب البنيان » . والمقصود بزيادة الناصر في الجامع بناءؤه الصومعة الكبرى بعد فراغه من توسيع الصحن ومد المجنبتين الشرقية والغربية ، واقامة الظلة الشسالية التي أشار إليها ابن خلدون ، بالإضافة إلى تعديل بنيان المسجد واقامة واجهة بيت الصلاة التي تصدعت بسبب الدفع الذي كانت تمارسه صفوف العقود . وقد وصل الاستاذ توريس بلباس الى نفس النتيجة التي توصلت إليها قبله^(٤) ، وهي أن الناصر هو الذي وسع الصحن وأقام المجنبتات^(٥) .

ب - زيادة الحكم المستنصر :

كان عدد سكان قرطبة قد ازداد زيادة كبيرة في عصر الناصر حتى ضاقت المدينة بمن وفد إليها من بربر العدو الذين جرى الامويون على

(١) Emilio Garcia Gomez, Una descripcion desconocida del alminar de la mezquita de Cordoba, al-Andalus, Vol. XVII, P. 400.

(٢) Lévi-Provençal, op. cit., t. II, P. 140.

(٣) Amador de los Rios, Inscripciones arabes de Cordoba, Madrid, 1892, P. 56.

(٤) سجلت هذه النتائج في رسالتي الصغرى التي تقدمت بها في سنة ١٩٥٦ مع الرسالة الكبرى للحصول على الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس وكان عنوانها :

Textes Arabes Relatifs à la grande mosquée de Cordoue.
Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 476. (٥)

اصطناعهم ضد الفاطميين ، ولم يعد بيت الصلاة في جامع قرطبة يتسع لجموع المصلين في أيام الجمع ، مما حبل الحكم على التفكير في زيادته فيه ، فافتتح خلافته في رمضان سنة ٣٥٠ بالنظر في توسيع بيت الصلاة بالجامع ، وعهد الى حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلي في اليوم التالي لبيعته بمهمة الاشراف على احضار الاحجار من جبل قرطبة للزيادة المذكورة؛ وخرج الخليفة بنفسه لتقدير الزيادة ودراسة تخطيطها وتفصيل بنائها ، وأحضر لها الاشياخ والمهندسين ، فجدوا هذه الزيادة من قبلة المسجد الى نهاية الفضاء القبلي^(١) ، ولكن ابن عذارى يذكر في حوادث سنة ٣٥٣ أن أهل قرطبة كانوا يتراخمون بالمسجد الجامع بقرطبة حتى كادت النفوس تتلف ، « فأمر المستنصر بالله بتوسيعه والزيادة فيه ، فأتى القاضي متذّر بن سعيد الى المسجد الجامع ومعه صاحب الاحباس والفقهاء والعدول بما اجتمع قبله من أموال الجبوس ، فنظروا في الزيادة فيه »^(٢) . ولكننا نشك في تاريخ سنة ٣٥٣ الذي سجله ابن عذارى كبداية للنظر في الزيادة في المسجد ، ونعتقد أن الحكم بأمر منذ توليه الخلافة بالنظر في تنفيذ هذه الزيادة ، وإن البناء ابتداء في العام التالي ، استنادا على تقرير بخط الخليفة المستنصر بالله نقله ابن بشكوال جاء فيه : « ابتدئ ببناء الجامع صانه الله يوم الاحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٥١ ، وكمل سنة ٣٥٥ »^(٣) ، وعلى هذا الاساس يكون ببناء الزيادة استغرق مدة تقرب من أربع سنوات ، وهو أمر يبدو معقولا ومنطقيا لما تشتمل عليه هذه الزيادة من روائع فنية لا حصر لها ، وما تتميز به بنية هذه الزيادة من تعقيد في الحلول المعمارية وغلو في الحشد الزخرفي ، أما الفترة ما بين ٤ رمضان سنة ٣٥٠ و ٤ جمادى الآخرة سنة ٣٥١ (أي تسعة شهور) فقد تم خلالها سوق الصخور للبيان والاستعداد للزيادة بكل الآلات ومواد البناء وحشد المهندسين وعرفاء البنائين والفعلة .

(١) ابن عذارى . ج ٢ ص ٣٤٩ .

(٢) نفسه . ص ٣٥٢ .

(٣) نفسه ، ص ٣٥٩ .

وامتدت الزيادة نحو الجنوب ، فمدت صفوف الاقواس القديمة جنوبا مسافة ٩٥ ذراعا (٤٦ مترا تقريبا) وقبل أن يبدأ المهندسون في البناء اعترض العلماء وأهل التعديل على البناء حسب الاتجاه القديم ، اذ أن القبلة القديمة منحرفة الى المغرب ، فاضطر الحكم الى الحضور « لمشاورة العلماء في تحريف القبلة الى نحو المشرق حسبما فعله والده الناصر في قبلة جامع الزهراء ، فقال له الفقيه أبو ابراهيم : يا أمير المؤمنين ، انه قد صلى الى هذه القبلة خيار هذه الامة من اجدادك الائمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم منذ افتتحت الاندلس الى هذا الوقت ، متأسين بأول من نصبها من التابعين كموسى بن نصير وحنش الصنعاني وأمثالهم رحمهم الله تعالى ، واننا فضل من فضل بالاتباع ، وهلك من هلك بالابتداع . فأخذ الخليفة برأيه ، وقال : نعم ما قلت ! ! وانما مذهبنا الاتباع » (١) .

وتم بناء قبة المحراب في جمادي الآخرة سنة ٣٥٤ (١) ، وسجل بناء القاعدة المشبكة لهذه القبة في نقش كتابي يغطي الطرة الكبرى التي تحيط بعقد المحراب ، ونص النقش ما يلي : (٠٠٠ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين موفق الامام المستنصر بالله عبدالله الحكم أمير المؤمنين أسنحه الله لهذه البنية المكرمة ومعينه على نيته الخالدة في التوسع لرعيته ٠٠٠ ما اليه واليهم الرغبة فيما ابتدا من فضله فيهم وصلى الله على محمد وسلم ٠٠٠ أمر الامام المستنصر بالله عبدالله الحكم أمير المؤمنين وفقه الله مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله بتشريك هذه البنية ، فتم بعون الله بنظر محمد بن تمليح واحمد بن نصر وخالد بن هاشم اصحاب شرطته ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب ٠٠٠) (٢) .

(١) القرني : ج ٢ ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) ابن عذارى : ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٣) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, P. 15.

وفي نفس هذه السنة شرع في تنزيل الفسيفساء بالمسجد الجامع^(١) ،
 فزين به وجه المحراب ووجه كل من العقدتين اللذين يكتنفانه شرقا وغربا ،
 كما زينت به بطن القبة الوسطى التي تملو المحراب • ويذكر الادريسي
 عند وصفه لعقد المحراب وواجهته ان قبلة المسجد مزينة بالفسيفساء
 المذهب الملون الذي بعثه صاحب القسطنطينية العظمى الى عبد الرحمن
 الناصر لدين الله^(٢) ، ولكن ابن عذارى يؤكد ان الحكم هو الذي كان
 قد كتب الى ملك الروم في ذلك ، « وأمره بتوجيه صانعها اليه اقتداء بما
 فعله الوليد بن عبد الملك في بنيان مسجد دمشق • فرجع وفد الحكم
 بالصانع ومعه من الفسيفساء ثلاث مائة وعشرون قنطارا بعث بها ملك
 الروم هدية ، فأمر الحكم بانزال الصانع والتوسيع عليه ، ورتب معه جملة
 من محاليكه لتعلم الصناعة فوضعوا ايديهم معه في الفسيفساء المطلوبة .
 وصاروا يعملون معه ، فأبدعوا وأربوا عليه ، واستروا بعد ذلك منفردين
 دون الصانع القادم ، اذ صدر راجعا عند الاستغناء عنه بعد ان اجزل له
 المستنصر الصلة والكسوة »^(٣) • وقد اورد ابن الخطيب نصا يتضمن
 نفس المعنى ، ولكنه ابدل كلمة الصناع المحكمين بكلمة الصانع^(٤) :
 واعتقد مع ذلك ان ما ذكره الادريسي اولى بالثقة للسين الآتين : الاول
 ان الناصر كان على علاقة بامبراطور الدولة البيزنطية وانه ارسل رسله اليه
 بهدايا وكتب ، واستحضر هؤلاء الرسل معهم عند عودتهم حوضين من
 الرخام من القسطنطينية ، ولا نشك في انه طلب من الامبراطور ان يبعث
 اليه بكمية من الفسيفساء وصانع متخصص في فن الفسيفساء ليعلم
 المسلمين هذه الصناعة • والثاني ان الناصر استخدم الفسيفساء في تزيين
 قصور الزهراء وتزيين قاعات مجالسها • وليس من المستبعد ، كما نفهم

(١) ابن عذارى • ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٢) الادريسي - نزهة المشتاق - ص ٢١٠ وصف جامع قرطبة ، ص ١٦ -
 الحميري ، ص ١٥٤ .

(٣) ابن عذارى • ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٤) ابن الخطيب • ص ٣٨ .

من نص الادريسي ، ان الناصر كان يزعم الزيادة في بيت الصلاة كما زاد في الصحن ، فكتب الى الامبراطور البيزنطي يفضي اليه برغبته في ان يبعث اليه كميات من الفسيفساء لاستخدامها في هذه الزيادة ، ولكن الناصر توفى على اثر ذلك فتولى ابنه الحكم مهمة النظر في هذه الزيادة منذ اليوم التالي لبيعته كما فعل بالنسبة لاستكمال بناء مدينة الزهراء التي كان ابوه قد استغرق في بنائها خسا وعشرين عاما .

ويعلو عقد المحراب فوق السنجات نقش كوفي نصه : (بسم الله الرحمن الرحيم أمر عبد الله الحكم امير المؤمنين اصلحه الله مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله يعمل هذه الفسيفساء في البيت المكرم ، فتم جميعها بعون الله سنة اربع وخسين وثلاث مائة)^(١) .

وفي نفس السنة التي اقام فيها قبة المحراب وزين جدران المحراب بالفسيفساء تم عمل المشرع الى الساباط المتصل بالمقصورة عن طريق العقد المجاور للمحراب من اليمين ، والمخزن المتصل بالمقصورة عن طريق العقد الذي يلي عقد المحراب من اليسار . وكان هذا المخزن مخصصا لحفظ اموال الاحباس^(٢) وادوات المسجد مثل العدد ، والطسوت الذهبية والفضية ، والحسك الخاص بوقيد الشمع في كل ليلة ٢٧ من شهر رمضان والمصحف العثماني ، وكان لهذا المصحف بوضع المصلي كرسي يوضع عليه^(٣) . وكان يتولى مخازن الجامع في عصر بني جهور وزير^(٤) مسا يدل على اهمية هذه المخازن . اما العقد الايمن فكان ينفث على المشرع الى الساباط ، وقد تم عمل المشرع في سنة ٣٥٤ ، وسجل ذلك على الطرة التي تعلو كل من العقدتين المكتنفتين للمحراب ، في نقش كتابي نصه : (بسم الله الرحمن الرحيم . ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا ، ربنا

Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, P. 18. (١)

(٢) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٩٣ .

(٣) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٢١٢ .

(٤) ابن سعيد ، ج ١ ص ١٦٠ .

ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ، ربنا لا تزغ قلوبنا اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب . الملك لله على الهدى وصلى الله على محمد خاتم الانبياء ، امر الامام المستنصر بالله عبدالله الحكيم امير المؤمنين وفقه الله مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله بعمل هذا المشرع الى مصلاه ، فتم بعون الله ، ينظر محمد بن تميمي واحمد بن نصر وخالد بن هاشم ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب . (الحمد لله) (١) . وفي سنة ٣٥٥ أمر الحكيم بوضع المنبر القديم الى جانب المحراب ونصب في قبلة زيادته مقصورة من الخشب منقوشة الظاهر والباطن ، مشرفة الذروة ، طولها ٧٥ ذراعا وغرضها ٢٢ ذراعا وارتفاعها الى الشرفات ٨ أذرع ، وارتفاع كل شرفة ٣ اشبار (٦٣ سم) ، واحاط بها خمس بلاطات من زيادته ، واطلق اطرافها على الستة الباقية ، وجعل لها ثلاثة ابواب بديعة الصنعة عجيبة النقش (٢) . وكان الباب الرئيسي للمقصورة من الذهب ، بينما كانت عضاداته عودين من الابنوس ، وحشواته من الفضة (٣) . أما المنبر القديم فظل يؤدي وظيفته الى أن تم صنع المنبر الجديد في مدة سبع سنوات في قول (٤) ، وخمسة في قول آخر (٥) وتسعة في قول ثالث (٦) وقيل ثمانية (٧) ،

(١) Lévi-Provençal, op. cit., P. 17.

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٥٥ - المقرئ : ج ٢ ص ٨٨ .
ويختلف ابن غالب مع كل من ابن عذارى والمقرئ في اطوال المقصورة ، والظاهر ان ابن غالب اخطأ في تقدير الأرقام ، فذكر أن طولها من الشمال الى الجنوب ٥٦ ذراعا ، ومن الشرق الى الغرب ٢٤ ذراعا (ابن غالب ، ص ٢٨) ولكن الأرقام التي أوردها ابن عذارى والطبري تتفق مع المسافات الواقعة بين الأعمدة .

(٣) ابن غالب ، ص ٢٩ .

(٤) الأدرسي ، وصف جامع قرطبة ، ص ٨ - الحميري : ص ١٥٥ - المقرئ ، ج ٢ ص ٩٥ .

(٥) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٧٢ .

(٦) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٩ .

(٧) أبو حامد الفرناطي الاندلسي . كتاب عجائب المخلوقات . مخطوطة محفوظة بمكتبة اكسفورد تحت رقم 565 Hunt .

وتم صنعه في سنة ٣٦٥ هـ، وكان خشبه من الساج والابنوس والبقم وعود القاقلي ، وكان عدد درجاته تسعا^(١) ، وعدد حشواته ٣٦ ألف حشوة او وصلة سميت بمسامير الذهب والفضة ، ورصع بعضها بنفيس الاحجار^(٢) . وكان اتساعه يصل الى اربعة اشبار ونصف (٩٤ سم) ، وكانت ذراعه الممتدان على جانبيه من اعلى الادراج الى اسفلها من الابنوس ، طول كل ذراع منها ثمانية عشر شبرا^(٣) (٣,٧٨ مترا) . وقد وصف امبروسيو دي موراليس هذا المنبر في سنة ١٦٠٠ ، وذكر أنه كان قائما في مصلى سان بدرو الواقع امام المحراب ، « وهو عربة ذات اربع عجلات من الخشب منقوشة نقشاً بديعاً ، ويصعد اليها بسبع درجات . وقد فكت هذه العربة بعد مضي سنوات قليلة ، ولا اعرف لاي غرض وبذلك ضاع هذا الاثر »^(٤) . كذلك وصفه الاب مرتين دي روا ، اعتمادا على نص موراليس فقال : « وكان عربة من الخشب ذات اربع عجلات منقوشة نقشاً رائعاً ، وكان يصعد اليه بسبع درجات، ولكن لم يبق منه سوى الصندوق العاري، اذ ضاع باقيه بسبب الاهمال »^(٥) . ومن هذا الوصف يتضح لنا ان المنبر المذكور كان يتحرك على عجل ، وكان يوضح بعد صلوات الجمعة في غرفة تقع وراء المخرب ، وقد اهتمدى المهندس فيلث هرناندث الى الموضع الذي كان يحفظ فيه ، وكان مجرد فتحة في جدار المحراب اكتشفها في يناير سنة ١٩٣٤ اثناء قيامه بترميم العناصر الزخرفية بواجهة جدار القبلة في القطاع الغربي المؤدي الى المحراب . وتقع هذه الفتحة بالضبط في جدار القبلة لصق الجزء الغربي من الدعامة التي ترتكز عليها البائكة الوسطى الواقعة بين البلاط الاوسط والبلاط التالي له من جهة الغرب ، أي فيما يلي المحراب

(١) ابن غالب ، ص ٢٩ - المقرئ ، ج ٢ ص ٨٨ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٩ .

(٣) ابن غالب ، ص ٢٩ .

(٤) Felix Hernandez, el al-minbar movil del siglo x de la mezquita de Cordoba, al-Andalus, Vol. XXIV, 1959, PP. 381-390.

Ibid. (٥)

مباشرة على يمينه ، او في المنطقة الممتدة لما بين المحراب وباب المشرع الى الساباط . وكان المنبر يدخل في بيت المنبر^(١) عن طريق هذه الفتحة . ويبلغ اتساع الفتحة من الوجه الامامي لجدار القبلة ٠,٩٧ مترا ، ومن الوجه الخلفي ١,٠٢ مترا ، أما ارتفاعها فيبلغ ٣,٨٠ مترا من الوجه الامامي لجدار المحراب ، وهو ارتفاع يقل ٦ سم عن فتحة منبر جامع الكتبية براكش وكانت للفتحة مصراعا من الخشب وظيفتهما غلق بيت المنبر وكانت تربطهما بالجدار مفصلات من الحديد مثبتة بسامير رؤوسها مضلعة ، تبقت منها آثار في العتب كما تبقت في السطوح الرأسية للمنطقة الوسطى من الفتحة آثار مزلاج . ودلت ابحاث الاستاذ فيلت هرناندث على أن سلك هذين المصراعين كان يصل الى ٦ سنتترات ، وان طول المنبر كان يصل وقفا لهذه الفتحة الى خمسة أمتار وعرضه ٠,٩٥ مترا وارتفاعه ٣,٨٠ مترا^(٢) . ويتفق عرض المنبر هنا مع ما ذكره ابن غالب الاندلسي اذ حدد لذلك أربعة اشبار ونصف^(٣) على اساس ان طول الشبر ٢١ سم . وقد انتقل نظام المنابر المتحركة من جامع قرطبة الى مساجد المغرب والاندلس ، ويحتفظ جامع المرية^(٤) ، ومسجد القناطر^(٥) في بورتو دي ستامرية بفتحة مائلة لفتحة منبر قرطبة ، كذلك تحتفظ كل من جوامع تلسان والقرويين بفاس من عصر المرابطين ، وتسال والكتبية براكش وحسان بالرباط من عصر الموحدين بفتحات مائلة^(٦) . ويذكر ابن صاحب الصلاة انه الى بين المحراب

(١) هكذا ورد اسم بيت المنبر في نفع الطيب نقلا عن صاحب كتاب مجموع المفقود (المقري - ج ٢ ص ٨٦) .

(٢) Felix Hernandez, op. cit., P. 383.

(٣) ابن غالب - ص ٢٩ .

(٤) Torres Balbas, La mezquita mayor de Almeria, al-Andalus, Vol. XVIII, 1953, PP. 412-425.

(٥) Torres Balbas, La mezquita de al-Qanatir y el santuario de Alfonso el Sabio, en el Puerto de Santa Maria, al-Andalus, Vol. VII, 1942, PP. 417-437.

(٦) Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, P. 129,132.

بجامع اشبيلية الذي اقامه الموحدون «اقباء في حائط الجامع معقود بالبناء لكون المنبر فيه عند اخراجه للخطبة وادخاله فيه»^(١) . وما زالت آثار المجري الحديدي لعجلات المنبر القرطبي موجودة في موقعها من المقصورة حتى يومنا هذا . وفي عام ٣٥٦ ، هدم الحكم المستنصر الميضاة القديمة التي كان قد اسسها هشام بن عبد الرحمن الداخل في فناء الجامع ، وبنى بدلا منها اربع ميضآت على جانبي الصحن من جهتيه الشرقية والغربية ، واجرى اليها المياه من عين ماء بجبل قرطبة في قناة حجرية متقنة البناء ، اودع جوفها ٢٢ نابيب الرصاص لتحتفظه من كل دنس ، وصبت ماءها في احواض من الرخام . ثم اجري ما يزيد على حاجة المسجد الى سقايات اتخذها على ابواب الجامع بجهاته الثلاث : الشرقية والغربية والشمالية . ويصف الشاعر محمد بن شخيص هذه القنوات فيقول :

وقد خرقت بطون الارض عن نطف من أعذب الماء نحو البيت يجريها
طهر الجسوم اذا زالت طهارتها ري القلوب اذا حرت صواديها
قرنت فخرا بأجر قل ما اقترنا في أمة أنت راعيها وحاميا^(٢)

واختتم الحكم اعمال البناء ببناء دار للصدقة غربي الجامع ، لتكون معهدا لتوزيع صدقاته ، كما اقام في ساحة الجامع مكاتب لتعليم اولاد الضعفاء والمساكين ، وفي ذلك يقول ابن شخيص :

وساحة المسجد الاعلى مكللة مكاتباً لليتامى من نواحيها^(٣)

ج - زيادة المنصور بن أبي عامر :

حارب الحكم المستنصر بني محمد الحسينيين الثائرين في ارض العدو ولكنه لاقى كثيرا من العناء في قهرهم ، فقد قاوموا عساكره ، وقتلوا ابن

(١) ابن صاحب الصلاة ، مدونة نشرها الاب ملشور بعنوان :
«Sevilla y Sus monumentos arabes» الاسكوريال ، ١٩٣٠ ، ص ١٣٦ .
(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٥٨ .
(٣) نفسه ، ص ٣٥٩ .

طلس قائد جيوشه في ملأفة من قواده واجناده ، مما اضطر الخليفة الى حشد معظم قواته اليهم ، « وربط اكابر قواده بشعرهم ، وغطى البحر بينه وبينهم باساطيل الاموال والاسلحة والعدد والاطعمة ، حتى قهرهم واستزلهم من صياصيمهم ، وغلبهم على ديارهم واسكنهم الاندلس » (١) ومنذ ذلك الحين ضمهم الى جيشه كما فعل قبل ذلك عندما ضم عبيد جعفر ويحيى ابني الاندلسي ، وبني برزال اليه . وهكذا نشطت حركة وفود البربر الى الاندلس ، واستكثر منهم الحكم في جيشه حتى اصبحوا يؤلفون عسكرياً ضخماً ، قاربوا السبعائة فارس من البربر (٢) . كذلك استقدم منهم المنصور بن ابي عامر اعداداً هائلة حتى ضاقت بهم مدينة قرطبة ، ويعبر ابن عذارى عن اكتظاظهم بها بقوله : « فلما زاد الناس بقرطبة ، وانجلب اليها قبائل البربر من العدو وافريقية ، وتناهى حالها في الجلالة ، ضاقت الاربابض وغيرها » (٣) .

وكان من الطبيعي ان يضيق مسطح بيت الصلاة بعد الزيادة الحكيمة الكبرى عن ضم جميع المصلين ، الامر الذي دعا المنصور محمد بن ابي عامر الى التفكير جدياً في توسيع بيت الصلاة . وقد شرع المنصور بالفعل في زيادة الجامع في سنة ٣٧٧ هـ من الجهة الشرقية لتعذر الزيادة فيه من الجهة الغربية بسبب قيام القصر الخلافي ، المقابل للجامع ، وتعذرهما من الجهة القبليّة لقرب جدار القبلة من الوادي ، بالاضافة الى ان الزيادة من هذه الجهة ستؤدي حتماً الى هدم المحراب العظيم الذي اقامه الحكم بقبابه الثلاثة . اما الجهة الشرقية فقد كانت عامرة بالدور والمستغلات ، وكان في مقدور المنصور ان ينتزع ملكية هذه الدور من اصحابها ويعوضهم عنها

Garcia Gomez, al-Hakam II y los Berberes, al-Andalus, (١)
Vol. XIII, 1948, P. 215.

Ibid., P. 217. (٢)

(٣) ابن عذارى . ح ٢ ص ٢٨ .

بانصافهم^(١) ، فكان اول ما فعله ابن ابي عامر تطيب نفوس ارباب الدور الذين اشترت منهم لتهدم وتقوم على ارضها الزيادة الجديدة^(٢) . واستغرقت زيادة المنصور عامين ونصف عام ، وكان المنصور يعمل فيها بنفسه ، كما استخدم الاسرى المسيحيين في البناء^(٣) ، وجعل من نواقيس النصارى التي غنمها من غزوته بشتت ياقب سنة ٣٨٧ ثريات في زيادته^(٤) ، كذلك استخدم ابواب كنيسة شنت ياقب في هذه الزيادة^(٥) . وقد اضطر بناء المنصور الى فتح ثغرات ضخمة في الجدار الشرقي القديم المجمع في زمن عبد الرحمن الاوسط لوصول زيادته بيت الصلاة الاقدم ، كما اضطروا الى هدم احدي الميضآت الحكيمة الاربعة ، وكانت تقع لصق هذا الجدار ، ثم اضافوا الى البلاطات الاحدى عشرة القديمة ثمان بلاطات جديدة امتدت بطول بيت الصلاة من الصحن حتى جدار القبلة ، فاصبح بيت الصلاة يضم بعد زيادة المنصور ١٩ بلاطا . وكان من الطبعي ان يهدم بناء المنصور الجدار الشرقي القديم الذي يحصر الحد الشرقي للصحن ليزيد في اتساعه ويقيم جدارا شرقيا جديدا للمجمع كله أوصله بالقسم الزائد من جهة القبلة ، ويفتح في هذا الجدار الشرقي الجديد ابوابا اخرى مماثلة للجدار الغربي ، عددها سبعة . وتبقت في الدعائم المتخلفة من السور الشرقي القديم بيت الصلاة بقايا ابواب من زيادة الحكم .

وراعى المنصور في زيادته ان يسودها نوع من الانسجام والتناسق

(١) ابن عسار ، ج ٢ ص ٤٢٩ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٨٤ .

(٤) نفسه ، ج ٢ ص ٦٠ .

(٥) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨١ . ونلاحظ ان المنصور استخدم في بناء زيادته تراب ما هدمه من كنائس النصارى (المقرئ ، ج ٤ ص ٢٠٣) تسجيلا لانتصاراته الحربية . ويذكر ابن غالب انه وجد في أدنى منبر جامع قرطبة بعد ان خرب في الفتنة الثانية سنة ٥٤٠ مقدار ما تحمله دابتان من رمل أبيض مثل سحالة الفضة قيل ان المنصور بن ابي عامر جلبه من جليقية (ابن غالب ، ص ٣٠) .

مع بناء المسجد كله ، فواصل في زيادته إقامة صفوف من الدعائم المضخمة امتدادا لصفوف الدعائم المتخلفة في بيت الصلاة القديم من جدار القبلة بمسجد عبد الرحمن الداخل ونظائرهما بمسجد عبد الرحمن الأوسط . كذلك راعى المنصور في زيادته المبالغة في الاتقان والوثاقة دون الزخرفة ، ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة ما عدا زيادة الحكم^(١) . وأقام في الصحن جبا كبيرا^(٢) ، تمويضا عن الميضات التي تهدمت نتيجة لهذه الزيادة ، وهو جب مربع الشكل طول الجانب منه ١٤,٥٠ مترا تتوسطه أربعة دعائم مصلبة الشكل من الحجارة ، تحمل عقودا نصف دائرية ، بحيث تقسم الجب الى تسعة أساطين .

وعلى الرغم من أن المنصور قلد في زيادته عقود زيادة الحكم المستنصر ، إلا أن عقوده تختلف عنها في أن سنجاتها كلها من الحجارة طلي بعضها باللون الاحمر حتى يوهم الناظر أنها تتناوب مع سنجات من الاجر الاحمر ، ويحافظ بذلك على الايقاع اللوني ، كذلك قلد زيادة الحكم في استخدام الكواويل المزدوجة التي تكون من ست لفائف زخرفية .

(٤)

تاريخ الجامع بعد سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين

ظل جامع قرطبة يحتفظ بصورته الكاملة التي سجلتها زيادة المنصور حتى نهاية عصر الخلافة ، فلما قامت الفتنة التي أطاحت بالخلافة الاموية ، وتعرضت قرطبة لانتقام البربر ، انتهب بيت مال المسجد الذي كان قائما في الصحن ، كما اقتلعت الابواب الذهبية بمقصورة المسجد في سنة

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٤٢٨ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٤٢٩ .

٤٠٠ هـ^(١) ، فاضطر بئو جهور الى نقل الاموال الى مخزن الجامع . كذلك تعرض الجامع من جديد لأعمال النهب ابان الفتنة الثانية التي حدثت في سنة ٥٤٠ عندما نهبت أوصال المنبر و ثريات الجامع الفضية ، كما جردت الصومعة من تفافيحها الذهبية والفضية^(٢) .

وفي عصر الموحدين كان الجامع ما يزال يحتفظ بسكاته ، فقد ذكر ابن مرزوق في المسند أن عددا من أوصاله وصل الى المغرب ، وكانت تقارن بأوصال منبر جامع تلمسان^(٣) . وكان الجامع في عصر الموحدين مركزا للاحتفالات الدينية لا سيما الاحتفال بليلة القدر ، وكان المبلسون يقصدونه في تلك الليلة الكريمة ، لشهود الاحتفال الديني بهذه المناسبة من كل عام^(٤) . وفي هذا العصر أيضا أمر أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن بغرس صحنه بأنواع الاشجار^(٥) .

ثم تحول الجامع الاعظم الى كنيسة بعد استيلاء القشتاليين على قرطبة في سنة ١٢٣٦ ، على يدي الاسقف دي أوسما باسم كنيسة سانتا ماريا العظمى^(٦) ، واتخذ فيه الملك فرناندو الثالث المصلى المعروف بسان كليمنتي في الجزء الجنوبي من زيادة المنصور لصق جدار الحراب^(٧) . وفي سنة ١٢٥٨ حول الاسقف دون فرناندو دي لاميسا في عهد الملك الفونسو العاشر العالم القبة المخرمة الكبرى التي تقوم على مدخل البلاط الاوسط

(١) ابن غالب ، ص ٣٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) Felix Hernandez, el al-minbar movil, P. 393.

(٤) المقرئ ، ج ٢ ص ٩٠ .

(٥) ابن غالب ، ص ٢٩ .

(٦) Torres Balbas, Nuevos datos sobre la mezquita de Cordoba cristianizada, al-Andalus, Vol. XIV, 1949, P. 455 — Castejon, Guia de Cordoba, P. 62 — Torres Balbas, la mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, Madrid, 1952, PP. 100-106.

(٧) Torres Balbas, la Mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, P. 100.

من زيادة الحكم المستنصر الى مصلى كبير^(١) ، وغطيت الاقواس البارزة المتقاطعة في القبة المذكورة بطبقة من الجص رسم عليها الفنان ألونسو مرتينث صورا في سنة ١٢٨٦ أزيلت اليوم .

وفي سنة ١٣٧١ أقام الملك انريكي الثاني دي ترنستمارا ملك قشتالة المصلى الملكي المعروف بمصلى سان فرناندو في الاسطوانة الواقعة شرقي القبة الكبرى المخرمة ، وكان الملك فرناندو الرابع المتوفي في جيان سنة ١٣١٢ قد دفن في هذا المصلى ، كما دفن فيه انريكي الثاني أيضا ابنه الامير الفونسو الحادي عشر الذي لقي مصرعه في حصار جبل طارق في سنة ١٣٥٩ . وكسيت جدران هذا المصلى بزخارف مدججة محفورة في الجص تشبه زخارف قصور الحمراء وقاعات قصر اشيلية ، وأقيمت بأعلى المصلى قبوة رائعة من الضلوع المتقاطعة التي تغطيها المقرنصات الزخرفية الدقيقة ، ويعتقد الاستاذ توريس بلباس أنها من نفس نوع قبوات المسجد الجامع الموحي باشبيلية^(٢) . والى انريكي الثاني تنسب الزخارف المدججة التي تزين الباب الرئيسي للجامع من الجهة الشمالية ويعرف بباب الغفران .

وفي سنة ١٣٨٤ أقيم مصلى سان أوجستين ، وتحول الاسطوان المقابل للمحراب الى مصلى . ومع ذلك فكل ما طرأ على الجامع حتى ذلك التاريخ لم يكن يزيد على اضافات طفيفة لم تمس جوهر البناء ، ولم تغير في نظامه أو تشوه من عمارته . ولكن منذ أواخر القرن الخامس عشر بدأت بعض التغييرات الاساسية تغير بنية قسم كبير من الجامع ، ففي سنة ١٤٨٩ أمر الاسقف انييجو مانريكي بهدم عقود وأعمدة البلاطات الخمسة الممتدة طولا من مصلى سان فرناندو المعروف بمصلى فيلافيسوسا حتى الجدار الغربي للجامع بعرض ثلاثة أساكيب ، وأسس مكانها جدارين

Amador de los Ríos, Inscripciones arabes de Cordoba, (١)
PP. 104-105 — Castejon, Guia de Cordoba, P. 39.

Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, P. 268. (٢)

عرضيين بغرض تكوين 'مجاز يغطيه سقف خشبي على شكل هرمي يقوم على عقود منكسرة ذات انبعاجات قوطية وفقا للأسلوب الشائع في هذا العصر^(١) . وزين باب سان بدرو بزخرفة قوطية ، وأعيد بناء السقائف المحيطة بالصحن ، ففقدت صورتها الخلافية القديسة^(٢) ، ولكن استخدمت فيها نفس الاعددة والتيجان الاسلامية القديمة ، وهي تماثل تيجان واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن . وفي سنة ١٥٢٣ شرع الاسقف دون ألونسو مانريكي في هدم جزء من زيادتي عبد الرحمن الاوسط والمنصور ، وذلك لاقامة كاتدرائية قوطية الطراز في قلب الجامع . ولكن المجلس البلدي بقرطبة وأهالي المدينة اعترضوا على تنفيذ بناء هذه الكاتدرائية الذي يقضي على وحدة أثر من أروع آثار العالم ، وذكر المجلس البلدي في جملة ما ذكره من أسباب معارضته لهذا المشروع أن المعبد المذكور كما هو ببنيته « فريد في العالم ، وأن البناء المزمع هدمه من نوع لا يمكن قتل بناء أثر يضاهيه في عظمتة ودقته الاصليتين »^(٣) ، وهدد المجلس بمحاكمة من يتجرأ على هدم البناء ما دام الملك لم يقرر ذلك . ولكن شارلكان لم ينتصر لموقف المجلس البلدي ، وأمر بتنفيذ المشروع دون أن يشاهد الروائع الفنية التي يشتمل عليها . وعلى هذا النحو بدأت الاعمال في ٧ سبتمبر سنة ١٥٢٣ ، ولكن شارلكان عندما مر بقرطبة في العام التالي بمناسبة زواجة في إشبيلية من دونيا ايزابيلا ملكة البرتغال شاهد جامع قرطبة للمرة الاولى ورأى أعمال الهدم في داخله ، فغرب عن أسفه الى الاسقف فراي خوان أسقف طليطلة ، والى هيئة قرطبة الكنسية ، وعبر عن ألمه لتشوه الجامع بكلمات أصبحت مشهورة جاء فيها : « لو كنت أعمل ما هو عليه هذا الأثر من روعة لما كنت قد سمحت بأن يهدم ، لأنكم تبنون

(١) Torres Balbas, La mezquita de Cordoba y madinat al-Zahra, P. 105 — Castejon, Guia de Cordoba, P. 39.

Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 82. (٢)

Torres Balbas, op. cit., P. 106 — Castejon, Guia de Cordoba, P. 40. (٣)

ما هو في كل مكان ، وهدمت بناء فريدا في العالم » . وقد أشرف على بناء الكاتدرائية التي قضت على الوحدة المعمارية للمسجد ، وقطعت امتداد عقوده وأعيدته المهندس هرنان رويث المتوفي سنة ١٥٤٧ ثم ابنه هرنان رويث المتوفي سنة ١٥٩٣ . ولم يتم بناء هذه الكاتدرائية الا في سنة ١٥٩٩ . وفي هذه الاثناء أقيم عدد من المصليات الكنسية بلصق جدران الجامع . وفي سنة ١٥٨٣ تصدعت المئذنة بسبب زلزال ، فعمد المجلس البلدي بقرطبة الى المهندس هرنان رويث الابن بترميمها ولكن اصلاحها لم يتم الا في سنة ١٦٦٤ . ثم أقيم في سنة ١٦٨٢ مصلى جديد أقامه الأسقف فراي الونسو دي مدينة ويعرف هذا المصلى بمصلى لاكنشيون ، وزينه الاسقف المذكور بتماثيل رائعة قام بعملها المثال الفرناطي بدرو دي مينا . وفي سنة ١٧٠٥ أقيم مصلى آخر يعرف بسانتا تيريسا أو مصلى الكاردينال سالازار . وفي القرن الثامن عشر انتزع أسقف الجامع الخشبية بعد أن تآكلت بفعل الزمن ، وأقيمت عوضا عنها قبوات جصية في جميع بلاطات الجامع . ثم بدأت سلسلة من الاصلاحات لترميم ما تعرض من العناصر المعمارية في الجامع للتلف ، وكانت السنيورة الكونتيسة دي الكانديتي قد قامت في ١٦٧٤ باصلاح مصلى المحراب المسى بمصلى سان بدرو ، ولكن هذا الاصلاح كان موقوتا فقد تعرض هذا المصلى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر للتصدع وأوشك على الانهيار ، فأصلحه المهندس الفرنسي بلتاسار ديدريوتون والبناء المشهور فرنسيسكو أجيلاز^(١) . وفي سنة ١٨١٦ تم اصلاح هذا المصلى للمرة الثالثة بأمر الاسقف دون بدرو أنطونيو دي ترافيا ، وأزيلت اللوحة التي كانت تغطي مدخل المحراب مما دعا الى ترميم عقد المحراب لاتقاذه من الهدم

Enrique Romero de Torres, Aportaciones para la historia (١) de la Catedral de Cordoba, en el «Diario de Cordoba», 9 Nov. 1935.

المحتوم^(١) . وبعد ذلك بسنوات أزال الاسقف ثيفيرينو جنثالث Ceferino Gonzalez لوحات مصلى فيلافثيوسا وشرع في اصلاحه^(٢) .

وأخيرا أعلن المسجد الجامع بقرطبة أثرا قوميا في سنة ١٨٨٢ ، فقام دون ريكاردو فلاسكت بوسكو مدير مدرسة العمارة بسدريد بالإشراف عليه ، وأصلح مصلى فيلافثيوسا كما أصلح سقف الجامع الخشبي وأرضيته القديمة^(٣) . وواصل المهندس بوسكو أعمال الترميم ، فأعاد وضع الاسقف الخشبي في البلاط الاوسط بجامع قرطبة ، كما أصلح الابواب الخارجية في زيادة المنصور ، وتم الفراغ من جميع أعمال الترميم في سنة ١٩١٤ .

ويصف الوزير الغساني المسجد الجامع بقرطبة بعد تحوله الى كنيسة ، ويشير الى المحراب الذي أخفي وراء لوحة مشبكة من النحاس فيقول : « ومحرابه الاسلامي باق على حاله لم يتغير ولم يحدث فيه شيء »

(١) Aguilar Priego; Datos inéditos sobre la restauracion del mihrab de la mezquita de Cordoba, en Boletin de la Real Academia de Cordoba, No 53, Abril-Junio, 1945, PP. 142-143.
Torres Balbas, la mezquita de Cordoba cristianizada, al-Andalus 1949, P. 455.

(٢) Castejon, op. cit., PP. 41-42.

(٣) تمكن الاستاذ كاستخون بفضل المستندات والحفريات التي اجراها دون فيلث هرناندث من ان يستنتج ان ارضية جامع قرطبة كانت من الملائم المنطى بطبقة من الجير سمكها ٥ سم لتأويته . ولكن حفريات دون ريكاردو فلاسكت بوسكو اثبتت ان الاساطين الثلاثة التي تواجه المحراب على الاقل كانت تكسو ارضيتها لوحات الرخام كالشان في ارضية المحراب نفسه . ونعتقد ان هذه اللوحات الرخامية كانت تغطي ارضية المقصورة ، بينما كانت ارضية المسجد مغطاة بالملاط ثم غطيت في عصر اسلامي متأخر على زيادة الحكم بطبقة من الجير ، وذلك حتى يتخذ لون ارضية الجامع كلها . وبعد ان استولى القشتاليون على قرطبة اخذوا يزيلون الارضية الرخامية ويضعون مكانها ارضية من الطوب او النريعات .

Castejon, el pavimento de la mezquita de Cordoba, Boletin de la Real Academia de Cordoba, No 54, 1945, PP. 327-330,
Castejon, Mas sobre el pavimento de la mezquita de Cordoba, Boletin, No 56.

الا أنهم جعلوا عليه شباكاً من نحاس ، وطرحوا أمامه صليبا ، فلم يدخل عليه أحد الا قيم ذلك الصليب ، ولم يزد بداخله ولا بحائطه شيء قليل ولا كثير» (١) . كذلك يصف لنا الوزير الغزال المسجد الجامع بقرطبة في أيامه وصفا أكثر دقة ، فيشير الى المصليات القائمة على جدران الجامع من الداخل ، ويصف قبة المحراب ، ويصف اللوحات المصورة على جدران الجامع (٢) .

(١) محمد بن عبد الوهاب الفساني ، رحلة الوزير في انتكالك الاسير ، ص ١٨ .
(٢) ابو العباس المهدي ، نتيجة الاجتهاد ، المرائش ١٩٤١ .

الفصل الثامن

جامع قرطبة (الدراسة الفنية)

- ١ - تخطيط المسجد الجامع بقرطبة بعد زيادتي المستنصر والمنصور
- ٢ - الدعائم الداخلية : الأعمدة والأرجل - العقود
- ٣ - الكتل : الركائز - المئذنة
- ٤ - أسقف الجامع وقبابه : الأسقف الخشبية - القبوات والقباب
- ٥ - الأبواب والنوافذ
- ٦ - واجهة المهراب

الفصل الثامن

جامع قرطبة (الدراسة الفنية)

(١)

تخطيط المسجد الجامع بقرطبة بعد زيادتي المستنصر والمنصور

اتبع الإمبر عبد الرحمن الداخل في بنائه لجامع قرطبة في سنة ١٦٨ هـ النظام التخطيطي للجامع الأقصى الذي أعاد الخليفة الوليد بن عبد الملك ابن مروان بناءه في سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) ، وكان يتألف من عشر بلاطات تتجه عقودها عموديا على جدار القبلة^(١) ، ويعتقد الأستاذ لامبير أنه كان يتألف من ١٥ بلاطا الاوسط منها أكثر اتساعا وربما في الارتفاع من البلاطات الاخرى^(٢) ، والظاهر أن الرقم الذي أورده الأستاذ لامبير هو العدد الفعلي لبلاطات الجامع في عهد الخليفة المهدي العباسي كما وصفه المقدسي^(٣) . وأيا ما كان عدد البلاطات فإن هذا النظام القائم على بلاطات تتجه عموديا على جدار القبلة اشتهر منذ نشأة الجامع الأقصى ، وأصبح الطابع المميز لمساجد المغرب والاندلس . وقد طبقه مهندسو عبد الرحمن الداخل في مسجده كما احترمه مهندسو عبد الرحمن الاوسط والحكم المستنصر ثم المنصور . غير أن زيادة الحكم المستنصر تتميز دون غيرها من الزيادات التي استوسع بها الجامع باشتغالها على أربعة قباب توزعت على البلاط الاوسط من الزيادة الحكيمة والاسكوب الموازي لجدار القبلة ، ونظمت على النحو التالي : قبة على مدخل الزيادة وتعرف بالقبة المخرمة الكبرى ، وقبة بأعلى الاسطوان الذي يتقدم المحراب مباشرة وهي القبة المعروفة

(١) فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، ص ٢١٣ .

(٢) Lambert, les mosquées de type andalou, P. 277.

(٣) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ١٩٠٦ ، ص ١٥٦

بقبة المحراب ، ثم قبتان تكتنفانها بأعلى الاسطوانين المجاورين شرقا وغربا .
وبذلك نجح مهندسو زيادة الحكم في احداث تأثير جمالي من التماثل
والانسجام في بلاط المحراب ، مقلدين في ذلك نظام قيتي المحراب والبهو
بجامعي القيروان والزيتونة بتونس ، وقد يكون من بين مهندسي الحكم
من كان تونسيا ، فقد ذكر ابن عذاري أنه « تداعى السى هذه البنية
(زيادة الحكم) كل صانع حاذق من أقطار الارض » (١) ، فجامع القيروان
أصبح منذ عهد ابراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) يتميز
بوجود بلاطة واسعة تتوسط البلاطات الأخرى ، وتتجه عسودية على صف
العقود المقابل للمحراب (٢) ، وبقتين تعلوان هذا البلاط عند مدخله
ومؤخرته : الأولى تطل على البهو وتعرف لذلك بقبة البهو ، والثانية
بأعلى الاسطوان المواجه للمحراب ، وعند تقاطع البلاط الاوسط مع
أسكوب المحراب وتعرف بقبة المحراب (٣) . كذلك كان لجامع الزيتونة
بتونس قبتان : احدهما أمام المحراب فوق تقاطع بلاطة المحراب
وأسكوبه ، والثانية على مدخل البلاط الاوسط من جهة البهو ، وقد
أقيمت قبة المحراب في سنة ٢٥٠ على نفس نظام قبة المحراب بجامع
القيروان التي بناها زيادة الله سنة ٢٢١ ، أما قبة البهو فأقيمت في سنة
٣٨١ هـ (٤) . ولا شك أن بناء زيادة الحكم المستنصر في جامع قرطبة طبقوا

-
- (١) ابن عذاري - ج ٢ ص ٣٥٤ .
(٢) هدم زيادة الله صف العقود الفاصلة بين البلاطين التاسع والعاشر
في سنة ٢٢١ هـ وحولهما الى بلاط واحد يزيد اتساعه على البلاطات الأخرى
المجاورة له ، ويتعامد مع أسكوب المحراب المحاذي لجدار القبلة ، وأقام زيادة
الله قبة المحراب العظيمة ، ثم أقيمت القبة الثانية المعروفة بقبة البهو في عهد
ابراهيم بن أحمد (فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ١٩
السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٤٢٤) .
(٣) أحمد فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٤ - المدخل لمساجد
القاهرة ومدارسها ، ص ٢٠٩ .
(٤) Ahmad Fikry, La mosquée az-Zayloûna à Tunis, dans :
Egyptian Society of historical studies, Vol. II, Cairo, 1952,
PP. 27-64. - فكري ، المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٦ .
السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٤٢٩ .

هذا النظام المعساري الفريد في الزيادة المذكورة ، وأقاموا بلاطا للحراب يتوسط بلاطات الزيادة الحكيمة وما يشبه أسكوب الحراب بهذا جدار القبلة أكثر اتساعا من بقية الاساكيب ، وذلك عن طريق اقامة قبتين مجاورتين لقبة الحراب^(١) ، ثم شيدوا قبة رابعة عند مدخل الزيادة^(٢) . وقد أصبح هذا النظام الذي طبقه مهندسو الحكم في زيادته بجامعة قرطبة أنسودجا اتخذته مساجد المغرب والاندلس ، وأصبحت زيادة الحكم تؤلف طابع المساجد الذي يطلق عليه الاستاذ لامبير اسم الطابع الاندلسي ، بل ان بناء جامع تلسان (أسس سنة ٥٣٠ في عهد علي بن يوسف بن تاشفين) قلدوا تخطيط جامع قرطبة النهائي بعد زيادتي الحكم والمنصور تقليدا تاما ، فبيت الصلاة في جامع تلسان يشتمل على ١٣ بلاطا عمودية على جدار القبلة ، الاوسط منها أكثر اتساعا من البلاطات الاخرى . ويتسيز هذا البلاط بوجود قبتين : احدهما أمام الحراب ، والثانية فوق منتصف البلاط الاوسط على نحو ما نراه في وضع القبة المخرمة الكبرى بجامعة قرطبة المعروفة بقبة مصلى فيلافثيوسا بالنسبة للجامع كله ، ويشتمل هذا التقليد أيضا في صف العقود القائمة على دعائم ضخمة تقطع البلاطات الطولية عرضا وتقسم بيت الصلاة في جامع تلسان الى قسمين كل منهما

(١) Lambert, L'architecture musulmane du Xe siècle à Cordoue et à Tolède dans Gazette des Beaux Arts, t. XII, 1952, PP. 141-161 — Lambert, Les coupôles des Grandes mosquées de Tunisie et de l'Espagne au IXe et Xe siècle, dans Hesperis, t. XXII, fasc. 2, 1936 — Lambert, Les mosquées de type andalou, P. 281 — Lambert, La mosquée de Cordoue et l'art byzantin, dans Actes du VI congrès d'Etudes Byzantines, 1948-1952, PP. 331, 332 — Lambert, Précisions nouvelles sur l'œuvre d'Al-Hakam II, dans : A.I.E.O.U.A., 1936, PP. 70-80 — Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 483.

(٢) السيد عبد العزيز سالم - المسجد الجامع بالقيروان - مقال في كتاب مساجد ومعاهد ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٠ - ص ١٧٤ - السيد عبد العزيز سالم ، العمارة الدينية في الاندلس - مقال في دائرة معارف الشعب - ص ١٠٨

يشتمل على ثلاثة أساكيبة^(١) ، هذا الصف من الدعائم والعقود الحاجزة يشبه الى حد كبير صفوف العقود التي تفصل بين بيت الصلاة القديم وبين زيادة الحكم المستنصر^(٢) .

كذلك أثر نظام القباب القائمة على البلاط الاوسط وآسكوب المحراب في زيادة الحكم بجامع قرطبة على مساجد الموحدين الجامعة ، فان بيت الصلاة بجامع اشبيلية انعكاس واضح لجامع قرطبة بعد زيادة المنصور بن أبي عامر^(٣) .

وأصبح جامع قرطبة بعد زيادة الحكم المستنصر يؤلف شكل مستطيل طوله ١٧٣,٦٥ مترا وعرضه ٧٦ مترا ، ولكن بزيادة المنصور أصبحت مساحة الجامع كله ٢٢٢٥٠ مترا مربعا ، ولما كانت أرض الجامع من جهة القبلة تنحدر نحو النهر ، أصبح من الضروري رفع مستوى سطح المسجد عن طريق منصة مرتفعة من البناء تقوم عليها جدران الجامع الخارجية في زيادتي الحكم والمنصور ، وبناء سلالم من الخارج للوصول الى الابواب الشارعة الى بيت الصلاة .

ويقع بين جدار المحراب والجدار الخارجي للجامع فراغ تشغله عشرة غرف صغيرة تعتبر امتدادا للبلاطات السوداء على جدار القبلة في زيادة الحكم ، الغرف الخمسة الواقعة الى يسار المحراب هي المشرع الى الساباط الذي أنشأه الحكم بأعلى الطريق الموصل الى باب القنطرة ، وكان هذا الساباط يقوم على عقد ضخم يعلو الطريق المذكور ، وقد هدمه الاسقف ماردونيس في السنوات الاولى من القرن السابع عشر ، وذلك عند شروعه في اصلاح القصر ، وقد وصف الادريسي المشرع الى الساباط بقوله :

(١) Margais, l'architecture musulmane d'Occident, P. 195.

— سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٧٥٠ .

(٢) Lambert, les mosquées de type andalou, P. 285.

(٣) المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٨٥٦ .

« وعن يمين المحراب والمنبر باب يفضي الى القصر بين حائطي الجامع في ساباط متصل ، وفي هذا الساباط ثمانية أبواب تغلق من جهة القصر ، وأربعة تغلق من جهة الجامع »^(١) ، ويعلو غرف المشرع الى الساباط قبوات نصف أسطوانية ، وفي الجدار القبلي لكل من هذه الغرف الخمسة تنفتح نافذة مشبكة بالرخام . ويحتفظ المشرع اليوم بأربع أبواب في الجدران الفاصلة بين الغرف الخمسة ، وباب خارجي يدخل منه الامير الى المسجد ، وباب سادس يصل الى المقصورة . ويصف امبروسيو دي موراليس هذا الساباط قبل تدمره بسنوات بأنه كان يبدو كالقلعة أو السجن ، ثم يذكر عدد أبواب غرفه ، فيذكر أنه كان يشتمل على ثمانية أبواب : « الاربعة الاولى القريبة من القصر كانت تغلق من ناحيته ... وكان البواب يتقدم حاشية الخليفة ويفتح هذه الابواب ، فيدفعها نحو الشرق ، أما الابواب الاربعة الاخرى فكانت تغلق بالعكس ، اثنان نحو الشرق واثنان نحو الغرب ، وعلى هذا الاساس كان هناك بوابين آخرين محجوزين لفتح الابواب » . ويذكر موراليس أيضا أن مصاريع هذه الابواب كانت مكسوة بصفائح من البرنز والحديد^(٢) .

ويتفق ما ذكره موراليس مع ما ذكره الادريسي من حيث عدد الابواب ومن حيث اتجاه فتحها ما دعا الاستاذ توريس بلباس الى الاعتقاد بأن المشرع كان به خمسة أبواب مستدة ، وأن الساباط كان بداخله غرف تفصلها ثلاثة أبواب ، فيكون المجسوع ثمانية أبواب متصلة^(٣) . أما الغرف الخمسة الاخرى الواقعة على يسار المحراب ، فكانت مخصصة لحفظ العدد والطبوت والحسك الخاص بوقيد الشوع في كل ليلة ٢٧

(١) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق ، تحقيق الفريد ديسيه لامار ، ص ١٠ .

(٢) Ambrosio de Morales, Las antigüedades de las ciudades de Espana, apud. Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 485.

Torres Balbas, op. cit., P. 485. (٣)

من شهر رمضان ، كما كان يحفظ فيها « مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذي خطه يمينه رضه ، وفيه نقط من دمه ، وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة ، ويتولى اخراجه رجلان من قومة المسجد ، وأمامهم رجل ثالث بشعة ، وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأعرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بسوضع المصلى كرسي يوضع عليه ، ويتولى الامام قراءة نصف حزب منه ثم يرد الى موضعه » (١) ، وكان مدخل هذا المخزن يقع أيضا في الجدار الشرقي من زيادة الحكم المستنصر ، وهو الباب الوحيد من هذه الزيادة وصل الينا سليما دون أن تسه حتى اليوم آثار اصلاحات • ويعلموا هذا الطابق الادنى من الغرف طابق علوي يشتمل على ١١ غرفة مسائلة بزيادة غرفة واحدة هي التي تقوم مكان المحراب في الطابق الادنى • وتتصل هذه الغرف جميعا فيما بينها عن طريق أبواب ، ولكل غرفة نافذتان ، واحدة تطل على خارج الجامع والثانية نحو بيت الصلاة •

وجامع قرطبة منذ أن أضاف اليه المنصور زيادته فيه لم يعد يحتفظ بتناسق أجزائه ، لأن المحراب أصبح لا يقع في منتصف جدار القبلة ، ومع ذلك فانه تسوده وحدة معمارية وزخرفية واضحة •

(٢)

الدعائم الداخلية

١ - الاعمدة والارجل (الدعائم) :

يمثل بيت الصلاة بعقوده المتصلة القائمة على عمد غابة من النخيل ، فالعقود والاعمدة المتكررة في امتداد لا يحده البصر توحى بالطبيعة الحية ،

(١) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٨ ، ١٠ •

وكانت أعمدة المسجد الاقدم متخذة من الكنائس الرومانية والقوطية لتيسير بنيان المسجد والفراغ منه سريعا ، وكانت لهذه العمدة قواعد مختلفة الاحجام ، وظيفتها تسوية ارتفاع العمدة القديمة • أما أعمدة المسجد الاخرى فمجردة من القواعد ، وهي بذلك كانت تخدم الشيوخ والاساتذة اذ تسهل لهم مهمة الاستناد بظهورهم على سواربها أثناء قيامهم باملاء مصنفاتهم ، وكانت القواعد تعوقهم عن الاستناد على السواري •

وأعمدة زيادة الحكم المستنصر من الرخام الاسود المجزع بالايض ورؤوسها من النوع الكورنثي ، تتناوب مع أعمدة وردية اللون تيجانها من النوع المركب • ويحتفظ محراب الجامع الحالي بالاعمدة الاربعة التي كانت تزين عضادتي محراب عبد الرحمن الاوسط • وتمتاز تيجان أعمدة الزيادة المستنصرية بأوراقها ولقائفها الملساء • أما الدعائم العليا التي تقوم فوق الاعمدة بالبلاط الاوسط من زيادة الحكم فتتيز بأنها مئنة الشكل ومغطاة بزخارف هندسية محفورة في الجص ، وتقوم هذه الدعائم على كوابيل من النوع الذي درسناه في واجهة بيت الصلاة مع اختلاف يسير هو أنها مزدوجة في زيادة الحكم • أما نظائرها من البلاطات الاخرى من زيادة الحكم فعارية من الزخرفة • ونلاحظ أن مهندسي الحكم عندما شرعوا في اجراء زيادته في الجامع ، بدأوا بهدم جدار القبلة القديم كله ، بعد أن احتفظوا بأعمدة المحراب القديم ونقلوها الى موضعها من المحراب الجديد ، وأقاموا في موضع الجدار المهدم أحد عشر عقدا مزدوجا ضخما تفصل بين المسجد القديم والزيادة الحكيمة ، وتنفذ على أحد عشر بلاطا ، تتميز العقود الثلاثة الوسطى منها بازدياد ثرائها الزخرفي عن العقود الاخرى ، والعقود المذكورة تركز جميعا على دعائم ضخمة مائلة في وسط بيت الصلاة ، يسميها المؤرخون « بالارجل الصخرية » •

ب - العقود :

١ - العقد المنفوخ المتجاوز لنصف الدائرة (عقد حدوة الفرس) والعقد نصف الدائري :

لا يفرق الادريسي بين العقد المتجاوز لنصف الدائرة والعقد نصف الدائري ، فهو يطلق عليها اسم « قبي دائرة »^(١) . والواقع أن العقد نصف الدائري والعقد المتجاوز لنصف الدائرة يسيطران وحدهما على جميع عقود المسجد الجامع بقرطبة بما فيها زيادة الحكم المستنصر ، فنشأهما في العقود السفلى والعليا ، وفي عقود الابواب الخارجية ، والطاقت التي تعلوها ، وفي واجهة المحراب ، وعلى المئذنة ، وحول الصحن . أما العقود المتجاوزة فتختلف في نسبها باختلاف الزمان الذي أقيمت فيه ، ونلاحظ أن تكوين العقد المتجاوز في بيت الصلاة القديم يسجل استمرارا للتقاليد الاسبانية القوطية ، ويعتقد الاستاذ كامبس أي كاثورلا أن عقد باب سان انتيان هو أول عقد اسلامي التكوين ، اذ تحرر في تخطيطه من التقاليد القوطية ، ريشل مرحلة انتقال بين العقود المتجاوزة في المسجد الاول وبين العقود المتجاوزة الخلافة . ونظام التسنيج هنا يقتصر على الجزء المركزي من العقد وهو الجزء الحي منه^(٢) . ثم تعرض العقد المتجاوز أو المنفوخ في عصر الخلافة لتطور سريع ، فان توزيع السنجات في العقد أصبح يتشعب في ذلك العصر من مركز يقع في وسط الخط المستد بين الحدائر ، في حين أصبحت الدائرة السفلى من العقد تتبع نفس نسبة نصف الدائرة . وفي هذه الحالة فان دائرة العقد العليا لم تعد تتمركز مع نفس مركز الدائرة السفلى ، وترتب على ذلك

(١) الادريسي . وصف المسجد الجامع بقرطبة . ص ١٤ .

(٢) Camps y Cazorla, Modulo, proporciones y composicion, en la arquitectura califal de Cordoba, Madrid, 1953, P. 29.

أن مفتاح العقد أصبح يزيد في الطول عن السنجات الاخرى . ويعتقد كامبس اي كاثورلا أن ذلك الشكل يمثل تأثيرا شرقيا وافدا من العراق^(١) . وتتجلى في العقود الزخرفية مبالغة واضحة في اغلاق العقد ، كما يتضح في عقود النوافذ الثلاثية بمئذنة الجامع ، وفي هذه العقود لا يقتصر التسنيج على نصف العقد ، وانما يستمر في خطوط تلتقي مع المركز الواقع في منتصف الخط الممتد بين حدارتي العقد . وبينما تقتصر سنجات العقود المنفوخة الفاصلة بين البلاطات على أنصاف العقود ، فان عقد المحراب والعقدان اللذان يكتنفانه شرقا وغربا والعقد التي تتفتح على الواجهة الغربية ، والعقد الموصل بين مصلى فيلا فثيوسا وزيادة عبد الرحمن الاوسط فكلها عقود كاملة التسنيج .

وقد ترتب على زيادة طول مفاتيح العقد في التسنيج القائم على مركز خط الحدائر أن بدأ العقد يميل الى الشكل المنكسر ، ثم تطور شكل العقد الى عقد منفوخ يميل الى الانكسار ، وقد ظهر هذا النوع من العقود في زيادة الحكم في عقدي المدخل الى الاسطواناتين المجاورين لاسطوان المحراب ، ولكن لم يتبق منها اليوم سوى العقد الشرقي . كذلك يتجلى العقد المنكسر في زيادة المنصور بن أبي عامر .

واذا كان العقد المنفوخ أو المتجاوز يسود في الجامع كله ، فان استعمال العقد نصف الدائري كان أقل بكثير ، واقتصر استخدامه فقط على العقود العليا التي تحل الاسقف الخشبية ، وتقوم هذه العقود على الدعائم العليا عن طريق طنف يبرز بروزا طفيفا بأعلى الدعائم . وتوحي هذه العقود نصف الدائرية بالقوة والصلابة بسبب منابتها الرأسية ، في حين تفقد العقود السفلى المنفوخة التي سبق أن تحدثنا عنها وظيفة التدعيم بسبب خنيتها المتجاوزة لنصف الدائرة ، وعلى ذلك فان وظائفها تقتصر على مجرد الربط بين الدعائم ، وتجميل البناء .

Torres Balbas, arte His. Mus. P. 488 — Camps y Cazorla, ١١١
op. cit , P. 33.

٢ - العقود ثلاثية, الفصوص ومتعددة الفصوص :

يظهر العقد ثلاثي الفصوص لأول مرة في الجامع مختلطا بالزخرفة في النافذة اليمنى من باب سان استيبان . ولكن استخدام هذا العقد ساد في زيادتي الحكم المستنصر والمنصور، وقد أطلق الادريسي على هذا النوع من العقود « صنعة القروط » ، كما أطلق على العقود متعددة الفصوص اسم « صنعة الفص » ، فيشير الى العقود ثلاثية الفصوص التي تزين وجه المحراب بقوله : « وعلى هذا الوجه ، أعني وجه المحراب ، سبع قسي قائمة على عمد ، وطول كل قوس أشف من قائمة ، وكل هذه القسي مزججة صنعة القروط » ، أما العقود متعددة الفصوص « صنعة الفص » ، فيذكرها عند حديثه عن الزخارف الهندسية التي تزدان بها سوات المسجد (اللوحات المسطحة بسقفه الخشبي) وجوائز سقفه (الكتل الخشبية التي تثبت فيها اللوحات المسطحة) ، كما يذكرها عند حديثه عن العقود المتشابكة أو التشبيك الذي تقوم عليه القباب ، فإن رؤوس العقود خاسية الفصوص التي تؤلف الطابق الأدنى من قاعدة قبة المحراب تملوها نحور مستديرة مفصصة ناتئة تربط العقود السفلى بالعقود العليا المنفوخة أو المفصصة (١) . ويعبر الادريسي عن ذلك بقوله : « وقد عقد بين العود

(١) طبق مهندسو الحكم فكرة تقاطع الخطوط الزخرفية على بنية الجامع . وتمثل هذه الفكرة بحق في التشبيك الذي تقوم عليه القباب . وهذه الفكرة في حد ذاتها هي ثورة معمارية . وأبداع أصيل لم يسبق اليه فن معماري . فتقاطع العقود وتشابكها له مزيتان اشار اليهما ابن عذاري . هما الوثاق والجمل . وقد حرص مهندسو الحكم على بناء قباب قوية وثيقة البناء على عمد مرتفعة للغاية حتى تتيح للضوء ان ينفذ الى مقصورة الجامع من خلال تشبيكاتها . وبحدث في نفس الوقت تأثير جمالي . وقبة فيلا فثيوسا تقوم على تشبيك من العقود المفصصة ، العقود السفلى منها تؤدي وظيفة معمارية . أما النحور التي تملوها فمظهرها زخرفي بحت وان كانت تخفي تحتها بناء من الحجر له قيم معمارية واضحة . ولا شك ان تقاطع العقود المفصصة مع اخرى متجاوزة منفوخة . يؤلف ابتكارا معماريا شديدا التعبير ، فمن وظائف هذه التشابكات احم طبقات العقود فيما بينها . وتوزيع الضغوط التي تمارسها القباب عليها توزيعا أكثر منطقية . ا راجع في ذلك :

Marçais, L'architecture musulmane d'Occident, P. 148 — Gomez Moreno, el entrecruzamiento de arcadas de la arquitectura arabe, Cordoba, 1930, P. 6 — Ricard, Pour comprendre l'art musulman, Paris, 1924, P. 132 — Torres Balbas, Arte his. mus. PP. 493-498.

والعمود على أعلى الرأس قمي غريبة فوقها قمي أخرى على عسد من الحجر المنجور متقنة ، وقد جصص الكل منها بالجص والجير ، وركبت عليها نحور مستديرة بينها ضروب صناعات الفص بالمغرة ^(١) . وفكرة تشابك العقود كما نراها في بلاط المحراب بزيادة الحكم من ابتكار مهندس الحكم المستنصر ، وقد سجل انشاؤها في نقش من الكتابة الكوفية بطرة المحراب نصه : (... ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، هو الحي لا اله الا هو ، فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين ، موفق الامام المستنصر بالله عبدالله الحكم امير المؤمنين اصلحه الله لهذه البنية المكرمة ، ومعينه على نيته الخالدة في التوسع لرعيته ... ما اليه واليهم الرغبة فيما ابتدأ من فضله فيهم وصلى الله على محمد وسلم . امر الامام المستنصر بالله عبدالله الحكم امير المؤمنين وفقه الله مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله بتشريك هذه البنية ، فم يعون الله بنظر محمد بن تليخ واحمد بن نصر وخالد بن هاشم اصحاب شرطته ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب ...) ^(٢) .

ويغلب على الظن ان العقود المفصصة من اصل مشرقى ، ويتشمل اقدم امثلة العقود التي تعتبر الاصل الذي اقتبس منه العقد المفصص القرطبي هو الشريط الزخرفي المفصص الذي يدور بالعقد الضخم لمدخل ايوان كسرى المعروف بطاق كسرى في طيسفون ^(٣) ، ويظهر العقد المفصص بصورة زخرفية في بازيليكية سيبية بتونس ويتخذ فيها شكل عقد زخرفي متعدد الفصوص ^(٤) . ولكن استعمال هذا العقد لم ينتشر الا في المنشآت

(١) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة . ص ٦ .

(٢) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, P. 15 —
Répertoire chronologique d'epigraphie arabe, P. 197, texte n° 1581.

(٣) بناه سابور الاول ذو الاكتاف في الفترة ما بين عامي ٢٤١ — ٢٧٢ م .
وسمي بالقصر الابيض ، ثم رُممه كسرى أنو شروان بعد خرابه ، وأضاف اليه
اضافات كثيرة بحيث غلب اسم كسرى على القصر فعرف لذلك بايوان كسرى
او طاق كسرى (راجع : فرج بسمهجي - نبذة تاريخية عن طيسفون - بغداد ،
١٩٦٤ . ص ٧) .

(٤) Torres Balbas, Arte his. mus., P. 491.

الآجرية في العمارة العباسية بالعراق منذ اواخر القرن الثاني والثالث ، كما تشهد في جوفة يباب بغداد في مدينة الرقة (١٥٥ هـ) ، وفي باب مسجد قصر الاخير (النصف الثاني من القرن الثاني) ، وفي المسجد الجامع بسامراء (٢٤٨ هـ) ، وقصر العاشق بسامراء ايضا (٢٦٤ - ٢٦٨ هـ)^(١) . ونشهد امثلة من هذا العقد في مصر في جامع عمرو بن العاص بالقسطاط في عهد عبدالله بن طاهر (٢١٢ هـ) وفي جامع احمد بن طولون (٢٦٠ هـ) ، وفي افريز خشبي بعين الصيرة . ويظهر العقد المفصص في القيروان في اساس قبة المحراب^(٢) وفي بعض حشوات المنبر ، ولكن هذه الامثلة جميعا تقتصر على عقود زخرفية في النوافذ او حول العقود . وهكذا ظهر هذا العقد المفصص بصورته الزخرفية على استحياء في المباني العباسية . اذ لم نثر على امثلة له في مداخل الابواب او في العقود الكبرى التي تؤدي وظائف معمارية . اما في قرطبة فقد شاع استخدامه في زيادة الحكم المستنصر بالجامع في صور مختلفة . وعلى الرغم من اصله العباسي الواضح^(٣) ، فان العقد المفصص في جامع قرطبة عقد حجري يقوم بوظيفة معمارية كتحمل الضغط العلوي دون ان يفقد مظهره الجبالي ، ومعنى ذلك ان العقود المفصصة في قرطبة تطورت تطورا كبيرا بالنسبة للعقود الشرقية وفاقته هذه العقود من حيث التنوع والمظهر الجبالي .

وجامع قرطبة يشتمل على نوعين من العقود المفصصة : العقد متعدد الفصوص نصف الدائري ، والعقد متعدد الفصوص المنكسر . اما النوع الاول فيتمثل في مدخل البلاط الاوسط من زيادة الحكم المستنصر ،

Ibid., P. 491. (١)

Gomez Moreno, Ars hispaniae, P. 99. (٢)

(٣) يستند الاستاذ توريس بلباس في ذلك على ان بعض العقود المفصصة بجامع قرطبة (مثل العقود التي نراها في داخل عقد المدخل بالباب الاوسط من الواجهة الغربية . وعقود المقرنصات المجوفة بأركان قبة المحراب . والعقود الزخرفية الاربعة التي تقع بين المقرنصات) تعلوها طرز زخرفية هرمية الشكل على النحو الذي نراه في باب بغداد بالرقعة .

ونعني به العقد المؤدي الى مصلى فيلافثيوسا ، وهو عقد منفوخ في تكوينه ثم جزئت حلقة الى ٢١ فصا بارزا . ويلتحم هذا العقد متعدد الفصوص من اعلى بعقد منفوخ على شكل حدوة الفرس مطوقا اياه بحيث تبدو الفصوص وكأنما قصت على ارضية العقد المنفوخ المبطن لها . كذلك نشهد هذا النوع الاول من العقود في احد ابواب الواجهة الغربية لبيت الصلاة . اما النوع الثاني فقد اقتصرت في زيادتي الحكم المستنصر والمنصور ، وشاع استخدام العقد خماسي الفصوص ، في حين ندر استخدام العقد ثلاثي الفصوص بحيث اقتصرت على القسم الاعلى من واجهة المحراب وفي داخل جوفة المحراب نفسه . وهناك نوع آخر من العقود جاء نتيجة تطور طراً على العقد متعدد الفصوص ، وهو العقد ذو اللقائف ، وهو عقد مديب مزود في بطنه بلقائف عديدة متصلة ، ونشاهد هذا العقد في الاسطوانين التالين للعقدين المجاورين للمحراب شرقاً وغرباً ، وهما الاسطوانان اللذان يحدان نهاية المقصورة .

٣ - العقد المنكسر أو المديب :

يظهر العقد المنكسر في زيادة الحكم مثلاً في العقد متعدد اللقائف الذي ذكرناه ، ولكنه يظهر بوضوح في زيادة المنصور بن ابي عامر لا سيما في العقود التي تعلو النوافذ الرخامية . ويعتقد الاستاذ جومث مورينو ان تكوين هذا العقد يمكن ان نلمحه في العقد متعدد الفصوص او لعله استوحى من تقاطع العقود المنفوخة فيما بينها^(١) . وأصل العقد المنكسر مشرقى كذلك ، وامثلته الحجرية عديدة نشهدا في المنشآت الاموية مثل قبة الصخرة وقصر الحير والجامع الاموي .

Gomez Moreno, el entrecruzamiento, P. 6. (١)

أ - الركائز الخارجية :

يذكر الأستاذ جومث مورينو ان الجامع يبدو من الخارج مستطيل الشكل تتسم واجهاته الخارجية بوحدة المظهر ، فارتفاعها متوسط ولكن لا يفوقها في الارتفاع ، ولا يحط من قيمة نسبها التي تسيل الى تأكيد الأفقية الغالبة على الجامع او امتداده طولاً اي عنصر معماري آخر باستثناء المئذنة . ويقطع هذه الواجهات على مسافات غير منتظمة في جميع الاحوال ركائز قوية ضخمة اقرب ما تكون الى الابراج يمكن ان نعتبرها صدى لتقاليد متبعة في الشرق منذ أقدم العصور^(١) ، ولا نلمح فيها على الضد من ذلك أي صدى لتقاليد غربية^(٢) . هذه الركائز تكسب الجامع مظهر القلاع لبروزها الكبير وضخامة بنيانها . ويعتقد الأستاذ تراس ان قصور كلدة وفارس القديمة كانت تزدان على امتداد واجهاتها بشل هذه الركائز ، ويضيف قائلاً : « ان العساة العباسية عملت على احياء هذا العنصر المعماري ، ونقله الى المغرب . ولكن هذا العنصر انتقل الى المغرب الاسلامي في ابنية من الحجارة بعد ان كان شائعاً في بلاد يعتمد البناء فيها على الآجر . ويكتسب هذا العنصر في المغرب الاسلامي بساطة شاملة لم يكن يعرفها في مسقط رأسه »^(٣) .

(١) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 29.

(٢) يذكر الأستاذ توريس بلباس على عكس رأي جومث مورينو ان العمارة الرومانية عرفت هذا العنصر في الابنية الحربية والهندسية كدعائم في الجدران وركائز لتلقي الدفع . ويذكر ايضاً ان مهندس جامع قرطبة بفضل تزويد جدران الجامع بركائز لا تؤدي وظائفها في تلقي الدفع الذي تمارسه العقود او القباب . استطاع ان يواصل تقاليد العمائر الرومانية في الاندلس التي تقوم بنفس الوظيفة . والمثلة في كثير من الابنية الرومانية في الاندلس .

(٣) Terrasse, L'art hispano mauresque, P. 61.

ويتميز جامع القيروان بوجود ركائز ضخمة متقاربة في المسافة تدعم سورته من الخارج^(١) ، ولا تقوم وظيفة هذه الركائز كما قد يتبادر الى الذهن على دعم البناء وتحمل الضغط الذي تمارسه عقود بيت الصلاة ، لان هذه الركائز اقيمت في مواضع بعيدة عن نقط امتداد العقود ومراكز اندفاعها ، وانما الغرض منها ان تتشعب مع الدعائم البارزة التي تكتنف ابواب المسجد ، فتضفي عليه جمالا ، لان هذه الدعائم المكتتفة للابواب لو انها تركت يسفردها لظهرت كأنها بروزات منفردة ، تشوه المظهر الخارجي للجامع^(٢) . ويغلب على الظن أن نظام تدعيم الجدران الخارجية بالركائز انتقل الى جامع قرطبة من المغرب ، ومن قرطبة انتشر في مساجد الاندلس والمغرب في عصري المرابطين والموحدين . ونلاحظ ان المسجد الجامع بتلسان يقلد عناصر عديدة من جامع قرطبة ، ومن جملتها الركائز ، ثم يعود بناء الموحدين الى استخدام الركائز في جدران جامع اثيلية وفي الجدار القبلي من جامع الرباط .

ب - المئذنة :

ذكرنا من قبل ان الامير هشام اقام مئذنة للجامع في الجهة الشمالية من الصحن ، استطاع الاستاذ فيلت هرنانديث الاهتداء الى اساسها ، وثبت من دراسة هذا الاساس انها كانت مربعة الشكل طول كل ضلع منها ٦ امتار ، اما ارتفاعها فتقدره المصادر العربية بأربعين ذراعا اي ما يعادل ١٩,٢ مترا تقريبا على أساس ٤٨ سم للذراع الواحد . وكان جدارها القبلي يرتكز على الجدار الشمالي للجامع ، ويبعد بنحو ٢٣,٩٠ مترا من الجدار الحالي^(٣) . وذكرنا أيضا أنه كان يدور حول نواتها الداخلية ،

(١) Marçais, Manuel d'art musulman, t. I, P. 31 — L'architecture musulmane d'Occident, P. 19.

(٢) عبد العزيز سالم . المسجد الجامع بالقيروان . ص ١٧٢ .

(٣) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 44.

وهي بناء مربع الشكل اشبه ما يكون بالبرج الصغير ، درج لولبي يقع بين جدران هذه النواة الوسطى وبين جدار المئذنة الذي يغلفها . ويعتقد علماء الآثار ان هذا الدرج كان يشبه الى حد كبير درج مئذتين اصبحتا اليوم برجين للنواقيس لكنيستى سان خوان ، وساتياجو بقرطبة ، وبرج ثالث كان مئذنة لجامع عمر بن عبدس باشبيلية ويعرف اليوم بكنيسة سان سلفادور . ويعتقد الاستاذ توريس بلباس ان اصل هذا التصميم اسباني الاصل ويرجع الى عهد سابق على الفتح الاسلامي ، ويذكرنا به درج معبودية جابية بغرناطة^(١) .

اما مئذنة عبد الرحمن الناصر فقد اقيمت في سنة ٣٤٠ هـ ، واستغرق بناؤها ١٣ شهرا . وهي مربعة القاعدة ، يبلغ طول كل جانب منها ١٨ ذراعا (٨,٤٦ مترا) ، وكان ارتفاعها الى موضع الاذان يبلغ ٥٤ ذراعا^(٢) (أي ما يقارب ٢٣,٥٠ م) ، ينسا يبلغ الى أعلى القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذن ٧٣ ذراعا^(٣) ، (أي ما يقارب ٣٣,٨٤ م) . وقد بنيت الصومعة من كتل حجرية « ضخام الحجارة القطعية منجدة غاية التجيد »^(٤) ، وبُنيت واجهاتها الاربعة بالكذان اللكي^(٥) ، وهو حجر جيرى سهل

(١) Torres Balbas, la primitiva mezquita mayor de sevilla, al-Andalus, 1946, fasc. 2, P. 438.

(٢) ابن غالب . ص ٢٩ - المقرئ . ج ٢ ص ٨٥ - ٩٨ - ٩٩ . ويشير الإدريسي الى ان هذا الارتفاع يصل الى ٨٠ ذراعا بالرشاشي . و ١٠٠ ذراع الى أعلى القبة . وهو في ذلك يتفق مع ما اورده ابن عذارى وابو حاتم الفرناطي .

(٣) ابن غالب . ص ٢٩ - المقرئ . ج ٢ ص ٨٥ - الحميري . ص ١٥٧

(٤) المقرئ . ج ٢ ص ٩٨ - ٩٩ . واغلب الظن ان كلمة القطعية يراد به القبطية . وهي كتل ضخمة ثقيلة . اوردها الإدريسي في نزهة المشتاق (راجع : الإدريسي . نزهة المشتاق . ص ٢١٢ .)

Dozy, Glossaire des mots espagnols et portugais, PP. 310, 311.

(٥) الإدريسي . وصف المسجد الجامع بقرطبة . ص ١٠ - ١٢ .

النخر والتآكل^(١) ، اختصت به مدينة قرطبة^(٢) . ونظام صفوف البناء يتبع طريقة الصف طولاً وعرضاً (آدية وشناوي) أي وضع كتلتين من جانبيهما وكتلة من وجهها ، بحيث يتراوح طول القطعة الموضوعة من الجانب ما بين ٤٠ و ٤٨ سم ، بينما يتراوح طول القطعة الموضوعة من وجهها ما بين ٧٠ و ١٥٠ سم ، ويتم التحام الكتل الحجرية عن طريق طبقة رقيقة من الجص^(٣) . وينقسم قلب المئذنة الى قسمين مستقلين ، كل منهما مستطيل الشكل ، يفصل بينهما جدار يمتد من الشمال الى الجنوب ، ولكل قسم درج قائم بذاته عدد درجاته ١٠٧^(٤) يدور حول كتلة من البناء مستطيلة الشكل . وعلى هذا النحو تعتبر مئذنة الناصر ازدواجاً لمئذنة هشام ، ولكل مئذنة باب مستقل يدخل المؤذنون منه : فباب المئذنة الشرقية واعني به القسم الشرقي من المئذنة ، يفتح على الصحن ، أما باب المئذنة الغربية فيفتح على الطريق المحاذي للجدار الشمالي الجامع ، ويتحد الدرجان بأعلى السطح الذي تعلوه قبة . وقد وصف الادريسي درجي المئذنة فقال : « إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا الا اذا وصلا الاعلى منها »^(٥) ، وفي هذين الدرجين يقول ابن عذاري : « وقد كانت الاولى (يعني مئذنة هشام) ذات مطلع واحد ، فصير لهذه مطلعين ، وفصل بينهما بالبناء ، فلا يلتقي الراقون فيها الا بأعلاها »^(٦) . وعندما

(١) Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, Leyden, (1) 1881 — Dessus Lamare, La mosquée de Cordoue (d'après al-Idrisi), P. 11 — Sauvaget, la mosquée omeyyade de Médine, Paris, 1947, P. 83.

البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . ص ٢١٧ — ابن صاحب الصلاة ، تحقيق انطونية ملشور ، ص ١٣٩ .

(٢) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، تحقيق وليم رايت ، ص ٣٣١ .

(٣) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 467.

(٤) يذكر ابن غالب أن لأحد درجي المئذنة ١٠٧ سلماً وللآخر ١٠٥ .

(٥) ابن غالب ، ص ٢٩ .

(٦) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة ، ص ١٠ .

(٦) ابن عذاري ، ط . لبني وكولان ، ج ٢ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ — المقرئ :

ج ٢ ص ٩٨ .

فرغ المهندسون من بناء المئذنة صعد اليها عبد الرحمن الناصر من احد الدرجين ونزل من الدرج الثاني^(١) . وكان يعلو بسطات الدرج قبوات صغيرة متقاطعة لم تبق منها اليوم سوى واحدة نصف اسطوانية متجاوزة^(٢) ، تتعامد مع محور السلم ، ويقطعها من وسطها عرصا عقد منفوخ^(٣) . وكانت جميع قبوات المئذنة مبنية بمواد بنائية ضعيفة ، ثم جصصت وطليت بزخارف هندسية باللونين الابيض والاحمر . وكانت الجدران الخارجية للمئذنة مزينة بنوافذ مزدوجة أو توأمية عقودها من النوع المتجاوز ، تتوزع على ثلاثة طوابق بالنسبة لواجهتيها القبليّة والشمالية ، ونوافذ ثلاثية عقودها منفوخة كذلك تتوزع على طابقين في الواجهتين الشرقية والغربية . ويؤكد الادريسي هذا التوزيع اذ يقول : « وبالأوجه الاربعة الدائرة من الصومعة صفان من قسي دائرة على عمد من الرخام الحسن »^(٤) . وعقود هذه النوافذ متجاوزة للغاية بحيث تكاد تغلق من ادنى ، وتسنيجها كامل حتى منابت العقود ، والسنجات مطولة ، واحدة بارزة بيضاء واخرى غائرة حمراء على التناوب ، ويحيط بها من اعلى مجموعة من الفصوص الصغيرة التي تتعاقب مع اخرى كبيرة حول السنجات ، وتنتهي مجموعة حنايا العقد المزدوج او الثلاثي من اعلى بافريز بارز يدور مع الحنايا ، وتطوق المجموعة كلها طرة مستطيلة الشكل . والعقود في هذه النوافذ تتكوى على عمد صغيرة تيجانها كورنثية ومركبة . هذه التفاصيل استطعنا ان نستخلصها من نافذة ثلاثية العقد ، ما زالت ترى اليوم من خلال الغلاف البنائي الذي يحيط بالمئذنة الاسلامية ، وقياسا عليها بالاضافة الى الرسوم التي تمثل المئذنة في اختتام المدينة في القرن الرابع عشر ورنك الكاتدرائية التي تحمله شعارا لها ، ثم الوصف الذي

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٩٨ .

(٢) Torres Balbas, Arte his. mus., P. 468.

(٣) Lambert, Les origines de la croisée d'ogives, dans : office des Instituts d'archéologie et d'histoire d'art, 1937, P. 138.

(٤) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة . ص ١٢ .

اورده امبروسيو دى موراليس امكننا الوقوف على نظام البناء في المئذنة .
 وكان جدار المئذنة ينتهي من اعلى بافريز من العقود الصماء (تسعة في كل
 وجه) قائمة على عمد صغيرة ، ويستد هذا الافريز حول الواجهة الاربعية
 للمئذنة ، وقد اصبح ذلك موضوعا شائعا في جميع المآذن الاسلامية التالية
 في المغرب والاندلس ، وكان يتوج الجدار من اعلى السطح شرفات مسننة .
 وقد احصى الادريسي عدد اعمدة المئذنة فذكر ان عددها من الداخل
 والخارج يبلغ ثلاثمائة عمود ما بين صغير وكبير^(١) ، ينسب يذكر ابن غالب
 ان عدد اعمدة المئذنة مائتان ونيّف وخمسون عمودا^(٢) . ويذكر الادريسي
 ايضا ان المئذنة كانت تزدهان من وجه الأرض الى اعلى الصومعة بصنع
 مقسمة تحتوي على انواع من الصنع والتزيق والكتابة والمون^(٣) .
 ويبدو بابا الصومعة وقد مثلا على احد الدرعين المنقوشين على باب ساتا
 كاتالينا ، صغيرين يعلو الواحد منهما عتب ثم عقد منفوخ يكتفه عقدان
 جانبيان قد نقشا على الركيّتين البارزتين على جانبي المدخل ، وفوق العقد
 المنفوخ صف من اربعة عقود متصلة قائمة على ثلاثة عمد مشتركة ، وتنتهي
 البوابة من اعلى بشرفة بارزة قائمة على مساند . وكان يعلو هذا الطابق
 من المئذنة بيت للسوّذين أو برج أقل ارتفاعا من الطابق الادنى من المئذنة
 الذي وصفناه ، كان يقضي فيه كل ليلة مؤذنان للأذان في العشاء والفجر ،
 وكان لهذا البيت اربعة ابواب مغلقة ، وكانت تتوج هذا البيت قبة مخرمة
 وصفها المؤرخون ، وبرأس القبة ثلاث تفاحات ، واحدة من ذهب وثنان
 من فضة ، تفصل بينها أوراق سوسنية^(٤) . ويصف ابن عذارى هذه
 التفاحات بقوله : « وفي اعلى ذروة المنار ثلاث رمانات تغشى النواظر
 بشعاعها ، وتخطف الابصار بالتعاعها ، الاولى مفروغة من الذهب ،
 والوسطى من الفضة ، والثالثة من الذهب ايضا ، وفوقها سوسانة من

(١) الادريسي - وصف المسجد الجامع بقرطبة - ص ١٢ .

(٢) ابن غالب ، ص ٢٩ .

(٣) الادريسي - المصدر السابق .

(٤) نفسه .

الذهب المحض سدسة ، وفوق السوسانة رمانة صغيرة من الذهب ، ثم طرف الزجاج ، وفيه تاريخ مكتوب بالذهب « (١) . ويصفها ابن سعيد بقوله : « وفي اعلى ذروتها ثلاث شمسات يسونها رمانات ملصقة في السفود البارز في اعلاها من النحاس : الشتان منها ذهب ابريز ، والثالثة منها وسطي بينهما من فضة اكسير ، وفوقها سوسنة من ذهب سدسة ، وفوقها رمانة ذهب صغيرة في طرف الزجاج البارز بأعلى الجو » (٢) . وقد نهبت هذه الرمانات الذهبية والفضية في الفتنة الثانية في سنة ٥٤٠هـ (٣) .

وما ان سقطت قرطبة في ايدي القشتاليين في سنة ١٢٣٦م حتى تحول المسجد الجامع الى كنيسة ، وتحولت المئذنة الى برج للنواقيس ، وتعرض الجزء العلوي من المئذنة الاسلامية لبعض التغيرات التي عجلت بتصدعها ، ففي سنة ١٥٨٩ تصدعت تصدعا شديدا بسبب زلزال عنيف ، تشقق بسببه بيت المؤذنين وقسم كبير من الطابق الادنى ، وهدد ذلك التشقق المئذنة كلها بالسقوط ، وأصبح من الضروري ترميمها ، ولكن عملية الترميم لم يكن من الممكن أن تتم دون تدعيم القسم الادنى من المئذنة حتى تتحمل قيام طابق علوي جديد ، وكان لا بد من حشو المئذنة من الداخل بالبناء ، ثم تغليفها كلها بكسوة من الحجر من نفس طراز كسوة البرج العلوي من مئذنة جامع اشبيلية ، واسندت مهمة التغليف الى المهندس الكبير هرنان رويث فيسا بين عامي ١٥٩٣ - ١٦٥٣ ، اي طوال ستين سنة ، وبذلك اخفى القسم الاسلامي المحفوظ من الداخل والخارج . ولقد اتاحت الابحاث التي قام المهندس الاثري فيلث هرناندث ، الكشف عن جزء كبير من المئذنة الاسلامية ، وعلى هذا الاساس امكن إعادة تخطيط المئذنة على النظام الاصلي ، وقد حفظ لنا جزء كبير من الجدران الخارجية من المئذنة يصل ارتفاعه الى ٢٢ مترا ، بينما حفظ نحو ٢٦ مترا من النواتين الداخليتين .

(١) ابن عذارى ، ط . ليفي بروفنسال وكولان . ص ٢٢٨ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٣) ابن غالب ، ص ٣٠ .

اسقف الجامع وقبابه

١ - الاسقف الخشبية :

كان المسجد الجامع بقرطبة يحتفظ حتى بداية القرن الثامن عشر بأبقفه الاقفية التي تتكون من لوحات خشبية مثبتة على عوارض تمتد عرضا بأعلى البلاطات ، ثم تعلوها بامتداد البلاطات اسطح منشورية الشكل منكسوة بالقراميد ، ولقد أزيلت هذه الاسقف الخشبية فيما بين عامي ١٧١٣ - ١٧٢٣ لتآكلها ، وقيم مكانها قبوات متعارضة خفيفة . ويرجع السبب في تآكل الاسقف الخشبية الى عدم العناية بنظام صرف المياه من القنوات الموجودة بين الاسطح المنشورية ، ويبدو ان كمية من مياه الامطار تسربت الى السقف الخشبي ، فتلف جانب منه في سنة ١٢٦١ مما دعا الى اصلاحها^(١) . وفي بداية القرن الثامن عشر كتب جومث يرافو ان الكنيسة الكبرى بقرطبة « كانت تحتفظ منذ عهدنا القديم بالاسقف التي أخذت أجزاء منها تهتد بالتلف ، لان رؤوس الجوائز المصنوعة من خشب الصنوبر ، وهي العوارض التي تدخل في الجدران ، قد تآكلت بفعل الرطوبة والرشح ، واصبح من الضروري ترميم البلاط المعروف بالبوتو^(٢) » . وقد تم بالفعل ازالة الاسقف الخشبية ، ولحسن الحظ حوفظ على هذه اللوحات المتآكلة ، عن طريق اعادة استخدامها في الهياكل الخشبية الداخلية للأسطح المنشورية ، فاستخرجت من مواضعها من الهياكل المذكورة التي دفت فيها وذلك في سنة ١٨٧٥ . وفي اثناء العمل في اصلاح اسقف مصلي سان بدرو ومصلي سان لورثو الداخلين في زيادة

Torres Balbas, arte his. mus., P. 538. (١)

Gomez Bravo, Catalogo de los obispos de Cordoba, (٢)
Apud., Torres Balbas, arte hispano musulman, P. 538.

الحكم المستنصر ، وفي البلاط المجاور للواجهة الغربية ، تحت اشراف المهندس رافاييل لوكي ، ظهر عدد كبير من الجوائز واللوحات المكسوة بالزخارف الملونة ، ولكنها كانت مغطاة بالجص ، وقد تم العثور عليها موضوعة وضعا افقيا ، بحيث يثبت احد اطرافها في جدار الواجهة والثاني في الجدار القائم على صف العقود العليا^(١) . كذلك عثر جيرو دي برانجي في سنة ١٨٤١ على قطع كثيرة من هذه الجوائز ولكنها كانت جميعها غير كاملة . ويذكر جيرو انها كانت مربعة ، وزخارفها محفورة عليها من ثلاثة اوجه ، كما ذكر ان كثيرا من هذه القطع تحتفظ بآثار زخرفة مدهونة بألوان متعددة^(٢) . وقد شجعت هذه الكشف الباحثين على مواصلة البحث ، فقد عثر أمادور دي لوس ريوس في سنة ١٨٧٥ على عدد من الجوائز التي تزدان بزخارف محفورة وملونة ، ويذكر انه عثر وقتئذ على عدد من الجوائز واللوحات الخشبية ازاء الباب المسمى بباب القصر . وبعد ذلك بسنوات تم العثور على عدد كبير من الجوائز واللوحات كانت قد اتخذت في الفراغ الواقع بأعلى القبوات وفي الهياكل التي تقوم عليها الأسطح المقرمدة . وقد تمكن المهندس الاثري فلاسكث بوسكو من تخليص عدد كبير منها من المواضع التي اتخذت فيها في القرن الثامن عشر ، ونجح في اعادة تركيب الاسقف الخشبية في البلاط الاوسط كله ، وفي قطاع يمتد على البلاطات السبع الصغرى من زيادة الحكم المستنصر المحصورة غربا ما بين الجدار القبلي من كاتدرائية الاسقف مانريكي ومجموعة العقود التي تسبق اسكوب المحراب^(٣) ، وذلك بعد ان رفض المشروع الذي

Felix Hernandez, la techumbre de la gran mezquita de (١)
Cordoba, en Archivo espanol de Arte y Arqueologia, t. XII, 1928,
P. 190.

Girault de Prangey, Essai sur l'architecture des Arabes (٢)
et des Mores en Espagne, en Sicile et en Barberie, Paris, 1841,
PP. 41-42, Note I.

Felix Hernandez, op. cit., P. 192 — Torres Balbas, La (٣)
mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, P. 83 — Torres Balbas,
Arte his. mus., P. 541.

اقترحه جيرو دي برانجي الخاص باعادة وضع هذه الاسقف^(١) . وقد عرضت الجوائز واللوحات على الجمهور في المجنبتين الشرقية والغربية من الصحن ، وفي متحف الجامع . وجميع هذه اللوحات والجوائز تنتمي لسقف واحد ، كما تدل عليه نوع مادتها وطبيعة الزخارف المحفورة عليها . وقد ساعد النص الذي اورده الادريسي في وصف الجامع مساعدة حقيقية في التعرف على هذه الاسقف^(٢) ، فهو يصفها بقوله : «وسقفه كله سماوات خشب مسمرة في جوائز سقفه ، وجسيم خشب هذا المسجد من عيدان الصنوبر الطرطوشي ارتفاع حد الجائزة شبر وافر في عرض شبر الا ثلاثة اصابع ، في طول كل جائزة منها سبع وثلاثون شبرا ، وبين الجائزة والجائزة غلظ جائزة ، والسماوات التي ذكرناها هي كلها ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المسدسة والمؤربي ، وهي صنع الفص ، وصنع الدوائر ، والمداهن ، لا يشبه بعضها بعضا ، بل كل سماء منها مكتف بها فيه من صنائع قد احكم ترتيبها ، وابدع تلوينها بأنواع الحبرة الزنجفرية ، والبياض الاسفيداجي ، والزرقاة اللازوردية ، والزرقون الباروقي ، والخضرة الزنجارية ، والتكحيل النقسي ، تروق العيون ، وتستميل النفوس باتقان ترسيها ، ومختلفات ألوانها وتقسيها »^(٣) .

ولقد فند المهندس الاثري دون فيلت هرنانديث النظرية القائلة بأن هذه الاسقف متأخرة على القرن العاشر الميلادي ، ويعتقد بان هذه الاسقف اقيمت في القرن العاشر ، وانها هي نفسها التي وصفها الادريسي في القرن الحادي عشر ، وهي نفسها التي شاهدها أمبروسيو دي موراليس في القرن

Girault de Prangey, op. cit., P. 42 — Creswell, Early (١) muslim architecture, Vol. II, P. 150.

Felix Hernandez, op. cit., P. 198. (٢)

(٣) الادريسي . وصف المسجد الجامع بقرطبة . ص ٤ .

السادس عشر^(١) ، وهي نفسها التي شاهدها جومث يرافو في القرن الثامن عشر قبل أن تبدل الاسقف الحالية بهذه الاسقف^(٢) . ولقد فحص الاستاذ فيلث هرناندث الجوائز واللوحات الباقية^(٣) فحسا دقيقا ، واثبت صحة الارقام التي ذكرها الادريسي ودقتها البالغة فيما يتعلق بسقايسها ، واستنتج من ذلك بان اللوحات المسطحة والجوائز كانت تستقر افقيا في وضع عرضي بالنسبة لمحاور البلاطات التسع عشر ، وكانت زخارف الجوائز تتشابه مع زخارف اللوحات ، كذلك اسفر الفحص الذي اجراه الاستاذ هرناندث على ان التكوينات الزخرفية ونوع الزخارف لم تكن متماثلة في جميع اللوحات ، اذ بينما توصل الى دراسة ٦٢ تكوينا زخرفيا متباينا ، اهتمدى الى أربع تكوينات فقط متماثلة ، وهو ما لاحظته الآدريسي ، اذ اشار الى « ان كل سماء من سماوات المسجد مكثف بما فيه من صنائع »^(٤) .

وكانت جميع هذه اللوحات والجوائز تحمل زخارف يستدل من اسلوبها على انها اقيمت في عصر الحكم المستنصر . ولكن اذا كانت هذه الآثار الباقية من سقف الجامع ترجع الى ايام الحكم ، فكيف كان وضع سقف الجامع في عصر كل من عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الاوسط ؟ اعتقد ان مهندس الجامع الاول واعني به جامع عبد الرحمن الداخل ، اتبع الطريقة الشائعة في سورية في اقامة الاسقف ، فقد كانت المساجد السورية الاولى منشورية أو هرمية مفرغة . بمعنى أنها تقوم على سقف هرمية

(١) ذكر امبروسيو ان هذه الاسقف من خشب الارز الذي يشبه الصنوبر ويفضله بأنه معطر ولا يوجد الا في بلاد البربر . وان هذا الخشب كان مدهونا بطرق مختلفة تجعل من الزخارف شيئا لا يمكن تصويره .
(Torres Balbas, arte his. mus., P. 540).

(٢) Felix Hernandez, op. cit., P. 197.
(٣) وصل الينا من الاسقف الخشبية ٢٠ قطعة من الجوائز ونحو ١٦٠

لوحة .

(٤) Felix Hernandez, P. 219.

مفرغة ، واعتقد ان بيت الصلاة في جامع عبد الرحمن الداخل كان مسقفا على نفس نظام الاسقف السورية ، لكثرة توافد التأثيرات السورية على الاندلس في عهده . ولا شك ان حرص الامير عبد الرحمن على سرعة اتمام البناء دفعته الى اتخاذ هذا النوع من الاسقف الهرمية المفرغة ، واذا بحثنا في الاصطلاح الذي استخدمه البلوى في وصف اسقف عبد الرحمن الداخل ، بقوله :

ترى الذهب الناري بين سموكه يلوح كلمح البارق المتوقد

وقارناه بالاصطلاح الذي استعمله الادريسي في وصف هذه الاسقف : « وسقفه كله سماوات خشب مسمرة في جوائز سقفه » ، نجد فارقا في المعنى ، فالاول يعني الاسقف المنشورية المفرغة فيما بينها ، والثاني يعني الاسقف المسطحة الافقية . ومن المحتمل ان يكون عبد الرحمن الاوسط قد سقف زيادته بنفس الطريقة القديمة ، ولكن بيت الصلاة تعرض للتلف في عهد الناصر واستلزم الامر اجراء اصلاحات فيه ، وكان الخليفة مشغولا ببناء الزهراء ، ثم شغل بعد ذلك بتوسيع الصحن وبناء الصومعة ، بالاضافة الى تعديل الجامع ، وليس من المستبعد ان يكون هو الذي اقام الاسقف الخشبية المسطحة ، فان اسلوب الزخرفة النباتية في كثير منها يشبه بعض التكوينات الزخرفية في بعض الدعائم وقواعد الاعمدة في قصر الزهراء ، وان استخدام ورقة الاكنس المطوية المتكررة ، وهو موضوع محبب في الفن البيزنطي ، وكثرة استخدام الدوائر الصغيرة والجامات ، والزهيرات ذات الورقات الخمسة بين الزخارف النباتية يجعلنا نميل الى الاعتقاد بوجود دئمة علاقة بين تنفيذ هذه اللوحات المسطحة : والجوائز وبين الزخارف التي تكسو جدران قصر الزهراء^(١) ، ويؤكد ذلك

(١) هذا الرأي يعارض رأي الاسناذ هرناندث وتوريس بلباس اللذين يرجعان هذه التكوينات الزخرفية الى اصول عراقية .
Hernandez, op. cit, P. 221 — Torres Balbas, arte his. mus., P. 550.

ان بعض زخارف اللوحات المكتشفة تشبه بعض التكوينات الزخرفية في احدى الملب العاجية التي ترجع الى عصره . وقد لاحظ الاستاذ توريس بلباس ايضا ان الزخارف النباتية في هذه اللوحات اقرب الى الزخارف البيزنطية ، ولكنه يؤيد مع ذلك الاستاذ هرناث في القول بتأثيرات عراقية وفدت على قرطبة في القرن العاشر الميلادي (١) .

ومن بين اسماء الفنانين الذين اشتغلوا في تنفيذ هذه الاسقف قرأ أسماء « ابن فتح » ، و « حاتم » ، و « رشيق » (٢) . وأغلب الظن أن رشيق هذا هو نفس الفنان الذي سجل اسمه في احدى زخارف قصر عبد الرحمن الناصر في مدينة الزهراء (٣) ، كما نشاهد هذا الاسم أيضا مدهونا على قاع قطعة من الخزف في حفريات الزهراء (٤) ، وهذا دليل واضح على ان الاسقف الخشبية تم تنفيذها في بيت الصلاة بجامع قرطبة في عصر الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر . ثم تابع الحكم المستنصر والمنصور بن ابي عامر نفس الطريقة ، ولكنهما استكترا من الزخارف الهندسية التي تجلى فيها بعض التأثيرات العراقية في العصر العباسي الثاني .

ب - القباب والقباب :

عمل مهندسو الحكم المستنصر على حشد كل اقيم الجمالية من تناسق وإيقاع ، وتعاقل واتزان ، وتنوع وتكرار ، وانسجام الوان على المحراب البديع الذي يعتبر بحق اجمل ما في الزيادة الحكيمة ، فوققوا في سبيل ذلك الى ابتكار معماري اصيل . فعلى كل جانب من جانبي المحراب

Torres Balbas, Arte his. mus, PP. 550-551. (١)

Felix Hernandez, op. cit., P. 220. (٢)

Gomez Moreno, Ars Hispaniae, P. 84. (٣)

Velazquez Bosco, Medina Azzaahra y Alamiya, Madrid, (٤)
1912, illus. N° XLIV.

فتح باب يعلوه عقد منفوخ تحدده من أعلى طرتان مستطيلتان تحصران بينهما شريطين من الكتابة بالفسيفساء على أرض اللازورد ، هذان العقدان يمثلان عقد المحراب نفسه من حيث المظهر العام ، ومن حيث طبيعة الزخرفة وتناسق الألوان ، وإن كانا يختلفان عنه في التفاصيل . كذلك حرص مهندسو الجامع على إيجاد بلاط عرضي يستد بعذاء جدار القبلة في مثل روعة البلاط الأوسط السعودي على هذا الجدار ، فأقاموا على أسطوان المحراب قبة قائمة على هيكل من الضلوع البارزة المتقاطعة فيما بينها ، ثم حوطها بقبتين جانبيتين ، تأكيداً لفخامة البلاط العرضي وتسجيدها للسقوصورة الخلفية ، واستكمالاً للتناسق والانسجام الذي أملاه وجود باين معقودين على جانبي المحراب بعقدين مماثلين لعقد المحراب ، ورغبة في انفاذ مزيد من الضوء ليغمر به مقصورة الخليفة من خلال نوافذ القباب . وعلى هذا النحو نجح مهندسو الحكم في الإيحاء بوجود أسكوب مواز لجدار المحراب ، كما نجحوا في أحداث التأثير الجسالي المطلوب ، وادى حرصهم على توزيع التناسق فيما يلي المحراب شرقاً وغرباً إلى ابتكار أصيل في العمارة الإسلامية هو فكرة تعدد القباب على أسكوب المحراب . وهكذا كان وجود البابين المجاورين لعقد المحراب بعقديهما المنفوخين ، وطريتهما المستطيلتين اللتين تسائلا طرة عقد المحراب ، السبب المباشر الذي أمني على هؤلاء المهندسين فكرة الاستمرار في تعميم مظهر التناسق على جانبي المحراب وذلك بإقامة قبتين تكتفان قبة المحراب من الشرق والغرب بإزاء العقدين المماثلين للمحراب اللذين يكتفانه من الجانبين . ويغلب على الظن أن هذا النظام الفريد الذي نشهده لأول مرة في مسجد إسلامي هو الذي أوحى إلى مهندس الحاكم بأمر الله بفكرة توزيع ثلاث قباب على أسكوب المحراب ، كما أنه هو المصدر الذي استلهم منه مهندسو الموحدين فيما بعد فكرة تعدد القباب على بلاط المحراب واسكوبه في مساجد تسال والقصة والكتيبة براكش واشيلية .

ويواصل مهندسو الحكم اضفاء مظهر التناسق الذي سبقوه على

اسكوب المحراب باقامة قبة الضوء ، او القبة المخرمة الكبرى على مدخل البلاط الاوسط من زيادة الحكم . وقبل ان تقوم بدراسة بنية هذه القباب الاربعة بزيادة الحكم يستلزم الامر الاطلاع على ما ورد في كتب التاريخ والجغرافية العربية فيما يتعلق بوصف هذه القباب ، اذ ان بعض النصوص التاريخية تتضمن اشارات عن هذه القباب لها اهميتها الخاصة بالنسبة للدراسة الفنية . واول من اشار الى قباب الجامع هو ابن النظام الكاتب الاخباري في عصر الحكم المستنصر ، وينقل ابن حيان عنه نصا يتعلق بزيادة عبد الرحمن الاوسط حدد فيه امتداد هذه الزيادة ، بقوله : « فعمل بنا رسمه حين الزيادة الثانية من هذا المسجد الفاضل المنسوبة الى عبد الرحمن بن الحكم ، المحدودة من عند الارجل الحجرية الضخام الماثلة اليوم في وسط ابهاء المسجد^(١) الى المحراب الاقدم^(٢) الذي اتخذت فيه اليوم القبة الكبرى المخرمة »^(٣) . والكاتب يشير هنا الى القبة الكبرى المعروفة اليوم بقبة مصلي فيلافيوسا والتي يطلق عليها الاستاذ جومث مورينو اسم قبة الضوء^(٤) Lucernario ، ولكن الاستاذ توريس بلباس يخطئ في تمييزها ، ويجعلها هي نفس قبة المحراب^(٥) . والظاهر انها سميت بقبة الضوء لتعدد نوافذها المفتوحة حول قاعدتها المستطيلة ، ويبلغ عدد هذه النوافذ ١٦ نافذة : اربعة في كل جانب ، تسمح بنفاذ الضوء قويا في قلب الجامع أي في موضع لا تكاد تصل اليه شعاعات الضوء الشاحبة التي تتسلل من نوافذ الجدران ومن قباب اسكوب المحراب . اما نوافذ قبة المحراب والقبتين المجاورتين لها شرقا وغربا فقليلة من حيث العدد

(١) يعني بها الدعائم المتخلقة من جدار القبلة بمسجد عبد الرحمن الداخل (انظر الصورة) .

(٢) يقصد به محراب عبد الرحمن الاوسط الذي اقامه في جدار القبلة بزيادته .

(٣) راجع نص ابن النظام الذي نشره ليفي برونسال في مجلة Arabica ، ص ٩١ ، ٩٢ - ابن حيان ، المقتبس ، نشر الحجري ، ص ٢٤٥ .

(٤) جومث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ١٤١ .

(٥) Torres Balbas, Arte his. mus., P. 498.

بالنسبة لقبة فيلافثيوسا ، ثم انها نوافذ ذات متكآت رخامية تعوق الضوء من النفاذ بنفس القدر الذي تتيحه نوافذ قبة فيلافثيوسا . وعلى هذا الاساس فان هذه القبة التي يشير اليها ابن النظام تستحق عن جدارة هذا الاسم « قبة الضوء » . ولكن الادريسي يطلق على قبة المحراب اسم القبة الكبرى^(١) على الرغم من انها تقوم على اسطوانتين ، في حين تقوم قبة الضوء على ثلاثة اساطين . ويتفق عدد كبير من المؤرخين العرب على تسمية قبة المحراب بالقبة الكبرى ، منهم ابن سعيد الذي يسميها القبة الكبرى التي فيها المصاييف جبال المقصورة^(٢) ، وابن غالب . ويسميها القبة العظمى التي كانت تعلق فيها الثياب الكبيرة التي تحمل ١٠٢٠ كاسا^(٣) ، وهي اكبر ثريات الجامع واضخمها^(٤) . والظاهر ان الادريسي وابن سعيد وابن غالب قد سموها بالقبة الكبرى لانها القبة التي تقوم امام اسطوان المحراب ، انبل بقعة في المسجد الجامع واشرفها ، بل واكثرها اهمية ، والموضع الذي يؤم صاحب الصلاة المسلمين ، ويقف على المنبر للخطبة ، والمكان الذي يتخذ الخلفاء للصلاة ، والبقعة الطاهرة التي تطالع فيها آيات القرآن ، ولهذا السبب قلت فتحاتها ونوافذها واستعوض عن ذلك بالزخرفة الزاهية التي تأخذ بمجامع القلوب ، وزودت بأضخم ثريات الجامع لتزويدها بالضوء . اما ابن عذارى فيسمى قبة فيلافثيوسا او القبة الكبرى المخزومة باسم « القبو الكبير » الذي يصطف المؤذنون امامه يوم الجمعة للاذان ، ويصفه بأنه من أعجب البنيان^(٥) . ولا شك أن اختيار هذا الموقع بالذات للاذان بداخل الجامع كان موقفا لان هذه القبة تتوسط بيت الصلاة تقريبا ، ومنه يسهل انتشار صوت المؤذن الى باقي بلاطات الجامع .

(١) الادريسي . وصف المسجد الجامع بقرطبة ، ص ٢ .

(٢) المقرئ . ج ٢ ص ٨٩ .

(٣) ابن غالب . ص ٢٩ .

(٤) المقرئ . ج ٢ ص ٨٩ .

(٥) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤١ .

كذلك وصل الينا بوصف لمسجد قرطبة وقبابه ، كتبه ابو محمد ابراهيم بن صاحب الصلاة الوليني ، وجاء في وصف القباب عبارة نصها : « وظهر القباب مؤللة ، وبطونها مهللة ، كأنها تيجان رصع فيها ياقوت ومرجان »^(١) . هذه العبارة تعبر تعبيراً قوياً عن حقيقة بنية القباب من الداخل والخارج على نحو يشير الى اعجاب ، ولا شك ان الكاتب قد شاهد العنق المثلث الذي تقوم عليه القباب من الخارج وقد فتحت فيه متكآت الرخام وبأعلاه سطح مدب من ثمان اوجه بدلا من الشكل المنشوري او الهرمي العادي ، فتبدو ظهور القباب على هذا النحو « مؤللة » أي مدببة^(٢) ، كذلك شاهد الكاتب جوف القباب فألفاه مكونا من الضلوع البارزة التي تتخذ اشكال عقود منقوخة متقاطعة فيما بينها ومؤلفة الهيكل الذي تقوم عليه كسوة القبة ، تاركة في المركز فراغ مثلث الشكل تشغله قبيبة مفصصة . هذه الضلوع البارزة يشبهها الكاتب بالاهلة وهو تشبيه بارع توصل اليه الكاتب وعبر به عن حقيقة ما شاهده تعبيراً واضحاً ودقيقاً في آن واحد . وحول هذه الضلوع شاهد زخارف من الفسيفساء المذهبة وقواقع زخرفية ونجوم منقوشة ، فبدت بطون القباب وقد تهلتت اي تزاوجت فيها الاهلة (ويمكن فهم تهلتت على انها اشرفت) كأنها تيجان رصع فيها ياقوت ومرجان . وكانت قباب المقصورة الثلاثة مذهبة على حد قول الحميري^(٣) ، وان كان التذهيب في الوقت الحاضر لا ينطبق الا على قبة المحراب وحدها .

ولما كانت القباب تتطلب دعائم ضخمة لتلقى الدفع الذي تمارسه ، وهي مهمة تحتاج الى ركائز ضخمة لا يمكن ان تقوم بها الاعمدة الرفيعة ، فقد كان من الطبيعي ان يفكر المهندسون في حل لهذه المشكلة تكفل

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٩ - ٩٢ .

(٢) الل الشيء اي حدد طرفه (لسان العرب لابن منظور، ج ١٣ ص ١٢٤)

(٣) الحميري ، ص ١٥٧ .

تحقيق الدعم المطلوب مع تجنب اقامة دعائم او ركائز عند المتصورة لان وجود هذه الدعائم المفترض اقامتها من شأنه ان يقطع وحدة نظام التدعيم المعماري في المسجد ، ويفسد المظهر الجبالي الذي يسود بيت الصلاة ، ويحجب رؤية القبلة عن انظار المصلين مع انها اجمل واروع عناصر الجامع المعمارية والزخرفية معا . ونجح المهندسون القرطبيون في حل المشكلة على نحو اصيل ، ففي كل من الركنين الامامين للاسطوان المزدوج الذي ترتفع عليه قاعدة قبة المحراب ، ركز المهندسون عمودين بدلا من عمود واحد ، ونصبوا في الفراغ القائم بينهما عمودين آخرين في الواجهة الشمالية وعمود في كل من الجانبين القصيرين من جوانب الاسطوان المزدوج ، وامكن لهذه الاعددة ان تحلل طابقين من العقود : الادنى من النوع المفصص (ذي الخمسة فصوص) . والاعلى من النوع المنفوخ ، وحرصا على تشبيك الطابقين اوصل المهندسون بينهما بنحور تستد من رؤوس العقود المفصصة السفلى يسيرا لتلتحم بيطون العقود العليا مؤلفة بذلك تشبيكا متناسكا ، يسهل بواسطته توزيع الضغط الذي تسارسه القباب توزيعا يجنب تركيزه على الاعددة . ولما لم يكن من الضروري بالنسبة لقبة مصلى فيلافثيوسا اقامة دعائم ، فقد أقاموا في الاركان اربعة اعمدة مصلبة ساعدت على دعم قاعدة القبة ، وساهم في ذلك عمودان متوسطان وعقد المدخل الى زيادة الحكم ، وهو عقد مزدوج مفتوح في الجدار الضخم الذي اقامه الحكم ، وحرصا على استقرار القبة على قاعدة ثابتة قوية وتوزيع دفعها توزيعا مريحا مع تجنب اي تركيز في الثقل او الضغط قد يؤدي الى تصدع القباب وانهارها ، ركب المهندسون في هذه القبة ايضا عقودا مفصصة اخرى ونحورا رابطة بحيث تألف من ذلك شبكة معقدة متداخلة حلت مشكلة التدعيم حلا مرضيا واصيلا . ويعلق الاستاذ توريس بلباس على ذلك بقوله : « ان المهندس الذي ابتكر في النصف الثاني من القرن الثامن البنية الاصلية التي يعبر عنها نظام طابقي العقود المتراكبة ، والعقود السفلى المنطلقة في الهواء المتحررة من كل تحلل

لضغوط السقف والسطح المقرمد ، هذا المهندس البارع خلفه بعد مائتي عام مهندس طور الموضوع ، وعقد في شكل العقود ، فشبكها ، ورفع فوق نظام التدعيم الضعيف قواعد ضخمة ثقيلة ، تتوجها قباب من الحجر ، كل ذلك في براعة فنية يؤديها بناء ، وحساسية مرهفة يعبر عنها فنان « (١) » .

وتقوم القباب على عقود نصف دائرية بارزة من حجر منجور ، تتقاطع فيما بينها مؤلفة اشكالا نجمية مضلعة ، مع ترك فراغ في الوسط مشن الشكل في القباب الثلاث المتجاورة بالمقصورة ومربع الشكل في قبة الضوء ، تشغله قبيبة مفصصة ، ويعطي الفراغات الواقعة بين العقود المتقاطعة والمتخلقة من التقاطع كسوات حجرية تختلف في مستوياتها ، وتطبق في هذه الفراغات في جميع القباب باستثناء قبة المحراب التي كسيت بالفسيفساء قبيبات دقيقة وقواقع ومحاربات مفرغة ومضلعة ، وزخارف نباتية بارزة واشكال نجمية وصور مصغرة لقبيبات دقيقة قائمة على الضلوع ، وتتمثل هذه القبيبات المضلعة في قبة الضوء بسلي فيلافيوسا ، وهي القبة الوحيدة التي تظهر فيها العقود البارزة بلا طلاء يعطي سنجاتها . ونلاحظ ان القاعدة المربعة تتحول في القباب الثلاثة بمقصورة الجامع تجاه المحراب الى طابق مشن عن طريق جوفات مقوسة تشغل الاركان الاربعة للقاعدة ، وجوفات القبة الوسطى او قبة المحراب تعلو كل منها قبة مضلعة معقودة بعقد خماسي الفصوص ، في حين تتألف في القبتين المجاورتين لقبة المحراب من محاربات مضلعة عقدت من اعلى بعقود منفوخة . وتتوسط جدران قواعد هذه القباب الثلاثة عقود زخرفية ، تعلوها في قبة المحراب عقود منفوخة وفي القبتين المجاورتين لها عقود خماسية الفصوص . وبعد ان تتحول القاعدة المربعة الى قاعدة مشنة نلاحظ انه يشغل كل ضلع من اضلاع هذه القاعدة نوافذ مفتوحة بها متكآت رخامية مشبكة ، وينطبق ذلك فقط على القبتين المجاورتين لقبة المحراب ، اما هذه القبة الاخيرة فلا

يفتح فيها سوى نوافذ اربعة فقط . وتنت من كل من حدائر العقود الثمانية التي تشغل عنق كل من القبتين الجانبيتين ضلعان بارزان قطاعهما مستطيل الشكل ، يقومان على عمود واحد ، (وعلى عمودين في قبة المحراب) ، وتتقاطع هذه العقود فيما بينها مؤلفة فراغا مشنا ترتكز عليه قبة مضلعة او مفصصة ، ويعطي قبة المحراب كلها كسوة من الفيسفاء المذهبة تتخذ زخارف نباتية واخرى هندسية شطرنجية ، تسلا فصوص القبوة المركزية وتغمر الضلوع وما بينها ، وكتابات تدور بقاعدة القبوة المفصصة المركزية . أما قبة مصلى فيلافثيوسا القائمة على الاسطوان الذي يمثل مدخل زيادة الحكم في الجامع فتقوم على قاعدة مستطيلة الشكل طولها ٨,٣٥ مترا وعرضها ٧,٣٥ مترا ، ويتألف من تقاطع ضلوعها مربع مركزي تتوسطه قبوة مضلعة . ويقع بين منابت العقود المتقاطعة ١٦ نافذة ، اربعة في كل جانب (١) .

وقد بحث مؤرخو الفن في اصل القبوات ذات الضلوع المتقاطعة ، ولكنهم لم يمتدوا الى مثل واحد اقدم في تاريخه من امثلة قباب جامع قرطبة ، ولكنهم اهتموا الى امثلة متأخرة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر (الميلادي) في العراق وفي ايران ، وكلها من الآجر . اما المثل الحجري الوحيد للقباب القائمة على الضلوع المتقاطعة او المتشابكة في قرطبة فيتمثل في كنيسة أشبسط الواقعة بشمال ارمينية . ولكن قباب اشبسط ترجع الى تاريخ متأخر كثيرا عن قباب قرطبة ، فبينما يرجع تاريخ انشائها الى سنة ١١٨٠ م نجد تاريخ انشاء قباب قرطبة لا يتجاوز سنة ٩٦٥ م . وهناك من يرجع اصل قباب قرطبة الى قبوات الضلوع بجامع اصفهان الكبير ، ولكن هذه القبوات لا يمكن ان تتخذ مصدرا لقباب قرطبة لعاملين: الاول انها تعرض نظاما اوليا للضلوع المتقاطعة ، يشبه الى حد ما نظام

(١) Torres Balbas, La mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, PP. 54-60 — Arte hispano musulman, PP. 498-528.

جومث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ١٤٥ .

القباب القرطبية ولكنه لا يعد اصلا له^(١) . والثاني انها ترجع الى القرن الحادي عشر الميلادي ، مما يحملنا على القول بان قرطبة هي التي مارست تأثيرها على القباب الشرقية . ويعتقد الاستاذ لامير ان اصول قباب قرطبة وقبوات ارمينية لا بد ان تكون واحدة ، وانها قد تكون في احدى المقاطعات البيزنطية او الساسانية بآسيا ، كما استطاع ان يلاحظ وجود تقارب واضح المعالم بين انفصال الضلوع في قباب جامع الزيتونة بتونس وبين نظائرها المتقاطعة في جامع قرطبة على الرغم من أن ضلوع هذه القباب التونسية المشعة من مركز القبة لم تصل يعد الى المرحلة التي تنفصل فيها عن غطاء القبة ، وان كانت في الوقت نفسه اكثر بروزا من ضلوع قبة المحراب بجامع القيروان^(٢) .

وقد انتقل نظام التقيبب القرطبي القائم على تقاطع الضلوع من قرطبة الى طليطلة ، فنراه ممثلا في صور مختلفة في مسجد الباب المردوم . ونشاهد في قباب هذا المسجد ما يمثل شكلا رباعيا منحرفا ذا قطرين متقاطعين يؤلفان ما يشبه قبوتين متداخلتين من الطراز القوطي ، ومنها ما يبدو على شكل مشمن ، ومنها ما يقلد تقاطع ضلوع قبة المحراب بجامع قرطبة ، واخرى تمثل اشكالا نجمية مشمنة الرؤوس . ثم انتشر استعمال القباب ذات الضلوع منذ ذلك الحين انتشارا كبيرا يشهد به ذلك العدد الهائل الذي نراه في الكنائس المسيحية بطليطلة مثل قبة مصلى بيلين في دير سانتافي ، وقبة مسجد المسلمين بالدباغة المعروف بلاس تورنيرياس بطليطلة^(٣) ، وكانت قبة مصلى قصر الجعفرية بمرقسطة قائمة على الضلوع . وظل استخدام القباب ذات الضلوع المتقاطعة منتشرا في الاندلس والمغرب

(١) Torres Balbas, Arte hispano musulman, P. 521-524.

(٢) Lambert, Les coupôles des grandes mosquées de Tunisie et de l'Espagne, au IXe et Xe siècles, Hesperis, t. XXII, fasc. II, 1936 — Lambert, L'architecture musulmane au Xe siècle, Gazette des Beaux arts, t. XII, 1925

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، مسجد المسلمين بطليطلة . مجلة كآبة الاداب : جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

حتى ظهرت القباب المقرنصة في عصر دولتي المرابطين والموحدين • ومن قباب قرطبة وطليلة تشعت الفكرة وسرت في العمارة الرومانية الاسبانية والفرنسية ، فطغت على نظام التقبيب المصلب في المزان بقشتالة ، وقبوة مصلى توريس دل ريو بنبرة ، وبرج دير موسالك ، وقبوة اولورون وقبوة اوسيتال سان بليز بفرنسا^(١) •

(٥)

الابواب والنوافذ

كان جامع قرطبة الذي اقامه الامير عبد الرحمن الداخل يشتمل على خمسة ابواب : ثلاثة منها تفتح على الصحن (واحد في كل من الاسوار : الشمالي والشرقي والغربي) ، واثنان في بيت الصلاة (احدهما في الشرق والآخر في الغرب) • ثم اضاف هشام للجامع بابين للسقيفة الجوفية الملحقة ببيت الصلاة من طرفيها الشرقي والغربي، وفتح عبدالرحمن الاوسط في زيادته الثانية بابين : احدهما في الجدار الشرقي والثاني في الجدار الغربي من جهة القبلة • اما الناصر قييدوا انه فتح بابين يشرعان الى الصحن بعد ان قام بتوسعته ، احدهما في الجدار الشرقي والآخر من الغربي ، ثم فتح الحكم في زيادته ثمانية ابواب اربع في كل من جانبيه الشرقي والغربي ، كما فتح في الجدار القبلي مسايلي المحراب غربا بابا يشرع الى السباط ، واصبح مجسوع عدد ابواب الجامع بعد زيادة الحكم فيه عشرين بابا • ولما جرى المنصور زيادته الكبرى في جامع قرطبة هدم الجدار الشرقي ، واطاف لبيت الصلاة ثمان بلاطات بطول الجامع ، ثم

(١) السيد عبد العزيز سالم . المساجد والقصور في الاندلس . ص ٤٠ - ومقال بعنوان التأثيرات المعمارية في الاندلس ، دائرة معارف الشعب . عدد ٦٤ ، ص ١٧٤ •

فتح في الجدار الشرقي الجديد عددا من الابواب يماثل عدد ابواب الواجهة الغربية ، ثم فتح بابا في الجدار الشمالي ، فاصبح المجموع الكلي لابيواب الجامع ٢١ بابا ، وهو رقم اورده المقرئ نقلا عن ابن بشكوال^(١) ، واعتقد ان هذا الرقم هو اصح الارقام التي اوردها المؤرخون الآخرون^(٢) . والى هذا العدد يمكن ان نضيف ثمانية ابواب كانت تفتح في الساباط ، وبابا للمخزن الواقع الى يسار المحراب ، ثم الباب المتخلف من جدار الزيادة الحكيمة الشرقي مما يلي جدار القبلة ، واخيرا ثلاثة ابواب بالمقصورة . وكانت جميع الابواب الخارجية وفقا لما ذكره الادريسي « مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس ، وفي كل باب منها حلقتان في نهاية الاتقان ، وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفص المتخذ من الآجر الاحمر المحكوك انواع شتى واجناس مختلفة من الصناعات والترييش وصدور البزاة »^(٣) .

هذا الوصف الرائع هو اقرب الى أن يكون وصفا لمؤرخ معاصر للفن ، فالادريسي لم يترك الدقائق الزخرفية البسيطة دون ان يصفها ، فقد اشار الى الفسيفساء التي تزين واجهات الابواب والتي تقوم على ترصيعها بقطع من الآجر الاحمر الاملس مع قطع من الحجارة البيضاء في اشكال هندسية ،

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٨ .

(٢) ذكر ابن غالب ان عدد ابواب الجامع بعد زيادة المنصور ١٧ (واعتقد انه استبعد من المجموع الكلي بابا سقيفة هشام وباب القبلة) . وذكر كل من الادريسي وابو حامد الفرناطي ان عدد الابواب بعد زيادة المنصور بلغ عشرين (ولعلهما لم يحتسبا الباب الشمالي الصغير او الباب المؤدي الى المشرق للساباط) .

(٣) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة ، ص ١٠ . ويذكر ابن سعيد ان هذه الابواب كانت ملبسة بالنحاس الاصفر (المقرئ ، ج ٢ ص ٨٨) ، ويذكر المقرئ ان في كل باب منها حلقة متقنة الصنعة (ج ٢ ص ٩٥) بينما يذكر ابو حامد الفرناطي نقلا عن الادريسي ان في كل باب حلقتان في نهاية الصنعة ونميل الى الاخذ بقول الادريسي استنادا الى ما نشاهده اليوم في باب الغفران .

الى جانب الزخارف النباتية التي تملأ بنقبات العقود وتغمر السنجات والاعتاب وطرر العقود ، وما بين العقود العليا والجانبية ، ويشبهها بالتريش وصدور البزاة • وكانت ابواب الجامع تفتح بين زوج من الركائز ، ونلاحظ ان ابواب الزيادة الحكيمة تتميز بالضخامة ، والشراء الزخرفي ، فواجهاتها جميعا مكسوة بالزخارف النباتية والهندسية • ومع انه لم يتبق من هذه الابواب سوى ثلاث في الواجهة الغربية ، الا انه تبقت مع ذلك عقود في مخلفات الجدار الشرقي ، احدها باب وصل الينا كاملا في نهاية الواجهة الشرقية مما يلي القبلة ، زود عقده بعقب مسنح يعلوه عقد مخفف الضغط ، يقتصر تسنيجه على الثلث الاعلى من دائرة العقد ، بينما يغطي الفراغ الجانبيين زخارف رائعة قوامها التوريقات والتكوينات النباتية التي تتألف من فروع لولبية مستديرة تتصل فيما بينها اوراق مختصة من الاكنس • وتتوسط هذه الاكاليل المستديرة ورقة نباتية من ثلاثة فروع مشدوخة من الوسط • ويتناوب في العقد سنجات حجرية نقش فيها توريقات نباتية مع اخرى من الآجر ذات اربعة قوالب مصفوفة على جوانبها • اما طلبة العقد فتكسوها زخرفة هندسية من اشربة حجرية متعرجة ، تتناوب مع اخرى من الآجر ، أما سنجات العتب المكمل لطلبة العقد فتغطيها زخارف شبيهة بزخارف سنجات العقد • ويغمر بنقبات العقد الرئيسي والعقود الخمسة المعلقة التي تتقاطع بأعلى الباب زخارف من التوريق • اما زخارف الطرة المحيطة بعقد الباب فشطرنجية مرصعة بفصوص الحجر والآجر • ولعل هذه البوابة كانت تتوجها من اعلى شرفات مسننة على مثال باب المكتبة بجامع القيروان^(١) • ويكتف الاواب الاخرى التي تفتح في الواجهة الغربية من كل من الجانبيين جوفة مستطيلة لها عتب مسنح ، بأعلاها عقد مغلق خاسبي الفصوص : تكسوه زخارف هندسية من السيفساء ، وتملأ بنقتي العقد توريقات تتوسطها زهرة

Gomez Moreno, *Ars Hispaniae*, P. 150 — Marçais, *l'architecture musulmane d'occident*, P. 169.

بارزة ، ويعملو الباب من اعلى نوافذ مغلقة تعلوها عقود منقوشة قائمة على عمد ، وتتقاطع هذه العقود فيما بينها ، وتحشد في ارضية النوافذ المغلقة وبنيات العقود وطررها وظهورها زخارف هندسية ونباتية .

ومن الجدير بالذكر ان هذه الابواب جميعا تحتفظ بنفس نظام باب سان استييان ، وان سنجاب عقود الابواب الغربية كاملة بعكس نظائرها في الجدار الشرقي الذي يرجع الى عهد المنصور . وتتبع ابواب هذه الجدار الشرقي في اسلوبها ابواب الجدار الغربي ، ولكن زخارفها ليست في مثل زخارف ابواب الحكم من حيث خطوط الزخرفة ومن حيث نسبها ومن حيث طريقة ادائها مما يدل على اضمحلال واضح في فن الزخرفة والبناء في عصر المنصور . ولقد وصلت الينا ابواب زيادة المنصور مشوهة ، لا سيما في اجزائها العليا ، فرمت في طليعة هذا القرن ترميما غير علمي بعدها عن اصولها (١) .

أما نوافذ الجامع فيصفها الادريسي ، دون ان يشير الى عددها ، فيذكر انه « فيما استدار بالجامع من اعلاه لتمدد الضوء ودخوله الى السقف متكآت رخام ، طول كل متكأ منها قدر قامة في سعة اربعة اشبار في غلظ اربعة اصابع ، وكلها صنع مسدسة ومثثة مخرمة منفوذة لا يشبه بعضها بعضا » (٢) . اما ابن غالب فيذكر اعدادها بقوله : « عدد الواح الرخام المنصوبة في الحيطان لدخول الضياء عليها اربعة وخمسين لوحا ، وفي الجهة الشرقية منها خمسة عشر لوحا ، وفي الغربية مثلها ، وفي القبلة منها ثمانية عشر لوحا ، وفي الساباط الذي يدخل منه ساكن القصر الى الجامع ستة ألواح » (٣) ، ولكنه لا يذكر شيئا عن المتكآت المنصوبة بعنق القباب الاربعة ، وتتميز هذه المتكآت - وبعضها من الرخام والبعض من

Gomez Moreno, *Ars Hispaniae*, P. 162 et sqq. — Torres (١)
Balbas, *Arte hispano musulman*, PP. 575-578.

(٢) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة ، ص ١٤ .

(٣) ابن غالب ، ص ٢٩ .

الجص - بزخارفها الهندسية وقوامها الدوائر والمربعات والنجوم مشنة الرؤوس ، ويلاحظ ان متكآت القباب اقل حجما من متكآت الجدران . ويعتقد الاستاذ كلاوس بريش ان متكآت الرخام في الواجهة الشرقية من الزيادة الحكيمة كانت تشبه نظائرها في الواجهة الغربية^(١) ، كما يذكر ايضا ان عدد المتكآت الحالية ثلاثون ، منها واحدة انقسمت الى قسمين ، ولكنه يعتبرها واحدة ، ومنها احدى عشرة حديثة ، وتسعة عشرة اصلية ، وكل هذه المتكآت من الرخام الابيض^(٢) ، وتغلب على زخارفها العناصر الهندسية ، وان كان بعضها يزدان بعناصر نباتية ، مع ملاحظة ان زخارف متكآت الزيادة الحكيمة اكثر زخارف المتكآت تعقيدا وغلوا في الحشد الزخرفي .

(٦)

واجهة المحراب

واجهة عقد المحراب وعقدي البابين المجاورين شرقا وغربا :

يذكر المقرئ تقلا عن صاحب كتاب مجموع المفترق ، ان جدار المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب على القسيفساء^(٣) . ويذكر الادريسي ان هذا الجدار يكتظ بالنقوش والرقوم التي يعجز الواصفون عن وصفها^(٤) . والواقع أن وجه المحراب والعقدين المجاورين له قد كسا بالزخارف الرائعة من نباتية وهندسية وكتابية تبهز الناظر اليها بكثرةها

(١) Klaus Brish, las celosias de las fachadas de la gran mezquita de Cordoba, al-Andalus, Vol. XXVI, 1961, P. 399.

Ibid., P. 400 (٢)

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٩٥ .

(٤) الادريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة ، ص ٦ .

وإنماقتها وتنوعها وتناسق توزيعها • فعقد المدخل الى المحراب منفوخ متجاوز يقوم من كل جانب على عمودين ، هما نفس العمودين اللذين كانت تزدان بهما كل من عضادتي محراب عبد الرحمن الاوسط ، اقتلعها مهندسو الحكم ونقلوها الى الزيادة الحكمية لتوضع في موضعها من المحراب الجديد • ويعطي الوجهين الرئيسيين من منكبي عقد المحراب كتابة كوفية في ثلاثة سطور مذهبة على ارضية حمراء ، تقرأ على المنكب الايمن النص التالي : « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق • أمر الامام المستنصر بالله عبدالله الحكم امير المؤمنين » ، وتقرأ على المنكب الايسر النص الآتي : « أصلحه الله مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رضي الله عنه بنصب هذين المنكبين فيما أسسه على تقوى من الله ورضوان ، فتم ذلك في شهر ذي الحجة سنة اربع وخمسين وثلاث مائة » (١) • ويؤزر جدار المحراب لصق عضادتي لوحان من الرخام الابيض حفرت فيهما زخارف من التوريقات الدقيقة حفرًا غائرًا عميقًا يبرزها كما لو كانت مفرغة على نحو ما نراه في المنمنمات ، وتعتبر هذه الزخارف من اروع امثلة فن النحت على الرخام في العصر الاسلامي • ويتألف عقد المحراب من سنجات طويلة تمتد حتى منكبيه ، وتغمرها زخارف نباتية من السيفساء متعدد الالوان • ويحدد دائرة العقد افريز بارز من الرخام يزدان بورقة نباتية متكررة ويحف بها مسبجة ، بينما يعلو العقد افريز مستطيل من الرخام يزدان بتوريقات بارزة • وبنيتا العقد من الرخام تكسوهما توريقات من فروع مستديرة ولولبية تتمثل فيها ورقة الاكنش ، ويحيط بالعقد طرة مستطيلة او تريعة ، تفصلها من اعلى عن الافريز الذي ذكرناه ارضية من السيفساء ، ويملا الطرة سطران من الكتابة الكوفية من السيفساء المذهبة على ارضية لازوردية يتضمنان تسجيلًا لتاريخ بناء التشييك الذي تقوم عليه القبة •

Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, P. 12. (١)

وبأعلى الشريط الأفقي بالطرة أفريز عريض بطول المحراب ، يزدان بسبعة عقود ثلاثية الفصوص مغلقة قائمة على ثمانية عمد صغيرة رشيقة ، تيجانها كورنثية . ويغطي سطوحها الفائرة الواقعة بين العمد فسيفساء تمثل زخارف نباتية ، وتنتهي الواجهة من أعلى بشريط بارز مكتظ بالزخارف المحفورة ، وعلى هذا الشريط البارز تقوم قاعدة القبة .

ويصف الإدريسي وجه المحراب وصفا يتفق مع الواقع بقوله : « ولهذا المسجد قبلة يعجز الواصفون وصفها ، وفيها اتقان يبهر العقول تبيينها ، وكل ذلك من الفسيفساء المذهب الملون ، مما بحث صاحب القسطنطينية العظمى الى عبد الرحمن المعروف بالناصر لدين الله الأموي ، وعلى هذا الوجه أعني وجه المحراب سبع قسي قائمة على عمد ، وطول كل قوس أشب من قامة ، وكل هذه القسي مزججة صنعة القرط^(١) ، قد أعيت الروم والمسلمين بغريب أعمالها ودقيق تكوينها ووصفها ، وعلى أعلى الكل كتابان مسجونان من بحر من الفسيفساء المذهب في أرض الزجاج اللازوردي ، وكذلك تحت هذه القسي ذكرناها كتابان مثل الأولين مسجونان بالفسيفساء المذهب في أرض اللازورد . وعلى وجه المحراب انواع كثيرة من التزيين والنقش »^(٢) .

والعقدان الجانبيان لعقد المحراب ابتكار قرطبي ، استحدثه مهندسو جامع الحكم المستنصر استكمالا للمظهر الجمالي للبناء والزخرفة ومراعاة للتناسق والانسجام بين جوفة المحراب وبين البابين المفتوحين على يمينه ويساره ، ويبدو العقدان الجانبيان كما لو كانا محرابين إضافيين ، وقد انتقلت هذه الفكرة الى العمارة الفاطمية واصبح جدار القبلة في المساجد الفاطمية بل وفي الأضرحة أيضا مزودا بمحاريب ثلاثة . ولكل من العقدین المجنبيين لعقد المحراب في جامع قرطبة عتب مسنح ، ولكنه مغطى في الوقت

(١) اي مفصصة .

(٢) الإدريسي، وصف المسجد، ص ٦ - نزهة المشتاق، ص ٢٠٩، ٢١٠

الحاضر ، ويعلو العتب عَقد يماثل عقد المحراب ، ويملا وجه العقد وبنيتيه زخارف نباتية من القسيفساء متعدد الالوان ، وتجبط به خمسة افاريز الثاني والرابع منها تشغله كتابة كوفية ، والثالث والخامس تحتشد فيه زخارف هندسية . وتتوسط طرة المحراب من اعلاها نافذة مستطيلة الشكل نصبت فيها لوحة مخرمة حديثة . وقد تعرض الجزء العلوي من الطرة لاصلاحات أفستت صورتها القديمة وشوهتها ، ويحيط بالنافذة ثلاثة أشرطة من القسيفساء ، تملأ الاوسط منها كتابة . أما العقد الايسر فقد كان مختلفيا وراء لوحة مصورة ومذبح ، فلما أزيل ظهر العقد مشوها قد فقد معظم عناصره الزخرفية ، فرم سنة ١٨١٦ ، على مثال العقد الايمن للمشرع الى السباط ، ونسخت نفس النقوش الكتابية التي سجلت حول العقد الايمن . ويعلو كل من العقدين الجانبيين لعقد المحراب بأعلى النافذة عقد كبير منفوخ بارز ومسنح في ثلثه العلوي ، وتتميز سنجاته بأنها متعاشقة ، ويقوم العقد على عضادتين ، ويعتقد الاستاذ تراس بأن أصل هذا النوع موجود في العمارة البيزنطية ، وأنه استخدم من قبل في كل من جامعي دمشق والقيروان (١) .

أما المحراب فيعتبر أجمل العناصر المعمارية والزخرفية في الجامع ، فقد اهتم به مهندسو الحكم المستنصر اهتماما خاصا ، وحشدوا في حنيته وعلى واجهته وأمام أسطوانته وفي بلاطه وأسكوبه كل أنواع الزخارف التي أثارت إعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء . ويذكر ابن غالب أن « طوله من القبلة الى الجوف ثمانية أذرع ونصف ، وارتفاع قبوه ثلاثة عشر ذراعا ونصف ذراع » (٢) . ويتفق ابن سعيد مع ابن غالب في هذه المقاييس فيذكر أن « ذراع المحراب في الطول من القبلة الى الجوف ثمان أذرع ونصف ، وعرضه من الشرق الى الغرب سبع أذرع ونصف ، وارتفاع قبوه في السماء ثلاث عشرة ذراعا ونصف » (٣) . وتخطيط المحراب على

Terrasse, l'art hispano mauresque, P. 111. (١)

(٢) ابن غالب ، ص ٢٨ .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٩٧ ، ٩٨ .

شكل مشن منتظم ، وهو المثل الوحيد في العمارة الاسلامية بهذا التخطيط ، وقد أثر محراب قرطبة في شكل محراب المرية الذي تحولت أركانه الاربعة الى مشن عن طريق جوفات ركنية مقوسة^(١) . ومحراب قرطبة مفرغ في كتلة ضخمة من البناء ويظهر موضع المحراب من الخارج بواسطة مستطيل ناتئ عن الجدار يبدو كأنه ركيزة مطولة . ويعطي ازار المحراب من الداخل لوحات ملساء من الرخام المجزع ، يعلوها شريط بارز من الرخام نقش فيه كتابة كوفية بارزة نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين ، أمر الامام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين أصلحه الله بعد عون الله فيما شيله من هذا المحراب بكسوته بالرخام رغبة في جزيل الثواب وكريم المآب ، فتم ذلك على يدي مولاه وصاحبه جعفر بن عبد الرحمن رضي الله عنه بنظر محمد بن تميم وأحمد بن نصر وخالد بن هاشم أصحاب شرطته ، ومطرف ابن عبد الرحمن الكاتب عبيده في شهر ذي الحجة من سنة أربع وخمسين وثلاث مائة ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور »^(٢) . ويعلو هذا النقش رف بارز من الرخام يدور حول جوفة المحراب ، ويستند على مساند مزينة بتوريقات محفورة حفرًا غائرًا على أسلوب أوراق التيجان ، ويجري تحت هذه المساند مسبحة حباتها بارزة ، وبين المسند والمسند كتابة بارزة في اطار ، تقرأ في الاطارين الواقعين الى اليمين « عمل فتح وطارق » ، وفي الاطارين الواقعين الى اليسار « عمل نصر وبدر » . ويعلو المساند المذكورة افريز من الكتابة الكوفية تتضمن آية قرآنية . ويزدان كل وجه من الالوجه الستة للمحراب من الداخل بأعلى الرف البارز بعقد مغلق من ثلاثة فصوص يقوم على عسودين من الرخام ، ويتناوب في العقد سنجات ملساء وأخرى مزينة بتوريقات ، ويعطي عضادتي العقد وبنيتيه وتربيعة توريقات محفورة في

(١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Esp., PP. 10, 11.

البحر تشبه التوريقات المحفورة في اللوحين الرخاميتين اللتين تكتنان عقد المحراب من الخارج^(١) . ويرى الاستاذ توريس بلباس أن أثر اليد العاملة البيزنطية واضح كل الوضوح في الرف البارز وفي زخارف للسائد وفي المسابح الزخرفية اذ تشهد مثيلا لها في كنائس القسطنطينية مما يقطع بأنه لم يصل الى قرطبة صناع حافقين لزخرفة القيسفاء فحسب بل فنانون وقاشون ونحاتون^(٢) .

ويملو جوفه المحراب « خصة رخام قطعة واحدة مشبوكة محفورة منقطة بأبدع التميح من الذهب واللازورد وسائر الالوان »^(٣) . وقد وصف ابن غالب الاندلسي المحراب وصفا تفصيليا كاملا جاء فيه : « سقف القبو من رخامة بيضاء منقورة بالعديد على صفة المعارة قد أحكمت وأخرت في موضعها بأحسن صنعة ، وهو مشن البنيان من داخله ، مكسوة جوانبه بشبالية ألواح من الرخام طول كل لوح منها . . . الثمين الذي انطبق فيه ثمانية أذرع تامة ، عرض الستة منها ستة أشبار ، وعرض اللوحين الباقيين ثلاثة أشبار الى موضع الرف المستدير على رؤوس الألواح المعمول بالرخام ، وأرضه مفروشة بالرخام الأبيض ، في عتبة بابه لوح رخام أبيض يسكه ما بين عضادتيه ، وما تحت سوارى العضادتين ، طوله اثنا عشر شبرا ، وعرضه أربعة أشبار ، وجدار المحراب وما يليه قد أجري فيه النصب على القيسفاء »^(٤) .

كذلك وصف أبو ابراهيم محمد بن صاحب الصلاة الربيني محراب الجامع عند حضوره لمشاهدة الاحتفال بيلة القدر بقواء : « قد قوس منحربا أحكم تهويس ، ووثم بمثل ريش الطراويس ، حتى كأنه بالمجرة مقرطق ، وبقوس قروح منطلق ، وكان اللازورد معول وشومه وبين رسومه ، تنف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلال الحمام »^(٥) .

Torres Balbas, *Arte hisp. de musulman*, P. 537. (١)

Ibid. (٢)

(٣) الأدريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة ، ص ٨ .

(٤) ابن غالب ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٥) الأقرى ، ج ٢ ص ٩٠ - ٩٢ .

(تم الجزء الاول)

قائمة بالاصطلاحات الفنية الواردة في الكتاب وتفسيرها

العقد : هو القوس أو حنية تتخذ اما شكلا نصف دائري أو نصف دائري تجاوز القطر أو نصف دائري منكسر من أعلاه أو مقصوفا أو مفصفا •

افريز : شريط زخرفي بارز يتخذ قطاعا مستطيل الشكل قد يمتد مستقيما أو ينحني حول دائرة العقد • وتحفظ اللغة الاسبانية باللفظ العربي ، فالاصطلاح يقابل بالاسبانية كلمة Alfiz •

ازار : افريز زخرفي يدور عادة حول الجزء الادنى من الجدار ، والاصطلاح كما يبدو مشتق من المصدر « أزر » ، ويقابل بالاسبانية لفظة Alizar •

شرفات الجامع : الفتحات التي تتخلل الجدار العلوي من سور الجامع أو سور المدينة ، وتتعاقب الشرفات في العادة مع الدراوي التي يحتمي خلفها المدافعون عن الاسوار الحربية من سهام العدو التي يفوقها اليهم ، ويقابل الاصطلاح بالاسبانية كلمة Almenas •

بنيقتا العقد : الفراغان مثلثا الشكل المحصوران بين دائرة العقد والطرة المستطيلة ويقابل الاصطلاح بالاسبانية لفظة Albanega وبالفرنسية écoinçon •

سنبجات العقد : الكتل الحجرية التي تلتحم فيما بينها على شكل العقد مؤلفة في مجموعها دائرته ، والاصطلاح يقابله بالاسبانية Dovelas وبالفرنسية Claveaux •

عنب مسنح : كتل حجرية ملتصقة فيما بينها أفقيا توضع فوق فتحة الباب (بالاسبانية Dintel وبالفرنسية linteau) •

طرة العقد (أو التريعة) : الشريط البارز الذي يحيط بحنية العقد
ويتخذ عادة شكلا مربعا أو مستطيلا (بالفرنسية encadrement
وبالاسبانية arraba أو alfiz) •

التوريق : زخرفة نباتية متشابكة (بالفرنسية arabesques
وبالاسبانية ataurique) •

باتكة : صف من العقود المتصلة (بالفرنسية arcature
وبالاسبانية arqueria) •

سقائف : (جمع سقيفة) وهي أروقة مستقوفة (بالاسبانية Azarquifas
وبالفرنسية nefs أو galleries couvertes) •

كابولي : مسند يرتكز عليه بناء بارز أو عقد من العقود
(بالاسبانية modillon أو canecillo وبالفرنسية console) •

حنائر : (جمع حدارة) كتل من الحجارة مربعة الشكل أو على
شكل هرمي ناقص تملو تيجان الاعمدة وتتلقى العقود (بالاسبانية impostas
وبالفرنسية impostes) •

جانزة : كتلة من الخشب قطاعها مربع تمتد أفقيا في جانبي السقف
لتحمل الألواح المسطحة فيما بينها (بالاسبانية Jacena وبالفرنسية
Poutre-solive) •

عمادتا الباب : جانباه أو الدعامتان اللتان يكتنفانه (بالاسبانية
Jambas وبالفرنسية Jambages) •

كابولي ذو لفائف : مسند من الحجارة يحمل العقود ويزدان وجهه
بزخرفة على شكل لفائف حلزونية (بالاسبانية modillon de lobulo
وبالفرنسية modillon à copeaux) •

طبله العقد : فراغ يشبه مثلث بين استدارة العقد وفتحة الباب
(بالاسبانية timpano وبالفرنسية tympan) •

عتق القبة أو رقبته : المنطقة الواقعة بين القاعدة المربعة للقبة
والخوذة نصف الكروية وتظلها عادة نوافذ مشبكة (بالفرنسية
• (tambour

سقف هرمي أو منشوري : هيكل خشبي على شكل جملون
(بالاسبانية techo a dos aguas وبالفرنسية combles versants) •

وتر : عود من الخشب يمتد بين حدارتي عقدين وظيفته ربط
المقود فيما بينها (بالفرنسية tirant وبالاسبانية tirante) •

قوة التاج : طنف زخرفي يملو تاج المئود وتميل جوانبه الاربعة
نحو الداخل في انحناء مقعر (بالاسبانية cimacio وبالفرنسية
• (abaque

مناكات (جمع منكا) : التشابكات الزخرفية التي تملأ فراغ النوافذ،
وأكثر ما تكون من الرخام أو الجص (بالفرنسية jalousie d'une fenêtre
وبالاسبانية celosia) •

